السفير خليفة عباس العبيد

أشتات الذكريات

لفترة جاوزت الثمانين عاماً عبر دروب الحياة

مركز محمد عمر بشير
للدراسات السودانية



أشتـــات الذكريـــات
لفترة جاوزت الثمانين عاماً
عبر دروب الحياة

أشتـــات الذكريـــات

لفترة جاوزت الثمانين عاماً عبر دروب الحياة

خليفة عباس العبيد

مركز محمد عمر بشير
للدراسات السودانية

٥٧٠٣٥٢ - ١٥ - ٢٤٩ +   ت : ٥٦٦١٦٢

عنوان المركز :

مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية

جامعة أم درمان الأهلية

ص ب : ١٣٦٣

أم درمان - السودان

فاكس : ٥٧٠٣٥٢ - ١٥ - ٢٤٩ +   ت : ٥٦٦١٦٢

بريد إلكترونى : E-mail: mobcenter@sudanmail.net

رقم الإيداع : ١٦٨٢٢

• الإخراج الفنى والتصميم والطباعة



لدار عزة للنشر والتوزيع

٧٨٧٢٠٠ - فاكس : ٧٩٧٠٨٤

الخرطوم - السودان

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أرواح



الوالد الشيخ/

عباس العبيد



أبو الروح المربي

الشيخ/ قريب الله أبو صالح

وإلى كل من آخيت وزاملت وعرفت ومن لم أعرف في داخل السودان وخارجه من الرعيل الأول ومن نهج منهجهم ممن عاصرت عامة وإلى الأصفياء والأحباب الذين ورد ذكرهم في السياق بسكك الحديد ومحاريب العمل الخارجي والدبلوماسي خاصة .

وأخيراً وليس آخراً إلى من طوقوني بمنة إخراج هذا الكتاب إلى النور الجامعة الأهلية ومجلس إدارتها الموقر ومركز/ محمد عمر بشيرللدراسات السودانية وللإبنة مواهب مجذوب التي أحالت طلاسم المخطوط إلى مقروء، أهدي هذا الجهد المتواضع شاكراً وذاكراً ومقدراً ومعتذراً عن كل خطأ فيه.

خليفة عباس العبيد

الجيلي/ أكتوبر 2003م

تقديم

بقلم العميد/ حقوقي/ المصباح الصادق عبد القادر/ المحامي

نشأ خليفة عباس بالجيلي منحدراً من قبيلة الجميعاب، أبناء عمومة الجموعية. وهما من بطون الجعليين نسل العباس عليه السلام. (ود رحمة الزبير جميعابي، كان يكني نفسه بالزبير رحمة الجعلي إعتزازاً بالأصل الذي ينحدر منه الفرع) يقطن الجميعاب (غرب النيل) من الشيخ الطيب إلى الشهيناب والدشيناب ثم شرقاً الجيلي حتى ود رملي .. ويمتزجون مع العبدلاب (بالجيلي وقري) مصاهرة. أما بداية الجموعية فقرية سيدي الشيخ أحمد الطيب ود البشير وحتى إلى ما بعد جبل الأولياء (أساساً غرب النيل). أما في شرقه فيمتزجون مع المحس في جزيرة توتي والعيلفون – وكما هو معلوم فإن أصل المحس بالمنطقة في واوسي شمال الجيلي (بين الجيلي وود رملي) خلافة الشيخ إدريس ود الأرباب وهم أهل حبوبتنا آمنة بنت ود إسيد جدة جدي لأبي عبد القادر ود محمد ود عبد المحمود (أبو جديري) الذي تربطه صلة قوية بالزبير منذ صباه. وكان هذا مفتاح مصاهرة جدينا الطيب محمد عبد المحمود (سكرتير الباشا) والشيخ خالد محمد عبد المحمود بزواجهما من بنتي الباشا.

والد خليفة، الأستاذ الجليل الشيخ/ عباس العبيد الذي خلف من النشئ ما يذكره معلماً ممتازاً درس من الكتاب وحتى كلية غردون. تذكره تلك الأجيال التي غذاها بفيض علمه وفائض معرفته في المراحل التعليمية المختلفة. زامل الشيخ عباس العبيد والدي وكلاهما بدأ بالتدريس في أزمنة متقاربة. تخرج أبي في العرفاء التي كانت تابعة لكلية غردون والشيخ عباس من قسم المعلمين والقضاة بالكلية. وكان لوالدي صلة حميمة به ويناديه مناداة الأخوة لا العمومة، مما حداني بأن أخاطب إسم خليفة لا لعمومة ولكن وكأنه الأخ الأكبر.

لابد أن أذكر أن والدي والشيخ عباس أنشأ كل واحد منهم مترة في قريته – لا تزالان تحملان إسميهما رغم إمتداد رقعتيهما الزراعية وتطورها. ولعلم القارئ

أن المـــنطقة التي نشأ فيها خليفة بشرق النيل وغربه جاء فيها الفراس ورجال العلم والدين ومشائخ الطرق الصوفية – بدءاً بالشيخ الطيب ود البشير ثم الشيخ عبد القادر والفكـــي الأميـــن ود أم حقيـــن والفكي أحمد ود الطريفي والشريف يوسف الهندي والشيخ قريب الله وإبنه الشيخ الفاتح والأستاذ/ محمد سعيد العباسي والشيخ أبو شامة عـــبد المحمود. ومنهم ود رحمة الزبير والأمير عبد الرحمن صغير وغيرهم كثر ، جزاهم الله خيراً لما قدموه للقبيلة من جليل الأعمال ورفعوا شأنها منارة في السماء .

ســـيدي أحمـــد الطيـــب ود البشـــير جموعي والده البشير ود مالك جموعي ســـرورابي. والـــدة البشـــير "قرارة" سروراببة ويقول أهلنا الشيخ الطيب ود قراره كشأنهم في تسمية عظمائهم بإسم الوالدة. الفكي الأمين ود أم حقين والهندي ود شموم والفـــاتح ود آمنة (شيخ الفاتح). والدة سيدي أحمد الطيب آمنة بنت رحمة جميعابية شبرابية.

وقد أنجبت هذه المنطقة الفكي ود أحمد نور العلامة الذي درس عليه قواعد العربية الشيخ الطيب السراج، كما حكى لي الأستاذ الهادي أبو بكر رحمة الله عليه، والفكي ود أحمد نور جد أحمد وعبد القادر محمد الأمين أبو شامة. ومنزله بأم درمان قرب قصر الباشا بأبروف. وبالمناسبة كان الباشا يمتلك الأرض من أبروف وحتى كبري النيل الأبيض.

تحدث خليفة عن قريبه اليوز باشاحسن أفندي موسى جميعابي من الشهيناب. وكان قد اشترك وزميله الملازم بشير أفندي السروراببي في حملة دار فور تحت قيادة هدلستون باشا ، الذي كانت تربطه بهما علاقة حميمة مقدراً لهما بسالتهما أثناء الحملة مع بقية الصف والجنود من أبناء المنطقة.

زامل خليفة من أبناء المنطقة بالكلية جدنا السماني أحمد ناصر حفيد الفكي الأمين ود أم حقين. وكان ورعاً يؤم الطلبة في الصلوات ، كما أورد خليفة أن رئيس عنبره بالكلية كان عمنا العظيم زين العابدين ود كيران (من الجيلي) كابتن فريق كرة القدم. وقد سعدت به كثيراً عندما عمل معي باشكاتباً لسلاح المهندسين.

وكنت وقتها أركان حرب السلاح. كان منضبطاً كنشأة أبناء جيله متقناً لعمله رحمه الله رحمة واسعة. وتجده في حلقات الذكر بجامع الشيخ قريب الله أيام الجمع متحزماً "بكرابته" يقود الذكر مع أبناء العشرين. وخليفة الذي قاطع الرياضة وكرهها يقف في الصفوف الخلفية يهتز منتشياً مع كلمات الشيخ قريب الله ونفحات قنديل وحاج التوم رحمهم الله. وعلي أبا يزيد السوداني، الذي رافق خليفة من الشلال هو العم أبا يزيد الذي كان وكيلاً تجارياً للعم عابدين عوض بالقاهرة. وكان يكرم وفادتنا ويسهل نزلنا وخير رفيق لنا عند زيارتنا للقاهرة في السبعينات.

أبان خليفة قرابة والده بالشيخ قريب الله بن صالح بن الشيخ الطيب ود البشير. وللشيخ قريب الله أخ شقيق إسمه الشيخ زين العابدين وأخ آخر إسمه البشير ود أب صالح. والدته سرورابية عوضابية - رأيت أن أحاول ربط الأنساب في هذه المنطقة ما أمكن. وما وجدت من معلومات من بعض أهلنا الذين لا يزالون يختزنون الكثير في صدورهم عن مآثر أهلهم السابقين ويتحدثون عن بطولاتهم كقادة مع ملوك الفونج، وكفرسان مع الزبير ومع إبنه سليمان الزبير في شكا وديم زبير وغيرها من مناطق بحر الغزال ودار فور.

عنـــي الأســـتاذ عباس العبيد بأبنه خليفة ورعاه أفضل الرعاية. صحبه وهو ينشـــر العلـــم فـــي فيافي السودان وغفاره الواسعة. سافر معه على ظهور الجمال منســـدلاً مـــع والدته العطوفة في العنقريب داخل الهودج من الأبيض إلى النهود في غـــرب الســـودان لـــيدرس هناك. كان هذا شأن أبي عندما نقل إلى القلابات ناظراً لمدرســـتها الأولـــية وصـــحبته الحملة بالجمال من ود مدني إلى القلابات في رحلة تســـتغرق أربعة عشر يوماً. قطعوا البطانة إلى القضارف ومنها إلى القلابات - هذا هو جيل التضحيات.

خليفة الذي إنتهج نهج التعليم الأفرنجي وكان مبرزاً فيه، لم يكتف بذلك وتبع مســـيرة والده في تمكنه في اللغة العربية وإتقانه لها أدباً وشعراً. فقد وجدوا وأمثاله في ذلك الزمان تدريباً ممتازاً من الحكام البريطانيين تأهيلاً لهم ليديروا شئون البلاد

بــذات الكفاءة عند الإستقلال. فقد طلب من خليفة وهو موظف كبير أن يطوف كل قســم وكل محطة على خط السكة حديد ليقف على أحوال العاملين. دروس كان لابد أن تعيها الأجيال من بعدهم ولكن هيهات!..

كــان خليفة معتزاً برأيه عنيداً وعندما رافق والده إلى القاهرة مستشفياً وهو دون العشــرين، وصحبه محمد جميل الزبير باشا لزيارة خالته حفيدة السنوسي ملك ليبيا، وطلب منه أن يخلع نعليه قبل تحيتها وأن يقبل يدها، وبالطبع لم يستجب خليفة لذلك وحياها دون أن يخلع نعليه.

كشــفت هــذه المذكــرات مداخل وصفات عن الكاتب نجهلها ولا نعلمها ولم يسمعنا يوماً ولو في ساعة تجلي (في الضواحي وطرف المدائن وعزة في هواك.)

ويــبدو أنــنا ورغــم فارق العمر نشارك جيل خليفة ونطرب معه عندما نسمع تلك الأغانــي ونشــهد الأجــيال من بعدنا تسير في نفس الخطى يعشقون أغاني الحقيبة وأغانــي كــبار الفنانين بعد الحقيبة، عثمان حسين وحسن عطية وأحمد المصطفى والكاشف وغيرهم من فناني ذلك الزمان. ولو سئلت من هيئة الإذاعة لقلت لهم أكثر مــن ذلــك ولو على حساب برامج المداخلات التلفونية والمراسلات الكتابية وشريط الذكريات ...إلخ وغيرها وحسبي أن هنالك أعداداً لا بأس بها تشاركني الرأي.

وكــان وصفه لرحلة عودته إلى السودان من بريطانيا ممتعاً، خاصة وصفه لبركان إسترامبولي وهو يبعث حممه وقول الشاعر الأندلسي فيها:

ذكرت صقلية والأسى ... يلامس في النفس أغوارها

ولولا ملوحة ماء العيون ... حسبت دموعي أنهارها

في هذه المذكرات يستمتع القارئ بلغة عربية سلسة في أسلوب جزل وتعبير جمــيل ويقــابل ذلــك أبيات من الشعر الرصين رغم قلته تجعل المطلع يشتاق إلى حصــوله علــى الديوان مكتملاً إنشاء الله. وصف خليفة لبيت الفسقية بلندن THE FOUNTAIN HOUSE عجيــب. مدخله الفسيح الفخم المزينة جدرانه بالنقوش الزاهــية المــزدانة أسقفه باللمسات الفنية الأخاذة والمتدلية نجفاته وثرياته كالعناقيد

ويجلـــس مـــن وراء طاولة إستقباله المستديرة الفخمة حارس وموظف إستقبال بزيه المزركش الفضفاض وبزته المهيبة. وكانت الدار في ذلك الموقع المتميز رحبة جداً منسقة حسنة الترتيب والتنسيق مكتملة الإعداد حافلة بكل المستلزمات والأثاث الجيد. ولا أبـــالغ إذا قلت بأن الجناح الصغير المخصص للخدم فيها بسعته ومستواه الرفيع خليق بأن يرضي مطامح أي ساكن عادي. وهل أرضى هذا السكن مطامح خليفة؟ لم يرضـــه وقد تحدثت إليه وقتها من جنيف حيث كنت في مؤتمر هناك وقلت له أنني ســـوف أهاتفـــه من فندق هلم. وهو ليس ببعيد من مسكنه. وعندما تم ذلك أتى إليَّ بالفندق وحلف بالطلاق أن أعتذر لإدارة الفندق التي كنت زبوناً لها. وقال لي جازماً أنـــه وهـــو بلـــندن لا يسمح لي بالسكن في أي مكان وإعتذرت لإدارة الفندق وهم يعلمون أن (كراع البقر جيابه) والعود أحمد.

وفـــي الصباح وكان الوقت صيفاً فتحت النافذة الغربية ووجدت نفسي مواجهاً لركـــن هـــايد بارك الشمالي THE SPEAKERS CORNER وقلت له ما كنت أظـــن أنني يوماً ما أسكن ببارك لين وفي إتجاه ركن المتحدثين بهايدبارك. ويحدثني أن السكن ببيته بالجيلي أمتع له وأطيب لنفسه. وقد كتب إلى قطر يوصي أن يستمر ســـفيرهم في العمل منفرداً لأنه أصبح أي السفير قادراً وأنه لا يحتاجِ لعون في أداء عمله الدبلوماسي. وهذه لفتة أحسبها تعكس معدن الرجال من أمثاله.

قلت له يا أخي الجيلي "ملحوق" وأنا أقدر حبك لتلك القرية الوادعة التي تحبها كمـــا أحـــب أنـــا الســـروراب.وأعلم أن خليفة كان لا يبدل الجيلي بمكان على وجه البســـيطة، وأظنه القروي الوحيد في السودان الذي لا يملك عقاراً بالخرطوم، حيث بـــاع أرضـــه ليحسن مسكنه بالجيلي ليستقر هناك - ولكن لا حياة لمن تنادي. وبعد إلحـــاح مـــن دولة قطر قبل النقل إلى تونس مستشاراً دبلوماسياً للسفير هناك. زرته بـــتونس وأنا في مهمة رسمية. ووجدته كعهدي به لم تعجبه تونس الخضراء كما لم تعجبه قبلها الإقامة في لندن. ويبقى وهو يبكي على الأطلال.

كــان صادقاً جداً في وصفه للسيد المرحوم مبارك زروق، عندما يكتب دون توقف ولا إنقطاع. وقد شهدت طريقة السيد مبارك في الكتابة لأنه لا يقف عندما يبدأ ولا يشــطب. وخطــه كأنه على آلة كاتبة. وكان ذلك في مذكرة شهيرة يوجهها إلى مجلــس الــوزراء عندما كان يقوم بمهام وزارة الدفاع في أكتوبر. وكان وقتها أثير إرجاع جميع من فصلوا من الضباط خلال حكم عبود. وإعترض الضباط على ذلك لا علــى مبدأ الإرجاع ولكن على مبدأ الكل الذي كان يتزعمه المرحوم السيد الشفيع أحمد الشيخ. وكان أن أخذ برأي السيد/ مبارك الذي كان يمثل الرأي الأمين للضباط عندئذ.

كــان إنشاء وزارة الخارجية الذي أوكل إليه عملاً عظيماً وجهداً مقدراً إطلع بــه وأكملــه فــي براعة وأنجزه في إتقان. إستأنس فيه بتجارب وبنظم الدول التي تشــابهنا في آسيا وبالذات بعد مشاركته في مؤتمر باندونق مستعيناً بنظمها وقوانينها ولوائحهــا. وحدثني الأخ السفير/ الطيب أحمد حميدة أنه في تجواله في حديقة الكيو بلــندن تمكــن مــن الإضطلاع على مذكرات وزارة الخارجية البريطانية في مكتبة الحديقة وهاله أن يجد من بينها مضابط الإجتماعات في وزارة الخارجية. وكان يمثل فــيها الســودان خلــيفة، وبشــأن تكوين وزارة الخارجية. ويأسف لعدم تمكنه من التصوير وتسجيل ما كان مكتوباً.

جهــد مكثف وتفان وإخلاص من أبناء ذلك الجيل الذي أسهم فيه خليفة وتبوأ وقتها مكاناً مرموقاً، خاصة في العالمين الأفريقي والعربي. وكان السودان وقتها هو المقــبول دون خلاف ولا منازع، عندما تشتد الإحن بين دول المنطقة ويشتعل إوار خلافاتها.

تصــوروا سودانياً كان على رأس مكتب وكالة وزارة الشئون الخاصة الذي تطــور إلــى وزارة الخارجية. ومن الطبيعي أن يرأس هذه الوزارة التي هي ثمرة جهــده وكفاحه. ولكن عندما طلب منه السيد/ الوزير إختيار من سيقوم عليهم هيكل الــوزارة برز إسم السيد/ محمد عثمان يس مرشحاً من قبل السيد/ الزعيم الأزهري

بوســاطة مــن أستاذنا الشيخ الخاتم. وهنا ظهر معدن خليفة النظيف وتجرده وعدم ســعيه لإنتهاز الفرص. وقال للوزير أنه في المجموعة السابعة في التدرج الوظيفي والســيد/ محمــد عــثمان يس مدير مديرية في المجموعة الثالثة. فلا يعقل أن يتقدم خلــيفة محمــد عثمان يس. وأرجأ إعلان التعيينات ليتم بواسطته بعد تسليم المنصب عــربون مــودة وشــاهد صــدق وأعراباً عن الرضى التام والإخلاص والتضامن والتعاون والولاء "كما كتب خليفة".

إنها وقفة جديرة بالتأمل لتذكير أجيالنا عن كيف كانت أجيال خليفة، نسأل الله أن يعيدها .

جــزى عنا خليفة خير الجزاء إذ عرفنا الكثير مما كنا نجهله في أدب العرب ومن خلال وصفه بغداد وتذكيرنا بالشاعر العراقي الكبير علي بن الجهم القائل:

عيون المها بين الرصافة والجسر　　　جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وصف خليفة الطبيعة وجمال المناطق التي زارهاخلال عمله. وما اجمل ما وصف به لبنان – أطلال بعلبك ومغارة جعيته وبنت البقاع زحلة.

أنت الخيال بديعة وغريبة　　　الله صانك والزمان رواك

وذكر أهلها – الأسعد – وآل البرجي وشهاب – وأميل البستان والحلو وعجلون وكرامي وصائب سلام وغيرهم. والأدباء – الأخطل الصغير – بشارة الخوري وأمين نحلة والريحاني وكثير من الأدباء الحسن، مما يدعوني أن أقول أن توزيع هذه المذكرات يجب أن لا يحصر بالسودان ولابد أن يطلع عليها المواطن الأثيوبي شأنه شأن المواطن العربي لمعرفة تاريخ تلك الأمم وأصول حضارتها وحكامها وأدبائها – وبالطبع ما حكمها إلا من المواطنين من لهم أصل ونبل وشجاعة وطيب نسل، إستوقفني بيت الشعر الذي أورده خليفة يحكي عن تمور العراق وفيه وعظ وحكمة:-

كن كالنخيل عن الأحقاد مرتفعاً　　　يؤذي برجم فيؤتي أطيب الثمر

كان عليه التحضير لؤتمر القمة، مؤتمر اللاءات الثلاث عام 1967. وقد شارك فيه بفعالية مما ساعد على نجاح المؤتمر. وبعد فترة وجيزة تقدمت الخارجية بإحالته على التقاعد وهو في قمة عطائه وبالرغم من أنه العمد الذي وقف عليه كل بنيان وزارة الخارجية. وعندها كتب خليفة إلى مجلس الوزراء محتجاً ومتضرراً لإحالته للتقاعد. ما ظن أن يأتي يوم ويحال كبار وصغار الموظفين (بالكوريق) دون إيجاد وسيلة للتظلم أو الإستنفار. وسيان بين عهود مضت وأخرى جاءت.

تابعت مع خليفة ترجمته إلى العربية للمقابلة التي تمت بين المراسلة الإنجليزية (فلورا شو) مع الزبير باشا بجبل طارق في حوالي 1865.

وإستطعت أن أتحصل على معلومات وافية عن فلورا شو مراسلة صحيفة التايمز الإنجليزية في ذلك الوقت وبعض الصحف الأخرى. وقد أفادني رئيس قسم الأرشيف بصحيفة التايمزعن فلورا شو وكتاباتها المتعددة عن الباشا وأن زوجها كان حاكماً عاماً لمستعمرة هونغ كونغ في الفترة 1908-1912م، وأنها وزوجها أنشآ جامعة هونغ كونغ. وقد نقل خليفة المقابلة من الإنجليزية إلى العربية في لغة رصينة تجلت فيها مقدرته على إجادة اللغتين وتمكنه منها.

وأختم قولي بإقتطاف جزء من مقالة للأخ/ إبراهيم منعم منصور في صحيفة الحـــرية تحت عنوان (الفرص الضائعة عبر المستقبل) عندما إلتقى بالمرحوم السيد/ عمر السقاف وزير الدولة للخارجية للملكة العربية السعودية:-

(ثــم ســألني إذا كنت أعرف السيد/ خليفة عباس العبيد وأين هو الآن بعد أن ترك الخدمـــة الدبلوماسية. أجبته بمعرفتي له وأنه يعيش متقاعداً في هدوء وسط أهله في بلدته "الجيلي".

تحـــدث المـــرحوم عمر بإسهاب عن علاقته بالوالد الكبير السيد خليفة عباس ولأبناء هذا الجيل، فإن السيد خليفة أحد بناة الدبلوماسية السودانية ووزارة الخارجية بعـــد أن تـــرك وراءه ســـجلاً حـــافلاً في الإدارة.قال لي أن السيد خليفة بجانب أنه دبلوماسي مقتدر للغاية، فهو أيضاً كشخص ذي خلق عال للغاية ... أسهب المرحوم

السـيد/ عمر السقاف في الخصال الحميدة العديدة التي يخص بها السيد/ خليفة سواء على المستوى الشخصي أو على المستوى العام.

وقـد ذكـر لي رحمه الله (أن الأخ خليفة لا يقرب الخمر - ولا يلعب الورق - وتغويـه القوافي. وعندما نلتقي موفدين خارج المجتمع الدبلوماسي، التي كانت تكثر فيه هذه العادات بسبب قلة وسائل الترفيه في أثيوبيا، كان يبهرني بأفكاره عن أهمية التقارب بين العرب وبالأخص السودان والمملكة ومن ضرورة التعاون بين المسلمين وعـن مسـئولية قيادات الدول الإسلامية في هذا الأمر وينتفض عند دخول أوقات الصـلاة ... واصل المرحوم السقاف حديثه بأن الإختيار قد وقع على رئيس وزراء إحـدى الـدول الآسيوية ماليزيا ليكون الأمين العام للمؤتمر الإسلامي. ولكن الفترة التـي قضاها حتى الآن أكدت ضعف معرفته بمسئوليات المنصب وبإمكانه المرجو من المؤتمر الإسلامي بالإضافة إلى المظهر العام للعاملين والعاملات الذي أثر على وقـار المـنظمة. وبرغم أنه يمكن تدارك هذا المسلك آلا أن الموت البطئ للمؤتمر وهـو وليد أمر يصعب تداركه خاصة إذا صاحب هذا المفهوم عن المؤتمر الشخص المسـلم العـادي والـدول غير المسلمة مما يجعل عملية الأحياء والحركة والوجود الفاعل مسألة شاقة. ولذلك فإنهم يرون في المملكة أنه لابد من تدارك المؤتمر بإسناد منصـب الأميـن العام لشخصية في مقام السيد/ خليفة عباس. ولهذا السبب قد طلب مني معالي المرحوم / السقاف الإتصال بالسيد/ خليفة وإبلاغه رغبة المملكة ورغبته الشخصـية في ترشيحه لمنصب الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي. وقد أفادني أنـه لمعرفـته بشخصـية السيد/ خليفة رأي أن يستأذنه أولاً ويحصل على موافقته الشخصية قبل أن يتحرك دبلوماسياً في هذا الإتجاه.

ذهبـت إلـى الجيلـي وبعد حفاوة المقابلة أبلغته سلام وتحيات السيد/عمر السـقاف وقد أبدى السيد/ خليفة سعادة كبيرة بسماعه للإسم وخاض معي أيضاً في ذكـرياته معـه سواء كسفير في أثيوبيا أو بعد ما تقلد السقاف منصب وكيل وزارة الخارجية السعودية ثم منصب وزير الدولة للخارجية ملازماً للملك فيصل، الذي ظل

وزيراً للخارجية ولأطول فترة في التاريخ منذ نشأة المملكة بجوار والده وإلى تاريخ المقابلـــة .. شـــجعتني ذكـــريات سعادة الوالد الكبير السيد/ خليفة مع معالي الوزير الســـقاف علـــى عرض ما طلبه السيد/ السقاف وكلي آمل في قبوله ولكن كانت بقية الجلســـة وإلى أن ودعني ببشاشة ومودة وشكر درساً في المبادئ والأصول بأسلوب أبـــوي هادي قائلاً أنه رغم العلاقة الأخوية الحميمة التي تربطه بالسيد/ السقاف إلا أنـــه كمبدأ لا يسمح لتلك العلاقة أن تتعدى حواجز معينة، أنه (مواطن سوداني قبل كـــل شـــئ) وبهذه الصفة لا يسمح أن ترشحه دولة أخرى أو شخصية أخرى مهما كانـــت العلاقـــة بينهما لمنصب دولي، وإنما المبدأ والأصل أن ترشحه دولته وبعدها يمكـــن للجمـــيع السعي للحصول على تأييد ترشيحه. وما دامت حكومة السودان لم ترشـــحه فـــي الماضي ولم تفكر في ترشيحه في الحاضر، فإن الأصول تقضي بأن يعـــتذر. وأضـــاف أطال الله عمره وعمر أمثاله أن جيلهم مطالب بأن يضع الأسس الصـــحيحة والمـــبادئ القويمـــة لـــنا الذيـــن تسلموا المناصب الآن ولمن يخلفنا في المســـئولية. وحذرني أن التفريط في جزء يقود إلى التفريط في الكل. تفاعلت عندها وإقترحـــت علـــيه أن أنقل الإقتراح إلى الرئيس نميري ليتولى هو دعوته لمقابلته ثم ترشـــيحه. ولكـــنه رفـــض في تصميم جاد بأنه لا يجدر الإلتفاف حول المبادئ وأنا أودعـــه حزيناً للمنصب الذي ضاع كنت سعيداً لأننا لدينا مثل خليفة عباس. وعندما قابلـــت المـــرحوم الســـقاف كان حزيناً مثلي وسعيداً مثلي. وقال أنه "خليفة عباس". والآن وبعـــد ما يقرب من الثلاثين عاماً فإني حزين للغاية لأن جيلاً بأكمله عاصره جزء منا ويعيش بيننا وسيعيش بعدنا ولا يعرف من هو خليفة عباس ولا الإقتداء من أمثاله الذين أرسوا دعائم دولة السودان ومكانتها بين الأمم) ... إنتهى ...

وما على الرسول إلا البلاغ المبين

اللهم ألا قد بلغت فأشهد

مقدمة

حفزتني على تدوين هاته المذكرات دوافع شتى ... ليس من أهونها لديّ شأناً أو أوهنها دافعاً شطر ذلك البيت البليغ من الشعر الذي اعتدت أن أقف متأملاً عنده طويلا كلما عاودت قراءته وأنا مأخوذ به ... لأسائل نفسي بما احسب أن الشاعر قد تساءل عنه في تفكّر وتحسّر وأسى وحرقة ممضاً حين قال :-

"أتقضي معي إن مِتُّ حقاً تجاربي ؟؟" ...

ذلك لأني أعلم علم اليقين أنه ما كان لبشر كائناً من كان أن يهمه بعد موته أي شأن من شؤون هاته الحياة الدنيا التي يخلفها وراءه وبكل ما هو لصيق به فيها من نعم أو مال (أو من بنين ومتاع) لأنه وبما هو مقدم عليه – عنها كلها في شغل شاغل ...

لكن فيلسوف عصرنا الزهاوي ، خليفة الشيخ المعري ، ورهين نفس محبسيه فيما قرأت له ، نراه يفطن أيضاً إلى ما لم يفطن إليه أحد قبله ويتحسر على ما لم يتحسر عليه فيما أظن أحد بعده ... فها هو يضمنه بعض شعره وهاهو يحصر همه كله فيه .. في تجاربه العزيزة الغالية لديه التي أمضهُ ألمه وحزنه أن تذهب كلها بذهابه بددا وأن تحور بفنائه هباءاً منثوراً .[1]

فالتجارب ليست شيئاً مجسداً مادياً ولكنها عصارات روح ووجدان وفكر ، نمت وتبلورت أملاً وتجسدت وتحققت عملاً .. وهي كما نعلمها ثروات هائلة تعز علينا أن تمضي ، وتجل عن أن تُجسَّد لتُرصد أو تُستقصى أو تُستبقى .. وهي لا تورَّث فيما يتداوله المتوارثون عادة من حطام يتناقله الخلف عن السلف كتراث

---

[1] ردد هذا المعنى كثيرون من الشعراء ولا يحضرني إكمال عجز الأبيات إلا قول باحثة البادية حفني ناصف:-

أتقضي معي إن حان حيني تجاربي   وما نلتها إلا

مكتسب ، ولكنها ثمرات ناضجة للإجتهادات والمكابدات والمجاهدات النفسية ونتاج للاختبارات والاختيارات الذاتية والممارسات الفردية الشخصية التي يشترك في نسجها وصياغتها والوصول بها إلى قرار كل من النفس والعقل والحواس لتتقبلها وترتضيها ثم لتخزنها موئلاً وينبوعاً وموردا ومدداً منه يُقتطف ويُغترف .

والتجارب إما أن تكون حسية أو معنوية أو روحية أو ذوقية أو فكرية . فلا تجسد ولا تكيف ، بل تمتلك ، وتعرف ولا تُعرَّف ليكون أقصى ما يعبر به عنها هو مجرد محاولات عن طريق الوصف وحده وليس عن أي طريق سواه ... فالوصف مهما دق فهو قاصر ... سواء كان كلاماً أو حكاية أو سرداً أو كتابة أو تصويراً أوفناً .

ولهذا فلم يكن قد أهمني أبداً وأنا أقدم على تسطير هاته الذكريات أن أنقل تسجيلاً مجرداً وصادقاً وأن أستعرض شريط أيام حياتي بقدر ما أسعفتني به الذاكرة المكدودة وهو لا يخرج في جميع حالاته عن تجربتي مع الأيام أو تجربة الأيام لي - ليس إلا ...

فكان زماناً لعبنا به وحل زمان بنا يلعب !!

أما ما هو متعلق بالجوانب الشعورية والوجدانية والروحية والعاطفية والانطباعية ، فقد سبق لي أن حاولت بثه وتصويره وتدوينه منجماً وفي أوقاته ، فيما حاولت نظمه من شعر شغل أكثر من كراستين كبيرتين أسميتهما "خواطر وأحاسيس ومشاعر عبر دروب الحياة" حوتا أكثر من الألفي بيت أسعى وآمل أن يكتب الله لهما أن يريا النور عن طريق الطباعة والنشر قريباً بإذن الله .

ولقد خططت وقمت بسرد هذه الذكريات على فترات متباعدة وأنا أستعرض ماضي حياتي (الطويلة المليئة الغنية والمفعمة الحافلة بحمد الله) واستدعيتها وأنا

اجتر ذكرياتي فيها لأعتصر منها قطوفاً وأسجل فيها مشاهد ما تزال ماثلة للعيان ، رغم كونها غائرة في الوجدان : ولكم عجبت والله كيف أمكن لذاكرتي الكليلة بعد هذا العمر المديد الطويل ، أن تختزن ، وقد اربت على الثمانين ، بكل هذا الذي ما يزال يتراءى ويتراقص أمامي واضحاً جلياً منذ أيام طفولتي الأولى ... وأن تكن قد ساعدتني عليه وأمدتني به مجموعة العشرات من (المفكرات اليومية الخاصة) التي حرصت منذ الصغر على اقتنائها ودرجت على تدوين أهم ما يعن لي من وقائع ومن أحداث ، كرؤوس أقلام فقط ، أعدها في نهاية كل يوم منذ أواسط الثلاثينات ... والتي أحتفظ بها جميعها كاملة غير منقوصة حتى الآن !!!

سجلت هاته الخواطر ببساطة وعفوية تامة كما انثالت عليّ عفو الخاطر وتتبعت فيها أيام سني عمري عبر دروب الحياة المتشعبة متعرضاً لبعض ما عاصرها أو اكتنفها أو سايرها أو سايرته منها من أحداث متفرقة في البيئة والساحة والمجتمع وما حفلت به من تغيرات وتبدلات خلال الأزمنة والحقب ، ومن تقلبات ومجريات الأحوال وما اتسمت به تلك الظروف من خصائص وأعراف وعادات وتطورات ومن رؤى وممارسات تأثر بعضها بالمسلمات وخرج بعضها الآخر عن المألوف .

سطرتها بكل صدق لأتأملها وأنا أرجع البصر فيها كرة من جديد وليتأملها غيري أيضاً ولأحياها وليعيش فيها معي الآخرون ، فترة تلك الحقبة التاريخية التي امتدت لعهود طويلة ، ليس في قرى وبوادي ومدن السودان وحده ، الذي قد يصح لي أن أدعي بكل صدق أني أكاد أن أكون قد ذرعت أرجاءه كلها قاصيها ودانيها طولاً وعرضاً شرقه ووسطه وشماله وجنوبه وغربه ، وجست خلال مدنه وضواحيه وقراه وبواديه طفلاً متنقلاً مع أبي ، ثم صبياً وشاباً ، ثم متعلماً كهلاً ثم موظفاً خلال فترة عملي بالسكة حديد التي هيأت لي هي الأخرى فرصة لأن أجوب

كل ما تبدأ منه أو تنتهي عنده خطوطها الحديدية وسفريات بواخرها النهرية : وخلال فترة انتقالي منها إلى السلك الدبلوماسي ، بعد أن شببت عن الطوق التي انتهت بي لتسنم مراقي السفارة عندما بلغت سن الرسالة .. وهي الفترة التي أتاحت لي فرص التجوال والتطواف بالعديد من بلاد الله في العالم وبأقاليمه شرقيها وغربيها وإسلاميها وعربيها كما هيأت لي الالتقاء بالعديد من رجالات العالم وساسته ومفكريه وأعلامه وقادته وملوكه ورؤسائه ... ثم اخيراً وفي نهاية المطاف شيخاً في سنواتي الأخيرة التي أحياها الآن حين وهن العظم واشتعل الرأس شيباً في عهد التقاعد المعاشي وبدء الشيخوخة الذي شخنا وما شاخت عزائمنا فيه بعد ولله الحمد ..

هذا ولقد تعرضت في هاته الأشتات من الذكريات لكل ما حضرني منها دون انتقاء. واني لأرجو أن يجد فيها قارؤها كشفاً واستعراضاً واستطراداً وتصويراً لفترة حقبة تاريخية دقيقة قديمة ومعاصرة لسوداننا المخضرم ولجوانب من حياة دنيانا وومضات من رؤانا السياسية والأدبية والثقافية ولمحات وإيماءات لبعض أعرافنا وقيمنا الأخلاقية أكثر من أن يقرأ فيها مجرد سرد لسيرة حياة ذاتية فانية ، وبالله التوفيق .

خليفة عباس العبيد

الجيلي في أكتوبر 2003

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه ورسوله الكريم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه عدد أنعام الله وأفضاله كما لانهاية لكماله وعد كماله

الفصل الأول

الميلاد والنشأة الأولى1915-1933

في التاسع والعشرين من شهر أغسطس عام 1915م (فشهادة الميلاد الأصلية التي إستصدرها أبي منذ ذلك التاريخ القديم، ما أزال أحتفظ بها) أطللت على الوجود من رحم الغيب و العدم. فولدت بالجيلي لوالدين كانا يتجرعان غصص الحزن على فقد بكرهما الأول (كمال الدين)... "ذاك الذي بموته قد فجعا" والذي أودي قبل مولدي بشهور قلائل، فإستبشر بي أبي خيراً وأسماني (الخليفة) تيمناً وتفاؤلاً.

كان أبي وأمي، اللذان لم تربط بينهما وشائج نسب أو قرب عدا المصاهرة، ينحدران من فروع القبائل السبع للجميعاب... (الجوداب والشهيناب والشبراب والضواب والحكماب والدشيناب) بينما كانت أمي تمت من جهة أبيها إلى العبدلاب و(الحداربة) ويزكو فرع أبي لينتسب إلى (الغبش)... رجال (بحر أبيض) الأفذاذ الصالحين، الذين كست جلودهم الأدمة والغبشة لعزوفهم عن التطرية والنعومة، فكان مسوحهم الماء.

كان أبي وحيداً لأبيه وقد سجل شجرة نسبه بطوله نظماً في أبيات أكتفي بأن أذكر منها مطالعها:

قضى الله كوني واحداً وإبن واحد ... فلبت عصاباتي نداءاً محتما
(فعباس) إسمي و(العبيد) أبي وقد ... تولى فأضحى ظهر(بلال) قاصما
و(حسب الرسول) خارج من محمد ... إلى (حمد القطفاط) كل قد إنتمى
وذلك من صلب الفريد (محمد) ... (عطا الله) رحل الكحل كان غشمشما

إلى آخر ما إنتهى إليه المطاف في سرد ذلك النسب ليتصل بالعباس عم النبي (ص).. شأنه شأن غيره من الجميعاب.

كان أبي حين مولدي يعمل معلماً بعد أن تخرج في عام 1908م من قسم المعلمين والقضاة بكلية غردون التذكارية. وكان بطبيعة عمله كثير التجوال والتنقل في أنحاء القطر بين مدارسه المختلفة والمتباعدة. فالمرحلة الأولية كانت في رفاعة والنهود وبورتسودان وأم درمان ومدني وبربر وكثيراً ما كان والداي يتركاني تحت رعاية جدتي من جهة الأب بالقرية، تلك المربية الحانية الحنون (عائشة بنت الفكي أحمد ود أبو قرين) وفي رعاية جدي، ذلك الشيخ الصالح التقي الورع حملة القرآن العظيم التاجر الجد (عمر إبراهيم) المكنى (باليماني) اللذان ما أزال أذكر ما كانا يحبواني به من حب وتدليل ومن عطف وحنان ومن قوامة وتأديب.. وأذكر التمرات العشر التي كان جدي يدفع بها في جيب قميصي وأنا أندفع كل صباح لأستقر في حجره وهو يتلو القرآن ممسكاً (بغرفة) مصحفه المخطوط الجميل بيساره، مطوقاً ومهدهداً لي بيمناه، ثم أنطلق بعده إلى الخلوة التي تقع خلف متجر جدي مباشرة لأشهد عشرات الصبيان وهم يعرضون ألواحهم على جدي (شيخهم الفكي محي الدين)، ثم يمحونها، ثم يجيرونها ويعرضونها لشمس الصباح لتجف... ثم يعمدون إلى دواياتهم (محابرهم) ليغذوها بما يخلطونه من مزيج "الصمغ" و"السكن" و"السبيب" مما يصير مداداً. وأتبعهم في نوبة قراءة الأصيل وهم يجرون براحات أقدامهم الناعمة خطوطاً طويلة متوازنة على عرض أرض المسيد ليخطوا فوقها فيما بعد بأناملهم الرقيقة الرخوة ما سبق أن محوه من حروف ألواحهم، ليودِّعوه وهم يودعونه ثرى تلك الخطوط ثم يوارونه التراب، يحكمون دفنه بين دفتي الثرى ليثوى ويظل مستقراً في أعماق الأرض رسماً كما ثوى وإستقر في أعماق عقولهم وصدورهم حفظاً وثبوتاً ورسوخاً.

وأجد من شيخيْ الخلوة تلك "الأغبش ومحي الدين"، وكلاهما خال لأبي، حنواً وتقرباً يفرداني به خاصة. ثم تمضي الأيام لأنخرط في عداد (الحيران) المبتدئين مع

الناشئة. فيعهدا بي، من بين أقراني الدارسين (الحيران) الذين يكبرونني سناً، إلى من يتولى تعليمي أبجديات الحروف الهجائية، متدرجين بي من (باء) جاب ألف إلى (باء شدة وفتحة) ثم بالضمة أولاً ثم ليلقنني فاتحة الكتاب ثم ليتدرج بي إلى صغيرات السور.

كنا نجلس جميعنا القرفصاء على تراب أرض الخلوة مباشرة، دون مقاعد ولا فراش، ونتراص في شكل دائري وظهر كل منا وراء ظهر أخيه سواء داخل الخلوة في الصباح أو متحلقين حول نار القرآن بالمسيد في المساء. إذ كانت الدراسة فيها دوامين. وأذكر أيام الأربعاء، خاصة عندما يحمل كل (حوار) منا من منزله حفنات الذرة الفيتريته أو الذرة الشامية (عيش الريف) أو اللوبيا أو العدسي، لنتولى إنضاجه بأنفسنا في قدر كبير، لنقسمه بعد ذلك (بليلة) توزع فيما سبق أن أحضرناه من أوعية وأواني ومواعين أو لتصب في طرف ثوب من لا وعاء له منا صباً، فيسيل الماء الحار من خلاله وتبقى البليلة والكرامة التي نأكل حفنات منها في الطريق ثم نحمل ما تبقى منها إلى الأهل الذين يتسابقون لينالوا منها، كباراً وصغاراً، أقداراً متفاوتة على سبيل التبرك والإستشفاء.

وتتوج دراستنا أيام الشرافة حين بلوغ سور معينة (الفاتحة، عم، تبارك.. إلخ.) يزين فيها الشيخ لوح من وصل إليها بنقوش وزخرفة تؤطر الآيات في شكل فني بديع، لنحمله ونطوف به على الأهل والجيران والمعارف الذين يتنافسون و يتبارون فيما يقدمونه من هدايا مالية أو عينية مباركةً وتشجيعاً وتقديراً لنا.. إلى غير ذلك من ذكريات تلك الطفولة الهانئة القانعة الراضية والمكتنزة والمليئة بكل ما يبهج وبكل ما يفيد، والمتجددة والمتعددة التي تستنفذ سائر اليوم كله ثم تمتد إلى أوائل المساء، والتي يسبقها في الأصائل إستنفارنا لإستجلاب (الفزعات) من الحطب الذي توقد به نار القرءان الكريم... وكانت تلك فرصة وفترة نبتهج بها كثيراً لأنها كانت تتيح لنا إقتطاف ثمرات أشجار السدر (النبق) وثمار (الحنبق) من أشجار الطندب، الشبيهة (بالعنب) لوناً ومذاقاً وحبات، وكذلك (القضيم) و(الشاو)

و(اللالوب) و(الدوم) وغير ذلك من فواكه الغابة التي كانت تجود بها علينا الطبيعة بلا ثمن. والتي قد يعرفها أو يجهلها الكثيرون من أبناء جيل العقود الأخيرة في سوداننا... وإذا ما تبقى لنا بعد ذلك من الزمن شيء شغلناه إما بممارسة تعلم السباحة في خور "شناق" أو خور "الدخن" أو بممارسة إصطياد العصافير والطيور والقماري والقطا في الأصائل بأشراك مقوسة نصنعها بأيدينا أو بالقلاليب التي نشتريها أو بأشراك السبيب ندفنها خفيةً ونعفي آثارها حتى لا يظهر منها على وجه الأرض شئ سوى الحبة التي تغري الطائر لينقدها فتطبق عليه.. وقد يعمد البعض الآخر منا إلى صنع (سواقي إبليس) يصنعونها من حطب العشر وينصبونها ويشحمونها بالودك لتدور كأبدع أنواع الملاهي المستديرة والمراجيح وهي تبعث أصواتاً متقطعة تشبه الأنين بين كل دورة أو دورتين أو ينخرون و يفركون فصوص عيدان قصب الذرة الناشفة ويفرغون جوفها من الداخل ويثقبونها على أبعاد متقاربة لتستحيل إلى مزامير وصفافير موسيقية بأنغامها المختلفة العذبة المنبعثة من فتحاتها، كالناي يشدو بها أو ليستميلوا (ليدودرو) القمري والدباس نحو شراكهم بما يشبه الحداء بأصواتهم: وقد يشغل البعض الآخر بإظهار براعاته وتسخير ملكاته في صنع وتصميم (التراتير) ذات العجلات من فصوص القصب أو الطائرات من الورق أو بناء البيوت وتماثيل أشكال الحيوانات الصغيرة من الطين اللازب أو الصلصال.. أو بمحاكاة المخترعات الحديثة بعمل تلفونات لنا نتحدث بها بالفعل بعد ربط علب الصلصة بخيط الدبارة معاً وشدها بقوة، ليسري من خلالها صوت يسمعه من أمسك بالطرف الآخر بوضوح... إلى غير ذلك من تربية وتطوير للملكات وللتزجية النافعة والممتعة معاً لأوقات الفراغ.

أما في مجالات الرياضة وألعاب التسلية الأخرى الداخلية والخارجية، التي تغمر القرية بالعديد من ألوانها مثل "حرّينا" أو "شليل" في الليالي القمرية أو"الفأس من سرقه" أو"الثعلب فات.. في ذيله سبعة لفات" أو "الغموتية" و"العيتنوبة" و"المصارعة" أو غيرها من ألعاب القوى المسائية أو لعبة "سجّك" التي هي برياضة

"القولف " الإفرنجية أشبه، بتتبع العود المنطلق في مراحل إرساله بدل الكرات، كذلك في ألعاب التسلية الداخلية التقليدية الأصيلة العديدة الأخرى، مثل "الطاب" و"صفرجت" و"السيجة" و"المنقلة" ومثيلاتها (التي كان من الممكن جداً تطويرها وتحديثها لو فطنت إليها وزارات الشباب والرياضة والثقافة والتربية المتعاقبة) فنقلتها بدل لعبها على الأرض إلى لوحات عصرية متنقلة لكل منها خاصة، مثل رقاع الشطرنج أو "السلم والثعبان " أو "الليدو " أو"المونوبولي" ولأبقت على ذلك التراث الزاخر بكل أصالته ومتعته، ولأسعدت وأمتعت الأطفال والكبار معاً على حد سواء، ليس في مجالات الرياضة والتسلية وحدها، ولكن حتى في مجالات التثقيف، بنشر وتصنيف الحكايات و الأقاصيص والأحاجي و "الفزورات" و" الغلوطيات" التي كانت تحكيها الجدات والخالات والأمهات على مسامع أطفالهن عن "فاطمة السمحة" و"ود النمير" و"محمد الشاطر" والحوريات والجنيات و السعالي وما إليه .

بعد هذا الإستطراد العابر المتعجل الذي جاد به القلم لما لا يزال حاضراً وماثلاً كله في الذهن، فإنثال من الذاكرة عن بعض مظاهر ومباهج ومآثر طفولتنا وما حفلت به من تراث وأمجاد سيرد غيرها حتماً وأنا أسرد هذه السيرة، أعود لتتبع مراحلها من جديد بادئاً بأيام الخلوة الأولى بالجيلي، التي درس فيها أبي من قبل كما تخرج على أيدي علمائها من الأساتذة الأفذاذ الشيخ أبودريع والشيخ العالم ومنهم علماء ورجال دولة أفذاذ، أذكر من بينهم الزبير ود رحمة وجدنا الشيخ قريب الله المعروف بالطيار وآخرون..

كان أبي، رحمه الله، بحكم مولده وبيئته ونشأته وسليقته ودراسته العربية الفصحى، كبير التأثر، كثير التشبه، مفرط التقليد بأجدادنا العرب القدامى الأقحاح، كان شغوفاً بآدابهم وبآثارهم وبالتمسك بما نشأوا وما درجوا عليه في حياتهم من طباع وعادات ومألوفات. وكثيراً ما كان يعيش مع ما ألفَّوه وخلفَّوه وما دونوه، بحفظه عن ظهر قلب. وكثيراً ما كان يتغنى ويترنم ويدندن بأشعار فحولهم، جاهليين وإسلاميين ومحدثين، بصوته المتفرد العذب الجميل.. وقد ظهر أثر ذلك جلياً ممثلاً

في تلك الأهازيج التي كان يصوغها لنا ويدللنا ويناغينا بها ليرقصنا بها أطفالاً واحداً تلو الآخر، ونحن ما نزال في المهد.. من ذلك مثلاً ما كان يهدهدني به في طفولتي من قوله:

يحيا الخليفة دهراً ويرتقي للمعالي
ويمتطي العز دوماً متوجاً بالجلال
يغيث كل ضعيف بوابل من نوال
يحل كل عويص يؤود فحل الرجال

وولد بعدي أخي "عبد الله" فكان نصيبه من أهازيج أبي قوله:

يكون عبد الله سيفاً قاطعاً لكل عاد وأديباً بارعاً
ببيوته مناهل العشيرة وحاملاً عن قومه الجريرة
يجوب في الإطار "كالزبير" ويغمر "الجيلي" بكل خير

ثم ولد أخي "أحمد" برفاعة ونال هو الآخر من أهازيج أبي التي راقصه بها وهو في المهد بقوله:

توسمت فيك الخير يا فلذة الكبد لعدة أشياء تبينتها وحدي
تبينتها إذ كنت رهن وسائد ضعيف القوى يا من تسمى بالجد

والجد المشار إليه هنا هو الرجل الصالح أحمد أبو قرين.. خال أبي ومعلم الشيخ قريب الله وجده لأمه.

وإصطحبني والداي معهما عند نقلهما إلى رفاعة، وكنت وقتها في السادسة من عمري. فألحقني أبي بالسنة الثانية الأولية بها حيث كان يعمل، مختصراً بذلك من الزمن سنة كاملة ومعتبراً فترة الخلوة بالجيلي معادلة متكافئة مع المستوى بالسنة الأولى بالكتاب التي لم أدخلها مطلقاً.. مما يمكن التدليل عليه بما جاء في إحدى قصائده فيما بعد (وهو يستعطف الأستاذ/ عبد الرحمن علي طه وأنا وقتها بالكلية) بقوله مشيراً لحداثتي:

نفس فتى أعددته من قبل درك السابعة

وفي رفاعة كان سكننا مجاوراً، بل لصيقاً بمنازل الشيخ بابكر بدري، رائد التعليم الأول وناظر المدرسة التي كان يعمل بها أبي. وتوثقت وتعمقت الصلات بين الأسر والعائلات، حتى غدوت _ فيما أنبئت _ أثيراً، وأنا طفل صغير، عند الشيخ بابكر بدري، الذي ما أزال أذكر مخاطبته لي كلما كنت أقابله حتى بعد أن كبرت مما رجز به أيام صغري بقوله: "خليفة.. المو تليفة... أسقوه الشاي.. لامن يقول كفاي."

في سنة 1922م نقل أبي إلى "النهود" ناظراً لمدرستها وصحبته مع والدتي وأخي أحمد الطفل. وكانت وسيلة الإنتقال الوحيدة بين الأبيض والنهود وقتها هي ظهور الإبل. وأذكر بوضوح ما كان يطلق عليه "الحملة" التي إستأجرتها سلطات الأبيض لنقلنا، وهي مكونة من ثلاث جمال نصبت على أحدها هودج "شبرية" بداخلها عنقريب أجلست فوقه مع أمي وطفلها طيلة الطريق، بينما خصص الجمل الثاني لركوب والدي، والثالث لحمل بعض الأمتعة والزاد.

وحللنا النهود لنجد المدرسة والمنزل المخصص للناظر(الوالد) مسقوفاً ومسوراً بالقش.. أذكر ذلك وأذكر الحريق الذي شب فيه وصورة إطفائه البدائية جداً بالسكابات والتراب وشحيح الماء بواسطة العساكر والمساجين والأهالي الذين هبوا وإستقدموا لمكافحتها .

وقد أعجب والدي بالنهود أيما إعجاب و أشاد بأهلها في عدد من قصائد ديوانه، الذي لم ينشر بكل أسف بعد.. أذكر منها :-

هذي النهود وما النهود خفية   من كل فج حوضها مردود

وأذكر أبيات إستنهاضه لأشبال فريق كرة المدرسة (بفنائله) بها في مباراة مع مدارس القرى المجاورة مثل:

هجم "السود" هجمة الآساد   وإشرأبوا لدرك أوج السداد

وأذكر عيد 17 يناير وتشكيل "القلعة"، التي أنشد الطالب، المتبوئ أعلاها، في الحفل أبيات أبي في المناسبة:

حملت على الأكتاف ليس لأنني عظيم ولكن كي أجل عظيما

مليكاً له هذي الوفود تجمعت لإحياء يوم زار فيه قديما ...الخ

قضيت السنة الثالثة لي بالكتاب. ثم بعدها تم نقل أبى إلى بور تسودان ناظراً لمدرستها، حيث أكملت الجزء الأخير من السنة الرابعة والأخيرة من الفترة بها بعد أن إلتحقت في الفترة الأولى منها بكتاب الجيلي... وفي الجيلي إنغمست في جو القرية من جديد مستأنفاً الإسهام والمشاركة للأهل كباراً وصغاراً في حياتها وحياتهم ومتمتعاً بالدفء والحنان في أحضان جدتي الحنونة الحفية بي ومشمولاً برعاية ناظر مدرستها الشيخ البدوي المبارك، الذي سبق له أن زامل أبي، والذي كان يستكتبني الخطابات القصيرة إليه يكتبها على السبورة فأقوم بنقلها ليرسلها إليه معتداً بها.

كانت المفارقة بين البلدين (النهود وبورتسودان) عجيبة حقاً. فهنا البحر الأحمر وماء الشرب فيها الملح الأجاج من المصفاة (الكنداسة)، وليس بالنهود بحر ولا نهر، بل ماؤها العذب الفرات من البئر. وهنا المدينة المتحضرة المتطورة بأبنيتها الحجرية، وقصورها وسنادكها الخشبية، وشوارعها العريضة المعبدة، وميناؤها الذي يعج بالبواخر وملاحيها بسحنهم وثيابهم ولغاتهم المختلفة تزحم الطرقات لتختلط بسحن وأنماط السودانيين من عرب وهدندوة، بلغاتهم ولهجاتهم ورطاناتهم، وجاليات الهنود والبنيان بفرائسهم والحضارمة "بقرابيبهم"... وكانت المدرسة رحبة وواسعة، وبنيت على الطراز الحديث بناءاً فخماً من الحجر، ما تزال تشتمل على أجنحة ممتدة ثلاث، يشغل الجناحان المتوازيان منها فصول ومكاتب، بينما الجانب الغربي منها به طابقان، دور أرضي لسكن ناظر المدرسة حللنا به، بينما إتخذ قومندان البوليس المستر "دوهرت" الدور الأعلى سكناً له يفضي إليه باب منفصل على الشارع الغربي من الخلف.

لم يكن أبي سعيداً بالثغر ولا بالعيش فيها. فقد أثرت رطوبة طقسها على صحته، فأوجعت ظهره ، كما لم يرتح إلى غلو تكاليف الحياة فيها نسبياً آنذاك. وقد هجاها بقصيده أذكر من أبياتها:

بلد يباع خضارها موزوناً والحرُ يلحق بالعقول جنونا

ورطوبة بالجسم تفعل مثل ما فعلت بفولاذ الحديد فينا

والتي وصف حال العاملين وكل من عاش فيها وهو يعاني غلاءها والإفلاس بقوله:

يشكو أذى الإملاق وهو مقتر لا يعرف الصهباء ولا التدخينا

لا يعرف الأصحاب وجهة داره ولربما رُدُوا وهم راجونا

والتي أنهاها بقوله:

العيد يوم أشدُ عنسي راحلاً عنها ويجمعنا بكم "جيلينا"

وصادف هذا العام (1924)، ونحن في بورتسودان، حادث مقتل السردار (السير لي إستاك) بالقاهرة. وكان ببورتسودان مجموعة نشطة من أعضاء جمعية اللواء الأبيض، لوالدي بهم صلات وتعارف وزيارات، أذكر منهم ملاسي والطيب عابدون وعائلاتهم .

وأوقعت الجزاءات على مصر من قبل حكومة السودان و إعادة الجيش المصري والمصريين إليها. فلم يبق من آثارهم سوى "العلم" و "عمة قاضي القضاة" كما كانوا يقولون تندراً. وتبع ذلك إجلاء كافة المدرسين المصريين وإعادتهم إلى مصر. فشغرت أماكنهم، خاصة فيما كان يسمى بالمدارس الوسطى (الإبتدائية وهي التي فوق الكتاب) وتم ملء فراغها بالسودانيين. وكان من بين أولئك أبي.

ولكن قبل حدوث ذلك برزت مشكلة إلحاقي بالمدارس الإبتدائية (الوسطى) فعزم والدي على إرسالي إلى عطبرة لأودي إمتحان القبول فيها ولألتحق بمدرستها في قسمها الداخلي. وكان عمري وقتها تسع سنوات فقط. وكان ذلك سيكون الفراق و الإبتعاد الأول لي عن أبي وأسرتي وعن أهلي. وبالفعل إكتملت الترتيبات وحدد لي يوم السفر. وحدث يومها حادث تأثرت له وتأثر له أبي، ولكنه يمثل فيما أرجو

أز   رؤيا صالحة... إذ حدث قبل الموعد المحدد ببضعة ليالي، وبعد إبراق أبى لمدرسه عطبرة و إكمال ترتيبات الحجز والسفر لي بالقطار، رأيت في منامي بناية كبيرة شاهقة قصدتها وأنا في صحبة أبي ممسكاً له يداً بيد، ورأيته يدخلني معه إلى مكتب أنيق بداخل تلك البناية، يجلس عليه "تصراني أحمر الوجه " و آخرون... فإنتبهت مذعوراً من النوم وقصصت على والدي الرؤيا.

وصادف أن كان معنا في المنزل في بورتسودان تلك الليلة أحد الموظفين المشهورين بالتقوى والصلاح، هو محمد سعيد العبادي. فتأثر أبي مما رويته ورده إلى تهيبي وإشفاقي وخوفي من الوحدة والفراق لهم لسبب السفر وحيداً إلى عطبرة ، غير أن ضيفنا كان يهدئ من خاطر أبي. وكان مما أذكر قوله له: "يا عباس إن أمثال هؤلاء الصغار الأطهار، الذين لم يبلغوا الحلم، نفوسهم مرايا صافية تنعكس على وجوهها الحقائق.. ومن يدري فربما كان ذلك فالاً حسناً ودليل خير.. فأحسن بالله الظن فلعل الله سيحدث أمراً."

لم يمض على تلك الرؤيا يومان على ما أذكر، إلا وساعي البريد يحمل إلى أبي، ناظر المدرسة ببور تسودان، برقية مستعجلة من مصلحة المعارف تعلنه فيها بنقله مترقياً إلى مدرسة أم درمان الأميرية الإبتدائية (الوسطى) مدرساً بها و توجيهه بسرعة التحرك الفوري لينفذ ذلك النقل وليغادر بأول قطار ليشارك في إمتحانات الفصول والقبول في أم درمان.

كان الإستعداد لذلك يتطلب أياماً وخشي أبى أن تضيع عليَّ فرصة الجلوس للإمتحان. فعجل بتسفيري إلى عطبرة، لكن مصلحة المعارف إستعجلته بالإسراع بمغادرة بورتسودان بالقطار الذي تلا ذلك الذي سافرت به. وكان ذلك بعد ثلاثة أيام وكانت إمتحانات عطبرة قد بدأت في اليوم الذي سبق وصولي إليها. فوردت إشارة برقية من أبى تطلب مني مقابلته بمحطة عطبرة ومرافقته بالقطار الذي يحمله إلى أم درمان. وبالفعل تركت عطبرة دون أن أتمكن من الجلوس للإمتحان فيها ووصلت مع أبي إلى أم درمان لأجد إمتحانات القبول فيها قد أجريت وإنتهت.. فقدر ناظرها،

الشيخ الوقور عبد الرحيم حامد، وضابطها الأستاذ عبد القادر شريف (رحمهما الله) الموقف الخاص بي بعد أن شرحه لهم أبى ووافقوا على عقد إمتحان خاص لاحق أجلس له منفرداً وتم ذلك بالفعل بعد الفراغ من تصحيح إمتحانات اللجنة.

نزلت مع أبى في دار خاله _ جدي الشيخ قريب الله _ بودنوباوي في إنتظار إتمام إجراءات الإمتحان للقبول لي وإيجاد السكن له للإستقرار. وكانت نهاية ذلك العام في عز الشتاء ببرده القارص، ووجدنا بمنزل الشيخ قريب الله الجد الشيخ محي الدين ومعه أبناؤه (الطيب والوسيلة) اللذين جلسا للإمتحان قبلي وهما ينتظران نتيجة القبول. وأذكر كريم وفادة جدنا الشيخ وطيب إستضافته لنا وقضاء جلّ وقتنا معه في ديوانه الخاص (دار حفيده الآن مولانا الشيخ الحسن) يفيض علينا من حنوه ويغمرنا بكرمه وسخائه، منذ شاي الصباح الباكر الذي يصبه من "سمواره" في إبريق الشاي الطلس (البراد) ويديره علينا. وأذكر كيف أنه كان يتبسط معنا ويسائلنا إن كنا قد صلينا فريضة ذلك الصباح. وكنا وقتها كلنا دون البلوغ ونتهيب برودة ماء الوضوء اللاذعة كالثلج... فألوذ بالصمت، بينما كان يعمد بعض أبناء جدي إلى تعفير الجبهة بتراب البرش فيجيب "نعم سيدي"... ويظل الشيخ يحادثنا ويلاطفنا. وأذكر جيداً ذلك الصباح الذي كنا ووالدانا نجلس حوله، وهو يعد شاي الصباح ويقلب السكر في براده، مخاطبته لنا بقوله: إذا أنشأت لكم أبيات شعر هل ستحفظونها ؟ فأجبناه بصوت واحد مبتهجين ومتعهدين بالوفاء بذلك. فما كان منه إلا أن قال بداهة على الفور، وهو يقلب السكر، مخاطباً كلاً منا على حده:

إن "الوسيلة" بالخيرات متصف   و"طيب" القوم معروف بكل ثناء

وهنا قال لي، وهو ما زال يقلب السكر ليذيبه في البراد.. " الطيب والوسيلة أكبر منك سناً يا خليفة. لهذا بدأت بهما فلا تغضب... ولقد خصصنا كل واحد منهما بشطرة بيت واحدة. ولترضى أنت فسنخصك ببيت شعر كامل، لكن عليك أن تحفظه وهو:

ثم الخليفة ذو علم ومعرفة   فأكرم بذلك و أشكر سيره الحسنا

وظل الشيخ رضي الله عنه يسألني أول ما يسألني، كلما كنت ألقاه منذ ذلك الوقت وإلى سنة وفاته، إن كنت أذكر تلك الأبيات ويستعيدني إلقائها بين يديه فأفعل.

◆ تأويل رؤياي قد جعلها ربي حقاً:-

يوم إعلان النتائج للقبول إصطحبني أبي إلى مدرسة أم درمان الأميرية ذات الطابقين، حيث عقد لي إمتحان خاص بإحدى حجراتها أكمل تصحيحه بتوه وفي ساعته. وكانت لجنة القبول برئاسة المستر وليمز ما تزال منعقدة في مكتب الناظر. وعند فراغها من مهمتها، وقبل إنفضاضها، دخل بي أبي عليهما ممسكاً بيدي لنمثل أمامها، فأعلنت قبولي. وكان ذلك المشهد بعينه تجسيداً واقعياً مرئياً لنفس الصورة المنامية التي رأيتها ببورتسودان!!! وكان،يا سبحان الله، ذلك تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً!! فله الحمد وله المنة.

◆ فترة التعليم الأوسط:-

إختار أبي منزلاً متواضعاً استأجره قريباً من "كهربة عامر" التي كانت تضاء بغاز الإستصباح، إذ لا كهرباء به، ظللنا به "عزاباً " لحين إلتحاق العائلة بنا من الجيلي. وقد كنا نطهو معظم الطعام بأنفسنا، ويمدنا بالماء السقاة بالخرج واليمانية بالقربة، يحملونها على ظهورهم أو يحملها عنهم حمارهم... ونتبادل (أنا وعبد الله والوسيلة الطالب إبن خال أبي) عمل الشاي صباح كل يوم بالتناوب أو بالتوالي كما تقول لغة العصر. كما كنا نتناول وجبة إفطارنا، المكونة في أغلب الأوقات من اللقيمات، بالمنزل أو الطعمية والعيش بالمدرسة مقابل خمسة مليمات " التعريفة" لكل منا!!! .

وكان من بين معلمينا بأم درمان الإبتدائية آنذاك الأساتذة إسماعيل الأزهري وحسن أحمد مشاشة وعثمان إبراهيم وعبد القادر شريف وعبد الله عبد الرحمن وأبي (والشيخ الخطاط) الدر ديري ومدثر أبو القاسم هاشم وغيرهم.

◆ وفي مدني:-

وبعد إنقضاء عامي 1925و1926م في أم درمان، أكملت فيها السنة الأولى والثانية الإبتدائية ذهبنا بعدها إلى (ود مدني) حيثِ تم نقل أبي إليها مدرساً. وكان ناظرها (حسن الطاهر) حازماً وصارماً ومهيباً. وكان من أساتذتنا بها الشيخ الأمين عبد الرحمن ومحمد أحمد حامد السيد وعوض ساتي ومحمد الأزرق وآخرون. وشاء الله أن أكون أول الفصل للسنة الثانية وأن يكون "الوسيلة" أول فصلة للسنة الثانية. وكان النظام الذي فرضه الناظر أن يعين أول الفصل "ألفة" ويتولى مهمة تدوير التلامذة للفصل في الطابور ولأخذ التمام ولتدوين الغياب وما إليه.. وكان صغر سني (12سنة وقتها) وقصر قامتي ونحول جسدي سبب متاعب كثيرة لي بالنسبة لرفقائي في الصف لما أثاره من حساسيات وإستخفاف، هذا وقد كنت أرافق أبي الذي كان مولعاً بالصيد إلى خارج مدني أيام الجمع والعطلات، وإلى جزيرة الفيل وإلى الشبارقة بعد عبور النهر، التي كانت تعج شواطؤها بالوز والطيور كما تغص أشجار غاباتها بالقردة والنسانيس (صغارها) في العطلات وأيام الجمع.

◆ في بربر:-

في عام 1928م نقل أبي لمدرسة بربر الإبتدائية التي أكملت بها السنة النهائية الرابعة وكان ناظرها (الشيخ حسن علي) مدرسنا للحساب والأساتذة النصري حمزة وعلي حسني و محمد علي الشايقي وغيرهم. وحللنا ببربر داراً فسيحة بجوار المسجد، قريبة من سكن القاضي الشرعي، مولانا الشيخ أحمد الطاهر، زميل أبي وصديقه الحميم، قاضي قضاة السودان فيما بعد.

كان أبي يدرسنا اللغة العربية في المدرسة ويصر على أن نحفظ القواعد عن ظهرِ قلب. وأذكر كيف إنا تمردنا عليه ذات مرة، فقررنا أن نضرب عن الحفظ. وكان من عادة أبي معنا بالمنزل أن يراقب إستذكارنا ومراجعتنا للدروس كل مساء بين صلاتي المغرب والعشاء، بعد أن نعد وننظف الفوانيس ونوقدها، ثم إستظهار ما

هو بحاجة للحفظ كمفردات اللغة الإنجليزية وتهجئة كلماتها والقواعد والنحو في الصباح الباكر قبل تناول الشاي. وأذكر أنه لاحظ عدم إستذكاري للنحو الذي كان من المقرر تسميعه له في ذلك اليوم، وربما ترامت إليه أنباء إتفاقنا على التمرد. وذهبنا إلى المدرسة وجاءت الحصة ودخل وهو بادئ الغضب لفصلنا. وبعد قيام وجلوس قال لنا في إنفعال وتحدي " أقفلوا الكتب. الحصة تسميع." وبدأ بي منادياً "خليفة .. سمّع" فإرتبكت ثم لممت أطراف شجاعتي وقلت:- ما حافظ.. فما كان منه إلا أن إجتذبني إلى خارج المقعد ويتناول المسطرة (وكانت تلك هي أداة وطريقة للعقاب) فيهوي بها ثلاثاً على ظاهر كفتي اليمنى، التي ورمت في الحال، عند مفصل الأصبع الوسطى مما أثار بعض إشفاقه. ولكنه كتمه ومضى يوجه سؤاله وينزل عقابه على الآخرين: على أن ذلك لم يستمر طويلاً.. وعندما تطور تورم يدي وإشتد بي ألمه، أمر بإرسالي للشفخانة لمقابلة الحكيم. ثم لحق بي إلى هناك فنجا بذلك بقية زملائي من المساءلة والعقاب... وكان أساتذتنا جميعهم يبذلون معنا كل جهد مستطاع لإعدادنا لإمتحان كلية غردون. وينتهزون لذلك كل فرصة للإفادة من أي رسمي زائر أو مقيم ، أذكر منهم المفتشين، وطنيين وأجانب، وبخاصة زيارة المستر وليمز التفتيشية وحصة الإملاء الإنجليزية التي ألقاها علينا لنتعرف على نطق الخواجات، والتي حالفني فيها الحظ فإنفردت بكتابتها صحيحة سليمة بلا أخطاء. فكان جزائي مكافأة على ذلك إهداء كتاب "عبد الله العربي" لي تقديراً وتشجيعاً منه.

وأحب والدي بربر وأهلها حباً جماً ونظم في مدحها ومدحهم عدة قصائد أذكر منها :

صافحني حمد السري   لما حللت بربرا

حصباء در أرضها   والنيل فيها قد جرى

والتي ذكر فيها عدداً من كرام رجالاتها كالشيخ عبد العظيم بك خليفة، الذي قال عنه:

عبد العظيم وحده الصيد في جوف الفرا

شيخ على رفعته لا يزدري مفتغرا

يحب أهل الخير للخير ويتلو السورا

ذو حنكة وحكمة ما نالها اهل الورى

و التي يقول فيها عن الشيخ حبيب الله الدفارى:-

وللدفارى منن أجلها أن تحصرا

وقصيدة نصحه لنا نحن طلبة الفصل النهائي ونحن نتوجه لإمتحانات الكلية. وكان من بين من تعرفنا بهم من الأسر فيها شيخ الميرفاب، عبد الماجد أيوب بك. وكان إبنه عبد الله زميل فصلى على بعد ما بيننا من التفاوت في البنية وفى السن، وآل توفيق هيبة وأبو شنب ووجوهها وفقاؤها..وكنت

أشوف بربر أشوف جوخها وحريرها أشوف المئذنة الـ قبل الجزيرة

ومنازل مشايخ الدين غربها في كدباس وفى الفاضلاب. ومما أذكره لتلك الفترة ونحن ببربر قصة إقلاع أبي عن التدخين، التي أرويها لطرافتها وظرافتها و لأنها كانت لبعض تصرفاتي. فقد زاره بالمنزل الأستاذان النصرى حمزة وعلى حسني وكان أبى وقتها يدخن السجائر كما كان أستاذنا على حسني يدخن الغليون (الكدوس) وفى عصر أحد الأيام، وبينما كانوا يحتسون القهوة (الجبنة) إحتاجوا إلى ما يشعلون به دخائنهم. فصاح بي والدي لأحضر لهم (علبة كبريت) ولكن أستاذنا النصرى، المشهور بمراعاته المفرطة للإقتصاد صاح بي:- "تعال هنا يا ولد مش نار القهوة لسه مولعة عندكم بالداخل؟ قلت نعم. قال إذاً خذ السيجارة و أشعلها منها وأعدها بسرعة." فذهبت إلى حيث الموقد والكانون داخل "التكل" المسمى بالمطبخ، ومكثت بعض الوقت أحاول إشعال السيجارة. ولعل إبطائي أثار إندهاش أو قل شكوك أبى الذي لحق بي، فوجدني أضع السيجارة بين شفتي وأنكفئ بها على جمر الموقد لأوقدها. وعندما رأيته فزعت وصرخت وقذفت بالسيجارة وطفت أجري مبتعداً عنه وعن الضيوف. فإذا به يصيح لي منادياً ومطمئناً أن أقبل ولا تخف ومقسماً بأنه لن ينالني منه أي سؤ أو أذى، وأخذ بيدي وأنا أرتعد من الخوف

ومضى بي إلى حيث يجلس زميلاه وضيفاه، وقال لهما:- ماذا عساي أن أقول له؟ أأقول له إبعد عن السجائر لأنها سيئة؟ وكيف أقول ذلك وأنا أتعاطاها؟ تعال يا خليفة... لا لوم عليك ولا تثريب. ولكن من جهتي أنا هذا آخر عهدي بالسيجارة التي كنت أحاول إشعالها والتي ضبطني متلبساً بوضعها بين شفتي والتي داسها تحت قدميه وهرسها مع كل ما تبقى في صندوقه من سجائر، آخر عهده بالتدخين إلى آخر أيام حياته فعلاً ولم يعد إليها إطلاقاً بعد ذلك. وكان درساً وعيته بعد حين.

وإنتهت السنة الدراسية الرابعة ببربر وحان موعد إمتحانات القبول لكلية غردون الثانوية، التي كانت تعقد في الخرطوم ويؤمها الطلاب من جميع المدارس الإبتدائية القليلة بالبلاد آنذاك: وهي:- حلفا وعطبرة ومدني والأبيض بالإضافة إلى مدرستي الخرطوم و أمدرمان بالعاصمة. وبذل أساتذتنا جمعيهم جهوداً خارقة في سبيل إعدادنا كل في مادته دون دروس خصوصية أو أي معاملة. والذي عجبت له هو أن الوالد حتى ونحن نواجه عقبة إمتحانات تلك المرحلة الحاسمة لم يتوقف عما عودنا عليه من تهيئة فرص القراءة والإطلاع في غير كتب المدرسة، بل كان يشجعنا على الإستمرار في تصفح الكتب العامة التي كان يقوم بإختيارها لنا من مكتبته في الدين والأدب والتاريخ واللغة والشعر. ومنذ سنتنا الثالثة الإبتدائية كان يحبب إلينا حفظ الشعر، وخاصة من ديوان حافظ إبراهيم ويشجعنا على ذلك بأن يعطي كل من يحفظ بيتاً ويسمعه له صحيحاً تعريفة (نصف قرش أو خمسة مليمات) وأذكر كيف كان ذلك يدفعنا على حفظ عدد من الأبيات كل يوم نقوم بتسميعها له كل مساء ونتناول ما فرضه على نفسه من أجر تشجيعي مقابل يتزايد كل يوم عليه، حتى إذا ما كاد أن يرهقه ويستنزف محفظته عدل في الشروط لتكون "التعريفة" مكافأة لكل بيتين لا لبيت واحد فقط. ولما إستمر إستنزافنا أنا وأخوتي لتعاريفه عمد رحمه الله إلى أن يزيد شرطاً إضافياً ثالثاً عسير المنال أن لم يكن أقرب إلى التعجيز، هو أن نقوم بتفسير ذلك البيت وشرحه الذي كثيراً ما كان يخطئنا فيه. فقل بذلك دخلنا و إرتاحت محفظته، ولكنه غرس فينا محبتنا للشعر

وقوى من قدرات حفظنا له ومن تذوقه، بل ووجه ملكاتنا إليه. فكان خمسة من أشقائي يقرضون الشعر. وأذكر بهذه المناسبة أول بيت نظمته من الشعر بداهة. وكان ذلك في بربر وفي نفس ذلك العام وعمري وقتها ثلاثة عشر سنة. فقد أرسلني أبي إلى مكتب البريد بها، والوقت كان يستشرف حلول العيد لأبتاع له عدداً من بطاقات المعايدة، التي كانت مظاريف أنيقة بيضاء صغيرة الحجم مختوماً عليها طابعها الأصفر. كانت تباع الواحدة منها كاملة بملمين ونصف المليم فقط (في الوقت الذي أدون فيه هذه المذكرات في التسعينات يباع ظرف الخطاب وحده بمائتين وخمسين ألف مليم وطابع البريد المحلي بألف وخمسمائة جنية سوداني)... أحضرتها له بالمنزل ليضع بداخلها التهنئات التي فرغ من كتابتها على ما يشبه الكروت الصغيرة من الورق لإرسالها إلى أهله ومعارفه وأصدقائه العديدين في الجيلي والخرطوم وأمدرمان والأبيض ومدني وبورتسودان وغيرها. لكني أذكر عندما تناول أبي ظروف البطاقات البريدية واحداً بعد الأخر وأخذ يكتب عليها، دون أي توقف، العناوين التي سترسل إليها بادئاً بالجيلي يخطها بخطه الجميل في أعلى الظرف، بطاقة بعد أخرى حتى لم يتبقى منها إلا القليل جداً بحركة لا شعورية دون أن يفطن إلى ذلك فنبهه بعض من كان حاضراً، فتوقف وحوقل وإسترجع متعجباً من فعله ذاك معرباً عن دهشته له.. وفي التو والساعة أجرى الله على لساني بيتاً من الشعر خاطبته به متسائلاً هو :

شغل القلب حب تلك البلاد فكتبت العنوان غير المراد؟

وكان ذلك أول بيت أنظمه إرتجالاً وكانت فرحة أبى وسروره بسماعه. ومفاجأتي له به كانت أضعاف ما تملكه من تعجب ومن إعجاب، فإحتضنني نحوه بقوة وربت على ظهري بيديه وتنازل لي عن كل ما رجعت به من مكتب البريد من فكة لأحتفظ به جزاءاً وفاقاً. وحان موعد سفرنا نحن تلاميذ السنة الرابعة جميعنا لإمتحان اللجنة بالخرطوم، وتحدد ميقاته ليكون بإكسبريس حلفا - الخرطوم الذي يغادر بربر بعد منتصف الليل. وأفردت عربة كاملة بالقطار (لا أذكر إن كانت

بالدرجة الثالثة أم الرابعة) لنشغل نصفها من بربر وليقاسمنا نصفها الآخر طلبة السنة الرابعة بمدرسة عطبرة الإبتدائية الذاهبين للإمتحان معنا. وكانت لفتة كريمة وعظيمة وسخية من أبى أن يتصل بأهلنا في الجيلي مسبقاً وأهل زميلي إبن قريتنا في الفصل، ويسمي خليفة صالح، ليقابلونا وليعدوا لنا ولجميع من كان معنا في القطار من الطلبة طعام الإفطار بمحطة الجيلي التي يصل إليها القطار قبل الثامنة والنصف صباحاً. فقد كان آباؤنا كأجدادهم في الكرم يفاخرون به وعليه يحرصون. فكان لسان حالهم كما يقول شاعرهم:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى   لا ترى الأدب منا ينتقد

وبالفعل ما أن وصل القطار إلى الجيلي حتى رأينا مشهداً عجباً من الرجال والنسوة والخدم، وقد أحالوا فناء المحطة إلى مطعم كبير إمتلأت فيه الجفان التي طفحت كالجواب بالعصائد واللحوم وبالفطائر ولقيمات القاضي وبالشعيرية والمطبق، ومدوا البروش إلى جانبيها فنزل إليها الطلبة وغيرهم من الركاب فأكلوا هنيئاً وأديرت عليهم كؤوس الآبرى والشاي فشربوا مريئاً. وغادرنا والطعام والشراب ما يزال باقياً وموفوراً كأنه لم يمس... وأخذتنى وداخلني حال من الرضى المقرون بالإرتياح البالغ والزهو من صنيع أهلي والإعتزاز ورفع الرأس بتكريم وفادة قريتي المضيافة ولما لهج به زملاؤنا الطلبة من تأثر و إشادة وثناء.

وفى داخليات كلية غردون التذكارية وفى الميادين وفى قاعات الإمتحان، حيث تجمع الدفع، وجدت أني أعرف الكثيرين جداً منهم. وذلك لسابق مزاملتي لهم في رفاعة أو في النهود أو في بورتسودان أو في أم درمان أو في مدني بالإضافة إلى رصفائي ببربر، وحتى تلاميذ عطبرة الذين رافقوننا في القطار والذين يعدد أسماءهم فيها الشاعر القومي، المهندس فيما بعد، خضر خلف الله، في مدحته التي كان يدعو لهم فيها بالنجاح والإنتصار ويشنف بها أذاننا ونحن في القطار والتي أذكر منها مطلعها :-

قام بينا القطر حلاً   أولاد أتبرة المنصورة بأذن الله

♦ في كلية غردون التذكارية :-

تم قبولي طالباً بكلية غردون التذكارية في أول 1929م بالسنة الأولى حرف ألف (A) مع المبرزين الأوائل في المجموع. ولكنى وبسبب تخلفي في مادة الحساب كنت أحضر حصص الرياضة في آخر الفصول الرياضية حرف (د) (set d) وحدي. ولقد كانت الرياضة بنوعيها، الأكاديمي والبدني، لا تروقني ولا أهتم بها كثيراً، ذلك لأن إتجاهي منذ البداية قصر على الإهتمام بالدراسة. كما كان ضعف جسمي لا يساعدني علي ذلك. ولقد كابدت من ذلك الأمرين، فقد كنت بداخلية إستاك وفي العنبر الذي يرأسه إبـن قريتي، زين العـابدين الحسين كيران، الذي كـان كابتن الفريق الأول للكلية. ومن الغريب أني وجدت في اللوحة التي تضم أسماء التيم الأول جبلابياً آخر هو محمد صالح رحمة الضابط الحربي والخريج فيما بعد.

وبقدر ما حظيت به من إحترام وإعجاب أساتذتي في سنة أولى حرف (أ) كنا نحن معشر المتخلفين في علوم الرياضيات في السنة الأولى حرف (هـ) موضع إستهزاء وعدم المبالاة والتندر حتى من معلمينا. وأذكر أنه كان في حصة الهندسة لا يكلف أستاذنا علي حسني نفسه بشرح النظريات الهندسية أو رسمها على السبورة، لأن ذلك كان يكلفه عناء لا يستحقه أمثالنا، بل كان يكتفي بأن يعقد بين أصابع يديه مثلاً في شكل مثلث ويشير إلى زواياه بطرف لسانه، وهو جالس على كرسيه!!!

عند إجراء الكشف الطبي العادي علينا في الشهور الأولى من السنة الأولى، نصح الطبيب بإعفائي من الألعاب الرياضية جميعها. وما كنت أحس بأي تعب أو بالإعياء. ورغم ذلك أدخلني مستشفي الخرطوم. فكنت ويا للعجب في نظر أطبائه حالة خاصة. إذ وهموا أن قلبي-وبالميلاد - تنقصه تقسيمة واحدة من تقاسيم القلب البشري، بإحتوائه على ثلاثة تجاويف فقط، بدل الأربعة المألوفة أو كما قالوا.. وأذكر كيف أن أفواجاً من طلبة كلية الطب كانوا يتقاطرون إلى سريري كل يوم برفقة أستاذهم البريطاني، مدير المستشفى، فيتحسسون، ويتصنتون بسماعاتهم لدقات

قلبي. أحتجزت بالمستشفى لفترة طويلة فاتني فيها الكثير من الدروس. وعندما عدت إلى الفصل قبيل العطلة السنوية بقليل، وكان من أعجب ما أوصى به الأطباء أن لا أرقى إلى درج من السلالم أن كان موقع فصلي في الطابق العلوي، وأن أنقل إلى فصل أرضي، وأن يسمح لي بالإجابة على أساتذتي في الفصل وأنا جالس بالإضافة إلى إعفائي بل وتحذيري من ممارسة أي العاب رياضية. وللقارئ هنا أن يتصور إلى أي حد بلغ بي الوهم والإنشغال وإلى أية درجة إستولى علي القلق ولأي مدى ساقني إليه ما إبتلوني به من التوهم. وجاءت الإجازة وذهبت إلى بربر حين كان أبي ما يزال يعمل مدرساً. وقر رأيه على أن يسافر بي إلى القاهرة تواً لعرضي على أطبائها إنتجاعاً للعلاج .

• إلى القاهرة:-

ووصلنا إلى القاهرة في منتصف 1929م. وقصدنا الدكتور الشهير سليمان عزمي باشا، أكبر أطبائها الأخصائيين للباطنية والقلب آنذاك. وكان قراره مدهشاً ومحيراً بقدر ما كان مبهجاً ومفرحاً لي ولأبي عندما نطق لنا وأعلن لنا نتيجة ما أجراه من فحوصات وتحليلات وتخطيطات وصور وكشف بقوله مخاطبا أبى:- "أن قلب إبنك يا أستاذ قلب طبيعي سليم وعادي وصحيح مائة بالمائة" ثم أضاف موجهاً حديثة إلي قائلاً "إن قلبك يا بني كعضلة أحسن من قلبي أنا". يعني بذلك نفسه. ووصف لي أدوية ومقويات لفقر الدم وللباطن وأمرني بأن أمارس حياة طبيعية تامة بما فيها التريض غير المرهق، كما نصحني بأن أنسى كليةً أنني مريض وأن أغتنم فرصة زيارة القاهرة بالتنزه فيها وبالتجوال وبالتعرف على آثارها والتمتع بمباهجها وبمسراتها وبخيراتها.. فإنزاح عني وعن كاهلي ما كان مستحوذاً عليَ من كابوس ووهم وهم وغم. وتطامن القلب المفترى عليه وإنتظمت دقاته وإنقطع الوهم وصرت وكأنني قد ولدت من جديد .

وعملاً بنصيحة طبيبي لم أترك أثراً أو متحفاً أو حياً أو مسجداً أو مزاراً لآل البيت أو الأئمة الصالحين أو مَعلماً من معالم قاهرة المعز الجميلة إلا زرته. وسجلت في كراسة كاملة كل ما شاهدت ولفت نظري، وكل ما إكتحلت به عيناي أو سمعته أو إستمتعت به أذناي، مما جعلته موضوع محاضرة طويلة عنوانها (ثلاثة وعشرون يوماً في قاهرة المعز الجميلة الخالدة) أعددتها أملاً في إلقائها على زملائي بالكلية بعد عودتي لإستئناف الدراسة فيها، والتي لم تسمح سياسات سلطات الكلية وقتها، كما أفضى إلي وشاء أن يطيب خاطري بذلك وقتها أستاذي عبيد عبد النور، الذي أحتفظ بمحاضرتي عنده وإستكتبني كبديل عنها هذه الأبيات الثلاثة المشهورة، ولعلها للإمام الغزالي :-

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل   وعدت إلى مصحوب أول منزل

ونادت بي الأشواق مهلا فهذه   منازل من تهوى رويدك فأنزل

غزلت لهم غزلاً دقيقاً فلم أجد   لغزلي نساجاً فحطمت مغزلي

وحرت في فهم مدلولها عندما تأملتها مؤخراً أو بعد حين، ففهمت منها بالتلويح ما هو أبلغ من التصريح والتوضيح .

في القاهرة كـــان لأبي بعض الأصدقاء والأقرباء إحتفوا بنا و أعانوننا كثيراً، أذكر منهـم خاصة أبناء الزبير باشا الثــلاث (رجب) المتقاعد و(سعد الدين) البكباشي و(محمد الجميل) سكرتير وزير الأوقاف ولاعب مصر الدولي في فريق كرة القدم الأول للزمالك... دعونا إلى منازلهم جميعاً و أكرمونا. وهناك مشهد ماثل بالذهن ما أزال أذكره وأرى أن لابد لي من أن أسجله عن زيارتنا لجميل الزبير ودعوة غدائه ومائدته الملوكية العامرة. والجميل بن الزبير باشا أمه تنتمي لأسرة السنوسي الحاكمة في ليبيا. وقد توفيت وكان يعيش مع خالته في بيته الفسيح الأنيق الذي بدا لنا قصراً باذخ الشرفات.. طلب إلى مضيفنا الجميل بعد الغداء أن أحضر معه لأسلم على خالته. وكانت تجلس فوق سرير نحاس عال، له درجات تسدلت من حوله الستائر الموشاة في غرفة واسعة، يغطي أرضها السجاد الفاخر.. وعند

وصولنا إلى باب الغرفة طلب مني الجميل أن أخلع حذائي. وكنت أنتعل جزمة عالية برباط جميلة وغالية شراها لي أبي في مصر. فترددت في خلعها وأخذتني دوافع العزة والإباء، فلم أفعل. وعندما كرر لي الطلب وأبصرته هو قد خطا إلى داخلها منتعلاً حذاءه قلت له في صرامة.. ولكن لماذا أخلع حذائي وأنت لا تفعل ذلك؟ وأصررت على الدخول معه بالحذاء وهو مندهش ومتعجب، حتى إذا ما حاذيت سرير خالته، الذي بدا لي في أبهة العرش، مدت إلي يدها فصافحتها وهززتها. وهنا طلب مني الجميل أن "أحب" عليها بلغة المصـــريين. فلم أفهم مـــراده. وأعاد الكرة بقــوله لي "بوس إيدها." فلم أفعل ورفضت أن أفعل ذلك. وإمتعض وتركني. وعندما عدنا إلى حيث كان يجلس أبى في الصالون بالطابق الأرضي، قص عليه الجميل ما حدث مني ممتعضاً له متعجباً منه، إلا أن أبى قابل ذلك بإبتسامة عريضة كانت كلها رضى وكلها إعجاب بما صنعت. وظلت علاقة أبى بصديقه الجميل حميمة ودودة ومتصلة طيلة حياتهما. وقد زار الجميل والدي ونزل ضيفاً عليه بعد ذلك في ود مدني عند زيارته الأولى للسودان. وكان كلاهما معجب ومحب ومفتون بالصيد والرماية لحد كبير. وإستمرت بعد وفاة أبى صلتي وعائلتي بالجميل وبأسرته، صلة حميمة إستحالت إلى صداقة متينة وكثرت لقاءاتنا بعدها بالخرطوم وبمنزلنا بالجيلي وفي شقته المطلة على نادي الجزيرة في الزمالك أو بذهبيته (عوامته) الراسية على شط النيل قرب أمبابة في مصر، مرات عديدة ولسنوات طويلة عامرة.

♦ لقاء مع بطل الشرق عثمان دقنة في منفاه بوادي حلفا :-

ونحن في طريق عودتنا من مصر أتاحت لنا فرصة تأثر مسير القطارات من جراء هطول الأمطار والسيول عامها أن نقضي في حلفا بضعة أيام سعدنا خلالها بزيارة فريدة وتاريخية نادرة، حظينا بمقابلة بطل شرق الســــودان الصـنديد المغوار "عثمان دقنة" في حديقة الدار الواسعة التي كان معتقلاً بها في وادي حلفا...

أذكر سحنته البرونزية ورأسه الأشيب ولحيته الكثيفة البيضاء وتجاعيد جبينه وأهدابه الغزيرة المتدلية على محاجر عينيه الغائرتين والجبة السميكة من الدمور الغليظ التي كان يكتسيها ويتدثر بها.. وأذكر عند محادثة أبي له لكنة لسانه وصوته الخافت الأجش الذي لا يكاد يبين.. وأذكر حديث أبي معه عن المهدي وعن المهدية خاصة. وأذكر كلبته الأنيسة التي كانت تلازمه ملازمة الظل ولا تكاد تفارقه أبداً... وأذكر إسمها "فريدة" وأذكر وأعجب لما قاله لأبي من أن المهدي مذكور في القرآن الكريم.. ومحاولة تعزيز ذلك بمساءلته لأبي... "ألف لام ميم... ... "هدى" جابت شنوا!! وأذكر ما قاله مما يشبه الخطرفة وإن كان يرويه بلسان الواثـــق المتيقن وهو يتحدث لأبي عن اللـــوح المحفوظ، مشيراً علـــيه بأن ينظر إليه ويشهده في غرة جبهة "فريدة" البيضاء، كلبته المعقبة إلى جواره.

♦ عودة إلى ذكريات كلية غردون وأيامها:-

إستأنفنا الدراسة بعد عودتنا من القاهرة وإنتهاء العطلة المدرسية وأنا في حالة صحية حسنة. وعكفت على إستدراك بعض ما فاتني من دروس، تعطف بعض زملائي (الأخ الطاهر النيل خاصة) بنقله وحفظه وتقديمه إليّ. وحل موعد الإمتحان ورأت إدارة الكلية أن أعيد السنة الأولى نظراً لطول فترة غيابي وإنقطاعي عن حضور أكثر الحصص المقررة. فرجوت منها أن يسمح لي بالجلوس للإمتحان وأن تقضي في أمري وفقاً لما ستتمخض عنه النتيجة. وكتب أبى إلى أستاذنا عبد الرحمن علي طه، الذي كان هو المدرس السوداني الوحيد الذي زكته عبقريته ونبوغه لأن ينال شرف التدريس في الكلية دون إيفاده للخارج لتأهيل جامعي ككل ممن عداه.. فكان كما نعته أبي علماً مفرداً.. كتب إليه يستعطفه بأبيات أذكر منها:-

يا مفرداً في الجامعة　　أرقئْ لعين دامعـــــة
وكن لنفس هالها　　حرمان نفس طامعـــــة
نفس فتىً أعددته　　من قبل درك السابعة

إلى آخر أبيات قصيدة الإستعطاف وسمح لي بالجلوس.

وإنقضى الإمتحان وأحرزت فيه ما أعتبر درجة مرور (على الحركرك).. نقلت بها من السنة الأولى حرف ألف إلى السنة الثانية ولكن ثانية (حرف دال.) وكان مستوى الطلاب في الأخير متدنياً بطبيعة الحال في جميع العلوم، حتى إذا ما إنتهى العام وأجري إمتحان النقل النهائي، الذي يخصص بعده تقسيم التلاميذ إلى دارسي علوم أو معلمين أو كتبة أو محاسبين... وساعدني ما بذلته من جهد مضاف إلى مستوى فصلي لأن أكون أول ذلك الفصل.. وأذكر كيف تم إعلان تلك النتيجة علي النمط الذي كان معمولاً به آنذاك. إذ كان يتولى ذلك نائب مدير الكلية (المستر بليك في ذلك الوقت) بنفسه، وفي معيته الصول (الجهامة) فضل المولي وبيده "التيلة" المشربة حبالها بمياه الملح، ليعلن النتيجة في كل فصل .

وأذكر كيف إرتعدت فرائصنا عندما دخلا إلى فصلنا وشرع نائب المدير في إعلان النتائج مدعمة بتفصيلاتها. وكان أول من نادى عليه هو إسمي.. الأول خليفة عباس العبيد ممتاز في الإنجليزي، ممتاز في العـــربي، جيد في التاريخ، وســـط في الجغـــرافيا والعـــلوم، راسب في الرياضيـــات، يجلد ستة تيلات... وكدت أصعق. وبدأ في الجلد الذي كف عنه بعد ضربة واحدة لأني لم أحتمله... ولكني أخذت من الموقف ذلك أن أضفت إلى مفردات اللغة الإنجليزية تعبيراً جديداً عليَ هو ما عبر وعلل به نائب المدير إستحقاقي للجلد (sheer negligence) وليس بلادة.. ولك أن تتصور حال من جلد أمامهم أول فصلهم وما ينتظرون!!

ومثلت أمام لجنة التوزيع والتقسيم للتخصص. ودفعني الغرور من جهة والرغبة المتأصلة في نفسي وأنا أستجوب أي الأقسام أريد لأجيب بطلب الإدخال في قسم المعلمين.. ورد علي رئيس اللجنة، الذي كان هو نفس رئيس قبولي بالإبتدائي أيضاً، المستر وليمز، بقوله إنك صغير جداً في السن، ضعيف جداً في البنية لتتخرج معلماً بعد سنتين.. كان عمري وقتها خمسة عشر عاماً وكنت ضعيف البنية وقصير القامة فعلاً.. فتلجلجت وأصررت على التدريس. وأراد الرئيس أن يقتصر

الطريق، فقال بحزم:- أيهما تريد كاتب أم محاسب؟ فإنفعلت وكان ردي الغاضب المتهور عليه "التوظيف"... وجاء الإنقاذ بتدخل أستاذي الذي إستعطفه علي أبى السيد/ عبد الرحمن علي طه فأمرني بالخروج وقيد إسمي في صف (كتبة الإختزال والمترجمين) الذين يشاركون في الدراسة من تم إختيارهم ليكونوا معلمين في نفس الصف والفصل وأن يشاركوهم في تلقي كل المواد عدا الحصص التخصصية. وبذلك نقلت إلى السنة الثالثة .

ولابد من كلمة عن حياة الطلاب في ذلك العهد في الكلية وفي الداخلية. فقد كنا نوزع على الداخليات التي تحمل أسماء الحكام العوام الإنجليز، الذين تعاقبوا على حكم السودان وهي (ونجت، كتشنر، مفي وإستاك) وقد كنت في الأخيرة. وكان لكل عنبر رئيس مسؤول عن الإشراف والنظام والنظافة فيه والتي نقوم بها كطلبة من ترتيب الأسرة وفرشها بإحدى البطانيتين التي تصرف لنا وتطبيق الثانية تحت المخدة التي نستعملها كغطاء، ثم علينا أن نقوم بكنس العنبر بأنفسنا بالتعاون كل يوم على واحد منا بالتوالي، وعلينا أن نستحم كل صباح فرضاً وحتماً ونؤكد ذلك بشطب النمرة المخصصة لكل منا عند المشرف المنوط به رقابة ذلك في دفتر مخصص لذلك يعرض يومياً. ولكل داخلية رئيس، ثم هناك مجلس الرؤساء الذي ينعقد كل ليلة برئاسة رئيس رؤساء الكلية للنظر في عقاب من يقدم إليهم من مخالفي النظام من جميع الداخليات. فيجلدونهم بالخيزرانات. وكان بالداخليات مبنى واسع خصص ليكون مسجداً صغيراً مفروشاً بسجاد أحمر جميل، كنا نؤدي فيه الصلوات جماعةً بإمامة الطالب التقي الورع (السماني أحمد ناصر)، وكانت هناك أجراس تدق للطعام وللنوم. والأكل يتناوله الطلبة في غرفة الطعام الوحيدة، الفسيحة والكبيرة جداً، التي تتسع لهم جميعاً. وكان ما نتعاطاه فيها الفطور الذي يتكون، في أغلب الأحيان، من العدس الذي لا يتغير إلا مرة واحدة في الأسبوع ليستبدل بالفول، وكنا نطيبه بما يجلبه البعض منا من أهله من سمن زاكـــي وتوابل (شطة، دقة) وكان لكل طالب مقعده المحدد على كنبات السفرة وطاولتها، مخصص ثابت لا يتغير .

وأذكر كثيراً من الطرائف وسلوك بعض الزملاء الذين يتسابق بعضهم للطبطبة على الخبز المرصوص أمامنا ويتلمسه بأصابعه ليتعرف على اللين منه فيستأثر به دوننا.. وأذكر ذلك الصديق اللصيق الذي برع في ذلك بإستخدام أصابعه السريعة حتى أطلقنا عليه (Typist) لسرعة تنقل أصابعه وطول تجوالها على أرغفة الخبز يتحسسها بصوت منظم مسموع. كنا بعد إنقضاء الدراسة يذهب جميعنا لشرب شاي "العم زايد" من قهوته داخل الكلية "الكوب بتعريفة." وما ألذ مذاقه. كما كان البعض عندما يسأمون من العدس الرتيب يذهبون إلى الحاجة "مستورة" التي تجلس تحت شجرة الجميزة الظليلة الوارفة المواجهة لبوابة الكلية الشمالية على شاطئ النيل، وهم يحملون أرغفتهم ليغمسوها بفولها الناضج الشهي. وفي الأصائل يشغل الطلبة أنفسهم بممارسة الرياضة وكرة القدم. كما تنعقد كل مساء ساعة المذاكرة الإجبارية في الفصول بصورة منتظمة يومياً. وكانت هناك ليلة مخصصة لحضور فيلم سينمائي مرة كل أسبوع، نجلس لها فوق حشيش الميدان الغربي الداخلي ويحضره معنا مدير الكلية والأساتذة. أما ما يتبقى من وقت ما بين المساء والنوم فيقضيه الطلبة بالترفيه والمكتبة أو النشاطات المختلفة الأخرى. وقد كان لدي وقت كبير من الفراغ لإعفائي من ممارسة الرياضة البدنية التي كنت أفرط في عدم الإهتمام بها لدرجة الإستخفاف، بل الإعراض عنها. وكدليل أو لما يمكن تسميته الخمول وموات الشعور الذي نعتني به أبو الفصل البريطاني المشرف على داخليتنا وهو يعنفني وإبن عم لي على ما بدر منا يوم مباراة الكأس بين فريق الطلبة والخريجين. ولأول مرة كان الدخول إليها لغير الطلبة مقابل قرشين ونصف قرش، والتي يحضرها الحاكم العام ليقدم الكأس بها والتي جاءت فرقة موسيقي الدفاع لتعزف فيها... وقرع الناقوس قبل المباراة، وإنتظمنا في صفوف، وسرنا في طابور صوب المكان المحدد لنا غرب الميدان رقم (1)، وإنفلت أنا وإبن عمي من الصف حين حاذينا الطريق المؤدي إلى البوابة الخارجية، وإنسللنا نشق طريقنا بصعوبة شديدة ونحن نزاحم القادمين المتدافعين بالمناكب، والذين دفعوا رسوماً للدخول

لحضور المباراة التي على الرغم من كل ذلك لم تستهوينا، فهجرناها وذهبنا إلى الداخلية التي كانت تطل عبر شارع الجامعة على ميدان المباراة. وكنا كلما علا التصفيق للعبة بديعة أو أداء رائع أو مؤذناً بإحراز إصابة في الهدف، هرعنا إلى شباك العنبر لنطلع من فوق ولنستبين ما حدث... ويبدو أن الأستاذ البريطاني المشرف على داخليتنا، والذي كان مشقوفاً وكُلفاً بلعبة كرة القدم، قد أبصرنا. ولعل مما زاد من حنقه أن فريق الكلية لم يكن منتصراً في تلك المباراة. فلم نشعر إلا وهو يلج علينا العنبر وينتهرنا بكل صرامة مبدياً دهشته، بل وعجبه وإستغرابه وغيظه وإستياءه، لا لأننا قد خرجنا على تعليمات الكلية بعدم الحضور والمشاركة للتشجيع فحسب، ولكن وكما قال لما وصم به موقفنا من تبلد وموت للشعور، لا أملك إلا أن أقره وأعترف به لأنه ما يزال ملازماً لي تجاه كرة القدم وإن كنت أستمتع أحياناً بمشاهدة بعض المباريات الكبرى المحلية أو الإقليمية أو الدولية بما في ذلك كاس العالم الذي لا أرى بأساً من تتبع آخر مبارياته المتلفزة.

أما عن هواياتي الأخرى خلال فترة دراستي بالكلية، فقد تمثلت في القراءة والتمثيل والغناء والفن و الإسهام في الليالي السمرية بالداخليات. فقد إشتركت في ما أخرجته جمعية التمثيل من روايات على مسرحها مثل "أبو مسلم الخراساني" ومثلت فيها دور إبنه، ورواية "ريكاردو قلب الأسد" ورواية أخرى لا أذكر إسمها فقمت فيها بتمثيل "الفونسو" وبارزت فيها هيلانه إبنته بالسيف قبل أن تتكشف لي حقيقة أنها إمرأة. فهتفت وأنا أقذف بسيفي الخشبي بعيداً "يا الله الفونسو يبارز إمـــرأة؟!" فلا تــلبث أن تجيبني "نعم أنت تبارز إمرأة ولكنها تفوق الرجال شجاعة وشهامة... أنت تبارز هيلانه بنت الكونت داستيلا من يعرف الدهر صولته..." بداخلية إستاك وتعاوناً فيها مع الأخوة الزملاء – عثمان الحويرص و أحمد رمضان و ميرغني عشرية. وكنت أفتتحها بأناشيد بعضها من تأليفي والبعض الآخر مقتبسة عن مقولات أبي الشعرية وأذكر منها :

هذا الضياء ضياء قمــر أم نور بدر قد ظهــــــــــر
أم بيننا لمعــت درر أم نور سادتنا الحضــــــــــور
هذا المكان قد إزدهــر بفطاحل خبــروا الدهـــــــر
يا ليت شعري هل أتوا ليعضـدوا أم للحبــــــــور
يا من أتانا للســــمر من "ونجت" و "مفي" تسـر
ولنعم جيران لنــــا أبنــــــــاء منزل "كتشنر"
وكفانا فخراً أن نرى أستـــاذنا الفــــــذ هنـــا الخ ...

وأستاذنا المشار هنا إليه هو الأستاذ/ عبد الرحمن علي طه الذي كان مدربنا ويعيننا خاصة في التمثيل. إذ كان هو نفسه ممثلاً قديراً شهدناه مع صنوه البارع صديق فريد (رحمهما الله) وهما يمثلان رواية "صلاح الدين الأيوبي" التي كم هزنا وزلزل خشبة المسرح فيها وهز جوانبه وأركانه ذلك الأداء المتفوق له، وهو يقول:-

إن لم أصن بمهندي ويميني ملكي فلست إذن صلاح الدين
تحمي الممالك ربها، أما أنا فأريد أحمي الملك لا يحميني

أما عن هوايتي وحبي للغناء، فقد كان صوتي فيما يقوله زملائي عذباً وشجياً وحسناً.. وكم كانوا يطلبون إلي في الساعة التي تقع بين وجبة العشاء وجرس النوم أن أغني لهم. وكان الكثيرون من أبناء داخليتنا والداخليات الجانبية الأخرى يهرعون حتى يكتظ بهم العنبر ويضيق عندما يقال "أن خليفة يغني..." وكانت أحب الأغاني التي أحسب أني أجيدها هي أغنية "في الضواحي وطرف المدائن" و أغاني تلك الفترة الشهيرة الأخرى مثل "عزة في هواك" لخليل فرح و أغنية "يا أماني جار بي زماني" وأغاني إبراهيم عبد الجليل وأولاد بري، وعبد الله الماحي، أذكر أن زاحمته بتغيير مقطع أبيات القصيدة التي يغنيها لأسلبه حتى إسمه فأنسبها إليَّ لأقول:- "إسمـــي ود عباس العبـيد" بدل قوله "إسمي إبن الماحي المجيد".

وليس أدل على حبي للغناء و أهله من تلك المرة التي، بعد أن إستجلبنا وإستدرجنا فيها البلبل الغريد رخيم الصوت إبراهيم عبد الجليل، وهو حدث وصبي

سمكري صغير، ليغني لنا في الداخلية وصحبتنا له لتوديعه إلى مسافة بعيدة عن الكلية لينصرف هو وليعود إلى أهله ولنرجع إلى الداخلية بعد جرس النوم ببضع دقائق، الأمر الذي إستوجب مساءلتنا (ونهزرتنا) ولكن في سبيل الفن ما فعلنا وما نالنا.. وأذكر بالمناسبة كيف كان زميلنا وإبن فصلنا خوجلي عثمان (ود العمدة) الطالب الذي تخرج معلماً، لا يصبر على الغناء، حتى في فترة الخمسة دقائق التي تفصل بين الحصص، فيدندن وينقر لنا بأصابعه فوق الأدراج ونحن نتابعه. والذي مما أذكره له مقطوعة رائعة المعنى أصيلة المبنى لم أسمعها لا من قبله ولا من بعده من أحد، وهي تصور تدليلاً وترضيةً تكاد تشهدها لمحب (حردت) محبوبته فناغاها هو يصف أطوار ذلك المشهد فيصوره أبلغ تصوير في قوله :-

أبت الشاي وحردت طـول خـمس دقائق	ونادوا أبوها جـاء والله يجير متضايق
قال ليـها مـالك ملـيتي كبيدتي حـرائق	وما لـها دي عـكرت دم الشيخ الرايق
وضـعها فـي حـجره وقـعد يـلولي	وقال باكر علي أجيب حجيل اللولئ
أجيـب صياغ ثلاثة يجمروا ويجلو لك	وأجيب شعَّارنا فيك يقصدوا ويملولك
وضحكت شربت شايها، فطرت كبده	وبعـده الداده جابـت الـدلكة دارت تـبدا
قال ليها شيشك.. ما بحمل الجبدة	الجسم الفرصة.. عيون الصيد عيون الروضة
بإسـم الله أبدي وأوعـي هوي بالراحة	ولا يمس الضفر عـركك ليكون بـالراحة
بعـد ما تقضـي جيبيلا المـسك والـراحة	لأنـها غانية مشـبت في دلال أفـراحها

وتميزت تلك الفترة والتي سبقتها بتلك الكوكبة الوضاءة التي كانت تتولى تدريسنا من بريطابين وسوريين ولبنانين وأساتذة وطنيين، أذكر من الإنجليز ثيوبولد وهارتلي وأسمث ووبردزويرث، ومن الشوام شماس وخباز وحبال وأمين الحسن وطرزي، ومن السودانيين عبد الفتاح المغربي وإسماعيل الأزهري وعبيد عبد النور وإبراهيم أحمد وعبد الرحمن علي طه ومحمد عثمان ميرغني والنصري حمزة وعلي حسني ومحجوب الضوي، ومن فحول اللغة العربية المشائخ الإجلاء: الشيخ البشير الفضل والمصري ومجذوب جلال الدين وغيرهم ممن رضعوا لبان العـلم على أيدي جهابذة أفذاذ في الداخل والخارج وسقونا له أكواباً وكاسات دهاقا...

* **إضراب الكلية:-**

حدث إضراب كلية غردون، وهو أول إضراب في السودان، ونحن بالسنة الثالثة، بسبب ما هو معروف من إنتقاص راتب التخرج من ثمانية جنيهات إلى خمسة جنيهات ونصف في الشهر بسبب الأزمة المالية آنذاك. ولم يكن لي دور قيادي أو مؤثر في ذلك الإضراب. ولكني كشأني وشأن جميع زملائي قد تأثرت به وإنصعت له بكلياتي من اللحظة الأولى التي ضبطت لها الساعات مقدماً ونفذ في تمام العاشرة صباحاً ونحن بالحصص. فخرج الطلبة كلهم لم يتردد ولم يتخلف منهم أحد. وأقتصر إسهامي على الإشتراك في دوريات الحراسة والخفارة التي إستمرت ليلاً ونهاراً طيلة أيام الإضراب. وأذكر ما أطلق على لجنة إدارة الإضراب من إسم رمزي هو (الزعفرانة) وقد كان قادتها من الطلبة المهندسين، وكان من أبرز من أذكر منهم:- مكي المنا ومحمد عبد الكريم.. كما أذكر ذلك الفتي الثائر محمد أحمد عثمان من أبناء شندي الذي دفعه فرط الحماس، بعد أن خاطبنا السيد/ عبد الرحمن المهدي في قاعة الطعام الرئيسية الكبرى ناصحاً لثنينا عن مواصلة الإضراب والعودة إلى الدراسة، بأن أعتلي ظهر إحدى طاولات الموائد المتراصة في قاعة الطعام وردد صائحاً بأن ذلك لن يكون.. وقام وهو في أشد حالات الإنفعال بتمزيق جلابيته من مدخل الرقبة إلى أدناها بكلتا يديه.. وأذكر رد هذا الفعل في نفس السيد/ عبد الرحمن المهدي، بل وأذكر ألفاظه وهو يضرب الطاولة بعصاه ليقول:- "إذاً يا للخيبة. هذه ليست طريقة..." كررها مرات وهو يغادر المكان غاضباً. وأذكر كيف أثار ذلك محمد عبد الكريم، وهو من بني الأنصار المقربين، فهتف بنا بعد أن أغضبنا زعيماً مهيباً أن نتقدم نحو الطابية، التي كانت مقراً للدفاع تحتلها قاعدة الجيش البريطاني بالخرطوم... ولكن تعالت أصوات العقلاء فهدأته. كان النظام خلال أيام الإضراب مرعياً وسائداً بكل إنضباط ودقة وهدوء بين الطلاب، وفي أداء واجباتهم بالداخليات، وفي حضور الجلسات اليومية التي كان يفضي فيها لنا بكل

التطورات أولاً بأول، وتتلى فيها علينا البرقيات للسلطات والردود المتداولة والقرارات، وتوجه لنا فيها التعليمات والإرشادات. وأذكر الليلة التي إكتشفنا فيها مدير مكتب المخابرات البريطاني المستر هليليسون يتربص حول الأسوار ليلاً بالداخليات من الخارج وكيف واجهه أحد زملائي عندما سمعه يقول "أولاد صغار" بقوله "عظمة يا هليليسون أن يقلق هؤلاء الأولاد الصغار أمثالك من الكبار فيحرمون متعة النوم في مثل هذا الوقت من الليل."

كانت الروح المعنوية للطلبة عالية في المساء، وكانت الهمم تشحذ بعديد من الخطابات والقصائد المشجعة التي يلقيها البعض. كما تحولت ترنيماتنا من الأغاني إلى القصائد الوطنية وأشهرها أغنية "عزة في هواك" لخليل فرح يرددها سامر.. وأذكر الدوبيت والشعر القومي يلقيه ويؤلفه الزملاء الكثيرون من الطلبة، وأذكر منهم روائع خوجلي مصطفى أرباب التي يقول في بعضها مخاطباً وطنه:-

يالضعـيف الضـائع هـده الأيام	جابوا ليك فظائع أنت يا السودان
لاك فقير لا جائع لامتين لغيرك	ديمة خاضع طائع أنت يا السودان
ساكنوك بضـائع والمظالم جمة	صيتها طالع ذائع أنت يا السودان
الحـياة مطلـوبة وحياة الحر	في الوطن مسلوبة أنت يا السودان
البـلاد منكوبة في صباحها وليلها	تشكون كروبه و أنت يا السودان

أو القصيدة الأخرى التي كنا نتغنى بها دواماً تلك الأيام والتي يقول فيها:-

يا تربة النيـل جودي بوطني	غيور يحمـي مـاء النيل
ميـاه النيـل ما شـربوكي	بنـوك عبيـد ولا قربوكي
في الزمان الفات من هو أبوك	(المهدي) ذهب والعمل جليل
شجـاع الكل معنـى العظمة	الوطني غيور رأس الزعما
السودان مأسور (يا لزبير رحمه)	وبعـد قلـيل لاشك قتيل
صنوف تعذيب يا اخوي ذقنا	بحـور الهـم فيـها غـرقنا
مثيـلك ويـن (عثمان دقنة)	مـن الأزهار علـيك إكـليل

وغريب أن تعي الذاكرة هذه الأبيات التي ما أحسب إنها معروفة وليذكرها أحد ليسعفني بها حتى الآن.

كنا نتبرع ببعض القروش كطلبة لملاقاة بعض ما تطلبه دواعي الإضراب وإرسال البرقيات وغيرها. وكنت حتى وقت قريب أحفظ صيغ تلك البرقيات التي كانت توجهها (الزعفرانة) باللغة الإنجليزية السليمة الرصينة الأسلوب. وبمناسبة ذلك أذكر تلك البرقية التي بعثت بها إلى والدي، وكان وقتها قد نقل ليعمل في مدرسة الأبيض الوسطى (الإبتدائية آنذاك) التي أعجب بصيغتها وأنا أشرح له موقف الإضراب وخلو وفاضي وأستحثه إرسال المصاريف التي كان يحولها لي شهرياً عندما تأخرت (ومقدارها خمسة وثلاثون قرشاً بالتمام والكمال.. فأعجب!!). وكانت صيغة البرقية مختصرة إلى الحد الأدنى لتقليل رسوم إرسالها بالبرق. فأقتصرت على أربعة كلمات ليس إلا هي:- الأبيض الإبتدائية/ العبيد (محقون، سلميون، أطمئن، أسعف) خليفة.

ووصلني التحويل تلغرافياً من أبي. وبعده بأيام وردتني في أبياته التي محضني فيها من النصح ما حرصت على أن ألتزم به جهدي في حياتي، وأن أعض عليه بالنواجذ وأن أضمن أبياتها في هذه المذكرات وهي:-

لا تخل أني مضيع مطلباً ... لك مادمت مجداً في العمل

كلما شمت إجتهاداً مثمراً ... قويت في النفس أسباب الأمل

فبذلت الذخر للدهر لكم ... كل صرف أكسب العلم جلل

ومنها أيضاً الأبيات التالية:-

جانب الذل إلى غير الذي ... أرسل الأنهار من وابل وطل

وأطلب العلياء من أوجبها ... وأطَّرِح في الكد أثواب الملل

كن فتىً ذا مبدأ لا قلَّباً ... واهي العزم ودع عنك الوجل

وأهب للجد بالجد فما ... ذاق من أبطأ طعماً للعسل

وادر أمرك بالعين التي ... تستبين الرشد تسلم من خطل

صاحب الأخياروأسلك نهجهم ... وألبس التقوى مدى الدهري حلل

ومنها أيضاً:-

نعمة الله التي أولاكها أبقــها بالشكر وأحفظ ما فضل

أمطر المعروف لا مرتجياً مدح من تحبوه فالدنيا دول

وصل الأدنيلن فالمأثور أن يصل الله بهم من قد وصل

وأشرِ حب الخَلق بالخُلق فمن حبه الخلق علا فوق زحل

والتي قال في آخرها:-

راع تــنفيذ مقالي وإتخــذ كل هاد للعــلا خير مثل

وختمها بقوله :-

أنا لا أرجو من الدهر يداً غير أن تبرأ من تلك العلل

مشيراً إلى ما كان ينتابي من أمراض ألا رحمه الله من أب كريم..

وإنتهى الإضراب وأذعنت السلطات وإستجابت إلى بعض المطالب، وزيد راتب الخريج جنيهاً ليصير ستة جنيهات ونصف في الشهر، وعدنا إلى الدارسة وكان من جراء ذلك الإضراب أن أبعد الأساتذة العرب من غير السودانيين (لبنانيين وشوام) إلى بلادهم وحل محلهم سودانيون إلى جانب البريطانيين الذين أبقي عليهم جميعاً.

وإنتقلنا إلى السنة الرابعة وكان يدرسنا علوم الرياضة فيها الأستاذ/ إسماعيل الأزهري، و يدرسنا التاريخ فيها ثيوبولد وعبيد عبد النور. وأذكر كيف كنا نحتال علي أزهري لنحيل حصص الهندسة والجبر خاصة إلى سياسة وإجتماع. فكنا نوجه سؤالاً نقحمه إقحاماً، كجواز إنعقاد الإجتماع والنصاب اللازم له أن يتوفر مثلاً. فيطبق سيادته الكتاب ليأخذ في الإجابة ويتشعب الحديث وتنتهي الحصة كلها ونحن نستمع إلى ما سطره أستاذنا بعد ذلك في كتاب "الطريق إلى البرلمان." كما كان الأستاذ/ عبيد عبد النور قد عودنا من السنين الثانية والثالثة أن يستجيب لما كنا نطالبه به وبإلحاح ليروي لنا أبيات قصيدته الرمزية الوطنية المشهورة ويروي لنا ظرفها وأحداثها بعد أن عاد من جامعة بيروت.. والتي مطلعها :-

يا أم ضفائر قودي الرسن وأهتفي فليحيا الوطن

وأذكر كيف كان يطلب من الطالب يوسف أمين أن يلقي علينا، وهو يضرب بعصى المؤشر موقعاً على أنغامها كما يفعل المادحون بالطار في المدحة الأنصارية المشهورة، وهو يجلس القرفصاء على حافة التخشيبة المرتفعة بجوار المدرس في صدر الفصل :-

سيد بقعة المسجد نبكي عليك سرمد

عيشاً بلاك أسود يا مهدي الله

وفي خلال أعوام الدراسة أذكر أنه تم تسجيل وتصوير فيلم (الريشات الأربع) The four feathers بمنطقة السبلوقة قرب قريتنا (الجيلي) الذي أخرجه المخرج السينمائي الكبير الإكساندر كوردا Alexander Corda. وأذكر حفل الشاي الأنيق الذي أقامه لهم فخر قبيلتنا عمدة الجيلي وشيخ خط السافل آنذاك سليمان الحاج الزبير بحدائق مزرعته الرائعة بالجيلي، والذي بعث لنا بعربته الخاصة لتحملنا من الكلية عصر ذلك اليوم لنقوم بالترجمة فيه. وأذكر المخرجين و الممثلين والممثلات الحسناوات الفاتنات، وقد أخذوا كلهم بروعة المشهد. وأذكر قولهم وإنبهارهم عند رؤيتهم الحفل البهيج المنسق وقمت بترجمته، وهو "يا لله ... يا للروعة فقد عدنا إلى المدنية من جديد."

كان طلبة السنة الرابعة يقضون شطراً كبيراً من إجازتهم الأخيرة فيما يطلق عليه التدريب الصيفي. فيلتحق الكتبة والمهندسون والمحاسبون والمترجمون وغيرهم بالمصالح الحكومية ليمارسوا عملياً ما تلقوه نظرياً. وإلتحقت برئاسة مديرية الخرطوم. إذ تولى تدريبي الباشكاتب قناوي مكي، الذي تعطف بأن يحملني خلفه من الداخلية فوق الدراجة البخارية وهو في طريقه من الخرطوم بحري للمكتب وبالعكس. كما أشرف على جزء من تدريبنا السيد/ الدرديري نقد، كبير الكتبة السودانيين بمكتب مدير مديرية الخرطوم آنذاك.

وإنتهى عام 1932م وإنقضت بإنتهائه فترة دراستنا الثانوية بكلية غردون التذكارية. وجاء الإمتحان النهائي الأخير وحصلنا على شهادة (Pitman A)

للإختزال من بريطانيا للسرعة، وشهادة الضرب على الآلة الكاتبة بطريقة اللمس دون النظر للحروف، وشهادة النظم المكتبية الثابتة، إلى جانب العلوم الأخرى كالإنجليزي والعربية والتاريخ والجغرافيا، كل ذلك بإمتياز. وحدث أمر غريب أقدمت إليه بجرأة نادرة لم يسبقني إليه أحد أو يفعل مثلما فعلت. فقد كنت وكـما سبـق لي أن أوضحت "ما حياً" جداً في الرياضيات وكارهاً لها من كل قلبي وقانطاً من الإهتمام بها أو المرور فيها. ولست أدري كيف جرؤت وأنا أجيب على ورقة الهندسة بالإمتحان (بعد أن حاولت معالجة ورقتي الحساب والجبر ما وسعني الجهد) أن تكون إجاباتي على الأسئلة في شكل خطاب موجه إلى المصحح، نحوت فيه منحى التقيد بسلوك الأسلوب أو المنهج العادي المتبع في طرق الإجابة على أسئلة الهندسة حتى تبدو الورقة في الظاهر أنها إجابة فعلاً... ((given) من المسلم به فأكتب:-

أ / أن هذه هي السنة الأخيرة في الكلية التي بعدها التخرج..

ب/ إنه سينبني عليها كل مستقبلي الذي سيتوقف على نتيجة هذا الإمتحان..

ج/ أيضاً إنني أسلم بأن الرياضة التي جلدت من أجلها وأنا أول فصلي لا يمكن أن تواتيني في آخر إمتحان، هو نهاية المطاف..

د/ إنه حرام أن تقوض نتيجة الرياضيات كل ما أبليت فيه بلاءاً حسناً في جميع العلوم الأخرى.. ثم إنتهى لنتيجة لحل المعادلة تحت ما يقال له ويشار إليه بهذا الرمز: There -fore لذلك فإني أرجو وألتمس وأستعطف أن أمنح في الرياضيات نمرة تتيح لي مجرد المرور، حتى لا أضار بها وأنا مقدم على الإستخدام فتؤثر على ترتيبي وعلى مستقبلي!!! عمدت إلى ذلك بكل جرأة وثبات، غير مكترث وغير هياب ولا وجل.

ولم أفضي إلى أحد، كائناً من كان، بما فعلت، حتى جاء، ونحن ننتظر إعلان النتائج خلال فترة التصحيح، الصول إلى داخليتنا ثم نودي عليَّ بإسمي في الطابور لأقابل لجنة التصحيح فوراً... فأسقط في يدي وإستبد الخوف. فذهبت لأجد

اللجنة مجتمعة في مكتب كبير الأساتذة المصححين:- عبد الفتاح المغربي وأزهري ومستر جيمسون وغيرهم ممن لا أذكر تماماً. فأدخلت عليهم ووررائي الصول. ورأيتهم جميعهم وقد كست وجوههم علامة الصرامة والحزم وربما الغضب أو هكذا أرادوا أن يلقوا في روعي. وتوجهوا إلي بالسؤال الجاد والحازم "أهذه هي أوراق إجابتك؟" فأجبتهم بنعم. فقال لي الأستاذ عبد الفتاح: تقولها ولا تخشى؟؟ ثم سألوني لمن أوجه خطابي في إجابتي وأستعطف؟ وهل كنت أعرف من الذي سيتولى تصحيح أوراقي مثلاً؟ فأجبتهم بكل ثبات ورباطة جأش بأني لا أعرف على وجه التحديد. ولكني واثق بأنه سيكون أحد منكم أنتم ولن يخرج عنكم.. وأضفت لأن ذلك كان لا يهمني في شيء، فإن ما طلبته كان سرد واقع أردت أن أصارح و أكاشف به قلوب الأساتذة الرحيمة، وأنا لا أخشى عواقبه.. فعسى أن تكونوا قد إستجبتم لي "ورقّت قلوبكم عليَّ ؟"

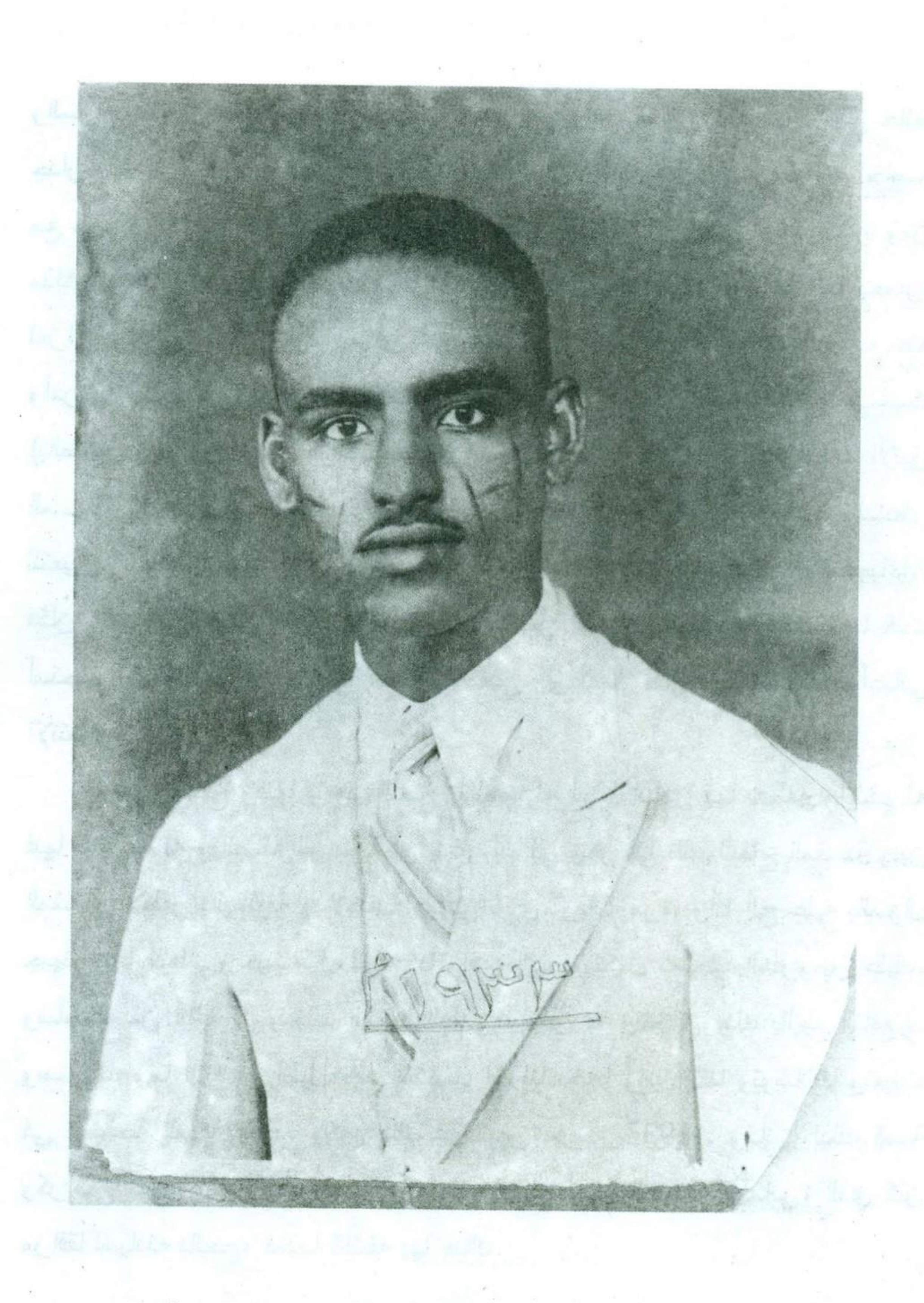
وإنطلقت بعد ذلك ضحكات عالية منهم جميعاً لم أدر وقتها أن كان مبعثها الإندهاش أم الإستغراب من جرأتي أم الإعجاب.. وقال لي أحدهم.. "على أي الحالات فإنك لم تسقط. إذ أن مجموع ما حصلت عليه من الدرجات في ورقتي الحساب والجبر وفي هذه الورقة للهندسة الغريبة أيضاً أحرزت درجة المرور.. ولكن "علي الحركرك".. وأخلى سبيلي وأنا لا أكاد أصدق. وأعلنت النتيجة بعد أيام. فكان ترتيبي الثاني لفصلي وكانت نمرة الرياضة ستين من مائة وعشرين .

وتم لنا التخرج من كلية غردون، لكنا ظللنا ننتظر فرص التعيين التي حيل بيننا وبينها وأحكم رتاجها لعدة شهور عديدة ؟؟.. ولا عجب. فقد كنا نحن أول دفعة تتخرج بعد دفعة الإضراب .

كانت فترة "طيراننا" كما كنا نسميها، تتمطى وتتطاول أيامها وشهورها، وتمر بطيئة متثاقلة الخطى علينا. وقد صادفت نقل والدي من الأبيض إلى أم درمان ليعمل في مدرستها الأميرية الوسطى مرة أخرى. وكنت أقضي أكثر الوقت، وخاصة في الصباح، بمنزل جدي الشيخ قريب الله بود نوباوي، لأجد أبناءه الناصر ومحمد

والسراج مكبون على ألواحهم ويجلسون خارج ديوانه، مسندين ظهورهم إلى حائط جداره الشمالي يقرأون القرآن. وكثيراً ما كنت أدخل على الشيخ في خلوته، خاصة مع من يتوافدون لزيارته في الضحى، وأستمع إلى ما كان يدور من حوار ومن مذاكرات علم ومن إنشاد قصائد. وأذكر كيف ذات مرة، وقد كان خارجاً بحماره لعزاء بجهة سوق أم درمان، أن أمر تلميذه الذي يرافق له عادة بالتخلف عنه وأمرني بالذهاب معه. فحللت بدلاً عنه ومضيت أسير خلف حماره ممسكاً (بالضناب) ماشياً مرة وراكضاً مرات وأنا ذلك الفتى الشاب الغر الأنيق المراهق، بجلبابه النظيف المكوي... وخريج كلية غردون... المنتظر للتعيين... وأنا أطرق ببصري إلى الأرض طول الطريق خجلاً وإستحياءاً.. فكان ذلك هو الدرس العملي الأول منه "لكسر النفس والتأديب." وكثيراً ما كنت أستحثه بذل الدعاء لي ليتم الله إستخدامي. وعندما طال بي المكث وأعياني الإنتظار...

وكان الشيخ وقتها يتأهب للحج، نظمت له أبياتاً أستدر بها عطفه وأتشفع له فيها بالقرابة له وبالصلة الروحية أن يدعو الله لي وهو في تلك البقاع المقدسة وبين المشاعر لأظفر بالوظيفة و لأكسب عيشي بيدي. وذات مرة، وأنا ألح عليه بالسؤال جبهني بما أذهلني، حيث قال لي:- يا ولدي إنك لم تكمل تعليمك المفروض عليك، وسأطلب من أبيك أن يدخلك المعهد العلمي لتلتحق به وتتم تزويدك بالعلم النافع... وصعقت. وما أريد أن أطيل، فقد إستجاب الله لنا دعانا وإستغاثتنا وتوسلاتنا وتعينت في مصلحة السكة حديد. وكان ذلك في شهر مارس 1933م. وكانت لذلك قصة وكرامة للشيخ رضي الله عنه، رواها لي الشيخ أحمد البدوي السماني، الذي كان مرافقاً لسيادته بالحج، عندما كاشفه بها هناك.



بعد التخرج وعند الالتحاق بإدارة السكة حديد

الفصل الثاني

فترة الشباب والخدمة المدنية في مصلحة إدارة السكة حديد السودانية

(ويشـمل هـذا الفصل فترة الشباب والخدمة المدنية مع إدارة السكة الحديد والإنـتداب والإنتسـاب لكلـية الآداب والإيفاد في بعثة تدريبية لبريطانيا وذكريات لـبعض الأحداث والنشاطات الإجتماعية والسياسية والدينية في الفترة ما بين عامي 1933 و1953 إنتهاءاً بالسودنة).

♦ الإلتحاق بإدارة السكة الحديد:-

أعلنت أنا وزميلي إبن دفعتي، خليل نور (إبن البكباشي) الذي كان مساعد مفتش مركز أم درمان، والذي تغنت له عذارى الحي باللحن المشهور:-

يا الحلنقي الزين.. شاي عشرات رماني

أعلنا بالتوجه إلى عطبرة للإمتحان في الإختزال والطباعة والمعاينة للإلتحاق بوظيفة كاتب إختزال فيها. وسافرنا بالقطار، بالدرجة الثالثة ذات المقاعد الخشبية، وأجري لنا إمتحان في اللغة الإنجليزية وفي الترجمة وفي الإختزال وفي الطباعة على الآلة الكاتبة الإنجليزية. وأشرف على تصحيحه رئيس قسم مستخدمي الإدارة البريطاني ومساعده مفتش الإدارة عبد الله مسعود (صهر زميلي خليل) وما زلت أذكر إختبار الإنشاء الذي كان موضوعه وصف رحلتنا بالقطار من الخرطوم إلى عطبرة، وكيف أن التوفيق حالفني فيه فأمدني بلغة سليمة وتعبيرات بليغة لفتت نظر المصححين، فرفعوها بدورهم إلى كبار رؤسائهم مشيدين بأسلوبها ومعجبين خاصة بما أنهيته بها من عبارة بليغة كخاتمة لا أزال أذكرها وترجمتها (وفي الموعد المحدد تماماً وعلى رأس الساعة الخامسة كان القطار ينساب متئداً وبرفق ليلج رصيف محطة عطبرة).

وتم إختيارنا، ومنحنا فرصة أسبوع لنقضيها مع أهلنا ولنكمل إستعدادنا ونعود لإستلام العمل. ويشاء الله أن نسافر من عطبرة بنفس القطار، الذي كان يقل

على متنه مولانا الشيخ قريب الله، وهو في طريق عودته من الحج ونحن لا نعلم. وحدثت كرامة أو كرامات منه بأن إبتدرني أحدهم، وأنا أدخل إلى المحطة للسفر، بأن الشيخ قريب الله بالقطار وأنه قد سأل عنك؟!! إندهشت ووصلت الرصيف، فوجدنا عدداً كبيراً من الناس يقفون في صفوف متراصة أمام عربة الدرجة الأولى المقلة لسيادته وتجاه قمرته بالذات. فإخترقت الصفوف مندفعاً نحوه وسلمت عليه بتقبيل يده. وإشتد عجبي عندما سمعته يهيب لي قائلاً: "أركب." وإمتدت أيادي بعض المستقبلين من الخارج وسواعد من كانوا معه بالقمرة من الداخل فإجتذبوني إلى داخلها عن طريق الشباك. وتحرك القطار ولحق بنا خليل في قمرة الشيخ الذي أمر بعض مرافقيه بإنزال بعض بلح المدينة المنورة من على الرف وتقديمه إلينا. فهرعت ألتهمه في نهم تلذذاً وتبركاً بينما تردد زميلي خليل ورده متعففاً أو متأففاً لست أدري ؟ وأذكر قول الشيخ له وهو يعزم عليه "كل يابني... هذا تمر مدينة الرسول (ص) إنه نور وبركة.." ثم أضاف ما فغر له زميلي خليل فاهه، عندما خاطبه بذكر الآية "وكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد." وذلك لأنه كان علينا، قبل أن يقر توظيفنا، إجتياز الكشف الطبي خاصة النظر، الذي كانوا يدققون فيه. وكان خليل مشفقاً جداً من أن لايمر فيه، بسبب شكواه من التراكوما.. فما إن سمع ذلك إلا أن همس في أذني قائلاً "غريب أمر جدك الشيخ هذا.. أهو سحر؟؟ أهو صلاح أم كشف ؟" ثم ما لبس أن أقبل على البلح يلتهمه ويستزيد منه ويزدرده إزدراداً.. هذا وقد تسلمت أول ما تعينت بالسكة حديد رسالة مطولة بخط سيدي ومولاي جدي الشيخ قريب الله، كلها نصح وتوجيه وإرشاد. وما أزال أحتفظ بها نوراً أستهدي به وفضلاً وشرفاً يطوق عنقي.[1]

كانت السكة حديد كما قلت وقتها ذاك آية من النظام ودقة الأداء والإنضباط، تضبط على صفارات وصول قطاراتها إلى المحطات الساعات.. كما كانت مثلاً

[1] هاته الرسالة الأصلية بخط الشيخ بيده تم تصويرها وإضافتها لهاته المذكرات في باب الملاحق.

يحتذى في تفاني العاملين بها في تجويد الأداء وإستغراقهم إلى حد الفناء في بذل أنفسهم لها تفاخراً وزهواً بشرف الإنتماء .

والسكة حديد على عهدنا لم تكن مجرد مصلحة، بل كانت حكومة قائمة بذاتها تنفق على تسيير نفسها بنفسها، ثم تسهم في إمداد الخزينة العامة للبلاد، بما يغطى أو يسد الكثير من ميزانيات المرافق العامة الأخرى، بما يفيض بها من إيرادات.

كانت مصلحة عموم الإدارة فيها على عهدنا الأول تشرف على إدارات الأقسام في عطبرة ومدني ثم كسلا وكوستي وجبيت مؤخراً وحلفا وكريمة وعلى ميناء بورتسودان وعلى جميع البواخر والسفن النيلية التي تسير رحلاتها للجنوب وفي فرع حلفا والشلال وعلى النيل الأزرق و الروصيرص والسوكي. كما تشرف أيضاً على مصلحة المرطبات التي تهيمن على إدارة فنادق المصلحة الكبرى في الخرطوم وبورتسودان وجوبا وحلفا، وتقوم بتقديم المرطبات والوجبات على أعلى المستويات في سائر قطارات ركابها وبواخرها النيلية وعلى الإستراحات وعلى مصيف أركويت.

كما كانت السياحة موكلة كلها إلى السكة حديد يديرها مكتب صغير، تابع إلى رئاسة القسم التجاري بعطبرة، كنت أعمل فيه وكان يقوم سنوياً بإصدار سلسلة كتيبات " Visit The Sudan" تباعاً ودورياً، بطابعها الأنيق وصورها الجذابة، كما يصدر إلى جانبها العديد من النشرات الدعائية والكتيبات السياحية التي تغرق بها مكاتب السياحة الأجنبية في الدول الخارجية لرحلات مشاهدة الآثار، خاصة بين حلفا (أبو سمبل) والشلال، ورحلات الصيد الجماعية المنظمة لداخل السودان ولمصيف أركويت ولمشاهدة الحقول المرجانية بقاع البحر الأحمر في بورتسودان أو صيد الأسماك فيه وفي سواكن. وعلى عهدنا كذلك إحتضنت مصلحة الإدارة بالسكة الحديد بداية أول فوج طائرات نقل للركاب من نوع الحمائم"Dove" فتحت لها مكتباً صغيراً أسندته الى المستر دوز. فكان نواة مصلحة الطيران الجوي السوداني،

الذي تولى إدارته من بعد بمقدرة وكفاءة عالية طيب الذكر مساعده عبد الباقي محمد.

وبالسكة الحديد، عدا مصلحة الإدارة التي كنت أنتمي إليها، مصالح شتى. كان لزاماً علي، وأنا أقصر عليها حديثي وحدها، أن أفصل بالتخصيص وأن لا أغفل بعض مؤسساتها ومكوناتها، والتي لابد لي من أن أنوه بمكتب قطاراتها الرئيسي في عطبرة وبما يشتمل عليه من لوحات تشمل نماذج لكل خطوطها وعرباتها من قطع ومن لوحات، كان يعرف بإلقاء نظرة واحدة عليها في كل دقيقة أين موضع كل قطار سائر (وما أكثرها آنذاك ركاباً وبضائعاً ومخاصيص) بل وموضع كل عربة من عربات كل السكة حديد والفناطيس والصوالين.. بنظرة واحدة تلقيها على اللوحات ذات المجاري المثبتة على حيطان القاعة المديدة الأربعة. كما كانت رئاسة القسم التجاري من جهة أخرى تعرف، في صباح كل يوم جديد، الموقف الفعلي لجميع أصناف وكميات البضائع الموجودة أو المقدمة للترحيل في كل محطات السكة الحديد والنهر.

وبحسبنا الحديث عن مصلحة الإدارة، التي أفنيت فيها زهرة شباب عمري، متجاوزاً مصالح حكومة السكة الحديد الأخرى، حينما كانت السكة حديد مصلحة ذات "شنة ورنة" فعلاً...

وبعد أن بدأنا العمل بمكاتب عموم الإدارة في عطبرة، وتخرجنا من كلية غردون التي حسبناها نهاية المطاف للعلم والمعرفة الذي ليس فوقه زيادة لمستزيد آنذاك، طالبتنا المصلحة بحضور فترتي دراسة تدريبيتين تامتين كاملتين بمدرسة إدارتها. فقد كانت المصلحة تصر على أن يتلقي تلك الدروس كل موظف فيها من الكتبة والتلغرفرجية، تماماً كما يتلقاها العمال في قسمي الحركة والبضائع، كل على حسب وظيفته وما تتطلبه واجباتها من تدريب. فحضرنا في دراسات مسائية منتظمة كورس الحركة الذي يؤهل لحد كفاءة ناظر المحطة وكل ما يسبقها من وظائف ودرجات، وكذلك كورس البضائع الذي يبلغ حد كفاءة كتبة البضائع والمخازن

والتذكرجية. والفرق الوحيد هو أننا كنا نتلقى تلك الكورسات بدراسات نظرية من اللوائح والتعريفة والمنشورات، نقوم بتطبيقها داخل الحجرات المخصصة والمعدة لذلك بالأجهزة للتابلت والتكون والأرانيك وبالدفاتر والنماذج والإيضاحات التي بمدرسة الإدارة طبق الموجودة فعلاً في المحطات. ونحصل على شهادات بإجتياز الإمتحانين قبل أن نثبت أو نرفع في وظائفنا الكتابية، بينما يتلقاها العمال نظرياً بالمدرسة المذكورة، ويبعث بهم بعدها إلى المحطات ليتدربوا عليها عملياً مبدئياً ولفترات قصيرة، ثم يعاد إمتحانهم عملياً فيمنحوا بعدها شهادة حد الكفاءة للوظيفة التي تسند مسؤولياتها إليهم. ويتابع بعد ذلك مفتشوا إدارات الأقسام إجراء إمتحانات سنوية عليهم فيها، تضمن في تقاريرهم السنوية المفصلة التي تكتب كإجراء ثابت ولازم ودائم كل سنة عن جميع العاملين.

إجتزت ومن معي الإمتحانين وشعرنا بالفعل بأهمية وضرورة ما درسناه من معرفة وإحاطة بما تقوم به مصلحتنا. وأدركنا ما بين وظائفها الكثيرة المختلفة من ترابط وتناسق وتكامل.. وكانت لنا خير معين في أداء واجباتنا عن تفهم وعلم ودراية قادت خطواتنا للتدرج المتمهل المطمئن الواثق فيها فالتبريز.

♦ مجالات التثقيف:-

في تلك السنوات الثلاثة الأولى من خدمتي بعطبرة نشأت لي صداقات قلمية بالمراسلة مع عدد من الأجانب، ممن كانوا يبعثون برسائلهم إلى مكتب السياحة الصغير بالقسم التجاري، الذي كنت أعمل فيه، يطلبون التعرف على أصدقاء سودانيين يكاتبونهم بالمراسلة. وكان من أقدم أصدقاء القلم هؤلاء هيلاري شارلزأندرسن Hilary Charles Anderson من منطقة ولا بزيلندة الجديدة بأستراليا والطالب فريدوك إسلازاك Fredeuek Slezak الطالب النمسوي في فينا.. وإستمرت الرسائل بيننا طيلة عشر سنوات، فقدت بعدها الإتصال بهما بسبب الحرب العالمية الثانية. وما أزال أحتفظ ببعض رسائل هؤلاء عندي.

وإنخرطت لتوي عضواً بنادي موظفي السكة الحديد السودانيين بعطبرة وبدأنا نزاول بعض النشاطات الأدبية والإجتماعية المحدودة فيه. وقد تم إختياري مساعداً للسكرتير في أول سني خدمتي. كان الخريجون 'آنذاك قلة لايتجاوزون عدد أصابع اليدين في مصالح السكة حديد جميعها، إذا إستثنينا فئة المهندسين. ولقد أدت الضائقة العالمية والأزمة المالية من جهة، وما تمخض عنه إضراب طلبة الكلية من تدن نسبي لرواتب تخديمهم، حتى بعد أن عدلت إلى ستة جنيهات ونصف في الشهر، أدى ذلك إلى فتح نظر السكة إلى هذا المورد، خاصة بعد أن أربى العرض على الطلب وزاد ففاض. فبدأت مصلحة الإدارة في إستخدام دفعات من خريجي الكلية كتلاميذ وكمعاوني حركة، ليصلوا إلى وظائف المفتشين مستقبلاً. وحذت مصلحة هندسة السكة الحديد والحسابات نفس الحذو. فتقاطرت دفعات وراء دفعات من المتخرجين للإلتحاق بالسكة الحديد في رئاسات مصالحها المختلفة بعطبرة. وأذكر كيف كنا نهتبل الفرص ونستغل تلك المناسبات بإقامة حفلات الإستقبال والتوديع والنقل، فنتيح لأنفسنا عن طريقها فرص الحديث القومي والوطني العام والخطابة في تلك المناسبات والإجتماعات العامة (المحرمة علينا فيما عداها بسبب كوننا موظفين) أذكر حديثي الطويل في إستقبال دفعة مبارك زروق وحسن طه والتجاني سعد ومحمد السيد عثمان وإسماعيل حسين.. وكان قد سبقهم من أبناء دفعتي مكي السيد علي ومحمد أحمد علي ومن سبقهم عبد الله شداد ويوسف الأمين إحيمر وصابر عبد الله عبد الماجد، ذلك الخطاب الذي دعوت فيه للتضافر لنجمع الخريجين لبدء عهد جديد، ممزقاً ورقة خطبتي في نهايتها بقولي في نهايتها "ولتكن آخر ورقة أسطرها في عهد عزلتنا الجديب، وكما أفعل بها الآن. رمز وأده السريع وتمزيق أشلائه...!!"

* **حول اللبس:-**

كنت أستعمل في بداية عملي بالسكة الحديد، مع الزي الأوربي (البدلة) القبعة كغطاء للرأس. وبعد فترة قصيرة كتب إلي العم مولانا الشيخ/ محمد الفاتح الشيخ قريب الله، وكان وقتها طالباً بالمعهد العلمي في حياة أبيه، يطلب مني ترك لبس البرنيطة ويفتيني فيها ليقول "بأنها إذا لبست إقتداء بمن يلبسونها من الكفار، فهي كفر والعياذ بالله "ولعله أضاف "وإن لبست حتى لإتقاء الشمس فهي حرام." فأقلعت عنها وعن لبسها وإشتريت لنفسي طربوشاً صرت أضعه على رأسي لسنوات عديدة، حتى إذا ما وصلت إلى مرحلة وظيفة التفتيش وصرفت لي العلامة التي لابد أن توضع وتثبت على القبعة عدت إليها متحللاً أو على كره مني!!... ثم دعتني ظروف الإيفاد إلى بريطانيا وبردها أخيراً إلى التجاوز بتغطية الرأس حتى "بالكسكتة." وفي أخريات حياتي العملية الدبلوماسية بالTop Hat، معللاً نفسي بأن الدين ليس مظهراً وإنما مقره القلب.

وأذكر كيف كان رصفائي وزملائي يتندرون بي ويتغامزون، خصوصاً بعد أن تطور لبسي إلى إرتداء الرداء القصير (الشورت) والقميص المفتوح، وأنا مع ذلك أضع على رأسي الطربوش، بل وأمتطي عجلة البسكليت، وأضيف على ذلك حملي الشمسية... منظر عجيب حقاً !! فكانوا يشبهوني "بالباراشوتست" parachutist أي "ذو المظلة الواقية للهبوط من الأعالي." وكنت أتعمد إفحامهم عندما نخرج من مكاتب العمل إلى الفطور أو عند إنتهاء الدوام، فأحرص على أن أمشي بين بعض من قاربوا سن الشيخوخة من الموظفين القدامى بالمصلحة المتدينون من الحسابات والمراجعة والعموم. فأتوسطهم وجلهم ملتح يحمل الشماسي، وأسير معهم أو بينهم في صف واحد إمعاناً في التحدي والإصرار والتشبث بموقفي ولزومه .

بدأ عملنا في السكة الحديد دؤوباً صارماً مختلفاً تمام الإختلاف عما كنا نعمله ونعهده في مصالح الحكومة الأخرى، توقيتاً وأداءاً وإلتزاماً وتشدداً وتقيداً بالنظام

وبالإنضباط الشديد القوي المحكم. وكان العمل في شهور الصيف يبدأ في الساعة السادسة والربع صباحاً، وفي السادسة والنصف في شهور الشتاء للموظفين، ويسبقهم العمال بنصف الساعة في البداية ويبقون بعدهم نصف الساعة في الورش عندما تطلق صفارة العمل مدوية ومستدعية لجموعهم بذلك. وأذكر أننا كثيراً، وخاصة في شهور الشتاء، كنا نكمل إرتداء ملابس العمل (بدلة كاملة برباط العنق) على ضوء المصابيح وقبل أن تطلع الشمس وينبلج نورها، بل وكثيراً ما كنا نتناول شاي الصباح (أحمراً وسادة) إذ كنا نقابل باعة اللبن قادمين بحميرهم ونحن في طريقنا إلى المكاتب!! والبركة كل البركة في ذلك للبكور...

وفي خلال تلك الفترة من عملي بعطبرة وقعت أحداث كثيرة وخطيرة ومثيرة، كان لها أكبر الأثر على حياتي وعلى سير الحياة في البلاد بصفة عامة.. أولها الزواج أو على الأصح تزويجي، ثانيهما الصحوة الدينية والصوفية التي تمثلت في الطريقة السمانية وقيام حركتها النشطة والتي لقيت إقبالاً عظيماً مني ومن الكثيرين في عطبرة، وثالثهما قيام مؤتمر الخريجين وكيف تم تكوينه في عطبرة.. إلى غير ذلك من نشاط إجتماعي وسياسي وديني إنتظم العمال وآزرناه وناصرناه كموظفين آنذاك تماماً. وقبل التحدث في إسهاب ببعض التفصيل حول ما ذكرت، تمر بذاكرتي مشاهد إنتقال مقر سكننا من أرض السكة الحديد ومنازلها المحفوفة بجناتها الخضراء، التي كما وصفها لي أحد الزوار النيجريين الكبار، وهو يطوف برفقتي متعرفاً على معالم عطبرة في تلك الأيام، ومقارناً بين حدائق ومنشآت وأبنية حي السكة الحديد والداخلة والبلد شرق الخط الحديدي وشرق السوق وشرق الجسر، بقوله "يا سبحان الله هنا جنة وهناك نار". وكان سكننا الجديد في منزل إستأجرناه شرق الجسر بجوار مصنع الزراير ومقربة من زاوية السادة الختمية ومنزل سليمان موسى زعيم العمال، تحده المقابر في الشرق. وكان يلاصق منزلنا منزل إبراهيم حسن المحلاوي .

◆ **إبراهيم حسن المحلاوي:-**

هذا الرجل العصامي الذي بعد أن أكمل تعليمه الإبتدائي تولى تثقيف نفسه بالقراءة وبالدراسة والإطلاع حتى حاذى مستواه أو تفوق على مستوى الخريجين، وزاد ذلك بإتقانه تعلم اللغة الفرنسية تحدثاً وكتابةً إلى جانب إنجليزية رصينة وثقافة واسعة ومعرفة تامة بالتاريخ العربي والشرق أوسطي خاصة. وإبراهيم هذا الذي كان على عهدنا رئيساً لأحد أقسام حسابات الرئاسة والذي كان ينأى بنفسه عزوفاً عن الإجتماعات ويزورُ عن النشاطات العامة، هو إبراهيم الذي رأيناه منغمساً إلى شوشته في غمار النشاط السياسي والحزبي الإتحادي (جناح نور الدين) الذي بوأه الجلوس على كرسي وزارة الثروة الحيوانية بعد أن فاز بالنيابة عن دائرة عطبرة. ولإبراهيم بحوث وإجتهادات ومشروعات حول الثروة الجيولوجية والمعدنية بالسودان وله مطالبات لحكومة السودان بما يعتقد أنه مستحقه ثمناً لكشوفاته، مما يفوق عدة ملايين، بعث بها إلى في السبعينات، وأنا اعمل لدولة قطر خبيراً دبلوماسياً في سفارتها بلندن، لأتولى توصيلها بطرقي ووسائلي الخاصة من هناك إلى جلالة الملك فيصل عاهل السعودية العظيم مما قد أتعرض له في موضعه لاحقاً. والمحلاوي هو صهر أستاذنا علي حسني، الذي كم كنا نسعد بأحاديثه وتعليقاته وقفشاته وأنسه الشهي، عندما يجيء لعطبرة خلال إجازات المدارس الوسطى الطويلة آنذاك.. أذكر أني أول ما طلبته من لجنة النادي السوداني الإدارية بعطبرة، وأنا سكرتيرها المساعد، السماح لي وكان عمري وقتها ثمانية عشر عاماً بإلقاء محاضرة عن "اليابان: ماضيها وحاضرها ومستقبلها" وأذكر أني صغت ذلك الطلب الذي تقدمت به في أبيات كانت باكورة محاولات شعرية، جاء فيها بعد التقديم بالنسيب والتشبيب؟!

هذي محاضرتي عن اليابان قد	شغلت صحائف نصف ذا الكراس
وأريد أن تلقى بمنتدى لكم	لتكون للأجيال خير تراث
فإذا قبلتم كان ذلك مسعدي	والحمد أبعث عدة الأنفاس

(مسعود) حقق فيك ما أرجو له وأقبل ثناء خليفة العباس

ولكن مع كل ذلك لم تر اللجنة الموقرة أن تسمح لي بإلقائها.

تكوين نواة أول جمعية للآداب والمناظرة بعطبرة:-

وأذكر مبادرتنا بتكوين جمعية للآداب والمناظرة بالنادي، آلت إليَّ سكرتاريتها ثم رئاستها. وقد بدأت نشيطة عاملة ناصبة تعقد في يوم معين من كل أسبوع إجتماعاً أما لمحاضرة أو لمناظرة أو لأوراق قصيرة أو "ليلة قبعة" Hat Night بالتتالي، نتعاون عليها مع الأخوة الزملاء الطيب عباس فقيري ومحمود أبوبكر ومحمد عثمان عبد الرحيم ومصطفى أبو شرف وصالح مصطفى الطاهر ومحمد عمر إدريس ثم مع الأخوة الأساتذة حسن أحمد يوسف ومحمود الفضلي وغيرهم من كبار الخريجين ومفكريهم وأدبائهم بعطبرة من مدرسين ومهندسين وقضاة، أمثال صالح بحيري و ميرغني حمزة ومحمد الحسن زين العابدين، المهندس الأديب اللوذعي واسع الإطلاع، ومولانا الشيخ/ محمد الأمين القرشي القاضي وشيخنا الشاعر العبقري مولانا/ الشيخ الطيب السراج وغيرهم ممن آزرونا إسهاماً أدبياً ومعنوياً.

العلامة الشيخ الطيب السراج... القاموس المحيط المتحرك:-

ولابد من وقفة قصيرة هنا لأتحدث فيها عن هذا الرجل الموسوعة الضرب، والفلتة العملاقة، والشخصية الفريدة، والعبقرية الفذة، الأستاذ الطيب السراج الذي تعرفت عليه، بل وتتلمذنا عليه في عطبرة أمداً طويلاً. فقد كان يعمل في حسابات السكة الحديد بمصلحة الوابورات بالخرطوم بحري. وإشتهر وقتها بالأدب وبالفروسية. وكان يحف به بعض أبكار الخريجين من جماعة "أبوروف" وأبنائها، يؤمون داره ويتحلقون حوله. وأذكر ما رواه لي بعض هؤلاء من طرائف. فقد كان يتنقل من منزله بأم درمان (سكن الزبير باشا قديماً المطل على شاطئ النيل) إلى مكان عمله بالخرطوم بحري بالترومواي، ويعبر إليها بمعدية شمبات. وقد نسب إليه

أنه كان كثيراً ما يمتطي لمكان عمله صهوة جواده راكباً عليها مصراً على أن يدخل بها إلى المعدية البخارية من وإلى شمبات، بدلاً من أن يقودها وراءه، بل ينطلق عدواً بها إلى داخل المركب. وعندما يسأل عن سبب إصراره على ذلك، كان يجيب... "إنما أريد أن أعلمها القفز على الأساطيل...!!" وكان السراج يعيش في منزله الواسع عيشة عرب البدو الأقحاح، به مرابط خيله ومراح ناقة له فيها وخيمة ينصبها فيه. وكان يحاكي البدو في تنقلاته إلى "الفتيحاب" (مقر إحدى زوجاته) التي أذكر أنني إستدرجته ذات مرة عقب إحدى أمسياتنا الأدبية وسألته عما إذا كان قد أحب في حياته قط... وماذا قال في ذلك من شعر ونسيب وتشبيب؟ وأذكر ما ألقاه علينا من تغزله بزوجته "أم النصر" تلك التي أذكر من أبياتها مطلعها:

أدر كاساتك البيض اللطافا   أدرها طيف "أم النصر" طافا

كما أذكر من رقيق شعره الغزلي، الذي كان ينشدنا إياه، قوله متشبباً وهو يخاطب حبيبه:-

أتعلم يا أفديك أنك ناظري   وأنك أفكاري وأنك خاطري
وأنك أشعاري اللواتي[1] يخالها   أخو الأدب العالي عقود الجواهر
هو الحب أنت الحب أنت حلاوة   وأنت مرير أنت شق المرائر
وأنت الذي لو ذقته لعذرتني   ولكن ولما لم تذق غير عاذر

كما أذكر ما رواه لي بعض الأخوة الأبروفيين من أنه عندما قرر أن يغادر أم درمان راحلاً إلى الفتيحاب وأعد زاملته ونصب عليها الهودج... وكانوا يعلمون أنه يتطير من بعض الأيام (وهو يوم الإثنين) كتبوا على بابه هذين البيتين:

أن يوم الإثنين يوم مشئوم   عشعشت فيه بالسراي البوم
معشر الجن قد أتاك الفتى السراج   تهوى به إليك "الرجوم"[2]
تستقيم الرجال في أول العمر   وبعد الخمسين لا تستقيم

---

[1] (وهنا يتوقف ليجيز البيت مدلا متباهيا)...

[2] اسم فرسه

فما كان منه بعد أن قرأها إلا البقاء والعدول عن الإنتقال بالمكث وقد سبقته شهرته. فإلتففنا به عند وصوله منقولاً إلى حسابات عطبرة. وكنا نحرص على ملازمته ملازمة الظل، نرمق في إعجاب طلعته الفارعة وعمامته الكبيرة الملونة الزاهية، التي يقول عنها "أنه لا يضع على رأسه الجوهرة الغالية... إلا كل عزيز وثمين...!!"

ظللنا نحضر عليه كل ليلة الدروس والأسمار والأحاديث، ومعنا من الأخوة المعجبين محمود الفضلي وعبد المجيد عبد الرحيم ومحمد أحمد علي وآخرون... نبقى معه إلى هزيع من الليل ثم لا يرضى إلا بأن يقدمنا برجليه مشياً إلى قرب منازلنا، ونصر نحن بدورنا على تقديمه عائدين به إلى منزله... تماماً كقصة التقديم المعروفة التي تكاد أن لا تنتهي إلا قبيل الصباح... وأذكر مزحه ونوادره..."عبد المجيد ينادم البعاتي بسجارة هاك أشربن وهات." وأذكر قسوته وتندره على دعاة التجديد والشعر الحر:-

يدعون تجديداً وهم معه قد ترى... في شرعة الإنصاف هل يدعوه؟

يتذاكرون طعامهم وشرابهم (وبرازهم) قروا بذلك عينا..

وأذكر كيف كان يشذب في حديثه بما يقوده إليه ذهنه المتوقد وعلمه الواسع وذاكرته التي تضيق بما فيها وتزدحم فيها المعاني لتتسابق إلى لسانه، حتى نضطر نحن إلى تذكيره بموضوع الحديث وإعادته إليه مراراً، لينفلت عنه من جديد كرات أخرى. ولأضرب لذلك مثلاً. فعندما كنا نحتفل بطلبة كلية غردون، الذين قدموا إلينا زائرين لإجراء مباراة لكرة القدم، ونحن ننتظر سحب عربتهم من أمام النادي لقطار عودتهم التي تأخرت لساعتين، حاولت وأنا أدير ذلك الإجتماع أن أشغل ذلك الفراغ الذي أحدثه الوقت الإضافي المتبقي بأن وجهت إلى أستاذنا السراج سؤالاً، طلبت منه فيه أن يجيبني عنه وأن يتحدث عنه وهو..." هل كانت للعرب رياضات يمارسونها وما هي؟"

فتقدم إلى المنصة وأخذ يتحدث بلسانه الذرب وذخيرة معرفته التي لا تنضب بما شدنا إليه شداً لم ينبهنا إليه غير صفير قاطرة المناورة التي جاءت لسحب عربة الفريق، بعد مضي أكثر من ساعتين إستمر فيها حديثه الذي بهرنا وأدهشنا به. وكان كله مجرد مقدمة. إذ أضطر إلى قطعه وهو يريد أن يدخل في الموضوع بأن قال.. "أما بعد.." وأذكر بهذه المناسبة القصيدة التي أعددتها للإلقاء في تلك المناسبة أثناء الحفل، والتي كنا نفصح فيها عن تطلعاتنا إلى الحرية ونضمنها دعوتنا للتضامن وضم الصفوف، والتي أوردتها برمتها في ديوان شعري "أحاسيس ومشاعر" أكتفي بإيراد أبيات منها:-

ما أردنا (الفوتبول) إذ لو أردنا	ما رأيتم ما قد جرى من هنات
أن ما نبتغيه حقاً صراحاً	أن نقوي أواصر الرابطات
فنرى الطالب المجد	مع الخريخ دوماً موحد النزعات
فأخوك الخريج يا طالب المجد	مجد محفز الوثبات
وأخوك الخريج سوف ينادي	بحقوق للشعب مستلبات

♦ عودة إلى محفل جمعية الآداب بعطبرة:-

ولأعود مرة أخرى إلى جمعيتنا، وكانت أول جمعية للآداب والمناظرة في عطبرة، والتي دأبت على أن توالى نشاطاتها المتصلة الحلقات بلا إنقطاع، للحد الذي تضايق منه الكثيرون ممن تسببت في إعاقتهم والحيلولة بينهم وبين هواياتهم المفضلة الرتيبة من ألعاب الورق ولعب الطاولة والضمنة، بما دعاني لأن أهجوهم بما إرتدعوا به، وذلك بأبيات أورد جزءاً منها أدناه:-

سلوت القريض وعفت الخطب	وإن كنت أشربت حب الأدب
وآثرت في عطبرة الإنزواء	وصمتي عن ما يثير الريب
وما ذاك إلا لأني ثويت	كصالح حين ثوى وإغترب
تداركها الله من أمة	تصدر فيها مقام الذنب
وكان له الله جهد الشباب	المضيع ظلما بلا ما سبب

أمن أجل ندوات فكر تقام   أحارب جوراً وجهراً أسب
ومن أجل أني رعيت الحقوق   وقمت بما خلته قد وجب
يقولون نزق وطائش عقل   وثرثارة كل حفل يشب
ولكنها سنة الشائنين   وقد حزت في السبق منهم قصب

على رسلكم هكذا سوف أبقى   شجيٌ في حلوق "قليلي الأدب"
لأنثر فيهم عقود البيان   والقي لهم معجزات الخطب
فأظهر ضعف العذول الضعيف   فيعنو لنهجي أوينسحب

وبهذا العزم وهذا الإصرار كان الإستنصار وإنطلقت سفينة من كانوا يطلقون عليه(مدرسة خليفة الإلزامية) في جو تشوق الجميع لعاطر أنفاسه.

♦ نشاطات الفروسية وسباق الخيول:-

كانت الجيلي تعج بالخيول الأصيلة المولدة وبأصحابها العديدين من أهلنا الجميعاب وبفرسانها من الخيالة والجوكية والمشجعين، من أمثال الياس الزبير باشا وزغبير.. ودرجت على أن تبعث إلى المدن التي يقام فيها السباق (الخرطوم ومدني وعطبرة) أفراساً متميزة لحارث الزبير وحسن الزبير ومحمد الزبير وفرسة سليمان الحاج، كانت كلها تحرز قصب السبق في عديد الأشواط لتجئ دائماً إما مصليةً أو مجليةً أو محتلةً المكان الثالث بين الأفراس المتبارية. ومما أذكر أيضاً أنه كان يشرف على إدارة السباق، الذي يقام ميدانه بين عطبرة والدامر، أحد رؤساء القسم الذي كنت أعمل فيه مع زميلي خليل، وهو المستر جيكوبز، الذي كان يستعين بنا في عمليات ترقيم وترتيب وختم إدارة مجموعات التذاكر بأعدادها الوفيرة، ثم القيام بتولي بيعها في أكشاك حلبة السباق للمراهنين من الداخل، لقاء مكافآت مجزية تتضاءل أمامها مرتباتنا الشهرية الضئيلة آنذاك... وإستغفر الله إذ لم يكن بعضها مما يقطع بتنزهه بالحلال كله عند بعض الفقهاء. وأذكر الإهتمام البالغ بتلك المواسم

التي يحضرها كبار المسؤولين وسيداتهم المتأنقات، والتي يؤمها عشاق السباق من مدني والخرطوم وشندي، وتسير لها قطارات خاصة تنقلهم منها وقطار مخصوص محلي يسير بين عطبرة "والعكد" موضع السباق جيئةً وذهاباً للمناسبة.

*** الإهتمام بالتعرف على مختلف بقاع السودان:-**

وأذكر عطلاتنا السنوية والدراسية قبلها، التي كنا نحرص على أن نقضي شطراً كبيراً منها في السفر كل سنة لجهة من جهات السودان البعيدة لنتعرف عليها ولنراها، ونقضي بعضها الآخر بالقرية، وخاصة تلك التي تقع في شهور الخريف، فأرافق والدي وبعض رفاقه إلى خلاء باديتنا للقنص والترفيه ولنتفقد بعض ما يملكه والدي من بهائم يقوم برعايتها له الأعراب الرحل.. وأذكر كيف أنه يضع مجمل عدد إسمه "بحروف أبجد" على أفخاذ أبقاره وناقته بحديدة محماة تحمل ذلك الرقم رسماً لها بميسمه.

أما في داخل القرية فأذكر كيف كنا نحرص على حضور التجمعات التي كان يقوم بها رجال القرية وبعض نسائهم في كل خريف، من الخروج للتجمع تحت جسر خط السكة حديد المواجه للقرية الذي كنا نطلق عليه "جسر الكرامات" تذبح فيه بهيمة وينضج لحمها ليأكلها الجميع، ويحتسون بعدها أكواب الشاي ويتآنسون ويتسامرون ويتصارع الشباب والصغار أمامهم ومعهم وكان الله يستجيب دائماً وأبداً لذلك الخروج الذي كان بمثابة إستسقاء فينهمر المطر غزيراً هتاناً بعده. وقد يخرق العادة فيجلب السيول التي شهدتها ثلاث مرات في سني حياتي. وهي تتدفع منحدرة صاخبة لها دوي، تجرف كل ما في طريقها وتكتسح القرية وتقضي على كل شئ... الزبد والحطب والبهائم وحتى فلنكات خط السكة الحديد يفصل بعضها عن بعض بقضبانها الحديدية لتحنيها بقوة إندفاع تيارها عن إستقامتها لتعود ملتوية ومتقوس بعضها. وكثيراً ما عتا ذلك السيل على قريتنا المنخفضة بعض الشيء غرب الوديان ليدمر منازلها تدميراً، مما دفع أبي، بعد أن تقوض منزله مرتين ليبني منزلاً، هو ثاني بيت

من الآجر الطوب الأحمر في تلك القرية، ليؤوينا.. وما يزال بحمد الله قائماً. وقد قاضى أهل الجيلي مصلحة السكة الحديد، بحسبان أن المياه التي تدمرها تنفذ من خلال جسرها الموجهة فوهته للقرية: وكسبت القضية فأقامت المصلحة والإدارة جسراً واقياً، عكفت الجهات الممولة والمسؤولة بتعهده في البداية ولكنه أهمل على مر الأيام أمر صيانته فمنيت القرية بالنكسات وبالنكبات...

وعلى ذكر السيول التي كانت تجتاح القرية، وشهدت منها أكثر من أربعة غارات... خطرت بخاطري قصة ذلك الرجل الغريب التصرفات والسلوك الذي كان على الرغم من كبر سنه ووضعه مدمناً لا يفارق لزجاجة العرقي، والذي عندما تهدم منزله جلس تحت شجرة ظليلة أمام حطامه، والسيل ما يزال يجرف ويكتسح بيوت القرية، وأمامه قارورة خمرته وحوله بعض الإماء والصبية، الذين كان يرسلهم كلما سمع صوت إنهيار منزل إلى الأرض ليستفسروا لمن هو ؟ ثم ليتنفس عند سماعه إجابتهم الصعداء ويشرب لذلك نخباً ويصيح في هستيرية بادية، هي مزيج من الحرقة ومن الشماتة، قائلاً:- "سبحان الذي ساوى بين العباد!!"

♦ الزواج..أو.. التزويج والإدخال في القفص اللولبي:-

ولأعود لأتناول بعض ما سبق أن أومأت إليه من كبريات أحداث تلك الفترة لأشير، بإقتضاب إلى قصة زواجي الأول، الذي أصفه دائماً بأنه "تزويج " لأنه كان في الحقيقة والواقع مرضاة لرغبات أبي دون أن يكون فيه مرضاة لقلبي أو نداءاً لحبي. ولم يكن في الفتاة التي تخيرها لي أبي ما يعاب.. فهي سليلة بيت مجد وكرم وعز وصون وعفاف ومكانة مرموقة. وهي بالإضافة إلى ذلك قريبتي. ولكنه العناد والإعتداد ونزوة الشباب التي إستحوذت علي وإستبدت بي لأصر على أن أكون أنا الذي أختار شريكة حياتي، وإصطدمت بكل أسف بتعنت و تشدد وتشبث من قبل أبي، الذي (على الرغم من علمه ومعرفته وواسع إدراكه وفهمه وخبرته) لم يجد فيما أبديته من تعليلات ومعاذير ما يقنعه... فتم التزويج وإبتهج به كل الناس

سواي... تعنتاً وعناداً مني. وقد نظمت قصائد عديدة وأنا في أسبوع التزويج الأول عن موقفي المتأرجح بين ما أرى وما أبتغي، وبين ما دفعتني إليه دواعي طاعة الأب الوالد وخشية أن أوصم بالعقوق، يكفي أن أذكر منها البيتين الأخيرين والتي كان مطلع إحداهما:

واحنيني إليك غر الأماني لا تلومي سطا عليك زماني

أنت كنت المنى كنت هنائي كنت طيفاً معمراً وجداني

والتي أنهيتها بقولي:

إن نفساً قد مازج الأمل المعسول أرجاءها بكل مكان

ثم حالوا من بينها وهواها قد أصيبت في مقتل بالسنان

كان من الطبيعي أن لا يدوم ذلك التزويج طويلاً، رغم أنه قد أنجب لي طفلة حلوة جميلة أحببتها كثيراً وشاء الله أن تموت بعد سنتين من ميلادها. وبإنفصام تلك العروة فصمت كل العرى وعدت بعدها عزباً طيلة خمس سنوات كاملة، أتسم أكثرها بالتوجه قلبياً وروحياً إلى الله وكتبه ودور عبادته ورجال دينه وإلى إدمان القراءة والصدوف بعض الشيء عن الدنيا والجنوح إلى التصوف أتفيأ ظلاله وأنشد في علوى سبحاته صفاء الروح وراحة النفس والجسد...

♦ قيام الطريقة السمانية في عطبرة:-

كانت صلتي بجدي الشيخ قريب الله وبالطريقة السمانية ما فتئت حميمة وحية. وكنا قد بدأنا بإقامة زاوية صغيرة بسيطة على مرمى حجر من منزلنا شرق الجسر بعطبرة، قوامها غرفة واحدة وسور فسيح نؤمه في بعض الأوقات للصلوات، وفي كل مساء لإحياء ما بين العشاء بتلاوة الأوراد، وإحياء ليلتي الإثنين والجمعة خاصة بقراءة مولدي البرزنجي والسماني وبالذكر. وكنا نتبادل الزيارات مع أهل الطرق الصوفية الأخرى، الذين أذكر من بينهم خاصة الصديقين/ الشيخ عثمان عدنان والشيخ/ محمد عثمان عبده، البرهانيين، رحمهما الله. وكان كلاهما يعمل في

إحدى المخابز القريبة منا. وقد توثقت بيننا الصلات لحد بعيد. وكان ذكرهما وإنشادهما يغرفان من بحر واحد مع ذكرنا وأناشيدنا ويمتحان من معين واحد له روحانيته المتشابهة، تقرب فيما بيننا كثيراً قصائد النابلسي. كما كانا سبب صلة للتعارف بالأستاذ الجليل الوقور الموهوب الشيخ ماهر إسماعيل، رجل "بلانة" الذي ربطت بيني وبينه صداقة وأخاء أعتز بهما وما أزال أحتفظ ببعض رسائله المطولة إلي التي تفيض أشرا قات وسمواً وحكمةً لما لا أعده إلا علماً لدنياً تماماً مثل ذلك الذي أورثه الشيخ محمد عثمان عبده، مما يشير إليه المتصوفون من عشاق ليلى التي يقولون عنها:

هكذا ليلى ثوت بالعجب

كن لها عبداً تارك النسب

تعلمن علماً ليس في الكتب

وتطورت الزاوية وتزايد عدد المريدين والمنخرطين في سلك الطريقة السمانية بعطبرة. وكانت تمدها بقوة تلك الدفعات والدفقات الزاخرات التي تتلو زيارات شيخنا الشيخ قريب الله والتي كانت تتم في الغالب وهو في طريق ذهابه وإيابه من الحج، يقيم أثناءها لبعض أيام معنا. وأذكر هنا بعض ما أجرى الله على يد الشيخ من كرامات، كان لها أثر كبير في إنتشار الطريقة السمانية وإنتساب الكثيرين إليها في عطبرة.. أذكر على سبيل المثال منها تلك الزيارة التي كانت في صيف شديد الحر هدد الناس وتعددت فيه حوادث الإلتهاب السحائي "أبوفرار" حتى كاد أن يستحيل وباء، كان الشيخ ينزل في دار تلميذه الصادق الوفي المخلص سليمان موسى (رئيس هيئة شئون عمال السكة الحديد فيما بعد) الذي كان يعتد بشيخه ويعتقد في صلاحه إعتقاداً كبيراً. وذات مساء ونحن جلوس ننتظر الصلاة ونضيق ولا نطيق وطأة الحر الشديد، التي تكاد تذيب دماغ الضب، كما يقولون، والمكان يمتلئ ويفيض بالزائرين الغادين والرائحين ممن يقصدون الشيخ لزيارته وتحيته والتبرك به. وحدث أن إستثار بعض هؤلاء سليمان وهم من أصدقائه متحدين له بقولهم: "إن كان

في شيخك حركة وبركة كما يزعم فليدع الله أن يفرج عنا بإنزال مطر يلطف الجو ويكسر حرارته وينقشع به شبح بلاء وباء السحائي..." وأذكر كيف رد عليهم سليمان رد الواثق المطمئن من إكرام ربه لشيخه... وأجابهم "فاكرين دا كثير عليه من ربه؟؟.." قال هذا وخطا نحو شيخه وشرح له ما يعانيه الناس من ضيق وما يخشونه من وباء وما يرجونه من أن يفرج الله عنهم بنزول الغيث الذي به وحده سوف ينقشع ما يتهددهم من كرب. وإستحث سليمان شيخه أن يتوجه إلى الله بالدعاء رأفة بعباده. وأذكر وأنا شاهد عيان أنه لم تكن في السماء قزعة ساعتئذ. وحان موعد الصلاة فتقدمنا إليها في صفوف متراصة في فناء الدار، يقدمنا الشيخ الذي أعاد إليه سليمان طلب السؤال والدعاء وهو يتأهب ليرفع يديه لتكبيرة الإحرام، فإذا بالشيخ يفرج فيما بينهما ماداً ساعديه باسطاً كفيه نحو السماء يدعو ويدعو للحظات ثم يجهر بالتكبير ويدخل في الصلاة تلك التي ما إن إنتهينا منها بالتسليم إلا والكل يهرع إلى نعليه يجتذبهما قبل أن يبتل ويندفع إلى الداخل لتتوالى نقط المطر الكبيرة التي بدأت تصب علينا لتنهمر... فكانت الكرامة..

وأرسل لنا الشيخ شيخاً ومنشداً من أم درمان، هو الشيخ الحسين بن الشيخ عبد الرحمن والمنشد الدسوقي ليشرف علينا وعلى الزاوية، ثم تلاهما الشيخ/ عبد الوهاب والمنشد/ حاج التوم (صاحب مسجد الرميلة فيما بعد) وفي عهدهما تطورت الزاوية إلى مسجد قمنا ببنائه بجهود أبناء الطريقة الذين تزايدت أعدادهم وكان لسليمان موسى في ذلك القدح المعلى واليد الطولى ولعربته كذلك كمورد دخل دائم للإنفاق على المواد، تلك العربة التي كم حملتنا معه في رحلات الصيد المفتون به وحول عتمور عطبرة يطارد بها أسراب الغزال في سرعة جنونية معتلية الروابي ومنحدرة على الأودية ونحن نقطع ونمسك بالأنفاس فزعاً وإشفاقاً من توقع إنقلاب العربة بين لحظة وأخرى لولا أن السائق سليمان كان السائق الحزيت والمعلم الأول الحجة الكبير والمرجع الأخير الحازق المشرف على إدارة وقيادة فرع الحملة الميكانيكية للسكة الحديد.

وكانت لهذه العربة قصة أذكرها ولا أرى بأساً من إيرادها لما تنطوي عليه من شفافية ومغزى. فقد أصر صاحبها منذ أن تم شراؤه لها أن يتولى شيخه قريب الله "تدشينها " بنفسه. وبالفعل ذهب بها إلى أم درمان وأوقفها أمام بوابة مدخل دار الشيخ، وكنت حاضراً عندما قدم نحوها الشيخ، وكان تدشينه لها لا يعبر إلا عن متنسك تعلق قلبه بالحجاز.. عجباً إذ قال "دعنا نفترض أن باب هذه الدار هو باب مكة وأن تلك الشجرة (مشيراً إلى شجرة في نهاية الشارع) هي المدينة المنورة. فخذنا يا سليمان من مكة إلى المدينة وعد بنا ثانية..." فما أعظمه من تبريك وما أروعه من تدشين!!

وأذكر كيف قررنا ذات مرة أن نقوم بزيارة للشيخ بأم درمان مغتنمين فرصة ما كانت تسيره إدارة السكة الحديد من قطار مخصوص في أول كل شهر يغادر عطبرة مساء الخميس ويعود إليها فجر السبت. وشغلنا معظم مقاعد عربة كاملة من عربات القطار، وكلنا متمنطق (بالكرابة) الجلدية شعار الطريق. وخطر لي أن أعد أبيات شعر للمناسبة نحي بها الشيخ عند وصولنا إلى مسجده. وكتمت الأمر عن الجميع بما فيهم شيخ الزاوية. ولم أطلع عليه سوى منشدنا الأخ/ عبد القادر زكريا الذي عهدت إليه بالقصيدة ليحفظها وليلقيها ساعة وصولنا لتكون مفاجأة للجميع. ووصلنا أم درمان صباح الجمعة وتوجهنا صوب مسجد الشيخ سيراً على الأقدام ونحن نرفع التهليل. وقد تبعنا في الطريق خلق كثير، حتى إذا ما دخلنا ساحة المسجد بود نوباوي وجدنا الشيخ ومن معه من أبناء الطريق ما زالوا في ذكر الضحى الذي يختمون به عادة أوراد الصباح. ودخلنا لتونا وإنخرطنا في صفوف الذاكرين. فكان لذلك صدى وأثر وروحانية عجيبة عظيمة.. خرج الشيخ من توسط حلقة الذكر عندها ودخل في صلاة نفل خر بعدها لله ساجداً خاشعاً طويلاً، ثم إنتهت طبقة ذلك الذكر لنشغل عادة بالإنشاد لإحدى القصائد قبل الطبقة التي تليها. وهنا قام منشدنا العطبراوي عبد القادر بإلقاء أبيات التحية التي نظمتها بإنشاد جميل تواجد لسماعه الكثيرون. وأذكر من تلك الأبيات للقصيدة التي كان مطلعها:

حي القداسة والطهارة والتقى		وأخلع لنعلك وألزم الآدابا
وأشمل وتـه بل قر عيناً يا فتى		بلقي القريب وهنئ الأصحابا
وأشهد قريب الله واحد عصره		من سره قد حير الألبابا
من شوقه كان الحداء لركبنا		ولقاؤه لمسيرنا المحرابا
يا سيدي من ذاق كوب طلاكم		هجر الأحبة فارق الأصحابا

والتي خلصت فيها إلى القول:

كلف الرفاق إلى اللقاء فها همو		بجنبكم يتلمسوا الأعتابا
بحماكم نرجو الكلاءة والرضى		من أم سوح جنابكم ما خابا
فأشمل بعطف جمعنا يا سيدي		وكذاك من لمشاغل قد غابا
مولاي حف بنظرة من فيضكم		تنهل بالحسنى علينا سحابا
ثم الصلاة على النبي بعدِّما		نزح المريد لشيخه أو أبا
والحمد والشكر الجزيل لماجد		للقائنا قد هيأ الأسبابا

هذا وقد إستدعى الشيخ المنشد في وقت لاحق عند المساء إلى داخل داره وطلب منه إعادة الأبيات التي دعا لنا فيها بالخير فيما علمت.

وأذكر تلك المرة التي صحبنا فيها أستاذنا الشيخ قريب الله من عطبرة لزيارة ضريح الشيخ المجذوب بالدامر، وكيف أنه عندما إقترب من البنية (القبة) خلع نعليه وشد وسطه بمئزره وأخذ يتلو أول ما دخل فيها لوح الوصف البرزنجي من مولد النبي (صلى الله عليه وسلم) ثم أمر منشده أن ينشد:

يا سادة أنس الوجود بذكركم		أني إليكم سادتي مشتاق
هل نظرة منكم يزاح بها الضنى		وتزال عني وحشة وفراق
أو لامع أهدي بها لسبيلكم		جوف الدجى أو صبح أو إشراق
قال الكرام الغر أنت بعيننا		ولنا عليك كما لك الأشواق
وأدلة الأشواق منا للقا		الشوق منك ومسكنا العباق

وعندما سئل الشيخ عن ذلك بعد ذلك كان جوابه (أن ضريح الشيخ المجذوب لا تغادره روح المصطفى صلى الله عليه وسلم لحظة واحدة)!!

وإكتمل بناء مسجد السمانية الذي أقمناه بعطبرة. وصادف ذلك وجود الشيخ السماني بالسودان زائراً من المدينة المنورة للشيخ بأم درمان. ولكن شاء الله أن الشيخ ذاته كان عليلاً لزم سرير المرض، كما كان إلى جانبه هناك أخوه الشيخ البشير الذي كان مقيماً بالفاشر منذ سنوات طويلة. وصادف زيارة الشيخ السيد/ السماني من المدينة المنورة. وأعددنا العدة للإفتتاح ووجهنا رقاع الدعوة لكل من سبق ذكرهم وغيرهم بأم درمان وغيرها. وأوحى لي ذلك بإعداد قصيدة طويلة بمناسبة الإفتتاح وتحية للقادمين إليه. وأذكر كيف أنه بعد عرضها على مولانا فضيلة الشيخ/ محمد الأمين القرشي، الذي كان قاضي شرعي عطبرة آنذاك، وله صلة وثيقة بي وبالطريقة لكونه حفيد الشيخ البصير، قد أجازها وأقرها وعدل شطرة مطلعها الأول من (الله أكبرها همو أحبابي) فكانت:-

هي زورة من سادة أنجاب   عمرت من الألباب كل يباب

والتي لن أوردها كلها لطولها. إذ أنها إشتملت على أكثر من أربعين بيتاً. ولكن سأورد منها ما حييت به كبار الحاضرين من مشائخنا خاصة الشيخ قريب الله، وذلك توقعاً لحضوره وابلاً له الذي لم يتم، وأخيه الشيخ البشير، ومشيراً إلى العالم النحرير الشيخ/ عبد العزيز الدباغ عبد الماجد، والتي شكوت في ختامها حالي إلى السيد السماني بقولي:-

يا سيدي السماني إن مطيتي   حرنت وردتني على الأعقاب
فأذن لها بالسير تواً سيدي   حتى تناخ على أعز رحاب
ربع النبي وروضه ومزاره   لا هم حقق منيتي وطلابي

وقد إستجاب الله وله الحمد فحججت وإعتمرت وسعدت بالزيارة وبالصلاة في الروضة مرات ومرات تقبلها الله وجعلها خالصة لوجهه وإتباعاً لرسوله.

◆ مؤتمر الخريجين بعطبرة :-

كان الحدث الكبير الثالث الذي ميز تلك الفترة فيما أذكر، هو قيام مؤتمر الخريجين الذي من حقه عليّ أن أورد كيف تم قيامه بعطبرة. إذ شاء الله أن أكون معاصراً ومسهماً في ذلك لحد كبير. فقد أخذت وعدد لا يزيد عن أصابع اليد الواحدة زمام المبادرة والتفكير في طريقة التمهيد لنشر الدعوة للمؤتمر وشرحها والترويج لها، وذلك بعقد إجتماع كبير خاص. وكانت دون ذلك أهوال بالنسبة لما بدا من السلطات المحلية من إنزعاج وما ساورها من مخاوف حول هوية وأهداف المؤتمر، التي لم تكن تفصيلاتها قد إتضحت بعد... وبدأت لجنتنا التطوعية الصغيرة التي كوناها تتدارس وتخطط وتتلمس طريقها. فكان أول ما عمدنا إليه إستصدار إذن من السلطة المحلية للدعوة لعقد الإجتماع. وقابلنا مفتش المركز الذي قبل أن يبدي رأيه طلب منا أن نطعم لجنتنا ونعززها بشخصيات مسؤولة وراقية!! على حد قوله!! حتى يمكن للسلطات أن تطمئن إليهم ليكونوا مسؤولين أمامها. وبالفعل رحب عدد من كبار الخريجين بالعموم ومن المهندسين أن يوقعوا معنا على طلب الإذن بعقد الإجتماع التمهيدي والتعريفي الأول. وطلبت السلطات منا تحديد المكان الذي نزمع أن نعقد فيه الإجتماع أولاً ثم تحديد من سيدعى إلى حضوره، وذلك بضرورة تحديد معنى ومدلول لفظ كلمة "الخريجين"، من هم وعلى أي مستوى::؟ ورفضت لجان الأندية المحلية وترددت أمكنة أخرى وإعتذرت عن السماح لنا بإستعمال مقارها مكاناً للإجتماع. وجاء الحل بوقفة نبيلة كريمة عظيمة سمحة ظفرنا بها من الأخ/ الزميل جون إسكندر، صاحب سينما عطبرة وزميلنا في الطلب والتخرج من كلية غردون، موافقاً على عقد الإجتماع في دار السينما التي يملكها، مما أخرس لسان السلطة. فقبلت بذلك ممتعضة وأذنت به شريطة أن يتحمل الأخ/ جون إسكندر مع اللجنة المسؤولية التامة والمتكاملة عن الأمن وعن كل ما سيحدث في ذلك الإجتماع. فلم يغير ذلك شيئاً من موقف جون الكريم. وإلتزمت اللجنة معه المسؤولية كاملة.

وبقي الشق الثاني من الشرط وهو تعريف لفظ الخريج وتحديد مدلوله. وأذكر كيف تم إستجلاء ذلك بالإتصال التلفوني بالمركز العام في أم درمان (وقد قام بذلك إن لم تخني الذاكرة الأخ/ حافظ هاشم أبو القاسم نيابة عنا) الذي جاءنا بالتفسير الرسمي الواضح من الزعيم الأزهري بأن لفظ الخريج يعني ويشمل "كل من نال تعليماً فوق الكتاب." فقطعت جهيزة قول كل خطيب... وجاء ذلك معززاً ومؤيداً لما كنا نرجوه ولما كانت تخشاه وتتخوف منه السلطات في عطبرة، خاصة مصلحة السكة الحديد، من طبقة عمال السكة الحديد ومن شمول لفظ الخريج لمن إستوفى شرط تجاوز الكتاب حتى من طبقة العمال خاصة، بإعتبارنا جميع خريجي المدارس الصناعية الذين تتكون منهم غالبية العمال خريجين من أجل توجيه الدعوة لهم للحضور وبالتالي فتح باب العضوية لهم وإتاحة فرصة إسهامهم في المؤتمر.

ولن أطيل في سرد التفاصيل (خصوصاً وإني قد ضمنت ذلك كله في ما سبق لي أن قدمته للجنة الإحتفال بالعيد الذهبي لمؤتمر الخريجين كتابةً إسهاماً وتوضيحاً لدور الأقاليم، وخاصة عطبرة وبورتسودان وحلفا التي كان لي شرف سكرتارية أو رئاسة دورات لجان مؤتمر الخريجين الفرعية فيها) مما قد يكون نشروه. وبحسبي أن أسجل هنا كيف كان ذلك الإجتماع العضوي الأول ناجحاً، وكيف أنا قد أبرقنا للمركز العام في مساء ذلك اليوم بالعدد الكبير لمن سجلوا أسماءهم أعضاء ودفعوا رسوم إشتراكاتهم التي قمت بتحويلها بخطاب للأستاذ/ مكي شبيكة بأم درمان، كتوجيه المركز العام لي بذلك. وسيجئ ذكر لأهم نشاطات لجان المؤتمرات التي عاصرتها أو شهدتها أو أسهمت فيها في مكانها حسب توقيتنا الزمني الذي إتبعه في تدوين هذه المذكرات.

♦ الحرب ولجنة الموارد والمستر هل:-

في عام 1939 نشبت الحرب العالمية الثانية ونقلت من الرئاسة في عطبرة إلى قسم الخرطوم. وخلقت لجنة أسميت لجنة الموارد Board of Resources وأنتدب رئيسي مأمور القسم التجاري المستر شاندلر Chandler، ليعمل بها في الخرطوم. ففرغني لأعمل معه فيها كاتباً للإختزال ومساعداً في أعمالها، ثم أعقبه عليها المستر ريتشارد هل نائبه السابق في عطبرة. فظللت أعمل مع الأخير فيها بعد أن تعدل إسمها. وكان من أطرف ما أذكره هو أنه كانت تنهمر علينا المكاتبات والنشرات بعنواننا الأول، حتى إذا ما إستحال الموضوع إلى عمل حربي إستكتبني المستر هل وأملى علي ردوداً (شعرية بالإنجليزية) إلى مرسلي تلك النشرات من بورتسودان وغيرها ليتوقفوا... صاغها شعراً... وفي البرقية اللاحقة الأخيرة التي طلب مني تعميمها للجميع رجاهم ليوقفوا تعاملهم معه بعد أن ألحق برتبة عسكرية وإرتدى زيها، تقول ما ترجمته رغبة في معرفتها:-

من لي بمن يوقف هذا الفيض
الذي لا حد له من إفادات وأرقام
من إحصائيات الميناء والأطنان المرفوعة
والبواخر التي وصلت والبضائع التي ترحلت
فبحق الله يا مدير الميناء توقف. فقد نالني ما كفاني
ولم يعد يهمني إلى أية جهة تشحن البضائع
فإن "هل" التابع للإمدادات قد مات وإنتهى
وبقي بعده البكباشي "هل" يخدم مارس

ومـن الجلي الواضح أن الروعة هي في الأصل الإنجليزي البليغ في وصف المغرب في قافيته وجرسه وها أنذا أثبت نصه أدناه:-

Who would stem the endless flow
of facts and figuers I do not wish to know
of port statistices and cargo handles
of ships arrived or cargo landed.

For Goodnass sake stop. I have had enough.
I do not care where you ship your stuff
Resources. HILL is long since dead .
BIMPAHI HILL serves MARS instead.
'RASMINA' please I insist
Delete me from your mailing list

ومارس هذا كما هو معلوم هو إله الحرب عند الإغريق الأقدمين. وقد أعجبت وأفدت كثيراً من الأساليب الرقيقة في التراسل والتعبيرات البليغة في اللغة الإنجليزية، مما يملى علي أو أطلع عليه في التقارير واليوميات والدوريات، خاصة من مثقفي كبار الرؤساء الذين عملت معهم.. فقد أوردت أمثلة وشواهد على ذلك في المراحل الوسيطة لعملي بالسكة الحديد لكثير مما قمت بتسجيله من مقتبسات ما أزال أحتفظ ببعضها. وكذلك عن بعض تلك الشخصيات العالية الفذة، كالمستر هنتر والمستر دبن والمستر هل، وصبر الأخير منهم خاصة على البحث والإستقصاء، كشواهد قصة ختم العربات وكتب الدعاية لصيد الأسماك بسواكن وغيرها، التي قد أورد بعضاً منها لطرافتها.

وبإنتظام آلة الحرب العسكرية وإكتمال تبعيتها لسلطات قوة دفاع السودان، عدت لعملي الكتابي بالمكتب التجاري بإدارة قسم الخرطوم. ولكني تطوعت مع الكثيرين من زملائي للعمل في وحدات قوات السودان المساعدة. فإنخرطت فيها وتم تدريبنا على إستعمال مدافع البرين والفيكرز Bren and vicuers "والمدفع المضاد للطيارات لطلقات رصاصه المضيئة ليلاً. وصرنا نعمل في نوبات مسائية عسكرية مسؤولة بمنطقة محطة السكة الحديد بالخرطوم وكان يعهد فيها إلينا أيضاً بملازمة غرفة المراقبة وتلفون الإنذار الملحق بها. وأذكر تلك الليلة التي أحدقت بنا فيها أخطار الفناء المحقق. إذ كانت عدة قطارات تقف بالمحطة، منها قطارين كانا محملان بالجنود من الهنود ومن الإنجليز، وقطار ثالث محمل بالذخيرة في الخطوط الممتدة على جانبي مكتب المراقبة، الذي كنا نعمل فيه، عندما دوت صفارات الإنذار

مؤذنة بغارة لطائرة حربية وشيكة... وكان الوقت ليلاً. فقمنا بتبليغ نقاط الدفاع الجوي والمدفعية بالمحطة، وضاقت الخنادق المحدودة العدد بنا وبالجنود الذين إرتمى أكثرهم على وجهه منبسطاً على الأرض. ولحقنا بوحدتنا الدفاعية المدفعية في المحطة. وجاءت الطائرة الإيطالية الضخمة تسير ببطء شديد وئيدة متثاقلة تئن على إرتفاع بسيط جداً في جو المحطة، التي كانت تمثل هدفاً خطيراً لكارثة ساحقة محققة لو أنها تبينته، لكن إطلاق الأعيرة النارية من المدفع المضاد حال دون شرها. فأدركنا لطف الله بأن غيرت إتجاهها وأخذت تعلو صعداً فتنفسنا الصعداء.

ثم إتجهت الطائرة غرباً، ونحن نوجه إليها مدفعنا. وحلقت فوق أم درمان، حيث ألقت قنبلتين قتلت بهما "(كلباً وحمارة)" كما تندرت بها الأغنية الساخرة فيما بعد من إذاعة أم درمان الوليدة، بنت الحرب.

♦ الكتابة والنشر في الصحف المحلية:-

أذكر أني وبطلب مني إلى مصلحة السكة الحديد في رئاستها بعطبرة، أنها أذنت لي بكتاب رسمي التصديق بالكتابة في الصحف كموظف. وأذكر كيف أني إستغللت ذلك في مناسبات عديدة بالكتابة أحياناً بصحيفة الرأي العام والنيل والسودان الجديد وعدة مقالات في جريدة المؤتمر. وكان يستكتبني بعضها الأخ/ الدكتور عبد الحليم محمد، رئيس تحريرها آنذاك، عندما كان يضيق بكثرة شكاياتي التي كان يدخلني من أجلها المستشفى.. أذكر منها مقال عاداتنا وتقاليدنا، ومقال عطبرة مدينة الحديد والنار وغيرها. وأذكر بخاصة ذلك المقال الذي بعثت به إلى (أبي الصحف) الأستاذ/ أحمد يوسف هاشم بعنوانه المثير "أتبشير يا مصلحة السكة الحديد أم تعويق لتعطيل أداء الشعائر" وذلك بسبب ما أصدرته من (أمر محلي حول العمل خلال ساعات شهر رمضان، يزيد فيها ولا ينقصها، بالعمل ساعة الفطور، مما أوقفه قلم الرقابة بعد طبع الصحيفة له. فخرج حديثاً أبيضاً من غير سوء.

- **مع عباس محمود العقاد:-**

وإعتلت صحتي بعض الشيء. فذهبت إلى القاهرة أثناء إجازتي مستشفياً ومستروحاً. وكانت الحرب العالمية الثانية ما تزال قائمة. وفي طريق عودتي بالقطار ومعي بعض الزملاء إكتشفنا وجود الأستاذ والشاعر الكبير/ عباس محمود العقاد معنا في القطار عند مغادرتنا حلفا. وكان موقفه من النازية وضد هتلر، الذي كان يتقدم زحفه أيامها مضيقاً على الحلفاء، معروفاً وواضحاً، بل قيل وقتها أنه قد أعد عدته يتوجه إلى السودان عندما إقتربت جحافل النازية وأوشكت أن تكتسح طبرق وتجتاح العلمين مهددة بالخطر. وإعتذر العقاد لفراش عربته بالقطار أنه متوعك لا تسمح صحته بأن يستقبل أحداً. فخططت على ورقة صغيرة بعض أبيات نظمية مرتجلة دفعت بها إليه، أردت أن أحييه بها ومستأذناً بها زيارته أذكر منها:-

يا أمير القريض جئنا نحيي	فيك غيثاً يهمي على السودان
قد غذا أرضه فأخصب واديه	وأذكى قرائح الشبان
كنت ملئ الأسماع منها وأنا	لنزجيك مالئاً للعيان
بإسم من بالقطار منهم أتينا	لنرد الجميل بالإحسان
نحن لولا توعك أنت تشكو	لهرعنا من غير ما إستئذان

فكان لنا ما أردنا.. وبعودتي وإستئناف عملي بالخرطوم، وإستمرار توعكي وترددي على المستشفى، قرر الأطباء نقلي إلى بورتسودان، التي قال لي عنها الدكتور/ همفرس، كبير الأطباء وقتها، أن هواء البحر فيها سيفيد صحتي كثيراً.

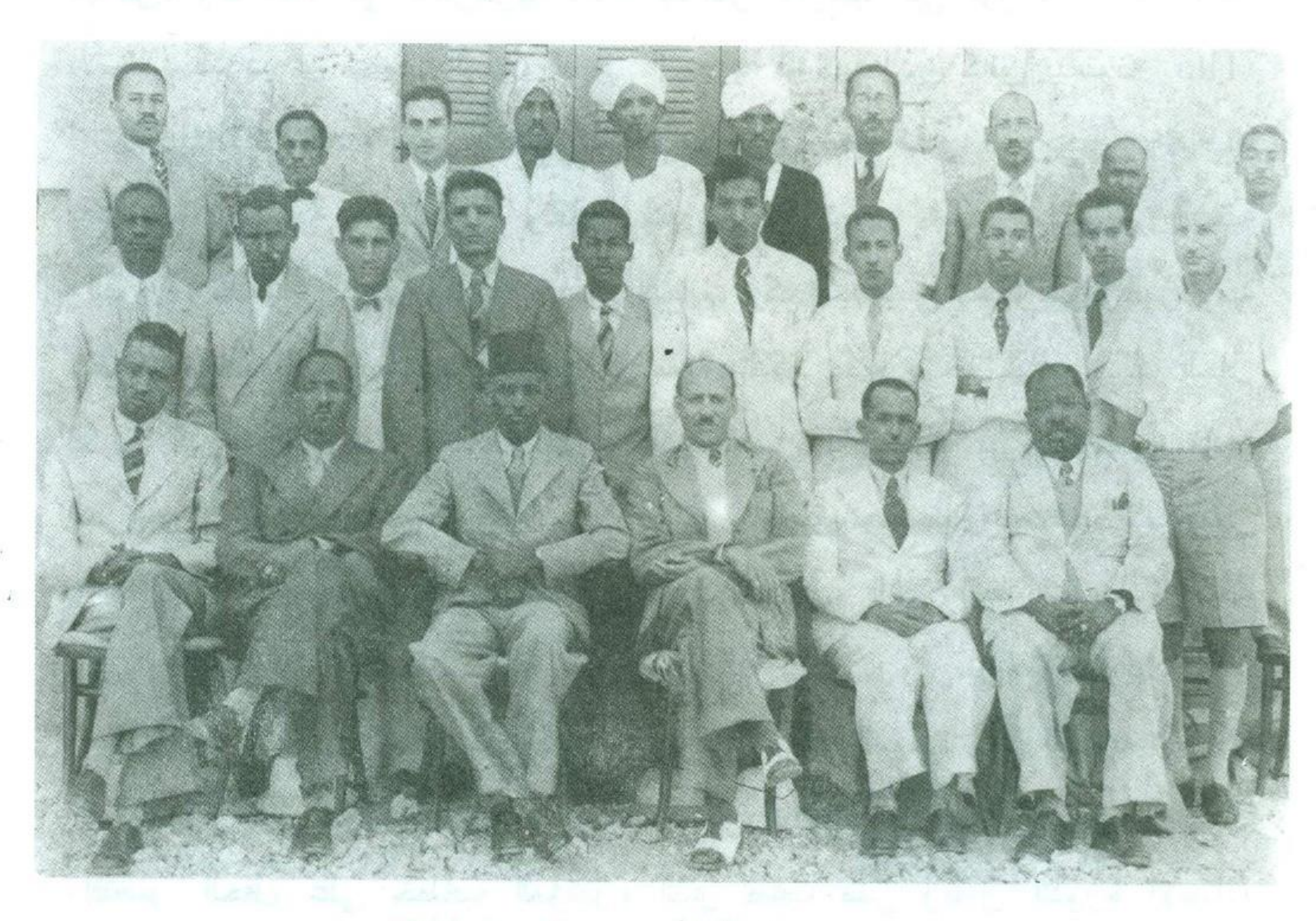
- **مع المؤتمر في بورتسودان:-**

كانت الحرب العالمية الثانية ما يزال مشتعلاً أوارها، عندما جئت منقولاً إلى بورتسودان. وكانت الخنادق والمخابئ معدة وممتدة ومتعددة وإن كنت لم أشهد غارة واحدة على كثرة ما كانت تطلق صفارات إنذار من غير أن يتحقق. وكانت الأقاصيص عن الخوف الذي أحدثته إنذارات القارات تروى على كل لسان، لم يسلم

منها حتى مدير الميناء الإنجليزي، الذي يروى أنه كان جباناً رعديداً... وأنه كان عندما يسمع الإنذار يهوى بجميع أصابع يديه على مجمع الأزرار الكهربائية للأجراس، التي كانت فوق مكتبه، والذي قيل أنه صاح مرة بمراسلته الخاص، وإسمه يس، الذي كان أول من يدخل عليه قائلاً له: (يس.. تقدر تشيلوا أنا :؟). وكذلك قصة المخبول مختل العقل، الذي كان يظهر أول ما يدخل الناس إلى الملاجئ، فيقف على حافة خندق المدير ويشير بيده إلى الطائرة مومياً بأصابعه إلى الخندق، وهو يصيح "الجماعة هنا فأرجموا..!" التي رواها لي الصديق/ محمد السيد عثمان، رحمه الله .

وفي بورتسودان كان النشاط الإجتماعي طافحاً وطامياً وطاغياً في نادي الخريجين وفي شعبة المؤتمر بالذات وفي الأندية الرياضية الأخرى وفي نادي سواكن. وقد آلت إليَّ سكرتارية لجنة المؤتمر الفرعية في دورتها تحت رئاسة الأستاذ/ الدرديري محمد عثمان، قاضي المديرية آنذاك، الذي كانوا ينعتونه The little God في البداية كما آلت إليَّ كذلك سكرتارية لجنة نادي الخريجين. وقد قمنا بإسهامات سياسية وإجتماعية وثقافية كثيرة، كنا نهتبل فيها المناسبات الدينية والقومية، كالمولد النبوي والهجرة ويوم التعليم. وكنت بصفتيْ السكرتارية المزدوجة خطيب معظم تلك الحفلات بكلماتها الرسمية، أذكر منها بوجه خاص ذلك الحفل الكبير الذي أقمناه في الساحة التي كانت تفصل بالأسلاك بين الناديين، نادي الخريجين ونادي سواكن، وكان سبباً لإزالة الفوارق وتوحيداً للصف. كما أذكر بوجه أكثر خصوصية حفل المؤتمر بالمولد النبوي، الذي أصررنا على إقامته نهارياً وفي وقت العصر، نسبة لظروف حالة الحرب وفرض تعتيم البلدة ليلاً وإطفاء المصابيح. فأقمنا سرداقاً كبيراً في مكان ساحة المولد. وفي الساعة المحددة إمتلأ المكان حتى فاض، وأعدت المقاعد لكبار الزائرين والمسؤولين في المقدمة. وإقتصر الحفل على خطاب المؤتمر، الذي طلب مني رئيس الدورة الأستاذ/ الدرديري محمد عثمان قاضي المديرية إعداده وإلقاءه. وحدث ما ملأ نفسي إعتزازاً

وإعجاباً، حيث جاء معتمد بورتسودان الإنجليزي المتعجرف ودخل إلى السرادق، وبين أصابعه سيجارة كان يدخنها.. وقبل أن يجلس على المقعد المجاور للأستاذ/ الدرديري إبتدره مولانا الدرديري بصوت عالي مسموع طالباً منه إطفاء السيجارة حتى قبل بدء تلاوة الإفتتاح، موضحاً له بأن السرادق مكتوب في جنباتها آيات من القرآن الكريم.. مشيراً له بأصابعه إليها.. فما كان من المعتمد إلا أن إمتثل في الحال، وأن فعل ذلك بإمتعاض ظاهر. وطلب مني الأستاذ/ الدرديري التقدم لإلقاء كلمة المؤتمر. وكان ذلك الموقف الجريء الشجاع الذي رأيته قد ملك علي كل مشاعري. فبدأت وكنت منتشياً أرتجل عبارات الإشادة وتمجيد العزة والكرامة والجرأة في الحق وفي نصرة الدين، متأثراً بما حدث، إلى أن صاح بي رئيس المؤتمر الأستاذ الدرديري قائلاً:- "إقرأ الخطبة المعدة من الورق.." فوقفت وإستجبت. وكان ذلك موقفاً لا أنساه. كانت لجنة المؤتمر ولجنة النادي آنذاك، التي



إحدى صور وداع السكة حديد بورتسودان 1944

تضمني معهم صورة تذكارية بمناسبة توديعي، (أسلمتها للجنة اليوبيل الذهبي للمؤتمر بأم درمان) تتكون من كوكبة وضاءة تتضح إيماناً وتفيض وتتدفق وطنية، أذكر منهم الأساتذة/ الدرديري محمد عثمان وحسين ملاسي وعمر باشري ومحمد أحمد سليمان (أب دومة - والد بدر الدين وغازي سليمان) ومحمد مجذوب البحاري وحسن أحمد عثمان (الكد) وخضر حسن سعد وعثمان أبو بكر. كما تألقت في الفترة التي سبقتنا أسماء يتصدرها/ أمين التوم (ومعاصروه) الذين دوت أبيات دوبيتهم تشحذ الهمم وتحدو النفوس وتغدق الأرواح. وكانت دولة الشعر في الثغر نابضة حية ومتطورة شعراً وأناشيد وأغاني ودوبيت، بل وأشعاراً وحلمنتيش أيضاً.. يحضرني منه المساجلات التي كنا نجريها، مقلدين في بعضها قصائد الأستاذ/ الأزهري (إبن عمر أو"هري" كما يختصر إسمه) خالطاً فيها الإنجليزية بالعربية، كقصيدته المشهورة :

ألا يا فضل الأخلاق أني عهدتك مولعاً بالEducation

كقول زميلنا حسون الصغير، يستعجل إدارة الميناء نقله، على رواية (يا رب بهم وبآلهم) أذكر منها:

يا مدير الميناء أجب طلبي مبروكة وظيفتك يا "ولبي"
أرجوك تزيل همي وغلبي وتعجل نقلي ألا بولي بي
الأزمة شديدة ولا ينكر شدتها مختار الدكتور
تكفيك شهادته وما قرر ال Senior medical inspector
يا رب فعجل بالفرج قبال ما يأتي"فؤاد فرج"
أو مستر coeخايفه يجي ويقول خلوه كمخزنجي

أو أبيات صديقي محمد صديق، وهو يهجو كبيراً في السكة الحديد، بقوله عندما عين under secratary

حليل المال المكندر بعد ما فوق صرت أندر Under
أكان جنيت ما في وندرWonder (أديت البنت لي) ... ...

عن طريق مدير الميناء، كما تقضي بذلك النظم والإجراءات. والذي أذكره أن المدير قد وضع تحت أكثره خطوطاً حمراء أوشكت أن تعم كل كلماته، التي وإن كان قد وصفها لي بأنها "قذرة" وأنه يتردد، بل ويتقزز من تمريرها عن طريقه إلى رئاسته في عطبرة، فإنها والحق يقال كانت لاذعة فعلاً وناراً حمراء مثل سطوره تماماً. وقد كانت نتيجة ذلك الخطاب هو ما أردت بأن تم نقلي إلى رئاسة مصلحة عموم الإدارة في عطبرة فوراً في عام 1943م.

• دور مصلحة الإدارة والقسم التجاري في نطاق ترويج وتنظيم السياحة المثمرة :-

بعودتي إلى عطبرة عدت مرة أخرى لأعمل في القسم التجاري . ولكن بمسؤوليات إضافية أكثر، إشتملت على أعمال نشطة وفعالة السياحة والإدارة والدعاية لها بالنشر، التي تمثلت في إعداد الكتيبات المتعددة المزينة بالصور والرسوم والنشرات والملصقات واللوحات السياحية، والتي نصدرها بمعاونة "فوريكرز" "وتوماس كوك" في إنجلترا "وماكو رو كوديل" في الخرطوم، لتجلى أنيقة وجذابة وملفتة. وكذلك التسهيلات والتذاكر الشاملة المخفضة لمصيف أركويت مثلاً ورحلات صيد الأسماك في البحر الأحمر ومشاهدة حدائق البحر المرجانية في بورتسودان، والتي كان يطلق عليها "MARINE GARDENS" والرحلات السياحية النهرية الخاصة بين الشلال وحلفا، وإستئجار بواخر خاصة للجماعات لتمكين السواح من إرتياد مواضع "آثار النوبة وأبو سنبل" وغيرها. ونشرات الدعوة لصيد الحيوانات في أواسط وجنوب السودان في رحلات جماعية منظمة نشرف عليها ونصممها، وتنضوي كلها تحت عنوان (تعالوا لزيارة السودان Visit The Sudan Booklets)...

عهدت إلي في تلك الفترة وبصفة مؤقتة سكرتارية "لجنة الميناء الإستشارية" التي كانت تنعقد بمكاتبنا في عطبرة. وفيها تعرفت بالقاضي المستر (قورمار)

المدعي العام والمحامي العمومي لحكومة السودان، الذي كان عضواً دائماً فيها. وأذكر كيف أني، فيما يبدو، حزت على إعجابه بشاهدة رده عليّ (وكنت وقتها قد إستشرته فيما كنت أفكر فيه من تقديم طلب للإلتحاق بكلية الحقوق للقضاة والمحامين والتي أعلن عنها) فأكد لي أنني لو فعلت لتم قبولي بها. "بغض النظر عن نتيجة أي إمتحان يعقد.." وبهذه المناسبة لم يقعدني عن التقديم لها إلا إعتراض والدي وعدم موافقته لأتقدم إلى المحاماة التي له رأي فيها، والتي تستلزم تقديم إستقالتي المسبقة من وظيفتي بالسكة الحديد، وأنه لا يمانع إذا ما تم قبولي لأدرس القانون لأتخرج كقاضي، الأمر الذي لم أرتح له وقتها كثيراً لولا أن تدخل فيه جدنا الشيخ/ قريب الله وبإيعاز من أبي لأصرف النظر عنه طاعة لوالدي. وقد أعدّها كرامة أخرى للشيخ ما ألمح لي به بعد أن قبلت رأيه ونصح أبي من أن الله سيثيبني لقاء ما صنعت أجراً عظيماً وسيعوضني بما هو خير منه بدلاً وأرفع مكانة ومستقبلاً. فكانت السفارة التي لم تكن وقتها في الحسبان، كما لم يكن لها في ذهني مجال ولو في الخيال، حتى ولو مجرد إحتمال في الرؤى والأحلام!!!

كانت عودتي الثانية إلى عطبرة وبإختصار مواصلةً وإستئنافاً وإستمراراً لنشاطاتي السابقة بها في مجالات المؤتمر وفي نادي الخريجين وفي جمعية الآداب والمناظرة وفي الطريقة السمانية ومسجدها بإسهام قيادي بارز وفعال مع زملائي في تلك المجالات ما وسعني الجهد، وكذلك الإسهام مع حركة العمال والتعاون الفعال معها إلى أبعد الحدود ومع أبرز قياداتها ورجالاتها آنذاك، سليمان موسى وقاسم أمين وعبد الله بشير والطيب حسن وحسين السيد "وبردويل" وعرفة "ومحمد إدريس" وغيرهم .

كان الجانب الإجتماعي والثقافي خاصة منه يستأثر بمعظم نشاطاتي وإهتماماتي. فنشطت جمعية الآداب والمناظرة وتوالت إجتماعاتها في يوم محدّد كل أسبوع بإنتظام تام. وكنا نشرك فيها وندعو إليها الأساتذة والمتأدبين والبارزين من

الأجانب والمسؤولين المثقفين ومن الموظفين والعمال والزائرين للتحدث في الشئون العامة وللدراسة والنقاش .

ذكريات طريفة عن بعض من عملت معهم من الرؤساء.. ومن الإنجليز المستر رتشارد هل، الصبور على البحث والتدقيق والتحقيق. وقد أفدت شخصياً كثيراً من عملي مع كبار البريطانيين ككاتب إختزال في ترقية معرفتي باللغة الإنجليزية وتنمية مفرداتها والتعرف على محاسن أساليبها وتعبيراتها سواء مما كان يملونه علي أو ما أتصفحه في الملفات والسجلات الموضوعة به وأطلع عليه في النشرات والمجلات والدوريات وتقارير مديري المديريات، التي كانت تمر كل شهر علينا. فأجد فيها معلومات مفيدة ومتعة فائقة. وأذكر على سبيل المثال: من بين من إستفدت منهم خاصة "المستر رتشارد هل" الذي يحسن العربية ويتأنق في أسلوبها ويحسن النطق بالضاد ويتباهى بحق بذلك ويلم بالتاريخ إلمام الأستاذ المتمكن الضليع، والذي كان يملك قوة إحتمال وصبر عجيبين على الدراسة والإستقصاء والبحث لدرجة تفوق حد الوصف.. أذكر منها (بالإضافة إلى ما أخرجته جهوده من موسوعته) واقعتين طلب في أحدهما رئيسه والرئيس الأعلى للقسم التجاري أن يعدّ له مذكرة عن ختم أبواب عربات البضاعة بالسكة الحديد وتطوراتها. فما كان منه إلا أن أصدر تعليمات مكتبية داخلية أملاها علي، يخطر فيها وينذر الجميع بأن لا تمرر له أية ملفات أو أوراق لأنه ولحين إشعار آخر سيتفرغ لمهمة خاصة... أردف ذلك بأن طلب من رئيسه ورئيسنا المباشر أن يستعين بي لأتفرغ لمساعدته بعض الوقت. فوافق وقد أدهشني أن طلب كل الملفات الحية والميتة والتعليمات والمنشورات المتعلقة بالموضوع من كل الجهات المختلفة. ولم يقف عند ذلك الحد، بل صحبته إلى مستودع الأرشيف العتيق بمكتب المدير العام وخرجنا منه بأحمال وأكداس من الملفات ومن المراجع. وما أريد أن أطيل، ولكننا عكفنا وإنكفأ هو ينكب عليها بادئاً من زمن سكة حديد كتشنر منذ الفتح ويملي عليَّ وأنا أكتب، متتبعاً كل ما طرأ عليها من تطورات منذ ذلك العهد السحيق حتى آخر تعليمات صدرت في

ا [illegible] ت!! وقمت بطبع ذلك في عدة صفحات، قمنا بعدها بوضع قصاصات [illegible] بارزة تبرز كلاً في محلها من تلك الملفات العديدة التي تجاوزت العشرات... وأذكر كيف أنه أخذني معه بعد أن فرغنا من إعدادها إلى مكتب رئيسنا، وقد لبس جاكتته وأصلح من هندامه وسوي رباط عنقه إحتراماً لرئيسه الذي دخلنا عليه، وقال له (سيدي متى تريد أن تطّلع على ما طلبته مني أن أعده لك عن أختام العربات) وكان الرئيس المشار إليه هذا، على عكس المستر هل، رجلاً عملياً جازماً حازماً يهتم بالخلاصات ويضيق بالتفصيلات لا يهمه القشور كثيراً، بل ينفذ مباشرة إلى اللباب في أي وقت. وقال المستر هل (هل يمكنني أن آتي بها الآن :؟) قال له (نعم يمكنك إذا أردت.) عندها عدت والمستر هل وبمعونة ثلاثة من المراسلات حملوا وحملنا نحن معهم كلهم إلى مستوى العنق كل تلك المراجع ودخلنا في صف طويل إلى مكتب الرئيس، الذي أبدى تململاً وضيقاً وإندهاشاً وتعجباً كبيراً وصاح يوجه سؤاله "ما هو كل هذا يا هل؟" وأجاب عليه بكل بساطة وبرود، ونحن كلنا والمراسلات نضع عشرات تلك المراجع المؤشرة بالقصاصات على مكتب الرئيس وما جاوره من المناضد ومنافذ وكراسي ونلقي البقية منها على أرض المكتب فوق البساط (كلها عن أختام العربات يا سيدي). وعندها مدَّ يده فقدم إليه المذكرة الطويلة المطبوعة التي تلخص فحوى كل ما حوته تلك المراجع والأضابير. فما كان من رئيسه إلا أن إنفعل وصاح به قائلاً (من أجل جلال الله سبحانه يا هل... ما هذا، إن كل ما أعنيه وكل ما أريده هو إستعراض الموقف الحالي للأختام ومدى فعاليته وما يمكن أن يطرأ لبعضه من تحسين لتأمينه...). ولم ينزعج المستر هل ولم يزد على أن قال (حاضر يا سيدي) ثم أضاف مستأذناً في إستعمال أجراس مكتب الرئيس التي ضغط عليها فلباها عدد من الموظفين ومن المراسلات تولوا مساعدتنا في العودة بكل ما سبق أن جئنا به إلى مكتب المستر هل، الذي أمرنا بوضعه على أرض الغرفة... ثم جلس على مكتبه مسترخياً وأشعل غليونه ونفث دفعة قوية من

دخانه، وهو يقول لي في أسف باد (...أناس ليس لديهم صبر على البحث والدراسة والتقصي..!!)

والواقعة الثانية المماثلة التي أذكرها كانت عن سواكن وعن المستر هل وهو الرجل المشهود له بالصبر على البحث والإستقراء، بالإضافة إلى ميزة وملكة الكتابة المطواعة ونصاعة الأسلوب، هي أنه عندما كان مساعداً لمأمور القسم التجاري، الذي كان يعني من ضمن ما هو مسؤول عنه بمكتب السياحة، طلب منه أن يعدّ كتيباً أو نشرة مصورة تستهوي عاشقي صيد الأسماك لمنطقة البحر الأحمر في سواكن، فطلب صالوناً يسافر به إلى سواكن، وكانت قد حددت له فترة أسبوع لينجز تلك المهمة... قبيل إنقضاء المدة المحددة أبرق المستر هل لرئيسه في عطبرة طالباً مدّ الفترة لبضعة أيام أخرى. وأجيب له طلبه. ولما أذن الموعد الثاني بالإنتهاء عاد وأرسل برقية أخرى يقول (إن المادة غزيرة وممتعة جداً وأريد أن أتمكن من الإنتهاء منها بعد فترة أسبوع آخر.) وأذكر أن الصفحات الخمسة الأولى التي طبعتها من جملة أوراقه، التي عاد بها وأملاها علي، والتي جاوزت العشرين صفحة، كانت الصفحات العديدة الأولى منها كمقدمة تدور حول تسمية وإسم سواكن فقط. وعددت الروايات الواردة في ذلك ومن بينها، بل ولعل أطرفها إيراده قصة تحكي كيف أن الخليفة هارون الرشيد قد أوفد بعض رسله إلى الشاطئ الأفريقي ليعودوا إليه ببعض ما يحتوي عليه ذلك الإقليم من خيرات. وكان من بين أطيب ما حملوه إليه منها سبع جوار حسان فاتنات... وكان السفر وقتها بالمراكب الشراعية التي تتباعد أوقات إبحارها وتطول شهوراً. وتبين حين وصول الوفد عائداً إلى أرض الخليفة أن وجدت الجواري الحسان السبعة كلهن حبالى(حوامل)... ولم يجد الموفدون من الأعذار ما يخلصهم من غضب الخليفة وعقابه سوى أن يدّعوا بأنهم نزلوا بموضع مسكون بالجن بالساحل(إسمه سواكن) وهم في طريق عودتهم، وان أحد أولئك الجن هناك لابد أن يكون هو الذي إعتدى على شرف الفتيات السبعة العذارى فحملن منه. وذكر كيف أن الخليفة لم يصدق كلامهم، بل رد عليهم متعجباً

بقوله (لو كان جناً واحداً وفتاةً واحدةً لصدقتكم ولكن كيف كانوا سبعة جن!؟) ومضى المستر هل يردد ويوضح كيف تطور وتبدل الإسم بالنقل والتداول فيما بعد إلى "سباجن " "وسواجن " ثم إلى سواكن...أخيراً.

أورد هذا لأدلل به على النوعية الفاهمة الدارسة المتفردة لبعض هؤلاء البريطانيين القدامى ممن عملت معهم بالسكة الحديد من جهة، وكمثال على قوة إحتمالهم وشدة صبرهم وجلدهم على البحث والتوثيق والتقصي، مما تشهد به إسهاماتهم الفنية العديدة التي تطفح بها سلسلة مجلدات The Sudan Notes and Records ولكل ما كان له من أثر عميق ومفيد في مجال إعدادي ومعرفتي وتثقيفي. وقد تكون لذلك صلة وثيقة بما كرمتني به السكة الحديد من ترشيحي وإيفادي كأحد ثلاثة من موظفيها للإلتحاق بكلية الآداب بالمدارس العليا لكلية غردون التذكارية. فدخلتها سنة1945م ولحق بها بعدنا المستر هل أستاذاً للتاريخ، تتلمذنا عليه. وكانت زوجته أول أمين لمكتبة المدارس العليا. كما أذكر أنه كان قد عهد إلي بتولي ترجمة كتابه The Biographical Dictionary of the Sudan والذي بعد أن جاوزت فيه حرف الراء فقد بين السودان ولندن في البريد...

◆ إلى كلية الآداب بالمدارس العليا :-

"بعد ما شاب دخلوه كلية الآداب"... لا الكتاب.. وكانت لفتة كريمة ومنة عظيمة ويداً طولى أسدتها لنا مصلحة السكة الحديد بلا طلب منا، نذكرها بالشكر والتقدير والعرفان والإمتنان عندما فتحت المدارس العليا أبوابها ورؤى أن تتاح الفرصة لمن فاتهم التعليم العالي، الذي كانت كلية غردون الثانوية هي نهاية مراحله آنذاك، لتفتح لبعضهم الأبواب للدراسة فيها. وكان من حسن حظي أن يتم ترشيحي وإختياري مع زملائي إسماعيل حسين من مصلحة الإدارة، ومحمد صديق من قسم مستخدمي العموم، للإلتحاق بها على نفقة السكة الحديد ولفترة سنتين أو ثلاثة، نمنح

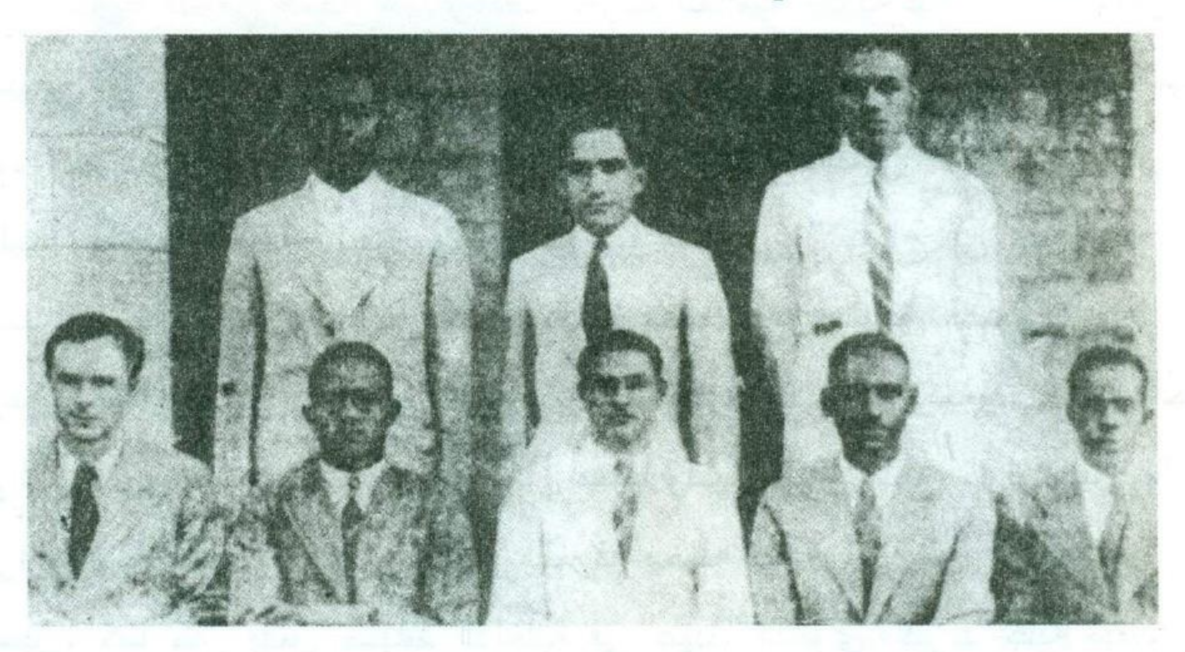
بعدها دبلوم الآداب دون أن يكون لنا حق المطالبة بما يترتب على حيازة الدبلوم من الترقية لما يوضع الخريجون في الدرجة كيو(Q).

كان ذلك في السنة التي رفعت الحرب العالمية الثانية فيه أوارها. وكان من الطبيعي أن نواجه بعقابيلها. فكانت داخلياتنا هي المباني الطينية المؤقتة التي شيدت أثناء الحرب بالميدان الواقع جنوب الجناح الغربي للمباني الرئيسية. وكان كل طالبين يقتسمان غرفة واحدة. وآثرنا حرصاً منا على الإندماج في جو الطلاب أن يقاسم كل منا طالباً، فشاركني السكن حسن محمد حسن، شقيق صديقي أبو شرف، وزميلي بعد إنتسابه إلى وزارة الخارجية فيما بعد.. وكنا نحن مبعوثو السكة الحديد مع الأستاذ/ محجوب مكاوي، الذي كان معيداً وقتها بكلية العلوم، ثم تزاملنا فيما بعد بوزارة الخارجية... نتناول الطعام بالغرفة يحمله لنا فراش من المطبخ دون أي تحسين، كما كان يفعل ضباط الداخلية في عهدنا الثانوي. فنزيد عليه ببعض ما نبتاعه نحن من محسنات. إذ كنا نتمتع بمزية إستمرار دفع رواتبنا الشهرية إلينا ونحن طلبة في تلك الفترة الدراسية كلها.

♦ إتحاد طلبة المدارس العليا:-

وجاءت فترة الإنتخابات لإتحاد ما كان يسمى بطلبة المدارس العليا، وأنتخبت نائباً لرئيس الإتحاد. ولكني آثرت أن أعمل سكرتيراً للإتحاد لأفيده بخبراتي وتجاربي السابقة. وكانت الرئاسة للدكتور مشعال ومعه في اللجنة النذير دفع الله، وعبد الكريم ميرغني، ومحمد يوسف مضوي، وقناوي، إلى جانب ممثل الكليات من الأساتذة المستر هودجكي. وكان من أهم ما قدمناه في فترتنا كتابة أول دستور لذلك الإتحاد. وإلتحقت بفرقة التدريب العسكري الـ Cadet للطلبة وحزت على كأس الرماية (النيشنجية) للفرق.. إذ حصلت على 59 نمرة من النمرة القصوى (60) وما زلت أحتفظ بصورة فوتوغرافية وأنا أحمل الكأس مع قائد الفرقة البمباشي Wood

وضابطنا أستاذنا إبراهيم أحمد والصول علي. كما كنت بلوك أمين الفرقة في السبلوقة ورقيت لوكيل أمباشي .



لجنة اتحاد المدارس العليا

الجالسون من اليمين (النذير دفع الله – خليفة عباس – مشعال – قلندر. خوركلين ممثل الكلية).
الواقفون من اليمين (عبد الكريم ميرغني، قناوي، محمد يوسف مضوي)

وفي إجازات تلك الفترة أيضاً قمنا برحلات طلابية إحداهما إلى الغرب والثانية إلى الجنوب، إمتدت إلى داخل الكونغو البلجيكي في مدينة أبا. وقمنا بنشاط محدود. وبدأت ببعض المواقف الصعبة حول تشبث السلطات بإستصدار إذن منها لزيارة الجنوب كمنطقة مقفلة، الأمر الذي عارضناه بشدة من ناحية المبدأ، وأردنا تجاهله. لكن إدارة الكلية سوّت الموضوع بطريقتها فحصلنا على إذن السماح لنا بالزيارة.

♦ وتم زواجي الجديد وأنا طالب:-

وفي تلك الفترة وعقب العودة من معسكر التدريب للكاديت بالسبلوقة أتممت عقد قراني بزوجتي الحالية، إبنة عمي وإبنة خالي في نفس الوقت، السيدة/ صفية

حامد عمر، وأنا طالب بكلية الآداب. وأذكر كيف بدأ ذلك أمراً غريباً لدى الجميع بعد قصة تزويجي الأولى، خصوصاً وأنني كنت مصراً على ما صار معروفاً لدى الجميع، القريب والبعيد، تمسكي بضرورة أن تتوفر في زوجتي شروط ثلاثة هي: 1- أن تكون بيضاء 2-وفي مستواي التعليمي 3- وسادة بدون شلوخ... وأذكر كيف أني قد بهتّ وأسقط في يدي ولم أجد جواباً وأنا أفاتح أبي برغبتي في إتمام ذلك الزواج الذي تخيرته بنفسي وأنا مقتنع به، عندما واجهني في حيرة وإندهاش يشبه التضيق متسائلاً ومذكراً بقوله (ولكن إبنة عمك هذه التي تقول بأنك تريدها زوجة لك لا تتوفر فيها ما تصرّ عليه أنت من شروط... فماذا حدث لك؟ وماذا تعني:؟ فأنا لا أريد أن أعرض علاقتي بأخي (والدها) وبأهلها لمثل ما سبق أن أحدثته من مأساة ما تسميه بقصة تزويجك الأول...) ولكني أكدت له وأقنعته بأن تلك هي إرادتي ورغبتي فعلاً. ولقد حرت أنا نفسي في تعليل وتفسير موقفي ذلك وضربي بشروطي الأساسية والمبدئية الثلاثة، التي كنت متشبثاً بها، عرض الحائط، بل وكان الأعجب من ذلك موضوع الشلوخ بالذات.. وما أعده من سخريات القدر وعجيب تصرفاتها نحوي وتصرفاتي نحوها. أذكر أنني، ويا للعجب، كنت أنا الذي سبق لي أن أخذت من إخترتها لتكون زوجة لي فيما بعد إلى "الشلاخة" بعربة أبي التي كنت أقودها بنفسي، عندما جاءت بها جدتنا إلى منزلنا بأم درمان وطلبت مني مرافقتها لتجري عليها عملية الوشم البشعة تلك، التي كنت أستهين بها وأستهجنها وافرمنها فرار السليم من الأجرب ولا أرضاها حتى لغيري... فما أعجب تصاريف الحياة ومفارقاتها!!! فها نحن بحمد الله ما زلنا نعيش معاً في وفاق ووئام تام.. إذ أمد الله في العمر وإحتفلنا بيوبيلنا الذهبي فيه عام 1995م.

هذا وقد دعوت إلى حضور ذلك الزواج عدداً من زملاء الدفعة، يتقدمهم الأستاذ مكي شبيكة، إلى مقيل بالجيلي في حضرة أبي وبعض أهلي من أفراد الأسرة، دارت فيه أكواب الحلال من الشربوت مع الغداء...

ولن أتحدث بأي قدر من التفصيل عن النشاط الطلابي السياسي في تلك الفترة الملتهبة والمليئة بالأحداث، ولا عن أحداث مواقف الطلبة الوحدويين والآخرين والإستقلاليين القلة خشية إطالة من جهة ولحساسية موقفي وزميلاي، بوصفنا موظفين أصلاً من بين الطلاب من جهة أخرى. فقد أسهمنا وراء الستار بما إستطعناه. ومن ذلك ما كنت أكتبه شخصياً في بعض جرائد الحائط بإسم مستعار، بعد أن حذرتنا إدارة الكلية من ضرورة التقيد ملاحظة وضعنا الخاص وبما كان يفرضه ذلك علينا.

عندما كان الطلبة يعقدون إجتماعهم السياسي الحاسم بدار الإتحاد، وكنت وزميلاي، ومعنا (القاضي) والطالب الأستاذ/ عبد الرحمن النور، نقف خارجه، جاءنا المستر ثيوبولد وخاطبني وقال لي (إن الكلية قد صدر قرار بأقفالها) ويمكنك أن تبلغ الطلبة بذلك. فتوجهت بتوي إلى حيث كان إجتماعهم ما يزال منعقداً بدار الإتحاد، ووجدتهم يتحاورون فيما قد تفعله السلطة، وتقدمت إلى المنصة.. وأذكر حتى الألفاظ التي بدأتها بقولي (إخوتي الزملاء لقد جئتكم من سبأ بنبأ يقين... حول ما تناقشونه. فقد طلب مني العميد المستر ثيوبولد أن أعلمكم بأن الدراسة بالكلية قد عطلت..) فقضي الأمر بذلك... وإنفض بعدها سامر ليلي...

• ملحمة الحيلولة بيني وبين مواصلتي الدراسة بكلية الآداب والكفاح العنيد والإنتصار:-

في نهاية سنتنا الثانية بكلية الآداب أعلنت نتائج الإمتحانات. وكتب لي الله التوفيق. فأحرزت فيها النجاح. وهنا حدث ما يدعو إلى التعجب والإستغراب فعلاً.. فقد قررت السكة الحديد أن يعود زميلاي إليها وأن أعود أنا كذلك معهم، رغم إخفاقهم ومروري!!

ورجعنا إلى عطبرة ليستقر بها زميلاي في وظيفتيهما السابقتين، ولأتخذ من قلمي سلاحاً مشرعاً رافعاً معه لواء الجهاد عالياً منافحاً ومناكفاً ومدافعاً عن حقي

في مواصلة دراستي لإكمال السنة الثالثة المقررة ولأنال بعدها الدبلوم إذا وفقني الله.. لكن السكة حديد تعنتت فرفضت طلبي وأصرت على عودتي للوظيفة، وأنها لن تسمح لي بمواصلة الدراسة. وأذكر جيداً سلسلة الخطابات المتواترة التي كنت أتداولها معها متمسكاً بحقي ومصراً عليه، فلم يزدها ذلك إلا تعنتاً وإستكباراً. وقد كانت بالفعل مداولات تتجدد وتتوالى يومياً. فكنت أبعث بالخطاب تلو الخطاب لرئيس مصلحتي، الذي يفصل بين مكتبه ومكتبي غرفتان فقط، مناولة باليد.. وعندما لا أتسلم رداً في اليوم الذي يليه، أبعث بخطاب إستعجال آخر. وهكذا دواليك.

وأذكر عندما أفرطت في ملاحقاتي وضاق الرئيس البريطاني بها ذرعاً وتهافتت رسائلي إليه، إستدعاني إلى مكتبه وقال "خليفة أفندي، نحن لسنا في لعبة التنس أو الطاولة. فيجب لهذه الكرة أن توقف.." فكانت إجابتي هي: "بعد أن فشلت في إقناعهم شفاهةً فلابد من أن يحسم الأمر كتابةً. وسأصر بأن لا تبقى الكرة في جانب الملعب الخاص بي أبداً، بل سأعيدها وأعيدها وأدفع بها إليكم حتى أحصل على القرار النهائي، الذي لن أرضى به إلا بعودتي لإستئناف دراستي وأتم فترتها المقررة."

وفتحت الكلية أبوابها لسنة ثالثة وأنا ما أزال في عطبرة أتابع مواصلة جهودي ومحاولاتي وسيل رسائلي دون توقف. وأعطيت للسكة حديد إنذاراً لمنحي، إذا شاءوا، إجازة للسنة المتبقية حتى ولو بدون راتب.

وإتصلت برؤسائي في الكلية ومديريها وعمدائها ولقيت مناصرة وتفهماً تاماً وإستعداداً وترحيباً وتشجيعاً، خاصةً من الدكتور توتهيل والمستر ثيوبولد، العميد، وأستاذي في اللغة الإنجليزية المستر دوناخي. وقد أوحى إليّ هؤلاء وأبدوا إستعدادهم لقبولي لمواصلة دراستي بالسنة الثالثة بلا مقابل.. عندها ألقيت بقفازي وواجهت السكة الحديد بأنني سأسافر فوراً للإلتحاق بزملائي الذين كانت قد مرت عليهم، منذ إستئناف الدراسة، أكثر من شهرين، وإنني لا أربط نفسي بأي إلتزام للسكة الحديد بالعودة إليها بعد إحرازي الدبلوم، طالما كان ذلك هو موقفها مني.

وأخيراً وبإختصار كتب الله لي العزة والغلبة والإنتصار، فوافقت السكة الحديد على أن أعود لكلية الآداب، وكما كانت سابقاً على نفقتها هي. فحمدت الله.

وأذكر أنني غادرت عطبرة في مساء نفس اليوم الذي أبلغت فيه بذلك القرار بعربة نوم، ألحقت خصيصاً بقطار البضاعة الليلي للخرطوم. ولعل من الطريف أن أذكر كيف كانت وقفتي تلك موضع إهتمام، ودعني أقول وإحترام ومتابعة للكثيرين جداً من زملائي وأصدقائي، وكيف أنها كانت حديث الناس في عطبرة حتى أطلق البعض على مجموعة رسائلي لمحاولتي العودة، التي تجاوزت الإثنى عشر خطاباً مني، عدا الردود، ما أسموه "بكفاحي" أو "ماين كاف" تشبيهاً له بكتاب هتلر المعروف...

♦ انتصار الكفاح بالعودة إلى الجامعة:-

عدت إلى الجامعة، ولم يتبق من الفترة الدراسية للنصف الأول لسنتنا النهائية إلا بضعة أسابيع. وكم كانت إدارة الكلية كريمة ومتعاونة ومناصرة لي إلى أبعد الحدود. إذ هيأت لي كل التسهيلات اللازمة من إقامة وأكل وإتاحة فرصة الإستفادة الكاملة والدائمة من المكتبة طيلة فترة عطلتها السنوية، التي كان فيها كل الطلبة غائبين ولم يكن بها أحد غيري. وعكفت من جانبي على توطين نفسي للإنصراف بكلياتي للقراءة والتحصيل ولإستدراك ما فاتني من محاضرات ورجوع إلى ما بالمكتبة من مراجع، مستشعراً عظم التحدي وضخامة العبء ومشفقاً من شمولية إمتحانات الدبلوم لمحصلات الأعوام الدراسية الثلاثة وخشية الإخفاق وما قد يجره ذلك من شماتة أو خزي...

وكسراً للرتابة وتخفيفاً على النفس من العناء، كنت أقفز مرة أو مرتين كل أسبوع إلى قريتي الجيلي، حيث كانت تقيم زوجتي وأهلي، صلة لأسرتي وتعبيراً وترويحاً لنفسي. وعطفت السكة الحديد فمنحتني إذناً خاصاً بالسفر المجاني على أي قطار (ركاب أو بضاعة) يسير بين الخرطوم والجيلي، مشترطةً أن أقوم بتفتيش

تذاكر الركاب بين المحطتين، وبعثت إليّ عن طريق مأمور قسم عطبرة بعلامة رسمية للقبعة ومقص تفتيش للتذاكر، على أن أقدم تقريراً في كل مرة إليهم.

وإنتهت الفترة الدراسية للعام الثالث بخير. وكتب الله لي أن أحرز دبلوم كلية الآداب بنجاح. وعهد إليّ بإلقاء كلمة الطلبة في حفل التخرج النهائي، التي ما أزال أذكر ما إستولى عليّ من حرج، عندما إفتقدت نص الخطبة المعدة المكتوبة في اللحظات الأخيرة من نفس يوم الإحتفال. فإضطررت لأن ألقيها إرتجالاً، عمدت فيها إلى التعبير العاطفي عن المشاعر وجنحت فيها إلى زخرفة الألفاظ، بينما كان فيما أعددته أصلاً بعض لفتات وإيماءات وشطحات ذات مغزى لم يكتب الله لها أن تلقى.. وأذكر منها:

فأخوك الخريج يا طالب المجد ... مجد محفز الوثبات

وأخوك الخريج سوف ينادي ... بحقوق غدون مستلبات

ولست أدري لأن الله وقد أراد ذلك، قد سلم.

• العودة للسكة الحديد بعد التخرج من كلية الآداب:-

عدت إلى عطبرة مهد غرامي الأول أحمل دبلوم الآداب، فإحتضنتني وإستقبلتني إستقبال العائد المظفر الموفق المنتصر، وفرحت السكة الحديد الرسمية عندما قدمت لها الدبلوم الشهادة التي نلتها، والتي كانت هي سبباً فيها، رمز عرفان وشكر وإعتراف بالجميل الذي أسدته إليّ، بما معناه "عوارفكم ردت إليكم معارفاً."أو ما عناه الشاعر البحتري بقوله:

وما هو إلا غرسك الأول الذي ... أفضت له ماء النوال فأورقا

فأعادت إليّ الدبلوم بعد أن طوفت به علي كبارها، لأحتفظ بها. وتناولها مني الأخ/ عوض هلال، كبير المشرفين على ورشة النجارة، ليعيدها إليّ مبروزة وقد حفها بإطار حسن الصنع جميل، بواجهة زجاجية ما يزال يحفظها.

وعملت لفترة قصيرة برئاسة إدارة الأقسام الجنوبية في الخرطوم، ريثما تقرر الرئاسة في عطبرة مصيري ومقري.

وعند وصولي لها عرضت عليَّ وظيفة باشكاتب القسم التجاري، ولكني رفضتها وطالبت بأن أوضع بالدرجة "كيو" أولاً التي يؤهلني لها الدبلوم الذي أحمله.

وأخيراً تمت الترضية بترقيتي في وظيفة مفتش إدارة القسم التجاري بدرجة أعلى... وعهد إليَّ في هذه الفترة بالقيام بترجمة كتاب تعليمات البواخر وأتفرغ على إعدادها. وأوكل إليَّ بعدها تغيير مفتش الإدارة في كريمة التي يشرف عليها وعلى خط سفريات البواخر، التي تسير بينها وبين كرمة، أثناء إجازته. فكانت أول تدريب عملي مسؤول للإدارة بشقيها، حركة وإدارة وبضاعة وقطارات وبواخر. وأذكر كيف كنا نقضي عطلات آخر الأسبوع بمروي في ضيافة الدكتور/ علي بدري والسيد/ محمد كمال، مأمور المركز، ممتطين (رفاس أو قارب الأول البخاري أو مستظلين بشجرة المانقو الوارفة الظليلة على شاطئ النهر بمنزل الثاني، التي كانت هي بهو إستقباله الأثير النضير المفضل... وأن أنسى لا أنسى حفل الشاي البهيج الذي دعانا إليه والذي كان قد حوى كل ما لذ وطاب.. سراويس البرسيم.. التي كان المضيف يصرّ على تناولنا لها لما تحويه من فيتامينات!).

وإستأنفت بمجرد عودتي إلى عطبرة النشاط الإجتماعي والسياسي، تحت ستار الأدب، بالنادي الأهلي الذي أسندت إليَّ سكرتاريته وبلجنة المؤتمر الفرعية التي شرفت برئاستها.

◆ مع عمال السكة الحديد في كفاحهم:-

أُتسمت تلك الفترة بالعمل الدائب والرباط الوثيق مع العمال وهيئة شؤونهم الوليدة. وأذكر بكل تواضع وصدق أن بيان أول إضراب قد قمت بصياغته وكتابته بخط يدي، خلف خيمة السمانية بساحة المولد النبوي بعطبرة، بحضور بعض كبار

قادتهم وأسلمته لهم في المساء الذي سبق تقديمه للسلطات لينسخوه بأيديهم وليمزقوا النص الذي كان بخط يدي، تحوطاً وتغطيةً للأثر.

قام العمال بتنفيذ الإضراب الناجح، ووالينا من جانبنا المناصرة والتأييد لهم ومساندتهم والوقوف إلى جانبهم. وأذكر مجيء الوفود الزائرة، التي تقاطرت للتوسط بينهم وبين السكة الحديد، وكيف شرفني أحد تلك الوفود بإصراره على أن أتولى الترجمة في إجتماعاتهم بمدير السكة الحديد. وكان ذلك بطلب ملح من الشيخ مصطفى الأمين. وأذكر وأعترف كيف كان تحيزي في الترجمة ظاهراً، إعترض عليه المستر ولبي، عندما أحس بأنه يتجاوز النقل الحرفي الأمين لما دار، وذلك بمحاولتي الزيادة المتعمدة عليه وتقويته من جانبي.

وأذكر كيف أنه عندما ترجمت كلام الشيخ مصطفى الأمين في الإجتماع، عارضني المدير بأنه لم يقل كل ما تفوهت به. فما كان من الشيخ مصطفى الأمين إلا أن هب يناصرني ويؤيد أن ما قمت بترجمته هو فعلاً ما قاله (وهو لا يعرف من الإنجليزية حرفاً)... وأذكر كذلك الإشتراك في إعداد صيغة ردّ هيئة شؤون العمال على ما حواه خطاب مدير السكة حديد، الذي أعدّ بإشراف الأستاذ/ محمد أحمد محجوب المحامي، ونحن معه بمنزل السيد/ حسن قرين، مفتش المركز المساعد في عطبرة، والذي أسهمت في ترجمته وقمت بطباعته في نفس مكان الإجتماع في نفس ذلك المساء. كما أذكر ما شرفتني به هيئة شؤون العمال فيما بعد، من إصرارها على أن أكون مترجمها الذي لا تقبل بسواه في أحد إجتماعاتها الهامة مع إدارة السكة الحديد، الذي ترأسه مديرها/ المستر ولبي شخصياً وحضره معه السيد/ عبد الله مسعود، والذي كاد أن يخلق أزمة بسبب إعتراض السكة الحديد على إختيارهم لي من حيث المبدأ كمترجم من قبلهم وعرضه ليكتفوا بمترجم مكتبه ليقوم بذلك. لكن العمال أصروا على أن أقوم بالترجمة. وكانت مغالطات المستر ولبي لي ومقاطعاته لا تنقطع أثناء الإجتماع، الأمر الذي حدا بممثلي هيئة شؤون العمال للتشبث بقيامي بالمهمة تلك التي زادت مما كان المستر ولبي يضمره من موجدة نحوي ومن عدم

إرتياح لي، إنعكست في العديد من تصرفاته وتعقبه المعاند وترصده للإيقاع بي عدة مرات.

♦ حملة إستنفار التجمع وتعبئة الجماهير لتأييد الوفد السوداني الموحد للقاهرة والمساءلة أمام السلطة الإدارية والقضائية بعطبرة:-

حفلت تلك الفترة الأخيرة وأنا بعطبرة، بأحداث كبيرة هامة لها خطرها على الصعيدين السياسي والشخصي. وبلغ النشاط السياسي ذروته وتوّجه إلتئام شمل الأحزاب وتوحدها وتوجهها في وفدها الموحد إلى القاهرة. وقد إستلزم ذلك بذل الجهود المضنية منا محلياً لتأييده. فقمت وزميلي الذي يفيض قلبه وطنية وإخلاصاً وإيماناً المهندس/ محمد مجذوب البحاري، بتهيئة الجو المساعد وتعبئة المشاعر ليكون الإستقبال لهم بمحطة عطبرة عظيماً وحاشداً، يليق بشرف وعظم المناسبة ويعرب عن كامل المناصرة والتأييد. فكثفنا النشاطات وأصدرنا النشرات ثم طفنا على جميع الأندية الإجتماعية والرياضية وعلى دور العمال. وعندما ضاق بنا الوقت، وكان اليوم يوم جمعة وقطار الوفد يمر بعطبرة في أصيله الباكر، هرعنا إلى المسجد الكبير وألقيت فيه خطاباً حماسياً، إستنهضت به الهمم والعزائم، حاثاً الناس على الخروج إلى إستقبال الوفد بمحطة السكة الحديد، كان أثره بليغاً. إذ خرج فيه حتى العميان. وكان مشهداً عظيماً عجيباً حقاً، إكتظت فيه المحطة والأرصفة وتدفقت الجموع لتغطي حتى فناء المحطة خارج السور إلى ما جاوز حدود المستشفى. وأذكر خطابي المرتجل الذي ألقيته من فوق سطح عربات القطار المقل للوفد أثناء توقفه بعطبرة، وأذكر خطاب الأزهري القصير البليغ، وأذكر كيف أن الأستاذ/ يحي الفضلي كان يحاول أن يلقنني وأنا أتحدث من فوق سطح القطار ما أضيفه على خطابي الأول لأقول "أين أنت يابيفن لترى وتشهد هاته الحشود الحاشدة والكتل المتراصة، التي خرجت لتعرب ولتعبر في إجماعها الرائع ذاك عن ثقتها وتأييدها وتفويضها للوفد... وقد أُجرى معي في صبيحة اليوم التالي تحقيق بمركز

عطبرة بشأن ذلك الخطاب، الذي ألقيته بمسجد عطبرة والذي أحالني مفتش المركز البريطاني لينظر قضيتي ويصدر حكمه فيها فضيلة/ القاضي الشرعي، بوصفه جهة الإختصاص بجريمة حددها "بإلقاء خطاب مثير في المسجد دون تصديق" وكان حكم القاضي الشرعي، مولانا الشيخ إسماعيل المفتي، هو اللوم وأن أوقع على تعهد كتابي بعدم الخطابة دون إذن مسبق أبداً في المستقبل.

وكثرت وتعددت الوفود السياسية والحركية الزائرة أو المارة في طريق سفرها عبر عطبرة. وكنا نعد لكل منها ما هي خليقة به من إستقبال وتكريم. أذكر منها وفد طلبة جامعة القاهرة الذي جاء زائراً للسودان من مصر، والذي ضم إبن أحمد حسن الزيات (وزير خارجية مصر فيما بعد) وإبنة الدكتور/ طه حسين، التي تزوجها فيما بعد أيضاً. وأذكر الإستقبال الذي أعددناه لهم على رصيف المحطة بعطبرة، والذي خطبت فيه مستهلاً بأبيات شاعرهم إبن الفارض التي مطلعها :

يا أهل ودي أنتم أملي ومن ... ناداكم يا أهل ودي قد كفى

وخاتمتها قوله:-

لو أن روحي في يدي ووهبتها ... لمبشري بقدومكم لم أسرف

وكذلك الوفد العائد من "ليك سكسبس" والمكون من رجال السيف:- حامد صالح المك وعمر الخليفة عبد الله، وكيف أقمنا لهما حفلاً تكريمياً بالنادي بالصباح وخلال ساعات العمل، بعد أن "فوّتها" بأن إستأذنت من رئيسنا البريطاني وموّهت عليه، فأذن لي (وقد أوخذ هو على ذلك مؤاخذة كبيرة وحقدها عليَّ فيما بعد). كذلك توقف الرئيس الأزهري، وهو في طريقه للخرطوم بالقطار عصر ذلك اليوم، الذي طفت به فيه بوصفي رئيس لجنة المؤتمر الفرعية، على جميع الأندية ودور العمال جميعها في برنامج دقيق منظم، ثم عدنا به ليواصل سفره بنفس قطاره في مظاهرة ضخمة كبيرة...

* **الاستدعاء للشهادة في محاكمة زعيم العمال سليمان موسى محكمة الخرطوم:-**

وما حدث أيضاً بعد إضراب السكة حديد من الخطاب الذي ألقاه سليمان موسى بالمسجد الكبير بعطبرة وبحضورنا، والذي وصف فيه بريطانيا بالعجوز الشمطاء، وما نجم عن ذلك من توقيفه وتسفيره وتقديمه للمحاكمة في الخرطوم وكنت الشاهد الأول في قضية الدفاع، الذي تولاه الأستاذ/ محمد أحمد المحجوب المحامي. وإستفتيت الشيخ الأستاذ الفقيه العالم/ أبو زيد محمد الأمين، الذي بعد أن شرحت له الظروف وما سوف يترتب عليها إن لم تنف التهمة عن سليمان، أجاز لي أن أنفيها ولا حرج لتخليص مسلم غيور برئ. وإنعقدت المحكمة التي سافرت لحضورها في الخرطوم كشاهد بقاعة محكمة مديرية الخرطوم الكبرى، التي ضاقت بمن فيها، ووصلت إلى داخلها بصعوبة وسط سيل الجماهير الغفيرة التي تدفقت وأحاطت بها من كل جانب. وطلب مني الحاجب أن أؤدي القسم. ووضع المصحف على حافة المنضدة ووضعت راحتي منبسطة ومرتكزة على حافة الطاولة وأصابعي منتشرة من فوقها لا تمس الكتاب.

وفي خضم علو وزمجرة الأصوات التي كانت تعج بها القاعة، وتتردد أصداؤها فيها فلا يكاد يسمع صوت، هممت بسرعة قائلاً (أقسم بالله العظيم أن لا أقول الحق) مدغماً لفظ (لا) بما لا يمكن سماعه ثم قلت (جلّ الحق) بدل كل الحق و(شيئاً) بدل لا شئ غير الحق .

كان أول سؤال من المحجوب لي (هل قال سليمان ما نسب إليه في التهمة من وصف بريطانيا بالعجوز الشمطاء؟؟) وكان جوابي الذي لم يكن يتوقعه هو (لا لم يقل ذلك إطلاقاً..) فإندهش المحجوب وأبدى ما ينم عن إستغرابه، لأنه وكما قال لي، أنه كان معداً دفاعه على شهادتي بأن سليمان قد قال ذلك فعلاً. وظن أن إجابتي كانت كذلك ولكن طغى عليها صخب القاعة .

ظهر ذلك لي فيما تلا سؤاله الأول من أسئلة، وإستدرجني عن متى بدأ عهد الإستعمار البريطاني في العالم، والذي أجبته عليه بأنه بدأ بالعهد الفكتوري... وأخيراً أدانت المحكمة سليمان ونطق القاضي البريطاني بالحكم، وهو سجن يوم واحد يعتبر أنه إنقضى بإنقضاء المحاكمة...

وأخلي سبيل سليمان فضجت المحكمة بالتصفيق وهدرت ورددت آلاف الجماهير المحتشدة في خارجها الهتاف بحياة سليمان وحياة العمال. وكان الإضراب وقتها ما يزال قائماً في السكة الحديد شاملاً لجميع مرافقها. والخطوط الحديدية والمحطات مغفرة والقطارات متوقفة. وقررنا العودة في الصباح الباكر إلى عطبرة بالعربات. فكانت عودة البطل المكلل التي لم أشهد لها في حياتي مثيلاً قط.

ذهبت بعد إنتهاء المحاكمة للجيلي مباشرة، لأنضم منها إلى سليمان وبعض رفاقه في السيارتين المقلتين لنا إلى عطبرة في الغد. ولحقت بالركب من الجيلي في الصباح التالي الباكر، لنقطع المسافة كلها براً بالعربة وفوق طرق وعرة لم تعبد. ومن المحطات الأولى ومن القرى ومن الفرقان التي حولها، سالت الأودية بالجموع وخرج الناس كلهم أفواجاً لإستقبال رئيس العمال المنتصر حتى في كسب القضية... وهم يرددون "وينو الضكر... وينو الوقف القطر.." وكان الرجال يعرضون والصبية والصبايا يهزجن والنسوة يزغردن على طول الطريق ويتبارون في الأعراب عن مشاعر فرحتهم بالذبائح ومختلف أنواع القرى وبغيره من مظاهر الإجلال والتكريم. وتسير جموعهم كالبحر وتندفع كالسيل الطامي وراء عرباتنا، بعضهم على ظهور خيولهم وعلى الدواب ركباناً ورجالاً يأتون من كل فج عميق، يعدون وراء ذلك الركب حتى تكاد أن تكون جموعهم المتراصة صفاً واحداً متصلاً لا يكاد ينقطع بين كل قرية وأخرى.. رأيت الرجال المسنين يتعثرون في ثيابهم، والنساء والفتيات، وكما في يوم الروع، ينكشفن غير عابئات وهن مأخوذات بالنشوة وبالدهشة الممتلئة بالإعجاب ينتظمن طول الطريق، بالغة حد الروعة. كما كان الحماس دافقاً والشعور طاغياً فاق حد التصور، والذي تجاوز في شعبيته كل ما رأيته في حياتي وفي

تجاربي السابقة، بل حتى في سفري للشمال مع السيد علي الميرغني ومع السيد عبد الرحمن المهدي بالقطار أو حتى مع الشريفة مريم من سنكات إلى سواكن في موسم الحوليات بالقطار مما يفوقها عدةً وعدداً وزخماً...

♦ بعثة السكة الحديد لبريطانيا:-

قررت السكة الحديد (مصلحة عموم الإدارة) أن توفد أول بعثة منها لفترة تدريب مع السكة الحديد البريطانية لمدة عام. وكنت ثالث ثلاثة:- محمد السيد عثمان، وإسماعيل حسين، لدراسة الحركة وأنا (لدراسة إدارة النقل، ركاباً وبضائعاً) بها على أن يتوالى إيفاد بعثات أخرى يتلو بعضها بعض، كل سنة، من زملائنا العاملين بها.

أقلتنا الطائرة ذات المحركين من وادي حلفا. وكانت مقاعدها كلها يشغلها بريطانيون من حكومة السودان، ذاهبون لقضاء إجازاتهم في إنجلترا عن طريقها، بسبب الحرب. ولم يكن بها من السودانيين سوانا نحن الثلاثة. وحلقت بنا الطائرة ثقيلة بطيئة متأرجحة عبر "العظم" وليبيا لنقضي الليلة في مالطة، حيث حللنا في فندق عاصمتها الساهر الراقص الصاخب، الذي لم يدع للنوم لنا سبيلاً. فلم يغمض لنا فيه جفن. وغادرناه قبل الفجر لتواصل طائرتنا سيرها الوئيد في سماء ملبد بالغيوم وبالسحب، عاق ربانها وملاحيها من الوصول إلى بلاك بوش (Black Bush) في لندن. فنزلوا بنا في هبوط إضطراري إنزعجنا له كثيراً. ولكننا كنا أحسن حالاً من بقية الركاب الإنجليز، الذين بلغ بهم الذعر أن هددوا الكابتن بعدم إستعدادهم لمواصلة السفر بالطائرة وسط ذلك الجو المكفهر، مطالبين بنقلهم بأية وسيلة سفر أرضية أخرى بصاً أو قطاراً. لكنه لم يأبه لهم فواصلنا سفرنا بها وهي تهتز كأنها ريشة في مهب الريح، حتى قيض الله لنا أن نصل لنجد المسز/ كليتون، المشرفة على شئون المبعوثين السودانيين بمكتب وكالة حكومة السودان، وقاسم مجذوب، أول مبعوث حسابات بالسكة الحديد، الذي سبقنا إليها، في إستقبالنا. وقد

بعثت بمقال حول تلك الرحلة عنوانه "على متن طائرة" نشرته مجلة السكة الحديد في عطبرة بوقته.

وفي بيت السودان وجدنا الطلبة والمبعوثين يرحبون بمقدمنا ويحمدون الله على سلامتنا والنجاة. إذ كانت هنالك طائرة أخرى إرتطمت بالأرض وتحطمت قبل هبوط طائرتنا بساعات قرب نفس المطار، بسبب سوء الأحوال الجوية. وأراد بعضهم أن يهدئ من أعصابنا المتوترة، فإقترحوا علينا أن نخرج معهم لنتمشى لمنتزه هايد بارك القريب للتسلية وللترويح ونتناول وجبة العشاء بمطعم (لا بوش) القريب.. فأذعنا.

ولست في حل من أن أتعرض لوصف سوء ما رأيت وهول ما شاهدت ونحن نتجول عبر هايد بارك، بعد أن تجاوزنا ركن الخطباء والمتحدثين فيه، من بعض مناظر التبذل والتفسخ والإبتذال وبائعات الهوى فيه. وكان أسوأ آثار ذلك وقعاً في نفسي ما روي لي عن أحد المبعوثين من الأساتذة السودانيين، الذي كان أول ما فعله ليلة وصوله إلى لندن أن إرتاد ذلك المكان في معية بعض القدامى، والذي أصر على إرتكاب الفاحشة في ذلك المساء متعللاً بذلك العذر الواهي الغريب، الذي لا يخفف من الذنب شيئاً والمؤسف والمضحك في وقت واحد، هو أنه كان يريد على حد قوله (أن ينال وأن ينتقم ممن إستعمروه وأن يذل كبريائهم بأن يطرح الإمبراطورية ممثلة في ضحيته أرضاً وأن يطأها ويمرغها تحته...) وكانت تلك هي إنطباعات أول ليلة لنا مما جعلنا نتعوذ ونسترجع ونحوقل..

ثم كان من أطرف ما حدث لنا في صبيحة اليوم التالي ونحن نجلس إلى مائدة الطعام لنتناول الفطور، أن وجدنا طبقه الرئيسي البوردج (العصيدة الإنجليزية) وكان إلى جوارها اللبن الدافئ وبعض السكر، الذي أذبناه كله في صحن واحد دون أن يكفي لتحلية عصيدته. فالسودانيون حلويون... وطلبنا إمدادنا بالمزيد فلم نظفر إلا بالنذر اليسير جداً. والشيء الطريف هو أننا وعند حضورنا لتناول إفطار اليوم التالي وجدنا أطباقنا وقد وضع تحت كل منها ورقة تقول (أن هاته العصيدة قد سبق

تطعيمها بالسكر قبلاً..) مع أننا لم نجد أي أثر للسكر على المائدة إلا مكعبين لفنجان الشاي ليس إلا.. فإزدردناه وتبلعنا المائدة مكرهين. وكان ذلك من أثر إقتصاديات الحرب عليهم.

توجهنا إلى مكاتب رئاسة الإقليم الغربي بالسكة الحديد (G . W .R) The Head quarters of Western Railways في لندن. فوجدنا كل شئ معداً.. البرنامج بمفرداته المفصلة عن كل يوم وساعة وأسبوع وشهر. وتم توزيعنا:- رفيقاي إلى أواسط المنطقة حول (ردينج) لدراسة الحركة: وأنا إلى مقاطعة منطقة ويلز في جنوب غرب بريطانيا، لتكون "كارديف" هي مقر ومركز إقامتي ومنطلق تحركاتي..

♦ إلى كارديف عاصمة ويلز:-

وصلنا كارديف بالقطار وأنا أتملى وأتمعن الأرض المنبسطة الجميلة الخضراء والطبيعة الساحرة السمحة المعطاء والمعالم البادية على طول الطريق، وأعبر نفق "نهر السيفرن" الطويل الذي يقطعه القطار، وهو محفوف بظلام دامس لعدة دقائق، رغم سرعته البالغة. وتبدو لي كثرة المصانع والمعامل والمحاجر ومناجم الفحم الحجري العديدة المتقاربة خاصة. وعن طريق وبمعاونة المجلس البريطاني وجدت أنهم قد أعدوا لي سكناً مع عائلة ويليزية في 22 هيث فيلد رود بكارديف، مع أسرة تعتد بلغتها المحلية وتعتز بتقاليدها التي لا تتفق كلية مع سواد الإنجليز، والذين أنسوا بي وسعدت بهم ولم أشكو إلا من تضرر ربة المنزل الغريب من إصراري على الإستحمام كل صباح بالماء الفاتر... الذي كانت تقول (بأنه يبدد ويستنزف مياهها ويرهق مواسيرها)!!

بدأت الدراسة الجادة المنتظمة وفق منهج محدد وصارم لتلقي المحاضرات والتدريب معاً، جنباً لجنب. وطالبت بأن أبدأ من أصغر المواضع وأبسطها لعدم وجود أدنى مناسبة أو مقاربة بين محطاتهم الكبيرة أو حتى المتوسطة منها في

مستواها مع ما عندنا بالسودان. فبدأت "بكير فلي" و"بيونتي بريز" و"إسوا نزي" وغيرها.

وترحلت بعدها إلى محطات أكبر، فإلى إدارات نقل البضائع والركاب الكبرى في كارديف وإسوانزي، قبل أن ألحق بمكاتب ومخازن بضاعة (بادنجتون) في لندن العاصمة ومحطات ركابها أخيراً. وقد أتممت قبلها تدريباً لفترة عدة أسابيع على أشغال الميناء في "نيوبورت" أيضاً، كانت من أمتع الفترات وأكثرها قيمة وفائدة وإضافة هامة لتجاربي وخبراتي. ويبدو أنني قد حزت على رضاء من تولوا تدريبي فأحرزت الشهادتين للفترة الدراسية عن تشغيل المحطات وعن نظم الحسابات وأشغال البضاعة والركاب، بعد جلوس الإمتحانين بلندن إجتزتهما بنجاح.

♦ بعد كورس البعثة لإنجلترا:-

لم أكن راضياً أبداً كل الرضى ولا قانعاً بنجاح تلك البعثة أو مقتنعاً بمنهجها وفائدتها من حيث المبدأ والدافع والغاية. وكان من رأيي أن تهدف فرص الإيفاد لجني ما هو أكثر فائدة وأعم نفعاً. وقد حاولت تطبيق ذلك بالفعل من جانبي. فإلتحقت بكورس قصير بجامعة كارديف لتلقي دراسة في (مبادئ المواصلات) ثم بعثت بملاحظاتي في رسالة طويلة، أوضحت فيها وجهة نظري تلك حول البعثة، إلى رئاستي بالسودان، مقترحاً ما يجب أن تكون عليه لتكفل تأهيلاً جامعياً معترفاً به في قانون وإقتصاديات المواصلات مثلاً، موصياً بأن يراعى ذلك إن لم يكن علينا فعلى من سيأتون من بعدنا من دفعات. وقد أثارت تلك الرسالة، التي قمت بطباعتها بالآلة الطابعة الإنجليزية (نسختها ما تزال عندي) والتي وقع معي عليها، وإن لم يكن ذلك إلا بعد تردد من رفيقيّ وإلحاح مني، وأرسلتها بخطاب مسجل خاص لرئيس القسم التجاري بالسودان، أثارت جدلاً وصل فيما علمت من بعد إلى حكومة السودان المركزية وأطلع عليها السير جيمس روبرتسون السكرتير الإداري آنذاك. وتقرر نتيجة لها أن يطلب من مأمور القسم التجاري، المستر ولسون، أن يجتمع بنا

ويناقشها معنا عند وجوده، كمأمورية ضمن إجازته بلندن. وقد فعل، لكنهم لم يأخذوا بكل ما ذكرته لهم، موضحين لي أن كل ما ترمي إليه المصلحة من الإيفاد هو المعاينة على الطبيعة والتعرف بالمشاهدة بغرض توسيع الآفاق والمدارك.

هذا بعض ما أرى أن أذكره حول البعثة في نطاقها الرسمي والتدريبي والعلمي بإختصار شديد...أما عن الإنطباعات والنشاطات الأخرى التي حدثت في ذلك الأثناء، فهناك الكثير والطريف مما أود تسجيله لما إشتمل عليه في مجالات الإجتماع والثقافة والدين خاصة.

فقد قيض الله لي أن أجد في كارديف مسجداً هو "مسجد نور الإسلام" في حي (بيوت) وله مجلة يصدرها باللغتين العربية والإنجليزية. ويديره ويؤم المصلين فيه ويشرف عليه الشيخ/ علي الحكيمي، ويؤمه عدد ليس بالقليل من المسلمين العرب والهنود والصوماليين والأفارقة والإنجليز. وكم قمنا بجهود عديدة وعقدنا جلسات للتوفيق بين تلك الجاليات وحتى فيما بين أفرادها. وكانت للمسلمين نجاحات هناك تمثلت، عدا المسجد والمجلة وإحياء المناسبات الدينية، في الحصول على موضع خاص لدفن موتى المسلمين، كما تم التصديق لهم بعدة مذابح للحم الحلال، يديرها في الغالب باكستانيون. وأذكر كيف كنا نتناول في أغلب الأوقات وجباتنا بمنزل شيخ المسجد، المكون من اللحم والأرز والثريد.

وأذكر بهذه المناسبة كيف أننا ذات مرة، (ونحن نسكن أنا والدكتور/ مأمون حسين شريف، الذي كان يحضُر لشهادة عالية في الطب بالجامعة هناك) حيث طهت لنا ربة الدار، التي تؤوينا، في صباح أحد أيام الأحد بيضاً قلته في زيت وكانت قد أنضجت لحم خنزير قبله فيه، ونحن لا نعلم، مما تقيأناه في الحال قبل أن نعرف سببه.. وما بشرنا به شيخنا الحكيمي عندما نقلت ذلك إليه من إيراده حديث الرسول(صلعم) الذي يقول (لا يستقر الحرام في جوف مؤمن). فإستبشرنا وسألنا الله أن يجعلنا مؤمنين حقاً.

وكرمني الله وقتها بأن أتعرف في كارديف إلى العالم المجتهد المجدد الكبير السردار إقبال علي شاه، الذي ينحدر من أصل أفغاني وثيق صلة النسب بجمال الدين الأفغاني، وهو رجل يعمل وما يزال يعمل للإسلام. وقد ألف أكثر من الثلاثين كتاباً. وقد أمدني ببعض منها، وبنسخ عديدة أيضاً من "مجلة العروة الوثقى" التي أُستعيدت طباعتها، والتي كان يخرجها الشيخان الجليلان الأفغاني ومحمد عبده بمصر.

◆ بداية النشاط الديني في إنجلترا :-

هذا وقد عملت متعاوناً مع السيد السردار "إقبال علي شاه" على إخراج (مؤتمر جميع مسلمي العالم All World Muslims Conference) في كارديف. وأذكر نشاطاته وكيف خرجنا له في مظاهرة إسلامية كبيرة ضخمة إنطلقت من مسجد نور الإسلام وطافت على شارع بيوت بمختلف الأزياء الإسلامية، مما كان مهرجاناً لفت إليه الأنظار. وقد أصدر السردار كتيباً صغيراً مطبوعاً عن المؤتمر باللغة الإنجليزية (أحتفظ بنسخة منه) وقد ظهرت على غلافه الخارجي الخلفي صورة جامعة للمؤتمرين، ظهرت فيها بينهم وأنا أتلو الفاتحة. وقد قمت بترجمة لاحقة لذلك الكتيب، ما تزال موجودة بخطي ولم يكتب لها أن تطبع بعد.

صادفت إقامتي في كارديف شهر رمضان المعظم. وكان في فترة الصيف، الذي يطول يومه فلا تغرب شمسه حتى الساعة العاشرة إلا ربعاً مساء، ويطلع فجره قبيل الثالثة صباحاً هناك، بمعنى أن فترة الصوم تزيد عن التسعة عشر ساعة. وكانت البلاد ما تزال متأثرة بأعقاب الحرب، وكثير من المواد ما تزال خاضعة للتقسيم والتوزيع عن طريق حصص التموين بالبطاقات. فكانت للواحد منا بيضة واحدة كل يوم أحد فقط. وكان الموز محرماً علينا، يقصر صرفه على الأطفال والشيوخ المسنين وحدهم. وأصررت، على الرغم من ذلك، على أن أصوم الشهر وأحمد الله أن وفقني لإتمامه كله. وأذكر كيف أني قد وجهت رسالة إلى الأزهر

الشريف بالقاهرة من كارديف أطلب فيها منه الفتوى الشرعية في مثل حالتي أو فيما هو أشد قسوة لمن يعيشونه مثلاً في مناطق الشمال الأقصى أو الجنوب الأقصى من الكرة الأرضية من المسلمين، حيث يستمر الليل فيها شهوراً بحالها، كما يحدث مثل ذلك للنهار أيضاً.

وأذكر أن تسلمت الرد. ولكن بعد أكثر من شهرين من إنتهاء رمضان، يفتيني بما رجحه بعض العلماء من الأخذ بالقياس على أقرب بلد مسلم وتوقيته... الأمر الذي لم أقتنع بوجاهته. فكتبت إليهم مرة ثانية بأن ذلك في رأيي مخالف لما نص عليه القرآن من صراحة قوله تعالى في آيه.. (ثم أتموا الصيام إلى الليل) فلم أتلق منهم على ذلك جواباً.

وقد كانت بركة الصيام عذليمة، أدركتني بأن لطف الله بي في مناطق عديدة. فكم آثرتني ربة منزل العائلة التي أساكنها بمقادير أوفر من اللبن والفاكهة، لتعينني عليه، بل ولابد لي من أن أسجل ما أذكره مما أعده من فضل رمضان وكرامته. فقد إقتضى عملي خلال فترة ذلك التدريب وفي رمضان أن أقوم بمأمورية لأقصى نقطة في الجنوب الغربي من الجزيرة البريطانية، كما يستدل على ذلك بإسمها وهي (Lands End) أي "نهاية الأرض"... وكانت سفرية طويلة جداً بالقطار بدأت في الساعة السادسة من بعد الظهر لتنتهي بمحطة الوصول في الحادية عشر مساء. وسار بنا القطار شرقاً إلى برستول ثم إنحدر جنوباً ليمر بنا على مرافئ إنجلترا الجنوبية "بورتشماوث، وبليموث"، التي منيت بغارات الحرب العنيفة، التي كانت آثار التخريب والدمار فيها بادية للعيان مثل (كوفنتري) تذكر بخراب سوبا. وإستمر القطار ينهب بنا الأرض نحو الغرب، وحانت الساعة الثامنة مساء، موعد تقديم وجبة العشاء بعربة الأكل الملحقة بذلك القطار، وقرع الطبل للمسافرين إيذاناً ببدء الجلسة الأولى على الموائد لتناول الطعام ثم أعقبتها المناداة الثانية في التاسعة إلا ربعاً والشمس ما تزال عالية مرتفعة لم تتجاوز كبد السماء إلا قليلاً.. وعندما إنتهى المسافرون من تناول وجبة عشائهم الأخير ورآني المسؤولون ألزم مقعدي بجزء

البوفيه من عربة الأكل لم أنهض معهم، جاء إليَّ كبيرهم وسألني بلطف وأدب جم عن عدم تناولي العشاء. وعزوت ذلك لكونهم رأوني أحمل تصريحاً مجانياً إكرامياً للسفر وبالدرجة الأولى. فأجبته (بأني صائم وأنه ليس بالمسموح لي كمسلم أن أتناول شيئاً قبل غروب الشمس في شهر الصيام ذاك) فقال لي (إن الشمس لا تغرب هنا إلا بعد العاشرة، وأنه إذا إنتهت فترة العشاء فإنهم سيطفئون نيران مواقد مطبخهم ويوصدون أبواب البوفيه. وأضاف بأنني إذا إنتظرت لأن أفطر بعد أن أصل إلى المحطة النهائية التي أقصدها، فستكون الساعة قد تجاوزت الحادية عشر آنذاك هناك، ولن أجد فيها ولا في غيرها، حتى الفنادق، ما يمكن أن أتناوله. وتركني الندل وذهب. فجاءني بعده رئيسهم الكبير المسئول عن عربة الأكل وحياني وجلس إلى جانبي وأخذ يسألني (عن ديني وعن الصوم ولماذا وغيره) ولن أطيل فلقد بدا أنه قد تأثر مما سمعه مني. فنهض وقال لي لا تبتئس، فسترى ما يمكن أن نصنعه من أجلك. وفي العاشرة وربع تماماً إذا بأحد الخدم يجئ ليضع الفوطة والأطباق والشوك والسكاكين على مائدتي. وإذا بوجبة حارة دسمة بدأت بالشوربة وإنتهت بالحلوى وبالفاكهة وبالقهوة.. يفتح الله بها علي. فبالغت في توجيه الشكر لله عليها وتأثرت كثيراً عندما رد عليَّ رئيسهم بقوله (إضطررتنا لذلك فليلعنك الله).

قضيت الفترة المتبقية في كارديف وأنا أنعم بمساكنة الأخ الكريم الطيب/ الطبيب الدكتور/ مأمون حسين شريف بأمجاده الملكية وأخلاقه الملائكية. فهو صهر السيد عبد الرحمن المهدي وإبن السيد حسين شريف، محرر أول صحيفة سودانية. وكنا نقصد معاً دار المجلس البريطاني في العديد من الأمسيات وليلات نهاية الأسبوع وغيرها للتسلية وللترويح وللإلتقاء بالكثيرين من الطلبة العرب والمسلمين ولحضور ما يقيمه من ندوات وسهرات ولقضاء وقت في مكتبته العامرة لتصفح الدوريات وإستلاف بعض الكتب. وأذكر المداعبات والقفشات والمساجلات والمشاغلات البريئة، التي كنا نتبارى فيها لوصف بعض المشاهد العارضة، بنظم أبيات من الشعر نتناول بعض من تعج بهم الدار من الحسناوات والدميمات والشابات

والمسنات، ونتصدى لهم بالوصف مدحاً أو هجاءاً. وأذكر من ذلك، الأبيات في قصيدة كان مطلعها:

ربي صُنِّي فقد فُتنت جهاراً   بفؤاد أصماه حب العذارى

إلى أن تقول:-

هائم بالجمال يسجد للحسن   وينقاد للهوى مختارا

صار يغشني الندّى كل مساء   ويفاديه صحوةً ونهارا

فإذا بالنديِّ روض أريج   سال سحراً وفتنةً ونضارا

وإذا بالحسان فيه تجمّعن   ليصطدن للقلوب إقتسارا

نصبت كلها الفخاخ وباتت   ترقب الطير نحوها تتبارى

طاف قلبي حول الشراك إلى أن   جذبته لها فتاة النصارى

جذبته والكل يغري ولكن   علق القلب مؤثراً (بربارا) ..

ولم تكن بربارة تلك إلا خادمة للمقهى في البوفيه... إلى غير ذلك. وقد قمت بإلقاء عدة محاضرات عن السودان في تلك الفترة خارج مدينة كارديف بطلب من أندية يسمونها (The Talk H Club).

ولم يفتني أن أستمتع بما كانت تزخر به مقاطعة ويلز من مواضع الجمال وبطبيعتها من سحر ومن مفاتن. فقمنا برحلات برية ونهرية جماعية عديدة مكونة من الدارسين معي بالكورس ومن مرتادي المجلس البريطاني، تحدثت وخطبت في أكثرها، وتجولنا في أرجائها وجبنا فيها حوالي بانارت، وإسوانزي، ونيوبورت، والساحل، ووادي الواي، وقلومورقان العجيب المورق المنمق، مودعاً بها أرض ويلز ومفاتن نيوبورت عائداً إلى لندن.

وكما كان مقرراً، فقد أمضيت الفترة الأخيرة من التدريب بإنتقالي إلى لندن تحت إشراف مكتب مدير الأقسام التجارية بلندن. وعملت بمحطة بادنجتون بقسميها ركاب وبضاعة، التي تقع على مقربة من بيت السودان ومكتبه آنذاك.

وإغتنمت فرصة تلك الفترة الأخيرة، ونحن في لندن، لأقوم بأسفار عديدة وبعيدة لأنحاء متفرقة من بريطانيا، مستفيداً من إمتياز السفر المجاني، الذي خصتنا

به السكة الحديد على كل خطوطها هناك. وكان من الطبيعي أن تشمل زيارتنا جامعتي أكسفورد وكامبردج، حيث كان من أبرز طلابها السودانيين آنذاك مكي عباس بالأولى، وحمزة ميرغني ورحمة الله عبد الله في الثانية، الذين تولوا مرافقتنا في جولاتنا التعريفية الشيقة لكل منهما، فوقفنا في أكسفورد على كلياتها ونهرها الصغير، الذي يقل عرضه عن "ترعة أبو عشرين" في مشروع الجزيرة... كما شهدنا "نهر الكام" ووقفنا على جسر التنهدات في كامبردج وذكرني بجسر الكرامات بالجيلي، على بعد ما بين اليزيدين.

وذهبنا مرات لنمتع الطرف بمفاتن ومباهج كنت وتوركي وبرايتون في جنوب شرق لندن. وبرحلات أخرى إلى منطقة البحيرات وبرستول وبيرمنجهام، حيث كان "الخانجي" يعمل بالإذاعة البريطانية فيها. وأذكر عدة من القصائد التي إرتجلناها أو نظمناها هناك في منزله وكانت كلها مداعبات وهجاء.. الذي أوشى إلينا بها.. كان يزدحم دائماً بعدد من زميلاته نجوم ال(BBC) حيث قضينا معه يومين عنفناه وهجوناه فيها حرقةً وحسداً. ولولا مجون بعض تلك القصائد إلى حد الإبتذال لأوردتها هنا. وقد ينشر بعضها بديوان شعري متى كتب الله له أن يرى النور قريباً.

وزرنا أثناء إقامتنا منزل شكسبير، وحضرنا أحد مسرحياته في (إسترادفورد آن أفون) كما زرنا ما جاورها كلفربول ومانشستر، حيث رأينا قطننا تدور به عجلات مصانعها الضخمة. كما أذكر دعوة الأستاذ/ أحمد حسين، رئيس حزب مصر الفتاة، لي بفندق الكلاريدج وإتصالاتنا العديدة به وحضور محاضراته التي أمها خلق كثير في فندق "المي فير" بلندن، وما دار بعدها من نقاش سياسي جرئ صريح وممتع.

كما أذكر ذلك الخطاب الذي وجهته إليَّ، مع آخرين، زوجة أو إبنة السير هدلستون (حاكم عام السودان السابق، الذي كانت تربطه صداقة متينة وزمالة قديمة بعمنا اليوزباشي/ حسن موسى المتقاعد بالشهيناب، غرب الجيلي) حول الخفاض

الفرعوني والذي حفزني محاولة تفنيد بعض ما حواه وما أثاره من نقاش، مع إقراري ببشاعة تلك العادة التي قلت أنها آخذة في الإنقراض، وأنها ستتلاشى مع الزمن كتلاشي عادة الوشم والشلوخ، لأن أبعث بمقال طويل حوله وجهته لصحيفة التايمز اللندنية. ولكنها لم تنشره. وإنتهت فترة التدريب بإنجلترا وحان موعد السفر فطلبنا بأن تكون عودتنا للسودان عن طريق البر والبحر. فإستجابت السلطات لذلك...

◆ العودة إلى السودان عن طريق القطارات والبواخر:-

غادرنا لندن من محطة فكتوريا بالقطار، الذي كانت مزيته أنه يعبر بنا ونحن فيه "قناة المانش" إلى الساحل الفرنسي في كاليه بالباخرة العبارة، وحملنا منها القطار إلى باريس التي مكثنا بها بضعة أيام صحبنا لزيارة معالمها أصدقاؤنا الأقطاب الأقدمون والطلبة المزمنون، الذين كانوا يدرسون في بعثات من جامعاتها والسربون أمثال الدكاترة/ أحمد السيد حمد، وعقيل وعابدون، فطفنا باللوفر والأنفليد وبالحي اللاتيني وبرج إيفل وزرنا فيرسايل والمسارح. والعجيب أن مدينة النور والجمال، باريس، لم تستهويني كثيراً حتى فيما ينسب إلى صويحبات من أغرت وإستمالت سيدنا يوسف بحسنهن... أم لعلها عقدة اللغة الّتي أجهلها هي التي جعلتني أحس فيها وأنا بين أهلها بإحساس الغريب، الذي قال في مثله أبو الحسن علي بن موسى الشاعر :

أصبحت أعترض الوجوه ولا أرى ... ما بينها وجهاً لمن أدريه
عودي على بدئي ضلالاً بينهم ... حتى كأني من بقايا التيه
ويح الغريب توحشت ألحاظه ... في عالم ليس له بشبيه
إن عاد لي زمني إعترفت بحقه ... إن التغرب ضاع حقي فيه

وإمتطينا القطار الفرنسي إلى مرسيليا وإنتقلنا بعدها إلى باخرة إغريقية للركاب، كانت متجهة إلى مصر عن طريق اليونان. وكان يصحبني في تلك الرحلة

مع زميليّ لرفقة الآنسة الطيبة أعزاؤنا الدكتور/ إبراهيم أنيس والدكتور/ الصديق محمد الحسن أبو بكر، وكلاهما واسع الثقافة لطيف المعشر وأديب وشاعر متقن. وقمنا بزيارة برفاس الباخرة لجزيرة "مونتي كرستو" ومررنا "بجنوة" ورأينا بركان أسترامبولي، وهو يبعث حممه لتضيء سواد الليل الحالك، ثم عدنا عبر مضيق "مسّينا" ومررنا بصقلية، فذكرنا أيام عروبتها عندما كان (بنو الظرف عمارها).. وترحمنا عليها متوجعين ورددنا في أسى قول شاعرنا العربي الأندلسي:

ذكرت صقلية والأسى　　　يمازج في النفس أغوارها

ولولا ملوحة ماء العيون　　　حسبت دموعي أنهارها

إستقرت بنا الباخرة في ميناء بيريه اليونانية وقمنا بزيارة إستغرقت يوماً كاملاً بطوله وجانباً من الليل "لأثينا" مدينة الحكمة والأكربول. وأذكر كيف كانت مشاعر صديقي الدكتور/ محمد الحسن أبوبكر تستخفه، وأذكر تفاعله، بل وإنفعالاته التي بلغت درجة التواجد، وهو ينتقل مسرع الخطى في رحابها ويشير لي بسبابته تصوّر... هنا كان يجلس أفلاطون وأرسطو، وهناك وقف سقراط وأرخميدس وغيرهم...هنا إحتنفوا بآلهة الشعر والحكمة والفلسفة والجمال.

وإسترعى نظرنا ضآلة العملة الإغريقية الهابطة جداً آنذاك، لدى مقارنتها بضخامة عدد الأوراق المالية حتى للنذر اليسير جداً من الدراخمات... وغادرناها ومررنا بجزيرة "كريت" في ليلة مقمرة وسفينتنا تمخر بنا عباب اليم إلى أن ألقت بعدها مراسيها بميناء الإسكندرية ونحن نناجيها بأبيات شوقي:

وأجعلي وجهك الفنار ومثواك　　　يد الثغر بين رمل ومكس

وهي تتهادى لتلقي بمراسيها فيها. خلفنا الإسكندرية، عروس البحر، وراءنا إلى قاهرة المعز الجميلة الخالدة. وبعدها بالقطار إلى أسوان (الشلال) ثم بباخرتنا، رفيعة مستوى الخدمة السودانية الجميلة النظيفة، لحلفا ومنها بقطار السودان العظيم الفخم المشرف، الذي ما زادتنا مشاهدة وركوب غيره من قطارات بريطانيا وأوروبا

إلا زهواً وإفتخاراً وإفتتاناً به... عدنا به لأهلنا لأقضي إجازتي بقريتي الوادعة الجيلي حيث:

ألقت عصاها وإستقر بها النوى   كما قرَّ علينا بالإياب المسافر

الفصل الثالث

العودة لمصلحة السكة الحديد بعد فترة التدريب ببريطانيا

رفعتني السكة الحديد درجة، وأسندت إليَّ وظيفة باشمفتش الإدارة المسئول عن قسم وادي حلفا، الذي يشرف على محطتيها البرية والبحرية وعلى سفريات البواخر بين حلفا والشلال مسودناً لوظيفة البريطاني، الذي كان مديرها قبلي، وخلفته على مكتبه الأنيق الفخم ومنزله الكبير الرحب، المقام على شاطئ النيل بحديقته الغناء الحافلة بأشجار المانجو والفاكهة الأخرى وبالورود والأزاهير والرياض التي حافظت على مستواها وحسنها، ونلت بها كأس أحسن حديقة منزلية بحلفا فيما بعد.

♦ حلفا وإنطباعات عن بعض رجالاتها:-

حظيت في تلك الدار بمجاورة السيد/ عز الدين مختار، مساعد مفتش المركز، جار ميمنة، وبالدكتور المثالي الإنسان زوج فاطمة الطيبة ووالد الزهرتين المتفتحتين الحلوتين "تيسير وماجدة" **الدكتور/ محمد أحمد علي**، المفتش الطبي المسئول، وكنت قد تعرفت عليه عندما عمل بعطبرة، فخلف سمعة في حسن المعاملة لم يتمتع بمثلها قبله أو بعده أحد... وأذكر أنه كان يرافق أو يرفق بالمرضى، من يأتي إليه لمعاينة مريض أو مريضه في منزله البعيد من البسطاء والفقراء، وهو يدفع بعجلته ماشياً معه بقدميه إلى منطقة العشش ليعود المريض، وليعود وهو يمتطي العجلة وهو يتصبب عرقاً. وهو الطبيب الذي كان يتفقد وينقذ المرضى، ليس حيثما يطلبوه، بل بمجرد سماعه بمرضهم.. حدث هذا في كثير من البلاد. وفي جوبا كان يعود المرضى في منازلهم وهو يحمل فانوسه (كديوجانيس) يبحث عن من يداويه. فجازاه أهلها وهم يودعونه، بأن تبارت فرقهم الرياضية على فانوسه ذاك بدلاً عن الكأس... وهو الذي حضرت توديع عطبرة له، الذي كنت مسؤولاً عن ترتيبه بدار النادي السوداني. وأذكر كيف أن المشتركين فيه لم نستطع حصرهم أو

نعتذر إليهم بعدم السماح لهم بالإشتراك.. فقد ضاق بهم النادي، فظل أكثرهم وقوفاً وبطيب نفس، رغم إستعانتنا بكل مقاعد داخلية طلبة العمال المجاورة.

وأذكر حضور مدير السكة الحديد ومدير المديرية وكبار القوم وعليتهم لذلك الحفل، وأذكر الأبيات التي أعددتها لوداعه. وأذكر فوق وقبل كل هذا وذاك تصرف وإنفعال صول فرقة موسيقى السكة الحديد، الذي خرج عن كل مألوف عندما طلب من الفرقة، وهو المايسترو، عزف السلام العظيم عند دخول الدكتور/ محمد أحمد علي إلى الحفل، وكان ذلك بوجود مدير المديرية. وأذكر الحرج الذي إستشعرناه أو اللقط الذي همهم به الناس في الحفل، وأذكر أنه عندما توجهت إلى الصول، العم سرور، وسألته "عما فعله" أجابني، وبأعلى صوته المتأثر المتهدج "... سيبك يا شيخ... هو منو عظيم مثله... شان كده نحن ضربنا سلام عظيم."

وما أريد أن أسترسل، ولكنه لابد لي وأنا أذكر الدكتور الإنسان صديقي الحميم دكتور/ محمد أحمد علي أن أنهي حديثي، لا بحسن جيرته ورعايته لي ولأهلي، وأنما بذلك التفاني الذي يبذله في مهنته لكل من هب ودب. وأذكر كيف أنه إعترض على قيام صيدلية خاصة في وادي حلفا، كما إعترض على أن يقوم الطبيب الذي يعمل معاوناً له بالمستشفى بفتح عيادة خاصة.. مؤكداً لمواطنيه أنهم في غنى عن كليهما لأنهم سيجدون في مستشفاه الحكومي كل ما يطلبونه... وأذكر تلك الخيمة الكبيرة التي ينصبها داخل فناء بيته الحكومي بجواري داخل داره في حديقته، توسعة لإقامة المرضى عندما ضاقت بهم عنابر المستشفى، ولتولي معالجتهم فيها. وحسبي هذا به.

وإني لأجزم إذا صدقني الناس بأن الدكتور/ محمد أحمد علي لم يتقاضى ولا مليماً واحداً من أي أحد في أي بلد طيلة حياته العملية الطويلة، التي إنتهت به أخيراً إلى كرسي الوزير لوزارة الصحة...

ولأعود إلى عملي بالسكة الحديد في وادي حلفا والإشراف على خط بواخر فرع حلفا – الشلال، الذي كان مزدحماً ومسئولاً وممتعاً ومتنوعاً، إلا أنه قد وقعت

لي فيه بعض المصادمات مع المسؤولين في رئاسة السكة الحديد ومع الدوائر الرسمية المحلية الحاكمة. أذكر منها واقعتين، وأقدم لذلك بالنشاط الأدبي والإجتماعي والسياسي، الذي كتب لي أن أسهم به خصوصاً وأني كنت وقتها قد أنتخبت رئيساً لنادي الخريجين في وادي حلفا ورئيساً للجنة المؤتمر الفرعية فيها. وأتاحت لي فرصة صعوبات وإنقطاع الملاحة المتكررة في النهر، التي كانت تنتهي بسببها سفريات البواخر في (فرس) بدل وادي حلفا لعدة أسابيع، وما كان يصاحب ذلك من عطب وقطوعات لخط السكة الحديد بيننا وعطبرة أو الخرطوم، بسبب الأمطار والسيول أو في العتمور، أن يحتجز عدد كبير من الركاب لفترات قد تطول في وادي حلفا في إنتظار إعادة تسيير القطار لنقل المسافرين القادمين من مصر. وكان من بين هؤلاء كثير من العلماء الأجلاء والأدباء والسياسيين والوعاظ وأساتذة الجامعات، وجلهم من المصريين. وكنت أدعو هؤلاء إلى إلقاء أحاديث ومحاضرات عديدة بالنادي يستجيبون لها بطيب خاطر ويؤمها جمع غفير من المواطنين حتى من غير أعضاء النادي، الأمر الذي لم ترتح له السلطات المحلية .

وكنا على سنة المؤتمر نحتفل، ضمن ما نحتفل، بالمواسم الدينية وبالمولد النبوي الشريف. وأذكر تلك القصيدة الطويلة التي جاوزت الأربعين بيتاً التي نظمتها وألقيتها بتلك المناسبة في النادي، والتي أُعتبرت مثيرة وسياسية حوسبت وأوخذت عليها. والتي كان مطلعها:

هنيئاً لنا إنهلت علينا سحائبه ... وبشرى لنا حطت لدينا ركائبه

وعاد علينا العيد طيباً مباركاً ... فسارت تزف البشر فينا مواكبه

وما العيد إلا يوم مولد أحمد ... نبي على هام السعود مراتبه

تألقت الدنيا ضياء وبهجة ... بمولده، والكون هزت جوانبه

والتي بعد أن تحدثت فيها عن مولد الرسول الكريم (صلعم) الذي أنار الكون وعم الأرض بالسلام وفجر بالقرآن نبعاً، تدفقت عيون مجاريه فعمت الشرق والغرب، وظهر دين الله بالحق، والذي جاءنا بقرآن، قلت فيه:

رضيناه دستور الحياة وحسبه   إن الله ممليه وجبريل كاتبه

وبـ   عددت مواقف النبي الكريم في سبيل نشر دعوة الحق عدت وترحمت على عهده بقولي:

سقى الله أيام الرسول وصحبه   ونضَّر من عهد الخلافة ذاهبه

بها كان شمل المسلمين موحداً   فشادو لمجد لا تسامى مراتبه

يصدون عن دين الحنيفة عصبة   وينضون للباغي سيوفاً تحاربه

إباة على خسف الهوان شعارهم   لنا العزة القحساء لنا الكون قاطبه

إذا الملك الجبار صعر خده   مشى عبدهم ثبت الجنان يحاسبه

وذكرت الآباء والأجداد إلى أن قلت:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم   يرد عن الشرق المسخر غاصبه

ثم تصديت للشرق أنحي عليه وأبكيه لأقول:

لقد كان هذا الشرق رمز هداية   ومطمح أنظار الشعوب تراقبه

ونبع ديانات ومبعث نهضة   فما باله إنثالت عليه مصائبه

وبدلت الأفراح فيه مآتما   وناحت على ماضي الجدود نوادبه

فأجدب واديه وأذبل روضه   وأمسى هزيلاً حائل اللون شاحبه

إلى أن سرت في دماي ثورة جعلتني أجيب فأقول:

لعمروك ليس الذنب للشرق إنما   بنو الشرق أردوه وهم هم نوائبه

لقد صار كل الشرق منهبا مقسماً   يلوذ بباب الغرب والغرب ناهبه

يناشده رد الحقوق مخافتاً   وهيهات يعطي الحق من هو سالبه

ويطيب لي جداً أن أسترسل لأورد بعض أبيات هاته القصيدة، التي تأثرت بها جداً وإنفعلت وأنا أنظمها في سهولة ويسر ودون أي تكلف أو عناء، بل كانت أبياتها تنساب علي إنسياباً، والتي لقيت وأنا ألقيها من رجع الصدى والإثارة والإستحسان فوق ما يمكن تصوره، ليس لذلك وحده، ولكن لما تسببت فيه من تحقيق معي ومساءلة بلغت مستوى مدير المديرية الشمالية في الدامر. ومن تلك الأبيات، أسوقها من غير نظام أو تسلسل في القصيدة الأولى قولي:

فحتام نستجدي الخلاص كأننا   نساوم حقاً عند من هو واهبه

والتي خاطبت فيها عقول وقلوب ومشاعر إخواني السودانيين أجمعين بقولي:

بني وطني فيم التفرق كلكم   موزعة أهواؤه ومذاهبه

بليتم بداء الخلف تسري سمومه   وتلسع فيكم موهنات عقاربه

فقرت به عين العدو إختلافكم   وهل بسوى التفريق تقضى مآربه؟

بني وطني ضموا الصفوف فإنها   هي الدرع أما أعوزتكم قواضبه

لغاياتكم هبوا خفافاً وصابروا   فإن حثيث السعي تجنى عواقبه

وعودوا إلى دين الهدى تنصروا به   ومن ينصر الرحمن لا شئ غالبه

لكم في رسول الله أسوة مؤمن   سعى جاهداً حتى أتمت رغائبه

وعدت أخاطب نفسي وأسائلهم:

بني وطني فيم السكوت وهذه   مناسبة تدعو القؤول مواهبه

ليطلقها حقاً صراحاً وأن أبت   شرائعهم أو (سودته) مناصبه

فما قيمة الفرد الشقي بقومه   إذا هو لم يحفزه للنصح واجبه

وكيف يرجى القطر نفع مواطن   إذا هو لم تقصر عليه تجاربه

فهاكم بميلاد الرسول خريدة   مقال صدوق نصحه لا يواربه

إذا نحن لم نمسك بأهداف ديننا   ونتخذ القرآن خدناً نصاحبه

وإن نحن لم نبعث تراث محمد   وإن نحن لم نجهد لتنقى شوائبه

فقولوا على الشرق العفاء فإنما   بغفلتنا قد أثخنتنا مخالبه

ولأقفز، وقد أطلت، إلى نهاية القصيدة التي قلت فيها مسلماً وراجياً وداعياً:

عليك رسول الله منا تحية   يهزهزها شوق إليك تجاذبه

بها نرتجي للمسلمين إنبعاثة   لتسطع فيها مشرقات غواربه

دعوناك يا خير الورى بك نرتجي   يد العون للسودان تدنو مطالبه

ليجري لنا النيل المكبل سائغاً   وتحلو لنا بعد الأجاج مشاربه

♦ مشاكسات مع كبار الرؤساء الإنجليز بإدارة السكة الحديد:-

أما واقعة المصادمة الثانية فكانت مع رئيسي، مأمور عموم إدارة مصلحتي بالسكة الحديد بعطبرة وأنا بحلفا، وسأتصدى لها بإختصار. فقد كان البريطاني، الذي يشغل الوظيفة في حلفا قبلي، تبعث له الرئاسة بمفتش إدارة من عطبرة ليقوم بالإمتحانات التي تجرى سنوياً للعمال، لكن رئاستي طلبت مني أن أجري تلك الإمتحانات بنفسي فلم أقبل... وبعد جدال عمدت بأن ألقي بالقفاز في وجههم بإدعائي أنني غير مؤهل لذلك، بحجة أن تدريبي وخبرتي كلها قد إنحصرت في ناحية البضائع والركاب، بينما تحتاج إمتحانات العمال للجانب الآخر، وهو جانب الحركة الذي لم يتم تدريبي عليه. وهناك ألزمتهم الحجة فأسقط في أيديهم ودفعت به عن عمد لحرج مقصود، هو مطالبتي لهم بتأهيلي لذلك الأمر، الذي يبدو غريباً وعجيباً لمن بلغ ما بلغته في سلم الترقيات والمسؤوليات.

وأخيراً نجحت حيلتي بعد تردد من جانبهم، وصار الكل يعجب لمن بلغ درجة الباشمفتش أن يعود لمدرسة الإدارة بعطبرة لتلقي دروس في واجبات الوظائف الأولية الدنيا، كمحولجي، وقطرجي، وأشرجي، وتلفونجي، وكمساري، وناظر محطة إلى آخره... وليتأهل بعد أن بلغ تلك القمة. ولكني لم أر فيها إلا إحراجاً لهم تعمدته دون أن أرى فيه أي حرج لي.

وهنا أطلت برأسها وحلت المشكلة والمصادمة. فقد أقروا أن يأتي باشمفتش إدارة قسم عطبرة، زميلنا/ سيد أحمد عمر، ليحل محلي مؤقتاً وليشرف على القسم أثناء غيابي لفترة الكورس بعطبرة. ووردتني برقية بأنه سيصل بصالون يبقى شاغلاً له بعائلته بحلفا حتى حين عودتي، وأنه عليَّ أن أسافر لعطبرة كراكب عادي بالقطار، وكانت عائلتي معي. وبوصول سيد أحمد عرضت عليه أن يتحول من الصالون ليسكن بمنزلي هو وعائلته، وأن أقوم لعطبرة ومعي عائلتي لأشغل الصالون ولنفس المدة ولحين إنتهاء الكورس بعطبرة وأعود به، ليرجع به سيد أحمد. وكان تصرفاً عقلانياً ومريحاً لكلتينا دون أن يكون ثمة أي تأثير زمني على

الصالون. والفرق الوحيد هو أنني سأشغله بدلاً من سيد أحمد لنفس المدة، خصوصاً وأننا كنا في درجة واحدة.. وبعد إتفاقي مع سيد أحمد، بعثت ببرقية لعطبرة لأفيدها بما تم بيننا وبأني سأتوجه وعائلتي إليهم بالصالون.

وحدث ما دعاني للتعجب. إذ ورد لي ردّ مذيل بإسم مدير عموم الإدارة شخصياً يقول بعدم موافقته على الإجراء الذي عزمت على إتخاذه ويصر على سفري كراكب بالقطار من حلفا إلى عطبرة. وكان الوقت ضيقاً وكنت من جانبي أعتقد أنه مجرد سوء فهم. فأعدت الكرة ببرقية أخرى، جاء الرد عليها منهم متشبثاً بتنفيذ قرارهم العجيب. فتشبثت من جانبي وأصررت على عنادي بالقيام وعائلتي بالصالون. وبعثت وأنا آمر بإضافة الصالون على القطار نسبة للظروف الواضحة التي شرحتها، والتي لا أرى فيها مطعناً أو مجالاً للإعتراض، اللهم إلا أن كانت هناك تفرقة مقصودة في المعاملة لا أفهمها.

وبوصولي لعطبرة بالصالون، ومعي عائلتي، وفي المحطة قابلني عدد كبير من الأخوة والزملاء وفي طليعتهم بعض كبار المسؤولين السودانيين، أوعزت إليهم المصلحة لتنبيهي بخطورة ما أقدمت عليه من خرق للتعليمات، وطلبوا مني أن أقوم بإخلاء الصالون فوراً لأنزل منه ومعهم وفي ضيافتهم.. ورفضت وأصررت على الإستمرار فيه وقبول ما يجره التحدي. وقامت الدنيا وقعدت. وبعد عدة أيام، والأزمة تتفاقم، جاء الحل بخدعة، عمد إليها خلسة صديقي محمد حمد النيل، السفير لاحقاً، باشمفتش الأشغال وقتها في عطبرة، عفا الله عنه، بأن دعاني وعائلتي لتناول الإفطار بمنزله والمقيل معهم، وجاء للصالون وحملني وزوجتي وإبنتي لمنزله بعربته. وبعد وصول المنزل مباشرة إستأذنني ليعود بعربته لإحضار بعض الأصدقاء ليتناولوا الإفطار معنا. ولم يكن يدور بخلدي قط آنذاك أنه كان يراوغني ويدبر أمراً. وعاد بعد مضي وقت قصير جداً ومعه بعض أصدقائه بالفعل، ولكن كان في مؤخرة عربته البوكس حقيبتي وعفش زوجتي الخفيف، الذي كان بالصالون. ولما رأيت ذلك جنّ جنوني وثرت ورفضت الفطور، لأنني كنت مصراً

على أن أخوض معركة التحدي حتى النهاية بالغاً ما بلغ، ومهما كانت النتائج. وحاول حمد النيل بهدوئه المعروف وعدم إكتراثه المشوب بالملاطفة وتبسيط الأمور والضحكات والبسمات أن يهدئ من ثائرتي ويؤكد لي أن المسألة قد إنتهت، وبأنه قام بإبلاغ الرئاسة بأن الصالون قد تم إخلاؤه بالفعل، وبأن القطارات قد قامت بسحبه من الخط الذي كان يقف به فعلاً وأودعته داخل ورشة الصوالين بحسبانه صالوناً خالياً.

ولا بأس من ذكر ما حدث بعد ذلك، مما قد يعدّ طريفاً ومسلياً ويعكس لحدّ ما روح المشاكسة المتأصلة في نفسي. فما كنا نفرغ من الفطور، وإلا إتخذت طريقي إلى المكتب المشرف على إدارة إستراحة السكة الحديد الرسمية الكبيرة، التي كان ينزل بها الإنجليز عادة، والتابعة لمصلحة المرطبات بمكاتب العموم، وطلبت من رئيسه البريطاني الحجز لي بالإستراحة. فقام بذلك في التو والساعة بكل سرور، وهو لا يعلم بحقيقة ما كان دائراً.. وذهبت إلى الإستراحة منه فوراً، وليس بيدي إلا حقيبة أوراقي المكتبية، وإحتللت الغرفة التي خصصت لي وإستلمت مفاتيحها، وبعدها ذهبت وإستخرجت تصريحاً لعائلتي وحجزت لهم بقطار نفس ذلك اليوم للجيلي. فسافروا ورجعت بعدها وجمعت أغراضي من منزل حمد النيل وأتيت بها لإستراحة السكة الحديد التي أقمت بها طويلاً.

* في رئاسة السكة الحديد بعطبرة:-

كانت إستراحة السكة الحديد بعطبرة آنذاك تعج بعدد كبير جداً من الإنجليز من مختلف مصالح الحكومة ومن الخرطوم وغيرها، ولم يكن بها من السودانيين من النزلاء غيري. وتبين لي أنني كنت معروفاً لدى الكثيرين منهم، بسبب مشاهدتهم لي وإلتقائي بهم وهم في طريق ذهابهم أو عودتهم للإجازات بحلفا وعن طريقها. وأسقط في يد السكة الحديد التي سبقتها وقطعت الخط عليها دون علم لها ودون إبطاء مني

بالإنتقال إلى الإستراحة، الأمر الذي إستغربوه وإستبعدوا حدوثه ولم يحسبوا له حسباناً.

وتركت المصلحة مسألة الكورس والتدريب جانباً، وظلت منشغلة أياماً بأمر الصالون طيلة المدة التي قضيناها فيه، حتى جاء الحل عن طريق حمد النيل المخادع. فتنفسوا الصعداء. وكانت الأخبار تجري عما حدث على كل لسان... بل كان النزلاء الإنجليز في الإستراحة كلهم يسألونني عنها وعن تفاصيلها، ونحن نتناول الوجبات في غرفة الطعام معاً أو نستأنس في الصالون أو نلتقي في الحديقة أو الردهات.. وكنت أشرح لهم القصة العجيبة كما حدثت. فيشاركونني الدهشة والإستغراب، ويذهب بهم العجب إلى أقصاه من تصرف الرئيس، الذي لا يقبله عقل أو يبرره منطق. كما كانوا يقولون أن الحديث قد إنتقل منهم إلى صغار وكبار موظفي المصلحة الذين يقابلونهم في المكاتب أو الملاعب أو في أنديتهم، حتى أنني قد سئلت عن ذلك وأُستجوبت عنه وأُتهمت بأنني أسيء إلى سمعة الإدارة بين النزلاء في الإستراحة. فأجيب بكل هدوء وبرود أنني لم أتعدى فيما رويته مجرد سرد الحقائق المجردة كما جرت تماماً ليس إلا.

ورفع الخلاف بعد أن إستفحل إلى مدير عام السكة الحديد شخصياً، الذي ما كان منه إلا أن إستدعاني مع رئيس مصلحتي، الذي إختلفت معه، لمكتبه وواجهنا كلينا في حسم مشوب ببعض عدالة، مؤاخذاً ومديناً لي بعدم تنفيذ تعليمات رئيسي المباشر، ومؤاخذاً وربما مديناً لرئيسي أمامي للإصرار على إنفاذ تعليمات لا تبدو منطقية ولا معقولة، وطلب منا أن نتصافح وأن نتسامح. ففعلنا وما أعجب برود الإنجليز. فقد دعاني الرئيس الشاكي الغاضب عليَّ ذاته لنتناول الشاي معه مساء نفس ذلك اليوم بمنزله، فلم أملك إلا أن أستجيب وقد إنتصرت.

بقي أن أذكر ومنذ بداية المشكلة بعد وصولي لعطبرة، وفي الأيام التي قضيتها في الصالون، والأسبوعين أو نحوهما الذين قضيتهما وأنا أقيم بالإستراحة، كنت أعد نفسي، دون أن يعلم بذلك أحد، لإجتياز الإمتحان المرتقب عقده لي، وذلك

بإستظهار القوانين ومراجعة جادة للائحة والمنشورات السارية المفعول في أشغال الحركة كلها. وبعد أن سويت المشكلة وعادت المياه إلى مجاريها حدّد لي منهج وطلب مني حضور الكورس في مدرسة الإدارة لأكمل نقص معلوماتي، الذي تذرعت به. وكانت دهشتهم عجيبة وبالغة جداً عندما فاجأتهم بأني لست بحاجة لدخول مدرسة الإدارة والجلوس مع من يتم تدريسهم وتدريبهم من صغار المعينين حديثاً بها. وخشوا أن يكون ذلك فتح باب جديد لمشكلة أخرى معهم، وساورهم القلق الذي كاد أن ينقلب غضباً منهم علي، حينما أبديت لهم إستعدادي للجلوس لأي إمتحان دون حضور أي كورس بعد إنهائه.. وكنت قد شرعت فيه بمفردي من تحضير وإستذكار بعد أسبوع واحد. فوافقوا وهم مأخوذون بموقفي الجديد بما رأوه من مراوغة ومكر. وجاء يوم الإمتحان ورافقني المستر هارسون، الذي أوكل إليه مأمور عموم الإدارة أن يتولى إمتحاني شخصياً وعلى نماذج الأجهزة والعدد والمعدات المعدة بمدرسة الإدارة عملياً، إلى هناك وقضى وقتاً طويلاً يمتحن ويناقش ويسأل. وبعد ذلك أمسك بعده بسماعة التلفون وإتصل بمن أوفده ليقول له (لقد أعطيت الخليفة إمتحاناً طويلاً وصعباً وقاسياً. وقد إجتازه بنجاح وأبلى فيه بلاءاً حسناً.) أذكر من ألفاظه وهو يعلن بقوله (He Passed my stiff exam with flying colours).

وقضي الأمر وإستوت على الجودي وهنأني رئيسي بالفوز ورأى أنها ستكون لفتة كريمة من جانبه، كما حدث بيننا، بأن أطلب من مكتب القطارات تخصيص صالون لي لأعود به إلى حلفا. وإعترضت بأن ذلك سيكون أمراً لا لزوم، بل ولا مبرر له إطلاقاً. فأنا كنت لوحدي وعائلتي قد إضطررت لإرسالها لأهلي بالجيلي، وأني سأسافر راكباً بالقطار... وهنا إبتسم الرئيس وقال ما معناه (كفى كفى. إنها هي مشاكساتك التي لا تفتر ولا تسأم منها يا خليفة. أطع تعليماتي رجاء. وأطلب الصالون وعد به إلى حلفا.)

وكانت اللفتة الكريمة والمعبرة، والتي إعتبرتها رداً وإنتصاراً لكرامتي، ما قام به الزملاء في الإدارة والعمال، في الورش وفي قسم الصوالين خاصة، أن حرصوا على أن أعود إلى حلفا بنفس الصالون الذي سبق أن طولبت بعدم السفر به والذي تم إخلاؤه. فأعدوه وجهزوه وعملوا ترتيب ضمه لقطار الإكسبريس من عطبرة، الذي وصلت به عائلتي من الجيلي. فإنضممنا إليه وسافرنا به معاً عائدين إلى مركز عملنا حلفا معززين مكرمين، ليلتقينا أحبابنا فيها لقاء المنتصرين..فالحمد لله رب العالمين. وكان الأمر كما قال الشاعر:-

يفسد الأمر ثم يصلح من قرب   وللماء كدرة ثم يصفو

وأتاحت لي فرصة العمل في حلفا، بالإضافة لما سبق أن أشرت إليه، التعرف الوثيق بمناطقها في عنكش ودبيرة إلى حلالاتها الممتدة شمالاً إلى فرس، التي كم قطعت الطريق إليها عودةً وذهاباً، خاصة في أيام التحاريق "بالموتر ترولي" وأنا أمر على ديار أهلها الطيبين الكرماء المرصعة بوابات منازلهم وواجهاتها بأطباق الصيني الزاهية والمزركشة بعضها بالفسيفساء وأنعم بمعرفة الفضلاء، أمثال عمدتهم الشيخ صالحين. وأتاحت لي تلك الفترة الرحلات العديدة التي كنت أقوم بها بباخرة البوستة العادة، خاصة التي تقف على جميع المحطات النهرية بين حلفا والشلال، وبغيرها من السفريات السريعة الأخرى، فرصة التعرف بتلك المنطقة من بلاد النوبة وبعض رجالاتها الأفذاذ الذين أفخر لأذكر منهم صديقنا وأستاذنا العالم العارف بالله الكامل الموهوب رجل بلانة الشيخ/ ماهر إسماعيل، الذي ما أزال أعاود قراءة بعض ما أحتفظ به من رسائل طويلة وممتعة كتبها إليَّ تخلد ذكرى وتنبض فكراً وتفيض حكمة .

ونقلت من وادي حلفا إلى عطبرة وعينت بها باشمفتشاً للرئاسة، إعترافاً بعمل لابد منه وإمتداحاً وإشادةً بسياسات ما أحوجنا لأن نعيها ونتدبرها لنتبعها ونرعاها.. ولابد لي هنا أن أشيد بحسن سياسة الإنجليز في السكة الحديد وبعد نظرهم فيما

تنتهجه تلك المصلحة لتدريب وتمرين موظفيها من أجل إعدادهم لتحمل مسئوليات في مستقبلهم البعيد.. شعرت بذلك وأدركته في نفسي (وله أمثلة لما طبق على الكثيرين غيري) فقد دهشت عندما طلب مني مأمور عموم الإدارة، رئيسي الأعلى، بعد ترقيتي ووصولي لعطبرة، أن أعد نفسي لمأمورية طويلة تشمل كل قسم وكل محطة في السكة الحديد، وذلك لمعرفتها وللوقوف على الأحوال في كل محطة وعلى أحوال كل من يعملون فيها، العملية والعائلية، رأي العين فرداً فرداً لكل منتسبي مصلحة الإدارة على جميع مستوياتهم، وتقديم بيان مفصل للرئاسة. وحرت في فهم غاية المهمة، وأعددت أرانيك خاصة لتشمل تفاصيل حالة كل موظف وتعليمه وشهادات السكة الحديد، التي أحرزها لوظائفها المختلفة، وحالته الإجتماعية وفرص تعليم أطفاله في بلد المحطة التي يسكن فيها والسكن إلى غير ذلك من وصف الواقع والظروف والمشاكل والصعاب التي يواجهها. وخصتني الرئاسة بصالون مريح جداً، و أمر مأمور عموم الإدارة بأن يوضع "الموتر ترولي" الكبير، الخاص به مع سائقه، تحت تصرفي، ليصحبني طوال تلك المأمورية التي إستغرقت زهاء الشهرين، طفت بها على كل أقسام ومحطات (وسندات) السكة الحديد. وأدركت بعد عودتي أن الغرض منها لم يكن تلك البيانات، بل تمكيني من ملافاة ما فاتني، مما لم يشمله تدريبي السابق، بالمعاينة والمشاهدة والخبرة الواقعية والعملية.

ثم أوكلت إليّ مهام تغيير مآمير إدارات الأقسام أثناء إجازاتهم. فغطيتهم في كل من قسم كسلا الذي يمتد من تقاطع هيا حتى سنار، وقسم جبيت الذي يشرف على المحطات بين عطبرة وبورتسودان المدينة. وأذكر ما كسبته من خبرة وما جنيته من فائدة عملية قيمة وتعرف بالمناطق وبأهلها وبإقتصادياتها وبزعاماتها. وأذكر من المنطقة الأخيرة هاته الرحلة، التي صحبت فيها الشريفية، السيدة مريم الميرغنية، بالقطار من سنكات إلى سواكن، لإقامة حولية هناك.. وأذكر مظاهر الولاء الذي تمثل في الحشود الزاخرة، التي تعذر بها السير بالقطار، والتي سدّت على عربتها المنافذ. فطلبت مني أخذ أبناء الأشراف الذين كانوا في معيتها والتنفيس

عنهم، إلى أن ينقلهم صالوني.. فحظيت بذلك الشرف والمرافقة لهم، وهم ما زالوا في فترة الصبا وميعة الشباب. كما غنمت في كسلا بمعرفة الكثيرين من وجوهها، وخاصة زعيمها الروحي اللطيف المثقف السيد/ محمد عثمان الميرغني وأخيه السيد/ الحسن، الذي إستضافني في زياراتي التي إمتدت إلى أقوردات، والذي إزدادت معرفتي به في زياراتي اللاحقة أثناء الإجازة، إلى أسمرا، حيث إلتقيت فيها بصديقي/ أحمد مختار، حينما حللنا ضيوفاً على زميلنا (سميَّه) محمد عثمان يس، الذي كان وقتها قنصلاً للسودان في أسمره.

♦ إيفادي إلى سكة حديد مصر:-

وفي خلال تلك الفترة بعطبرة تم وضع كتاب كامل منقح جديد لتعليمات البواخر، عهد إليَّ بترجمته كله، وهو فيما علمت ما يزال المعمول به حتى الآن .

ورفعت بعد ذلك في سلم الترقي إلى وظيفة مساعد لمأمور القسم التجاري بعطبرة بالدرجة(DS) فقمت بأعباء تلك الوظيفة ومسؤولياتها في الرئاسة وفي الأقسام. وما أريد أن أتعرض لتفاصيلها هنا، ولكني لا أرى أن أغفل بعض ما إشتملت عليه من إيفادي إلى مصر في مأمورية رسمية، لمناقشة تعريفة وإجراءات ونظم تبادل النقل الطولي بين البلدين، والتي كانت تستهدف بالإضافة إلى ذلك إتاحة الفرصة لي للتعرف على سكك حديد مصر ونظمها ومسؤولياتها..

وأذكر كيف أن تلك الزيارة إلى مصر، التي ما كنت أتوقع أن تكون إلا عادية وروتينية لا تتجاوز حدود الرسميات، إلا أنها قد تعدت ذلك بكثير، بمبادرات أضفت عليها ثياب النسيج الإكرامي والتكريمي، بل وربما السياسي أيضاً.. تبعاً وإنقياداً لما إتسمت به تلك الفترة من نشاط سياسي وحدوي.

فوجئت عند وصولي بالباخرة إلى الشلال بمن خفوا لإستقبالي مع وكيل الشلال من مندوبي المحافظة والمنطقة ومندوب من رئاسة السكة حديد المصرية، قدم من القاهرة خصيصاً لمرافقتي. وزادت دهشتي عندما إقتادني هؤلاء، لا إلى

عربة النوم بالقطار الذي كنت أتوقع الحجز لي فيه، بل إلى صالون كبير فخم لأستقله، ألحق بنفس القطار. وكان الأخ الذي أنتدب لمرافقتي سودانياً معروفاً ومحترماً، هو السيد/ بايزيد الموظف بإدارة سكك حديد مصر، والذي كان أحد جماعة اللواء الأبيض القدامى. وقد أنبأني بايزيد بأن ذلك الصالون الخاص هو نفس الصالون الذي درجوا على أن يخصصوه لسيادة السيد علي الميرغني، عند قدومه في زياراته لمصر. وقد كان الصالون معداً بكل شئ ومزوداً بكل ما لذّ وطاب، يشرف على الخدمة فيه طاه وخادم وسُفرجي.

كان إحتفاء الأخوة المصريين بي بالغاً، ومعاونتهم إليّ صادقة وأخوية ومخلصة. فأنجزت مهمة النقل الطوالي وأجريت لقاءات نافعة بأعلى مستويات المصلحة، شملت مأمور عموم الحركة والبضائع، عبد الهادي درار ومساعده فهمي بك رزق، ومعاونيهم من رؤساء الأقسام التي تفقدتها في الرئاسة والفروع والمحطات العديدة، التي توقفت فيها حتى طنطا والتي إنتهت بالإسكندرية والقباري والميناء.. كل ذلك وأنا أتنقل وأقيم في الصالون ويتبعني موتر ترولي كبير خاص، وضع تحت تصرفي. ولن أنسى ذلك الموضع المتميز الشاعري الساحر الهادي، الذي أوقف به الصالون الذي كنت أشغله على الخط الحديدي الطويل، الممتد كلسان داخل البحر بميناء الإسكندرية... ولا أنسى نكتة الأخ السوداني الكبير، الذي جاء ليزورني فيه، متحسراً على أن يحظى مثلي بمثل ذلك الموضع، وأن أحاط بالنغنغة والهيلمان، وأن أكون كما وجدني فيه وحيداً فريداً وأنا أكب على كتابة ملاحظاتي وتقريري.. مما كان يمكن، بل يجب أن يستغل بكل ضروب المتعة الآثمة والإستمتاع على حد قوله.. وظل يردد على مسامعي المقولة المصرية.. صحيح "يعطى الحلق لمن ليست له أذان".

على أن مما تستحق التسجيل أيضاً في أوائل فترة الخمسينات، ليس هو عمل السكة الحديد وما حققته فيها ولكن ما كان يدور في الساحة، خاصة على الصعيدين الإجتماعي والسياسي في البلاد عامة وفي عطبرة خاصة.. كانت الجذوة السياسية

والشعلة الوطنية آنذاك متوهجة ومتلظية، تؤججها التحركات الوطنية الجياشة المندفعة تبعاً لتطوراتها السياسية المتسارعة الخطى في مراحل النضال من أجل الإنعتاق والتحرر، الذي بلغ ذروته فإنخرط في سلكه الجميع وعملت له أحزاب منضوية تحت لواء المؤتمر، مجتمعة حيناً ومنفردة تارة ومتفرقة أحياناً... وكنت وقتها في عطبرة رئيساً للجنة المؤتمر وسكرتيراً لنادي الخريجين. وليس هذا مجال للتحدث عن الأوضاع والأحوال والتيارات وتجاذبها في محيط الموظفين والعمال ودوائر السلطة والمؤتمر والأندية الإجتماعية والرياضية، فذلك أمر يطول. ولكن وفيما يتعلق بي خاصة، فبحسبي أن أومئ إيماءات قصيرة إلى ما حواه خطاب المؤتمر عن الدورة التي كنت أتشرف برئاستها في عطبرة، مما كنت أرجو لولا طوله أن أورده هنا برمته، كوثيقة تاريخية لأنه ينم على الكثير ويفصح ويكشف عن الكثير ويضع النقاط على حروف كثيرة تسجل الحقيقة للتاريخ، لما لم أتردد أن أتوجه به من نقد لتصرفات قادة بعض الأحزاب.. التي سكنت الكونتننتال...

ويهمني في هذا المقام أن أكرر وأقرر مؤكداً وجازماً بأنني لم أنتم إلى أي حزب سياسي في حياتي رسمياً قط.. وكانت ميولي إتحادية ولم أكن وطنياً إتحادياً أو شقيقاً، بل كنت أقرب ما أكون إلى حزب الإتحاديين الذي لم تواته الفرصة ليبرز وليعم وليسود.. حزب عبد الله ميرغني وحماد توفيق وجماعة أبوروف، الحزب الذي هدف ويهدف أن يكون السودان، بعد أن ينال إستقلاله، متحداً مع مصر إتحاد الند مع الند، يداً سودانية قوية، مع يد مصرية قوية لا أن يكون إصبعاً في يد.. وكان لي موقف معروف ومشهود إزاء الوطني الإتحادي، خاصة عندما إنشطر، فقسمه نور الدين إلى حزبين متنازعين متعارضين، وأن ظللت أتابع حياتي كلها وأتبع مسيرة الإتحاديين وأنصارها وأناصرها .

ويحضرني في تلك الفترة ما كنت أجد نفسي مواجهاً به من حرج ومن مفارقات بالنسبة لوضعي الرسمي وما يفرضه عليّ وضعي الإجتماعي من رئاستي لمؤتمر الخريجين ورئاستي للجمعية الأدبية من جهة، وما أنا مقيد به من تعهد سبق

وأن وقعته بعدم التحدث أو الخطابة في المجتمعات من جهة أخرى. وأذكر كيف تحايلت عليه في مناسبة كبرى، ألا وهي زيارة الأستاذ محمد صلاح الدين (سكرتير حزب الوفد المصري) عندما جاء يرافقه عدد من كبار المحامين المصريين، الذين أتوا من مصر لتولي الدفاع عن العمال في قضيتهم أمام المحاكم في زيارتهم لعطبرة عام 1953 .

كان علي أن أخطب، بحكم مواقعي المذكورة إياها، فيما أقمناه من حفلات ولقاءات وتكريم للضيف الكبير الرمز. وقد جادت الطبيعة، فكانت الذريعة والحل، الذي إهتبلته. إذ صادف أن كان يوم وصول محمد صلاح الدين ورفاقه لعطبرة يوماً عاصفاً مغبراً. وقد إنطلقت فيه هبوب عاتية أثارت زوبعة ندر أن رأيت لها مثيلاً. ولكن على الرغم منها، فقد تلمس وتحسس الناس طريقهم أثناءها إلى المطار ليستقبلوا صلاح الدين، وهم لا يكادون يرون شيئاً أمامهم من الظلمة الداجية... وأمسك الكل فيها بأياديهم على قلوبهم وهم يرون طائرة ال(Dove) الصغيرة، التي تقل القادمين الزائرين، تتأرجح كريشة في مهب الرياح الهوجاء. فوجدت في تلك المندوحة المخرج، خصوصاً بعد أن تم هبوط الطائرة بسلام، بعد أن كان صباح اليوم الذي تلا وصولهم يوماً صحواً فأمطرتنا فيه السماء مدراراً فتوكلت على الله فقررت أن يكون موضوع حديثي للترحيب به ورفاقه هو "الطقس في لقاء محمد صلاح الدين" (متلفعاً ومعتبراً به.) فنظمت أبياتاً، أذكر منها بعد مطلعها، الذي وصفت فيه ثورة الطبيعة.وقسوتها وكيف جن جنونها فبدت تعربد لاهبة... وتساءلت ما بالها؟ أترى أبت إلا مساهمة منها للترحيب بهم؟ والتي جاء فيها:

هاجت زعازعها العواصف ثائرات عاتية

وتسعرت أنفاسها نفثات نار حامية

فحكت شعور الناس إذ طفحت تؤمك طامية

والخطاب كما هو واضح موجه إلى صلاح الدين. وإلتزمت فيها بالوصف، فقلت عن الطائرة الصغيرة التي حملته:

مشت الوفود إليك في بحر تعج أواذيه
لم يثنها وعر الطريق ولا زئير السافية
وتدفقت صوب المطار تؤمه متبارية
وتطلعت أبصارها نحو السماء الداجية
ترنو بأحداق القلوب مروعة متداعية
فبدت لها ذات الجناح مدلة متهادية
تياهة تفري الغيوم وئيدة متوانية
حتى إذا ألقت عصاها وإستقرت ثاوية
نزلت على إسم الله وإنجابت بذاك الغاشية
نزل السرور على النفوس نزول برد العافية

ثم وصفت كيف خضعت وإستكانت الريح في الصبح التالي...

سكنت لزورتك الطبيعة فإستنامت راضية
فإذا السماء ضحوكة وإذا الطبيعة صاحية

ثم تطرقت فوصفت إستقبال دار العمال له، وكيف أنها سعت تدعوه للتحدث إليهم فيها ولم تك وانية، فنالت لما أملته إلينا من أمنية، راضياً بما فعلته ومبرراً له بقولي:

لكن بمثل صلاحنا كل سيؤثر ناديه
إنَّا وهم في شرعة الإيثار جدُّ سواسيه

وتعرضت للمحاضرة التي ألقاها فيها "الخطيب الداهية" الذي أفسحت له صدر المقال:

فغزا القلوب بسحره وشفى النفوس الصادية
وروى للإستعمار من حيلٍ عتاق بالية
ما إن به هتك الستور عن الحقيقة عارية
أصمى بها صدر الدخيل بكل قوس بارية
فهوت دعاويهم بها إعجاز نخل خاوية..

ثم جاء في أبياتها الختامية:

فيها تصارع الأهوية وتناطح السحاب، وذقنا فيها الأمرين قبل أن تحط بنا في مطار واو.

وأذكر حسن الإستقبال وكرم الوفادة الذي خصني به كل من الأخ عوض حامد جبر الدار، مفتش المركز، والمستر أوين "Owen" مدير المديرية والبحاثة اللسن، الذي صار بعد ذلك مديراً للنيل الأزرق ثم مديراً لكلية الخرطوم الجامعية.

كما أذكر أن مدير المديرية إقترح علي في العشاء، الذي أقامه لي بمنزله في واو، أن أغتنم فرصة زيارتي تلك المديرية لأقوم بزيارة لمشروع الزاندي ولأتعرف بتلك المناطق، خاصة من الناحيتين الإقتصادية والتجارية ومشاكل النقل والترحيل فيها. ورحبت بالعرض ولكني تعللت بقصر مدة الزيارة وبقصرها على المهمة المحددة التي جئت من أجلها وعدم إستعدادي لما تتطلبه تلك الرحلة. فوعد بإجراء الإتصال اللازم برئاسة السكة الحديد تلغرافياً ووعد بإمدادي بكل ما يلزمني للرحلة من عربة ومن مرافقين وحراس، جبت بها معهم المنطقة بطريق البّر عبر "ثور ثيوبو" (منطقة مرض النوم "وذبابة التسي تسي") والكنائس والإرساليات ومشروع الزاندي وما به من مصانع ومزارع وصفوف أشجار المانجو والموز والأناناس الغزيرة. ولفت نظري أن وجدت صديقي أبو النجا ورجاله، مهندسي الطرق، وجدتهم يستعينون بثمار المانجو، وهي ناضجة، على ردم الفجوات والحفر في صيانة أو تعبيد الطريق، والتي إستمرت لعدة أيام، توقفت أثناءها في مريدي ويامبيو. وواصلت سفري بها إلى جوبا، حيث عقدت إجتماعات بالتجار فيها، وقمت بتفتيش المحطة ثم غادرنا بالباخرة إلى كوستي وسافرت بالطائرة منها، عبر الخرطوم، عائداً إلى عطبرة بعد أن أنهكتني إصابة حادة من الملاريا طيلة رحلة الباخرة، كادت أن تؤدي بي، لولا لطف الله بي، والعناية التي لقيتها من الدكتور/ قراتان، المفتش الطبي، الذي كان مسافراً بنفس الباخرة، والذي جعلني شغله الشاغل. فحمداً لله.

حدث بعد ذلك أن "هلك" مأمور القسم التجاري، الذي كنت الرجل الثاني بعده، فجأة وأنا بعطبرة. ولئلا أشغل وظيفة نائبه الذي حل مكانه والتي كنت مؤهلاً ومستحقاً لها، قرر المسؤولون نقلي إلى كوستي، لأكون مأموراً لإدارة قسمها ولأتسلمه من زميلي محمد أحمد علي، الذي تقرر نقله عطبرة، بدلاً لي. وشاءت الأقدار أن يتوفى الله زميلي محمد أحمد في كوستي فجأة قبل تنفيذ النقل: فحزنا عليه حزناً عظيماً، ولكن الغريب في الأمر أن السكة الحديد، على الرغم من توالي المصابين وخلو المنصبين، الذين لم يكن لهما بديل معدّ بخبرته وتدريبه في كل مصلحة الإدارة سواي، أصرت المصلحة على أن يتم نقلي إلى الخرطوم مأموراً لإدارة قسمها... إقصاءاً متعمداً أو إبعاداً مقصوداً.. وقد كان...

♦ مشروع لسودنة السكة الحديد:-

قبل قيامي للخرطوم، وأنا ما زلت بعطبرة، أوعز إليَّ الأخ مبارك زروق بأن أتدارس مع زملائي مشروع وخطة لسودنة السكة الحديد، كما نراه، بوصفه وزيراً للمواصلات في فترة الحكم الذاتي. وكونا لجنة من الزملاء السودانيين (مسعود وفضل ولبودي وقاسم وقلندر وشخصي وآخرين) تمكنا من إعداد خطة مدروسة مفصلة لجميع الوظائف التي يمكن سودنتها فوراً، والتي تحتاج لسنة أو سنتين على الأكثر، وتقدمنا بها إلى السلطات. وأذكر أن بعضنا كان "أنانياً أو متعجلاً لجني الثمار وقطفها".. ولكن غالبيتنا كانت واقعية ومسؤولة ومتأنية. وأذكر أنهم عندما أجمعوا على إمكان سودنة وظيفة مأمور القسم التجاري الفوري مثلاً وإسنادها إليَّ ومعارضتي ومصارحتي لهم بأنني، على الرغم من إعدادي الطويل المتخصص لها، فسأحتاج لبقاء شاغلها الحالي البريطاني معي لفترة سنة على أقل تقدير، إن لم يكن لفترة سنتين، أكون بعدها واثقاً من صلاحيتي ومقتنعاً بقدراتي وكفاءتي للإطلاع بمسؤولياتها بإطمئنان.

وأذكر أن المتعجلين قد ناوشونا وإتهمونا بالتخاذل. وأذكر ردنا على ما كتبوه في الصحف حول نقدهم لنا بنشري مقالاً بدأته بأبيات(وهي للإمام الغزالي):

غزلت لهم غزلاً دقيقاً فلم أجد لغزلي نساجاً فحطمت مغزلي

وكان من أطرف وألطف ما ردوا به علينا بعده مقالاً يحمل عنوان... (ومرحى لغزالي لانكشاير!!)..تم تسلُّمي لمهام مسؤولية إدارة قسم الخرطوم مأموراً لها قبل توقيع إتفاقية الحكم الذاتي وقيام أول حكومة وطنية. وأجريت الإنتخابات العامة وتم إختياري نائباً لضابط الإنتخابات في العاصمة، معاوناً لصديقي السيد/ مأمون الأمين ضابط أول المجلس البلدي (وما زلت أحتفظ بشارة الذراع للمناسبة) ولقد أسعدني أن يكون والدي قد فاز في تلك الإنتخابات بعضوية أول مجلس للشيوخ في البرلمان السوداني عن دائرة الخرطوم.

كذلك تم إختياري آنذاك عضواً في مؤتمر معسكر أركويت الدراسي، الذي حضرته والذي أنتخبت فيه قائداً للمجموعة الرابعة، التي أحرزت قصب السبق على كل المجموعات الأخرى. وفزت بالمرتبة الأولى في البحث النهائي الذي توليت إعداده وقمت بإلقائه في الجلسة الختامية التي حضرها في أركويت السيد ميرغني حمزة، بوصفه وزيراً للمعارف، كما حضرها المستر ولشر مدير الجامعة. وأذكر من بين من إشتركوا في تلك الحلقة الأساتذة/ سعد الدين فوزي ومحمد عمر بشير وأبو شوش والمستر أوبي من الجامعة ودكتور/ مالك بدري (الطبيب) وآخرون من المثقفين ومن أهل الأدب والمتأدبين.

وأذكر المداعبات الشعرية التي أضفت على المؤتمر في المعسكر أجواء من الإمتاع والمؤانسة. أما عن فترة رئاستي لقسم الخرطوم، فقد أتسم بالجدية والحزم والإنضباط والدقة لضمان الأداء. وقد حالفنا فيه من التوفيق ما أرضانا بحمد الله تعالى. وذلك بفضل من عملوا بتفانٍ وإخلاص معي من العاملين والقياديين والمشرفين والموظفين والمفتشين، وعلى رأسهم عضدي الأيمن، الإداري النشط

النزيه الكفء، صديقي، محجوب الماحي، مفتش الإدارة، الذي كان ساعدي وموضع ثقتي ومثلاً أعلى للتعاون والإنسجام الصادق وتقدير المسؤولية إلى أبعد الحدود.

وأذكر بعض المرارة والضيق من ما إقتضته مسؤوليات ومستلزمات السودنة من إعادة تنظيم، بعد خلق نظارة الأقسام الجنوبية وتطويرها، وكان مقرها بالخرطوم، لتشرف على إدارات أقسام في كل من الخرطوم ومدني وكسلا وكوستي التي كانت تضايقني تدخلاتها، بما كان يتراءى أنه يشكل إزدواجية وتداخلاً في الإختصاصات يعوق الإنطلاق ويحد من سلامة وحرية التصرف والأداء، خاصة في قسم الخرطوم بأقسامها المحلية المحيطة. وما أكثر ما حاولت مع شاغلي وظيفة ناظر الأقسام الجنوبية، مسعود، وعز الدين محمد من بعده، لأبين لهم أن العمل لن يستقيم ولن يستقر ولن ينضبط إلا إذا ما أغمضوا أعينهم وتناسوا أن إدارة قسم الخرطوم بأقسامها المحلية ليست على مقربة منهم، لأنها كانت تشاركهم نفس المكاتب. وكان يفترض عليهم أن يقبلوه ويتخيلوها بعيدة عنهم، بعد إدارات أقسام مدني وكسلا وكوستي التابعة لهم، وأن يعاملوها كذلك.. ولكن هيهات..

على أن ذلك لم يحل بيني وبين وقوفي بحزم وبإستقلالية تامة في مواجهة كثير من مستجدات تلك المرحلة الأولى من مراحل بداية الحكم الوطني وضغوط السودنة وأثارها في محيط النقابات ودوائر الوزارات وتحديد النظم وإصدار اللوائح والتعليمات لوضع الثوابت السليمة لتلائم المتغيرات الجديدة.

وأذكر في طليعة ذلك مشكلة فتح البوابة الرئيسية الكبيرة التي حسمناها بقصرها على رأس الدولة ورئيس الوزراء وقتها، لأنها ما كانت تنفتح إلا "للحاكم العام" والتي طالب بها بعض من عينوا وزراء، وبالدخول بعرباتهم إلى رصيف المحطة، الأمر الذي أدى إلى تلك الوقفة الجريئة لمنعها التي ما يزال يذكرها ويشيد بها الأخ/ محجوب الماحي ويروي مثيلاتها.. حتى مع نقابة العمال التي لم نتردد في إيقاف رئيسها المحلي وتخفيض وظيفته ونقله عندما أخفق وأهمل وتقاعس في أداء واجباته دون تردد أو خشية.

وأذكر زيارات التفتيش المفاجئ، التي كنا نقوم بها لمواقع العاملين بمحطة الخرطوم، وفرض الرقابة التامة الصارمة المحكمة على القطارات وتفقدها والحرص على نظافتها، وتوفر كل ما تتطلبه من خدمات قبل دخول الركاب فيها، والإشراف على العفش ووضعه وتوفير كل أسباب الراحة للمسافرين في حدود، الإلتزام الكامل للوائح والقوانين... نضطلع بها كل في دائرة إختصاصه التام المكتمل غير المنقوص، على قلة عددهم وتدني درجاتهم آنذاك، ومبالغة في الحرص على النظافة وسيادة القانون.

وأريد أن أورد على سبيل المثال للتذكير والتملي فقط، وليس للمقارنة، أن مأمور إدارة القسم (الذي هو أنا) كان آنذاك في الدرجة (DS) ويساعده مفتش إدارة في الدرجة (G) وتجاري ويرأس المحطة كبير نظار في الدرجة (H) يساعده ثلاث نظار للورديات والغيار فقط، كلهم في الدرجة (J) أسجل هنا هذا بعد أن نقل إليّ الأخ/ يوسف مدثر في أواخر الثمانينات، عندما كان يشغل وظيفة كبير نظار الخرطوم، أنه وضع في "المجموعة السابعة" أعني أعلى من وظيفتي عندما كنت مأمور إدارة القسم بثلاث درجات... والذي أدهشني بل أذهلني قوله لي بأنه بمحطة الخرطوم **(ستة وخمسين ناظراً)** نعم ستة وخمسين أكتبها بالحروف لكي لا يلتبس الأمر على ما بين العهدين (1954و1988) من تفاوت في عدد القطارات والسفريات وتدن إلى الحضيض في المستويات..حدث ذلك كله بسبب القفزات والطفرات، لا أقول "العمودية" بل "الإسبوتنيكية" والترفيع في الدرجات وخلق وظائف نتيجة للترقيات والمساومات مع النقابات التي لم تكن واقعية. والواقع أن هذا التوسع في الوظائف لم يكن نتيجة لتزايد حجم العمل وتعاظم المسئوليات، إذا علمنا تضاؤل عدد القطارات إلى الثلث تقريباً أو الربع، مقارنة بالفترة الأولى. وقد فصلت ذلك في ورقة عمل قدمتها لمؤتمر السكة حديد، الذي دعيت له بعد التقاعد في السبعينات، حيث طلب مني وزير المواصلات وقتها (خالد حسن عباس) أن أترأس لجنته ولكني رفضت وإعتذرت عن رئاستها وأسلمتها إلى زميلي مكي السيد علي وسترد أسباب

ذلك عند التعرض لعقد ذلك المؤتمر ومن كان وراءه وذلك في الحديث عن تلك الفترة في الفصول اللاحقة.

الفصل الرابع

آخر العهد بالسكة الحديد خلال فترة الحكم الذاتي حتى الإستقلال

1954- 1956

التمهيد لممارسة الدبلوماسية

عندما تقرر أن أعين قبل الإستقلال نائباً لوكيل وزارة الشؤون الخاصة التي أستحدثت وأسندت وكالتها إلى صديقنا الدكتور/ عقيل أحمد عقيل لتكون حلقة الوصل بين أول حكومة سودانية وطنية وبين سراي الحاكم العام في كل ما يتعلق بالشؤون الخارجية، كنت أشغل وظيفة مأمور إدارة قسم الخرطوم بإدارة السكة الحديد كما تقدم وقبل أن أنتقل إلى الوظينة الجديدة مودعاً بالحفل الكبير الذي شرفني بإقامته لي موظفو سكة حديد الخرطوم بميادين المقرن فكان خاتمة لأعمالي بها، أسعدني وأبهجني أن أشارك في تسيير قطارات الجلاء وأن أشهد مغادرة آخر قطار منها يحمل آخر جندي بريطاني من محطة الخرطوم.

وأذكر بهذه المناسبة أن آخرمن ودعته من رؤسائي البريطانيين هو (المستر ولسون) الذي عملت مساعداً له ردحاً طويلاً بالقسم التجاري بعطبرة والذي كان حتى آخر ساعات سفره من الخرطوم، وهو عائد إلى بلاده يحاول أن يثنيني عن ترك السكة الحديد ويزين لي عدم الإنتقال منها إلى الوظيفة التي تم إختياري لها ملوحاً لي بما ينتظرني في السكة الحديد من مستقبل زاهر أكيد أصل فيه إلى القمة..

وأذكر أني كنت وقتها بمكتبي أخط آخر مذكرات تسليمي لخلفي في المساء كيف خرجت لتوديعه بصالونه الذي كان مضافاً إلى القطار المتأهب للقيام خلف نافذة مكتبي لأجد حوله لفيفاً من الزملاء الذين إصطفوا لتوديعه أيضاً. وبعد أن صافحناه مودعين وكنت آخر من ودعه دخل إلى صالونه وأقفل بابه من ورائه

وأطل علينا من النافذة ملوحاً لنا بيده. وكانت آخر صيحة أطلقها والقطار يتحرك موجهة إليَّ.. أطلقها ليقول:- "خليفة.. عندما تبلغ مرتبة معالي السفراء العالية وترقى إلى معارجها فلا تنسى أن تخبرني بذلك رجاءاً"... قالها وهو يبتسم إبتسامة عريضة أعقبها بضحكة عريضة عالية لم أدر إن كانت تنم عن الوثوق والتصديق بتوقع حدوث ذلك بالفعل، أم أنها كانت تندراً ماكراً وساخراً منه!؟؟.

وأياً كان الحال فلم أنسى أن أعمل بوصيته، إذ لم يمضي على توديعي له عامان إلا قليلاً أن تم إختياري بالفعل سفيراً من ضمن أول خمسة سفراء فبعثت على أثرها إليه برسالة إلى إنجلترا بدأتها بما حرصت أن يكون إجابة لاحقة متأخرة أرد بها على تساؤله يوم أن ودعني بقولي له فيها:- ما أسرع ما وصلت إليه وتبوأته من أوج السفارة وإرتقاء سمكها العالي يا صديقي المستر ولسون!!!! نعم لقد تم تعييني سفيراً...

كان ذلك في شهر يوليو عام 1954م هو التاريخ الذي وضع حداً فاصلاً بين عهدين /.../ عهد ما يناهز العشرين عاماً قضيتها في خدمة السكة الحديد، وعهد جديد في مرفق حكومي جديد مختلف كل الإختلاف عنه سيكون موضع الفصل التالي من هاته المذكرات بعون الله وتوفيقه...

• إنشاء وكالة الشؤون الخاصة - البذرة والنواة التي تفتحت فإنشقت عنها وزارة الخارجية:-

أبرمت إتفاقية الحكم الذاتي وتقرير المصير في فبراير 1953م، وفي أحد ملاحقها محضر متفق عليه بين دولتي الحكم الثنائي (نشر كملحق التشريع الخاص لغازيته حكومة السودان بالعدد (854) الصادر بتاريخ 21/مارس من نفس السنة) يقضي بإنشاء مكتب ليكون حلقة وصل بين أول حكومة سودانية وطنية وبين سراي الحاكم العام ليعني ببعض ما يتعلق بالشؤون الخارجية من

المهام التي أنيطت أصلاً بالحاكم العام وأن يسمى ذلك المكتب "الشؤون الخاصة" وأن يكون على رأسه وكيل وزارة سوداني: ولا أجد خيراً من أن أورد نص المحضر المتفق عليه أدناه:-

• محضر متفق عليه حول تعيين وكيل وزارة في السودان للقيام بمهام خاصة معينة:-

(بحثت الحكومة المصرية وحكومة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وشمال إيرلندا الرغبة في إنشاء مكتب وكيل وزارة في السودان يتولاه سوداني ليعمل كحلقة وصل بين الحاكم العام ومجلس الوزراء السوداني وتكون مهمته الإعداد لتمثيل السودان في المؤتمرات الدولية الفنية فقط وتوصي الحكومتان الحاكم العام للسودان ومجلس الوزراء السوداني بإنشاء هذا المنصب)."

في يوليو 1954م تم تعيين الدكتور/ عبدالله أحمد عقيل (بترشيح سياسي) ليكون وكيل وزارة للشؤون الخاصة كما تم في الوقت ذاته تعيين السيد/ خليفة عباس العبيد (من الخدمة المدنية) ليكون نائباً لوكالة الوزارة معه.

وأود هنا أن أبيح لنفسي بأن أقول في البداية أن ترشيحي للوظيفة وإختياري وتعييني فيها لم يكن بسبب أية خلفية أو تبعية سياسية أو محسوبية أو صراعات أو مبادرات شخصية بل أجزم وأؤكد دون أي تردد لأعزو ذلك كله وأنسب فضله كله بكل أمانة وصدق إلى الأخ/ مبارك زروق الذي تربطني به (بالإضافة إلى آصرة السكة الحديد وزمالتها اللاحقة) صداقة فكرية وأدبية وسياسية ووطنية كذلك: كان في كل منا ما يعجب الآخر وما يشده إليه من تجاوب وتوافق وتطابق في النظرة إلى كثير من الأشياء خاصها وعامها سواء في مجالات السكة الحديد أو في نظرة رؤسائها إلى كل منا أيضاً، ففي التقارير السرية التي يكتبها

رؤساونا عنا (والتي إطلعت عليها فيما بعد)... وصفوني فيها بالكفاءة والإقتدار والإعتداد بالنفس وبالغرور والميل إلى التمرد وبالصرامة والتشدد..

كما وصفوا مبارك زروق بالذكاء وبالنظرة الفاحصة المدققة وبالذهن المتوقد الشرود وعابوا عليه في أحد تقاريرهم ما وصفوه به من أنه (نوع حالم)!! هكذا ورد في تقرير كتب عنه بالحرف الواحد ولكنهم عفا الله عنهم في ذلك معذورون فما كانوا يعدونه حلماً إنما هو في الحقيقة طموح ما كانوا يتصورونه أو يحلمون به ولم يكن يدور بخلدهم أبداً أن ذلك الحالم في نظرهم قد تجاوز دنيا الأحلام إلى ما يشبه المعجزات بأن صار أول وزير للمواصلات في البلاد...

ومبارك زروق هذا وهو ما يزال صبياً يافعاً بكلية غردون (قبل السكة الحديد والمحاماة والسياسة والوزارة) كان فتىً مثقفاً أنيقاً معطراً كما كانوا يصفونه: إشتهر بالذكاء وسرعة البديهة مما يؤثر ليساق كشاهد على ذلك ما هو معروف من "قصة إشتراكه" وهوطالب في جولة الأوراق القصيرة أو ليلة القبعة التي تعقد بالكلية والتي في إحداها كانت الورقة التي سحبها ليجيب عليها إرتجالاً تطرح السؤال التالي:-

"من هو أعظم رجل عرفه التاريخ في نظرك" فكان رد مبارك الفوري عليها بلا توقف أو تلكؤ أو تردد أو تفكير.. (إن أعظم رجل عرفه التاريخ في نظري هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم) أجاب بذلك الرد الذي لم يستغرق دقيقة واحدة من وقت الدقائق الخمس المحددة لتلك الإجابة وشغلت الدقائق الباقية كلها بالتصفيق الحاد المتصل المدوي لتلك الإجابة التي لم يكن يتوقعها أحد عدا القليل النادر وربما لا أحد إطلاقاً لأنها كانت بعيدة عن أذهان طلبة ذلك العهد في منتصف الثلاثينات...

♦ "وكالة الشؤون الخاصة":-

بدأت وكالة الشؤون الخاصة ممارسة أعمالها في نطاق محدد مبسط وكادر محدود لتعمل في غرفتين متجاورتين فقط في المبنى المتاخم لمبنى أول رئاسة لمجلس وزراء (مقر المراجع العام وقتها) في الجهة الشرقية منه وكان يشاركها فيه السيد/ الدرديري محمد أحمد نقد ولجنة الخدمة الوطنية العامة.

كانت فاتحة أعمالنا في الوكالة مناقشة إختصاصاتنا بتفويض من مجلس الوزراء مع (المستر سير وليام لوس فيما بعد) مستشار الحاكم العام البريطاني في الشؤون الدستورية والسياسية وقد تمخضت تلك الإتصالات بأن حددت ومددت مهام الوكالة الموسعة لتشمل ما يلي:-

(1) القيام بمهام الإتصال بين مجلس الوزراء وسراي الحاكم العام وإبداء النصح والمشورة لمجلس الوزراء عن الشؤون الخارجية.

(2) أن يكون المكتب حلقة وصل بين مجلس الوزراء والوزارات الأخرى في كل ما له صلة بالشؤون الخارجية.

(3) التحضير لجميع المؤتمرات الخارجية التي يمثل السودان أو يشارك فيها.

(4) الإعداد والتنظيم والإشراف على كبار الزوار والضيوف الأجانب الذين يزورون السودان ورعايتهم وإعداد برامج زياراتهم وإقامتهم في السودان.

II وكالات حكومة السودان بالخارج:-

(أ) التعرف الدقيق وإعمال النظرة الفاحصة الثاقبة فيما تقوم به وكالات وممثليات السودان في الخارج بالتفصيل في المجالات السياسية والتجارية ومتابعته بغرض إكتساب خبرات نافعة في المستقبل.

(ب) العمل على مركزية الناحيتين الإدارية والإشرافية عليها فيما عدا المسائل السياسية.

(ج) أن تكون تلك الوكالات والممثليات تابعة لمكتب الشؤون الخاصة الجديد في كل ما يتعلق بشؤون وظائفها وموظفيها ورعاية مصالح الرعايا السودانيين فيها-

وتولي مسؤولية الإعلام والدعاية وفي تعيين الموظفين الأجانب للحكومة السودانية.

(د) إجراء التفتيش الدوري عليها وتفقدها إلخ...

III مكاتب ضباط الإتصال الممثلين للدول الأجنبية في السودان:

أ/ الإحتفاظ بصلات قوية الأواصر بهؤلاء وخلق إتصالات قوية معهم.

ب/ تولي القيام بكل مهامهم الداخلية مع الوزارات والمصالح المختلفة شريطة أن لا تتجاوز هاته أو تكون لها ردود فعل أو إنعكاسات أو آثار على السياسة الخارجية لأن في ذلك ما يعزز التفاهم الحسن ويخدم مصالح الطرفين أكثر.

IV الإحتفاظ بسجل كامل لأصول وفهارس ومراجع جميع المعاهدات والإتفاقيات والعلاقات الخارجية التي يكون السودان طرفاً فيها حتى آخر تاريخ لتكون مضابط ومصادر يرجع إليها.

V التنسيق مع وزارة الشؤون الإجتماعية للعمل الإعلامي الخارجي بمعناه الواسع أعني إعطاء المعلومات والإجابات أو الردود على ما قد يوجه من النقد أو التعليقات أو إصدار القرارات والتعليمات والتوجهات بشأن الإحتفالات بالمواسم والمناسبات القومية وغيرها والمطالبة بتقديم تقارير شهرية عن نشاطاتها وغيرها وما إليه.

وبالإختصار فستكون المهام إجمالاً هي "تمثيلية وإستشارية للشؤون الخارجية تهدف إلى التمهيد لقيام خدمة قنصلية ودبلوماسية للسودان في المستقبل. تلك هي ترجمة للوثيقة الرسمية التي صدرت والتي تم الإتفاق عليها بعد مناقشتنا لها مع القصر وأجيزت بحذافيرها لعملنا الجديد.

كان العمل يجري بين مكتبنا وبين مكتب المستر لوس بالسراي من جهة وبيننا وبين مكتب السيد رئيس الوزراء بالشنطة السرية الحديدية الحمراء ذات الأقفال المزدوجة المفاتيح (كان كل طرف يحتفظ بمفتاح بالإضافة إلى أختام الشمع الأحمر) وكان يحملها رسول وحامل حقيبة خاص محدد إمعاناً في السرية. وقد كان الكثير مما تحتويه بالغ الأهمية والسرية فعلاً، وكنا نتبادل المذكرات

ونتولى الردود وحتى إعطاء القرارات في الأمور الروتينية ونقوم برفع الخطير الكبير منها لرئيس الوزراء في مجلسه للتوجيه والرد بما نقترحه من حلول تنتهي بالرفض أحياناً وبالموافقة في كثير من الحالات.

كان تمثيل السودان في الخارج في تلك الفترة على مستوى وكالتين للسودان إحداهما في لندن (تم إسنادها للدكتور/ علي أورو آنذاك) والثانية بالقاهرة عهد بإدارتها والإشراف عليها للسيد/ بابكر محمد الديب. وكذلك كانت للسودان قنصليتان إحداهما في أسمرة خلف عليها السيد/ محمد عثمان يس، السيد/ صادق أحمد مصطفى (إن لم تخني الذاكرة) والثانية بجدة تعاقب عليها الحاج أبوشرا، والسيد/ حامد السيد وغيرهم.

أما التمثيل الخارجي الأجنبي هنا في الداخل فقد إنحصر وقتها في المندوب التجاري البريطاني والخبير الإقتصادي المصري بالإضافة إلى من كانوا يسمون (بضباط الإتصال الأجانب) لكل من أمريكا وألمانيا والهند واليمن وإيطاليا وهولندا وغيرهم، كما كان يمثل لبنان في الفترة الإبتدائية الأولى قنصل محلي فخري هو الدكتور/ نقولا معلوف الطبيب المعروف في الخرطوم.



مع فيليب آدمز أول ضابط إتصال لبريطانيا في السودان



مع آرثر بيتس أول ضابط إتصال أمريكي للسودان وعقيلته، 1955م

• المؤتمر الآسيوي الإفريقي الأول الذي عرف بمؤتمر باندونق منه بدأت الإنطلاقة لتحسس الدرب والإعداد للتمهيد لبناء خدمة دبلوماسية خاصة للسودان:-

في فبراير 1955م تسلم مكتبنا (الشؤون الخاصة) عن طريق السراي دعوة رسمية من السكرتارية المشتركة للدول الآسيوية الخمس وهي (أندونيسيا/ الهند/ بورما/ سيلان/ باكستان) التي تبنت فكرة المؤتمر والدعوة له ووجهتها إلى السودان للإشتراك في المؤتمر الآسيوي الإفريقي الأول في باندونق.

ولابد لي وأنا أسطر هاته المذكرات من وقفة عند هذا المؤتمر باندونق العظيم لا لأنه كان أول مؤتمر دولي يشترك فيه السودان عضواً رسمياً فحسب، ولا لما تمخض عنه في المحيط الدولي والعالمي ببروز فكرة كتلة عدم الإنحياز، ولكن لما حدث فيه مما كان له مسيس الصلة بمستقبل السودان السياسي وتحديد مساره من جهة ومن البدء في التفكير في قيام وزارة خارجية المستقبل لنا

والإعداد لها. فقد كان المؤتمر بحق نقطة تحول كبرى في تحديد مسارنا والإعلان عن توجهنا السياسي.

كما كان لنا دور أصيل وفعال.. ولا فخر.. في وكالة الشؤون الخاصة، أو كان لي على وجه التحديد، ذلك لأن زميلي وصديقي الدكتور عقيل كان قد إستقال وترك الوظيفة قبل سفرنا إلى باندونق فكنت من يومها وفرض عليّ قدري أن أكون في واقع الأمر وعلى حد تعبير البيروقراطية "وكيلاً أعمل منفرداً لوكالة الشؤون بالإنابة" لا نائب وكيل لها – وظللت مسؤولاً عن تصريفها وتسييرها إلى يوم إعلان الإستقلال وما بعده.

كان كل ما يجري حولنا حافزاً ودافعاً قوياً للتشمير وللإنطلاق بجدية للتهيئة وللإعداد وللتحضير وللتمهيد لمتطلبات ومستلزمات التحرر وللبدء في العمل لإيجاد نواة للتمثيل الخارجي كأمر واقع وكهدف لمصيرنا المؤمل الذي أعلناه على رؤوس الإشهاد في خطابنا الرسمي على لسان رئيس وفد السودان لذلك المؤتمر (الرئيس السيد/ إسماعيل الأزهري) المتمثل في الإستقلال، والذي سأورد نصه كاملاً (أو ترجمة له) في هاته المذكرات.

وقبل أن أستطرد ولأخوض في التفاصيل التي سوف أتعرض لها بعد قليل لابد من ذكر شئ عن مؤتمر باندونق وعن أهدافه وعن إشتراكنا فيه وعن نشاطاته وعما حققه لآسيا ولأفريقيا من دور على مسرح الحياة السياسية والدولية ومن أجل السلام العالمي وقضايا الشعوب المستضعفة المستعمرة المستقلة وخير البشرية جمعاء..

تمثلت أهداف المؤتمر وأغراضه في أربع نقاط ترجمتها هي:-

1) إشاعة حسن النية والقصد الحسن والتعاون والتفاهم بين شعوب آسيا وإفريقيا والتعمق للوصول إلى ما يطور ويرقي مصالحهم المشتركة ويوسع ويمتن علاقات الصداقة والجوار بينهما.

2) النظر في القضايا والمشكلات الإجتماعية والإقتصادية والثقافية وفي العلاقات السائدة بين الأقطار الممثلة والمشتركة فيه.

3) النظر في القضايا التي للشعوب الآسيوية والإفريقية بها إهتمام خاص مثل المسائل المتعلقة بالسيادة الوطنية وبالعنصرية وبالإستعمار.

4) النظر في موقع آسيا وأفريقيا وشعوبها من دنيا اليوم وما يمكن أن يسهموا به في مجالات خدمة وتقدم السلم والتعاون العالمي.

خرجت الفكرة لإنعقاد المؤتمر إلى النور كما سبق أن أومأت عن سكرتارية صغيرة مشتركة تكونت من الدول الخمس بعد إجتماعها في كولومبو بسيلان أولاً ثم في جاكارتا ثانياً – ووجهت الدعوة لها إلى ثلاثين قطراً آسيوياً وإفريقياً حددوها وتوخوا فيها أن تكون شاملة لكافة أقطار القارتين الكبيرتين التي تتمتع بالسيادة الكاملة وأفسحوا صدورهم الكبيرة لغير هاته إلى قلة من الأقطار التي شارفت بلوغ تلكم الغاية العظيمة السامية فكان من حسن حظ السودان السعيد أن شملته الدعوة الكريمة التي أتت إليه رأساً في صورة كتاب مشفوعة بمذكرة ضافية عن أهداف المؤتمر وأغراضه ومراميه معربة عن أملها في إلحاح لأن تستجاب الدعوة وراجية أن يترأس وفد السودان رئيس وزرائه.

صادقت الدولتان المتعاقدتان (مصر وبريطانيا) وفي غبطة ونشوة وجزل وإمتنان أبرق السودان إفادة قبول الدعوة شاكراً. وافقت عليها دولتا الحكم الثنائي وتم إشتراك السودان في ذلك المؤتمر بأول وفد رسمي خارجي ترأسه الزعيم الأزهري (وشمل في عضويته السادة الوزراء/ مبارك زروق وحسن عوض الله ووكيل الشؤون الخاصة بالإنابة خليفة عباس العبيد عضواً وسكرتيراً للوفد. كما مثل الصحافة السودانية فيه أبو الصحف أحمد يوسف هاشم الذي أصدر عنه عدداً خاصاً بعد عودته (تضمن مقالاً طويلاً سطرته بقلمي) والأستاذ/ علي حامد. ومن المرافقين السادة/ محمد ميرغني كضابط أمن للرئيس وأحمد حسين الرفاعي سكرتيراً خاصاً له وكمال محمد إبراهيم مصوراً من الإعلام.

تزودنا إلى ذلك المؤتمر بالقليل النادر والنذر اليسير من كتيبات "تقويم السودان" وبعض الأفلام السينمائية وأشرطة التسجيل والملصقات والصور لتعيننا كوسائل تعريف خدمت غرضها على ما كان بها من قصور... ولما كنا وقتها لم نصبح دولة مستقلة لنحمل علمنا فقد أثلج صدورنا وملأنا زهواً وإعتزازاً وفخراً أن نشهد ولأول مرة رايةً ترفع عاليةً على السارية بين أعلام دول المؤتمر التسعة والعشرين، رأيةً بيضاء نقيةً من غير سوء وقد خط عليها بحروف كبيرة زاهية إسم السودان يتوسطها بلون أحمر قان ترفرف فوق رؤوس الجميع...

وبعد إكمال مكتبنا للإجراءات والإستعدادات طار وفدنا إلى عدن وإستأنف سفره منها عبر الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية وتايلاند ليصل إلى سنغافورة في صحوة السبت السابع عشر من أبريل1955م ومنها إلى جاكارتا (بتافيا قديماً) عاصمة أندونيسيا فإلى باندونق مقر إنعقاد المؤتمر التي كانت بحق وكما وصفها نهرو في طوال أسبوع المؤتمر عاصمة آسيا وإفريقيا كلها.

وما أريد أن أمضي في الوصف فقد كتبت عن ذلك مقالاً طويلاً نشرته صحيفة السودان الجديد في وقتها برمته في العدد الخاص الذي أصدرته عن باندونق ومؤتمرها العظيم.

وعلى الرغم مما أوردته الصحف وتناقلته وكالات الأنباء من قيام حركة مناوئة محلية من قبل جماعة "دار السلام" قبيل وصولنا، تجلت لنا آثارها في تلكم الحراسة الهادئة التي إسترعت أنظارنا من جاكارتا حتى باندونق، فقد كان الأهلون جميعهم قد بدوا لنا في وداعة الحمل وفي طهارة الوليد يحيون ويهتفون ولا تنبض قلوبهم العامرة إلا بالحب ولا تعكس وجوههم الناضرة سوى البسمات الوادعة المشرقة ولا يقبضون في أيديهم الناعمة الغضة إلا على أفواف الورود ونضيد الزهر وقد إصطفوا على جنبات الطريق أميالاً طوالاً يلوحون ويهللون ويصفقون للوفود وهي تتهادى في مواكب التجلة والإعزاز ينحنون لها كما تميد الأغصان، يتفرسون الوجوه المختلفة الألوان ويتملون السحن المتباينة الأشكال،

تلا وفدت إلى بلدهم الجميل لتقيم فيه أول مؤتمر شرقي عالمي: وهم على كذ هم المتراصة وصفوفهم الغاصة وإختلاف أعمارهم لا يتدافعون ولا يندفعون ولا يتزاحمون ولا يزحمون وإنما هم وقوف خُشَّع في هدوء شامل ونظام بديع كان بحق يعكس سمة أصيلة وسجية أصيلة غريزية فيهم وطابعاً لخلقهم الدمث ومعلماً للفهم الفطري المطبوع وبإنسانيتهم المثلى تلك التي تكاد من فرط رقتها أن تقطر أو تسيل...

ولقد شرقت بدمعة الفرح أو كدت عندما جاءنا رتل السيارات الفارهة الذي خصص لوفدنا على مقدمة كل منها علم كتب عليه إسم السودان.. وعندما رأينا مطار باندونق، وفي الفندق المختص لنا وفوق بناية المؤتمر وعلى طول الطريق، العلم الذي تخيرته وإبتكرته لنا سكرتارية المؤتمر يرفرف تياهاً من بين أعلام الدول وإن لم تزنه صورة مدلاة وإن لم يميزه رمز.. فقد كانت حروف إسمه المجردة الحمراء تتوهج فوق بياضه الناصع القشيب تشع متألقة كأنها قد خطت أو حيكت من نور...

ولعل الكثيرين لا يعلمون أو لا يذكرون في غمرة الأحداث المتلاحقة اللاهثة آنذاك ما تضمنه وأفصح عنه جهده وبكل وضوح خطاب السودان الرسمي في ذلك المؤتمر الذي أعلن فيه الأزهري بكل الصراحة والوضوح وبصوت شجاع قوي جسور على أسماع المؤتمرين وعلى العالم أجمع من خلال ذلك الحفل الدولي، ونحن ما نزال في فترة الحكم الذاتي وحكومتنا هي حكومة الحزب الوطني الإتحادي، إن السودان يهدف إلى نيل الحرية الكاملة وإلى الإستقلال التام مما كان له صدى ووقع وأي صدى وأي وقع أحدث دوياً هائلاً في داخل القاعة وخارجها وتعداها ليعم الآفاق - وقد كان لذلك الحدث وذلك الخطاب إنعكاسات وقتية وردود فعل آنية واضحة، بل ومذهلة علينا في علاقاتنا بوفد مصر في ذلك المؤتمر بوجه خاص مما لا أرى بداً من التعرض له ولمقدماته ولبعض ظروفه وملابساته أدناه.

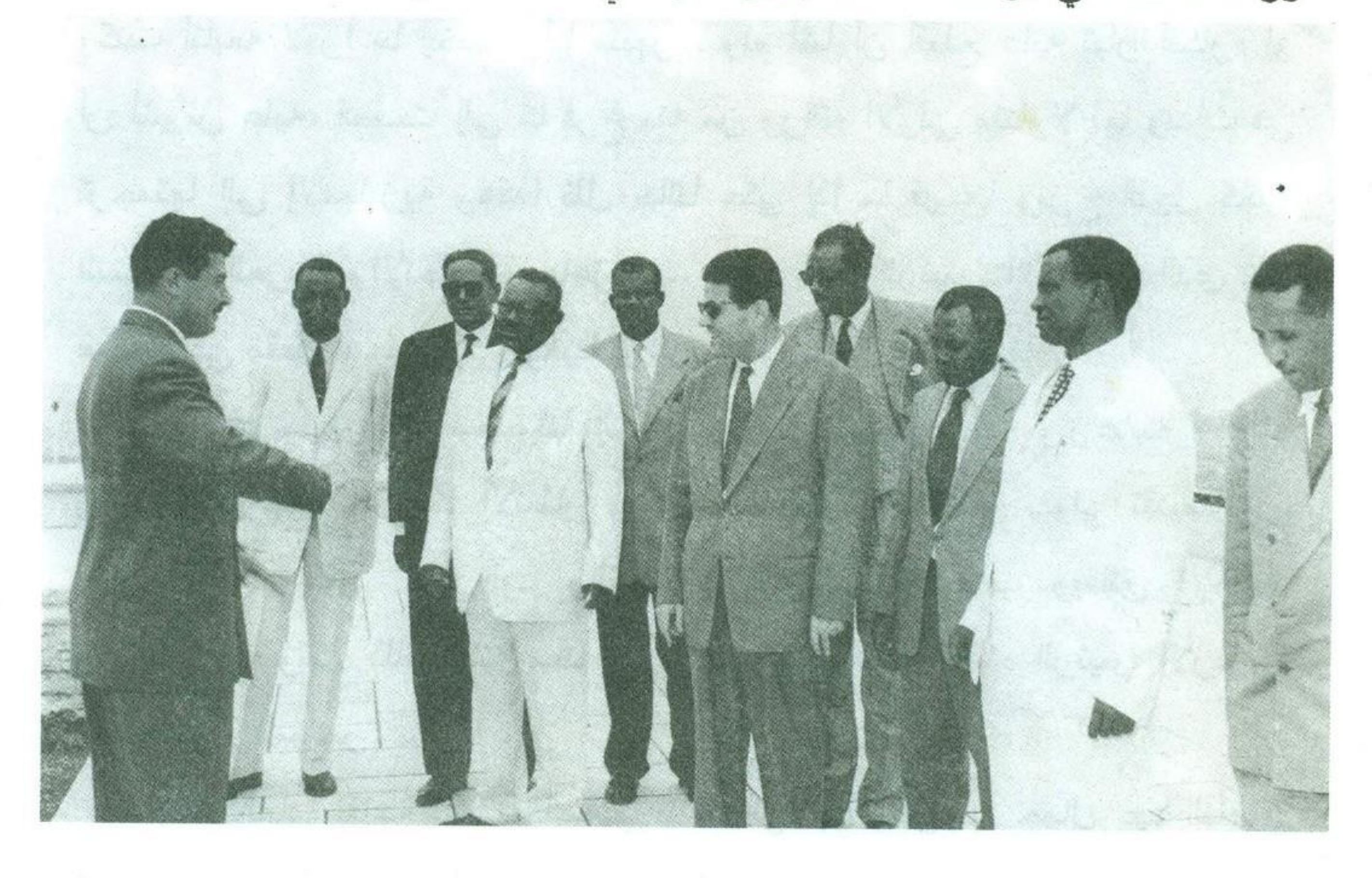
ولأمهد لذلك فما أزال أذكر مقدار ما كان يساورني شخصياً من قلق ومن خوف (خصوصاً لأني وبالإضافة إلى عضويتي في ذلك الوفد كانت مناطة بي مهام السكرتارية له) على أن خطابنا الذي كان يتوجب علينا أن نقدمه يوم وصولنا إلى السكرتارية العامة في باندونق لم يكن قد أعد أو حددت خطوطه حتى صباح مبارحتنا الخرطوم. وأذكر أنني ظللت أستحث الأخ مبارك زروق طول الرحلة لإعداده: وأذكر أنه لم يستجب إلا بعد أن أقلعت بنا الطائرة التي إمتطيناها لنواصل بها سفرنا من مطار عدن في هزيع من الليلة التالية حينما شرعنا معاً (وكنا نجلس على مقعدين متجاورين مريحين بالدرجة الأولى) في إعداد ذلك الخطاب الذي كنت أحسب أنه سيكون مجرد مسودة نناقشها ونقرها كوفد، ولكن جرى قلم مبارك يسبق أفكاري فيسيل بسلاسة ونصاعة وقوة وإندفاع وإبداع ودون توقف لجريانه ولا إنقطاع.. كأنما كان يملى عليه فيكتب: وكنت أتابعه لأقرأ ما يخطه وأنا منبهر.. ولم أشأ أن أقطع عليه تيار أفكاره أو أن أشوّش عليه، فعمدت إلى ما فرغ منه من ورقته الأولى متناولاً لها وبدأت في ترجمتها إلى الإنجليزية وهكذا ظل حالنا حتى إذا ما فرغنا وبزغ الفجر كانت النسختان العربية والإنجليزية جاهزتين.. وهب إلينا الرئيس الأزهري الذي ظل صاحياً في مقعده وجلس إلى جانبنا فرأى وقرأ وبارك ما أنجزناه.

كان وفد مصر منذ وصولنا إلى باندونق يحوطنا بعطفه وبرعايته وبلطفه وبمحبته لدرجة إسترعت الأنظار وبلغت حد التدليل.. وكان يتولى تقديمنا إلى سائر الوفود بكثير من الود والتجلة والإطراء والإعجاب وبفائق الإهتمام والإحترام – وظل ذلك شأنه معنا حتى اليوم الذي حدد لإلقاء الرئيس الأزهري خطابه أمام المؤتمر.

دخلنا كالعادة لقاعة تلك الجلسة ووفد مصر، بل والرئيس جمال عبد الناصر كعادته معنا جزل سعيد مفتر الثغر طلق المحيا عريض البسمات يهش لنا ويبش.. ولكن.. ما إن ألقى الرئيس الأزهري الخطاب الذي نال كل الإعجاب

وقوبل بدوي من التصفيق تجاوبت أصداؤه خارج جدران القاعة. وما إن تجاوزت خطانا عتبات القاعة بعد إلقائه إلا وقد إنقلبت تلك البسمات تقطيباً والإنشراح عبوساً وإكفهراراً والتقارب والتودد نفوراً وإعراضاً؟

وقد حزَّ في نفوسنا كثيراً ذلك التغيير والتبدل الفجائي وآلمنا أن غدونا عندهم في عداد المغضوب عليهم بعد الرضى.. وبحسبي أن أسوق على ذلك شاهداً أن وفدنا الذي شملته دعوات حفلات إستقبال جميع الوفود التي كانت تقيمها كان هو الوفد الوحيد الذي أستثني فلم يدع إلى حفل الوفد المصري الذي أقامه هناك.. فيما أذكر. ولا أريد أن أتمادى فأسرد ما حدث لنا ونحن في طريق عودتنا.. ولا عند توقفنا في كراتشي داخل مسجدها الجامع وما واجهنا فيه، ولا عند توقفنا العامد في بيروت، ولا عند وصولنا إلى القاهرة وحتى ساعة مغادرتنا لها وربما ورد ذلك كله في موضعه عندما يحين ذكره في هاته المذكرات.



وفدنا لباندونق في طريق العودة - بيروت

أما عن مجريات مؤتمر باندونق ذاته والدور الذي لعبه السودان في إجتماعاته وفي لجانه فيكفي ما إشتملت عليه وثائق المؤتمر والتقارير التي دبجناها عنه وبحسب الناس منها ما حواه عدد صحيفة السودان الجديد الذي أصدره أبو الصحف وعضو الوفد المرافق الأستاذ/ أحمد يوسف هاشم عدداً خاصاً به وشاملاً ووافياً وكافياً فليرجع إليه من شاء الإستزادة.

وكذلك لن أورد قرارات ذلك المؤتمر العظيم الهام وتوصياته هنا، والتي يمكن لمن أراد الرجوع إليها أن يجدها في بيانه الختامي، الذي أصدره عن دورته من الثامن عشر من أبريل وإنتهت اليوم الرابع والعشرين منه، وإن كنت لا أرى بأساً من أن أسجل تلخيصاً مقتضباً لذلك البيان.

إشتمل البيان على إثنتي عشرة قراراً وتوصية حول التعاون الإقتصادي، وستة عشر عن التعاون الثقافي، وبندان رئيسيان طويلان حول حقوق الإنسان وتقرير المصير، وسبعة بنود عن مشاكل الشعوب التي ترزح تحت نير الإستعمار، وثلاثة بنود عن المسائل الأخرى، وسبعة فقرات عن العمل من أجل تقدم السلم والتعاون، وأختتم البيان بإعلان لتحقيق السلم والتعاون العالمي إشتمل على عشرة بنود.

♦ البدء في تجميع المعلومات:-

بدأت في باندونق الإتصالات وأجريت أولى المحاولات للتعرف على أسس ونظم الخدمة الخارجية في دولة أندونيسيا وما قامت عليه من قواعد ووضعته لها من قوانين وشروط حملتها معي وغادرناها لنتوقف مع الرئيس الأزهري ونحن في طريق عودتنا لدولتي الهند وباكستان تلبية لدعوتين رسميتين منها للرئيس صحبناه فيها، كان همي أن أحصل على أكبر قدر من المعلومات عن قيام الخدمة الخارجية في كل من هذين البلدين وإنشاء تمثيلهما الدبلوماسي.

وبدأنا بالباكستان من محطة هبوطنا الأولى كلكتا وقمنا بزيارات واسعة لكل ما جاورها. وفي لاهور حدث حادث طريف – ومعبر – لا أرى حرجاً من تسجيله: فقد أعدت لنا السلطات المحلية زيارات للمعالم وللمصانع وللسكة الحديد ولراولبندي كانت مرهقة فعلاً، ونحن في رمضان، ولقد إضطرتني وعكة لأن أتخلف عن مصاحبة الوفد في زيارته يوماً قضيته بالفندق الذي كنا نقيم فيه للضيافة أن وجدت به صحفية أمريكية شابة كانت تقيم هي الأخرى فيه أثناء زيارتنا تبادلنا فيها الحديث، وأذكر أنها ونحن نجلس معاً في ردهة الفندق تظللنا شجرة عظيمة ظليلة وهي تطبع على الآلة الكاتبة رسالة، أخبرتني بأنها تعدها لتبعث بها إلى صحيفتها عن باكستان. وجهت لي سؤالاً عن رأيي في باكستان والباكستانيين كما رأيتهم – وكان من الطبيعي أن تكون إجابتي بما هو معهود في الخلق السوداني من سماحة ومدح وإشادة يوحيها الطبع والعادة وتقتضيها اللباقة ومراعاة إستضافتهم لنا في ذلك الوقت فأطريتهم ووصفتهم بكل جميل: فإبتسمت وقد توقفت عن الطباعة وعادت تسألني وماذا لاحظت عن صفاتهم وسلوكهم ومعاملتهم وعن مصداقيتهم وصدقهم على وجه التحديد؟ فأجبت بأنني لم ألاحظ شيئاً غريباً أو غير عادي وأنهم مثل غيرهم من الناس لا أرى شذوذاً أو ظاهرة خاصة تسترعي النظر. فأرسلت ضحكة عالية كأنها تستخف أو تهزأ أوتسخر بها مما أجبتها به وقالت "ألا ترى أنه شعب أكثر ما يميزه النفاق أنه منافق محتال يظهر ما لا يبطن؟" قلت لم أشعر بذلك ولم يحدث ما يصح أن يخلف في نفسي مثل ذلك الإنطباع فألقت نظرها إلى الصفحة التي كانت تطبعها وقالت لي: إذن أسمع ما كتبته عنهم في هذا الحديث الذي أقوم الآن بطباعته والذي ورد فيه قولها عنهم ما معناه (الباكستاني صورة طبق الأصل لفيله. لديه طقمان من الأسنان، أحدهما قذر يخفيه داخل فمه وخرطومه والآخر ينظفه ويجلوه مبرزاً له من الخارج ليراه الآخرون...) وفهمت أو أفهمتني أن ما خطته هو حقيقة لما تأصل فيهم من مزاءاة ومن نفاق.

أذكر هاته القصة وما أريد أن أعلق عليها لإعتقادي بأنها جائرة وظالمة في تعميمها، ولكن حدث آخر وقع لنا في نفس زيارتنا تلك عندما وصلنا إلى كراتشي في معية الرئيس الأزهري في زيارته الرسمية والتي أستقبل فيها إستقبالاً رسمياً كان من بين كبار المستقبلين فيه ميان ضياء الدين (عضو لجنة الحاكم العام الثلاثية المحايدة للسودان) وكان ذلك في شهر رمضان ورأينا أن نأخذ برخصة الإفطار بسبب السفر والقيظ الشديد والبرامج المرهقة المعدة لنا وهبطنا على أرض المطار وأشعل كل منا (مبارك وحسن عوض الله وأحمد يوسف وأنا) سيجارة نفخنا دخانها فى الهواء فهرع إلينا المسؤولون ينبهوننا برمضان. فأجبناهم بسبب إفطارنا وترخصنا وبصحة وشرعية إفطارنا. ولكنا أطفأنا سجائرنا لمَّا رأيناهم عدَّوا ذلك كبيرة!!! ودفعاً للحرج وإتقاء لئلا نؤخذ بالظنون.. ولكنا لاحظنا ونحن ننفذ البرنامج بسيل متصل من الزيارات أخذ بعضه برقاب بعض يمتد من الصباح إلى قبيل المساء ولم يصمد له إلا الرئيس الأزهري الجلد، الصبور، الذي كان يفرط في التقريظ والمدح والإشادة بكل ما يراه فيما نزوره من المعالم والمعامل بترديد عبارات الإستحسان. عظيم، عجيب. وكنا نتقاعس في تتبع التفاصيل تاركين ذلك للرئيس ليتولاه بما خصه الله به من صبر وقوة إحتمال وقدرة نادرة على المجاملات: والذي أريد أن ألفت النظر إليه هو أنهم بعد أن سلَّموا بإفطارنا للسفر أخذوا يعدون لنا في خلال تلك الزيارات أو الطواف الذي نقوم به وفي إستراحاتها بوفيهات يقدمون لنا فيها بعض المرطبات، على أن أشد ما أدهشنا أن عدداً من مرافقينا في تلك الزيارات الباكستانيين، الذين لا تفتر ألسنتهم طيلة الوقت عن كرامة رمضان وفضل رمضان ويوحون إليك بأنهم متمسكون بصيامه، يسبقوننا طيلة الوقت إلى تلك الموائد المعدة أول ما ندخل إلى تلك الإستراحات، فيعبون من كاسات الشراب (الحلال إلا في رمضان) وتمتد أيديهم إلى ما حوته من طيبات. فإذا ما نهضنا

لإستئناف تجوالنا وغادرنا المقصف تلمظت شفاههم ومسحوها لتذهب عنها آثار ما تناولوه ثم عادوا يكررون علينا تمجيد وحمد رمضان أو رمزان كما ينطقونه.

تلت زيارتنا الرسمية مع الرئيس الأزهري إلى الباكستان زيارة رسمية قصيرة أخرى للهند. وإغتنمت فرصة الزيارتيين لتجميع ما أمكننى الحصول إليه نتيجة إتصالاتي من معلومات ووثائق ومراجع حول قيام وتنظيم وزارتي خارجيتهما حملتها معي.

وفى الهند وضع البانديت الرئيس نهرو طائرته الخاصة وقطاره الخاص تحت تصرف وفدنا أكملنا بها زيارات كثيرة من دلهي إلى عدد من بلدانها الرئيسية الكبرى لنرى مصانعها ومواضعها النهضوية الأثرية شملت بومباي وإحدى عجائب الدنيا السبع (التاج محل) في بوقر .

وكطرفة لا أرى بأساً من ذكرها، كانت المداعبة القاسية التى روعت بها الأخ/ حسن عوض الله وهو رجل لا يرتاح للسفر بالطائرات عندما إتصلت به ونحن بطائرة الرئيس نهرو فى الجو، التى كانت بها عدة قمرات مخادع منفصلة للنوم والمزودة بالتلفون الذى يصل بين تقسيماتها وغرفاتها، فضغطت على الزر الخاص بغرفة نوم حسن وأمسكت بالسماعة وحشوتها بمنديلي وإنتحلت شخصية قائد الطائرة وقلدت صوته لأقول له بالإنجليزية وبلكنة الهنود ما ترجمته "هنا الكابتن يتحدث إليكم يرجو من سعادتكم الإنتباه، نحن مقدمون على مطب هوائي سحيق فأربطوا أحزمة المقعد أو السرير وتيقظوا، وإنا لنرجو أن نجتازه بسلام"... وأذكر ما أثارته تلك الخدعة والفرية من هلع حسن هرع على أثره مسرعاً إلى صالون الطائرة فإنفجرنا ضاحكين...

♦ توقف في لبنان:-

بعد إنتهاء زيارتنا لشبه القارة الهندية توقفنا فى لبنان حيث إستضافنا الوجيه الثري الأمثل أميل البستاني، صديق الرئيس الأزهري وزميله فى جامعة بيروت، بقصره المشمخر الباذخ ذي الشرفات القائم فى ناحية الرابية وساحاته وحدائقه وحوض سباحته الملون ذى الحائط البلوري الذي يشف عما فيه تحيطه الفسيفاء وتكتنفه المرايا، قضينا فى بيروت يومين إستدعينا خلالها القائم بأعمال وكالة السودان بمصر الأخ بابكر لإستجلاء حقيقة ما ترامى إلينا من توقع إستقبال عدائي غير مريح للوفد وللرئيس فى القاهرة وذلك بسبب ما أحدثه خطاب السودان فى مؤتمر باندونق..

ونصح الديب لنا بالعدول عن الذهاب إلى القاهرة وبالسفر من بيروت إلى الخرطوم مباشرة. كما أذكر رفض الرئيس الأزهري وتعنته وإصراره على أن تكون عودتنا وكما كان مقرراً لها عبر القاهرة .

ووصلنا إلى القاهرة لنجد حشداً فى مطارها فى تظاهرة صغيرة يهتف للوحدة وأصوات تستنكر وترمينا بالتنكر لها...

وتظاهر حول الفندق الذى حل به الوفد عدد من السودانيين وغيرهم وجلهم من الطلبة فخرج إليهم زروق وتحدث إليهم فى خطاب مرتجل بليغ وطني رائع جلا لهم الحقيقة ممجداً للحرية وللإستقلال ومؤكداً إلتزام السودان بالإتحاد فى كنفها وتحت ظلالها فإنقلب الوضع وإختلطت الهتافات للحرية وللإتحاد وإنفضَّت الجموع.

ولم تنعكس ردود الفعل في ذلك أو تقتصر عليه فحسب. فعند حضورنا للحفل المسائي الكبير الذى أقيم بنادي الضباط بالجزيرة تكريماً لعودة البطل المنتصر جمال والذى دعينا إليه، شهدنا ضروباً من اللافتات والدعايات ومكبرات الصوت والألعاب النارية ترسم صوراً معينة للرئيس بطل باندونق وتكتب عبارات الإشادة والتمجيد للزعيم الأوحد قطب المؤتمر وعقله وروحه

وحامل لواء التوحد بين الشعوب إلى كثير غيرها من اللمزات والهمزات.. أو هكذا شبه لنا.. والفي بطنه الحرقص.. !! ومما يجوز أن يضاف إلى ما حدث ليلة مغادرتنا القاهرة ونحن عائدون إلى أرض الوطن الخرطوم، حينما صعدنا إلى الطائرة المصرية التى تحركت بنا وهي تتأهب للإنطلاق والتي أوقفت قبل منتهى مدرج القيام لتعود قافلة بنا إلى الحظيرة بعد أن إكتشف قائدها إنفجار إطارين من عجلاتها حتة واحدة؟؟ الأمر الذي أثار قلق وشكوك بل وخوف أعضاء الوفد والذي جعلهم يتحدثون عن السفر بأية طائرة أخرى غير مصرية فيما عدا الرئيس الأزهري الذي أصر على أن لا نسافر إلا على نفس الطائرة متى تم إصلاحها أو بأية طائرة مصرية أخرى.. عناد.. وشجاعة.. وإيمان.. كانت لنا درساً..

♦ عودة إلى مكتب وكالة وزارة الشؤون الخاصة:-

عدنا إلى السودان وإستأنفت العمل بمكتب الشؤون الخاصة بمفردي.. يعينني على الناحية الكتابية الأخ/ حاج التوم وقلة من الطابعين وصغار الموظفين وساعي واحد.. وإستمر العمل يسير بإنتظام بيننا وبين السراي ومع ضباط الإتصال الأجانب الممثلين لبلادهم فى تلك المرحلة الأولية. كما كان الرئيس يكل إلى بعض الشؤون ذات الصفة الخارجية كمهام إستقبال كبار المسؤولين أو الذين يمرون عبر الخرطوم أذكر من أهمها القطب النيجيرى الكادونا الذي كانت الطائرة التي تقله وهو فى طريقه إلى الحج ستتوقف للتزود بالوقود فى مطار الخرطوم، فطلب مني الرئيس أن أستقبله نيابة عنه وأن أودعه لأبلغه تحياته وأن أبقى معه وأن أقوم بمراعاة واجب إكرامه بالمطار وأن أودعه بإسمه. وكان وصول الكادونا بعد منتصف الليل بقليل. والطريف أنه بعد أن إكتملت إجراءات الإستقبال اللائق وتقديم ما كان مناسباً من حفاوة ومن مجاملة حان موعد إقلاع الطائرة. لكن الكادونا المتمسك بشدة بدينه إستدعى قائد الطائرة وقال له في حزم

وجدية إننا لن نغادر قبل أن نؤدي صلاة الفجر أولاً هنا على الأرض.. وكان بيننا وبين حلول موعد الصلاة أكثر من ثلاث ساعات. ولم يجد طاقم الطائرة بداً من أن يخضع وأن يسلم أمام تشدد الكادونا وإصراره. وأمرت بفرش بساط طويل أمام قاعة الإنتظار على أرض المطار، كون مرافقوه صفين كاملين صليت معهم فيه وأمنا الكادونا الذي أذكر أنه بعد أن فرغ من الصلاة وحملني تحاياه وشكره للرئيس صاح بكابتن الطائرة قائلاً له بالإنجليزية الرصينة "الآن وبعد أن رفعنا صلواتنا إلى سماوات ربنا العلية العليا تعال لترقى بنا إلى سماواتك الدنيا".

♣ فترة التدريب بالخارجية البريطانية بلندن:-

في أواخر أغسطس 1955 تم إيفادي للإشتراك في فترة تدريب الدبلوماسيين البريطانيين الجدد التي تعدها وتشرف عليها وزارة الخارجية البريطانية في لندن لأحضرها بصفة مراقب ومستمع نسبة للوضع الخاص والوظيفة التي كنت أشغلها كنائب وكيل وزارة.

إستمرت الفترة الدراسية والتعريفية لنحو ستة أسابيع إستمعنا فيها لأكثر من أربعين محاضرة وقمنا بزيارات لمختلف دواوين الوزارة وأقسامها والمؤسسات التي لها بها صلة (آمل أن تكون تفصيلاتها كلها وأصول بعضها ونسخة للبرنامج بأكمله موجودة بالملف الجامع الذي خلفته مع أضابير وملفات التمهيد والإنشاء والتكوين بالوزارة. ولا أرى بأساً من إيراد برنامج تلك الفترة الدراسية التدريبية الذي ما أزال أحتفظ به مع وثائق تلك الفترة ولأهميتها في نظري كالوثيقة الأساسية الأولى التي أعدت لقيام الخدمة الخارجية السودانية ولإنشاء وزارة الخارجية أوردها بنصها وفصها كملحق مع هاته المذكرات.

مددت إقامتي بعد إنتهاء فترة التدريب وأجريت إتصالات شخصية وكتابية عديدة مع عدد كبير من سفراء ورؤساء البعثات الدبلوماسية العربية والأجنبية

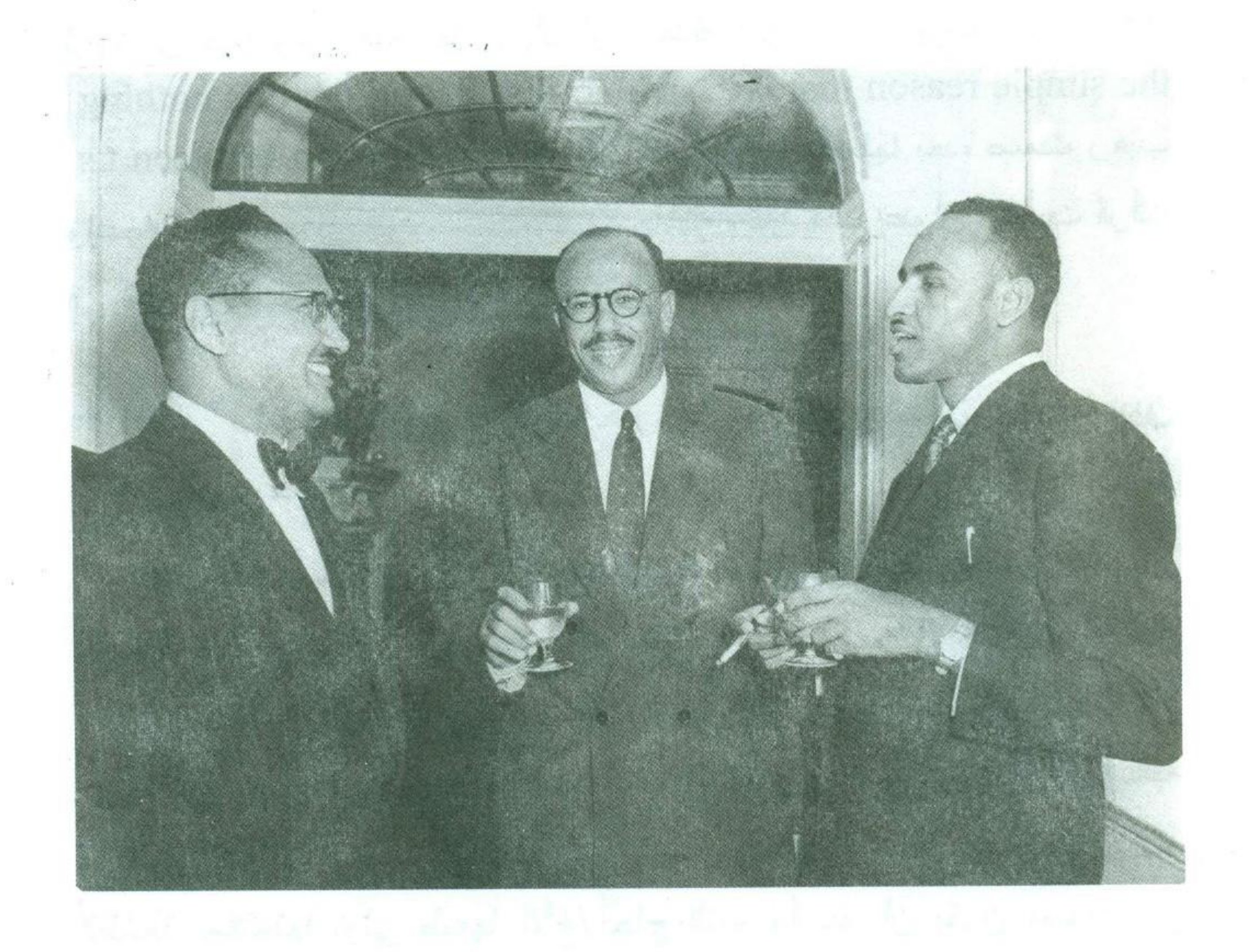
الشرقية والشرق أوسطية والغربية بوجه خاص المعتمدة في لندن متعرفاً على نظمهم ومتزوداً بكل ما أمكنني الحصول منهم عليه من قوانين ومراجع ولوائح لأنظمة خدمتهم الخارجية. ولعل صورة الخطاب الذي حررته لبعض البعثات الأجنبية آنذاك والذي أورد صوره كما هو يكون أنموذجاً لتوضيح المقصود والمراد من ذلك الجانب من النشاط في السودان ثم قضيت بعد ذلك فترة قصيرة تفقدت فيها مكتب وكالة حكومة السودان في لندن. عكفت فيها على دراسة كل ما يقوم به أقسامه ومكاتبه وما يجري فيه وفي الذهن كيفية تطويره والإرتقاء به إلى ممثلية دبلوماسية وسفارة (عند الإستقلال).

وقد كرمتنا الوكالة آنذاك برئاسة صديقنا الدكتور/ علي أورو بلفتتها البارعة وأقامت حفل إستقبال كبير دعت إليه كبار من تولوا الإشراف على إنجاح مهمتنا وإكرام وفادتنا من رئاسة وزارة الخارجية وشركات المال والأعمال التي لها صلات بالسودان وبالبنوك وبالمجلس البريطاني وبالإذاعة البريطانية وكبار رجال الخدمة المدنية الذين عملوا رؤساء لها في السودان وبالبعثات الدبلوماسية العربية والأجنبية وبالصحافة



مع مستر هينكر ميجر الذي أشرف على فترة تدريبي بالخارجية البريطانية

والذي رفع إلى مرتبة (سير) عندما تزاملنا سفيرين لبلدينا لدى بلاط المملكة الهاشمية في عمان



في حفل السفارة التكريمي بلندن لي ولعباس فضل

والتي لا يحفزني على إيراد ذكر لها سوى ذلك الرد البليغ الألمعي الذكي الذي أجاب به الأخ/ محمد أحمد محجوب، والذي دعي إلى ذلك الحفل، مما يشهد في رده على أحد الصحفيين والذي يدل على حضور ذهن المحجوب وسرعة البديهة، وذلك عندما توجه إليه وسط حلقة كبيرة بين الحاضرين إلتفت حوله بهذا السؤال.. "لماذا توجد هناك طائفة من السودانيين تنادي بالإستقلال وفئة أخرى تنادي بالإتحاد وثالثة تنادي بالوحدة مع مصر وليست هناك جهة تفكر في أن تنتمي إلى رابطة الشعوب البريطانية...؟ " فكانت إجابته ذلك الرد البليغ الفوري من المحجوب وهو قوله.. "أن ذلك لسبب بسيط هو أنه ليست لدينا

ثروة من جهة ومن جهة أخرى لأنه ليس هناك شئ مشترك يربط بيننا.." for the simple reason that we have no wealth and there is nothing common between us. الجواب الذي لف القاعة بأكملها بعده صمت رهيب وإعجاب إرتسم على الوجوه لبلاغته وصياغته وكان ذلك عنوان مانشيت قرأناه في أكثر من صحيفة في اليوم التالي.

• إعداد مشروع لقيام وزارة خارجية وسلك وتمثيل دبلوماسيين للسودان:-

عكفت بعد عودتي مباشرة من بريطانيا وقد تجمع لدي الكثير جداً من مصادر الأسس والآراء وقوانين ونظم ولوائح وهياكل عدد كبير من الأقطار خاصة تلك التي كانت تشبه أوضاعنا والتي إستقلت حديثاً (إلى جانب مسؤولياتي الأخرى) على إعداد مسودة مشروع متكامل ومفصل لقيام وزارة الخارجية السودانية للرئاسة وللبعثات وأتممت ذلك في شبه كتيب من خمسة وعشرين صفحة بالآلة الطابعة بملاحقها تولى طبعها الأخ/ حاج التوم وأرجو أن يكون موجوداً في أرشيف الوزارة، إشتمل على مذكرة توضيحية وتفسيرية وعلى سبعة فصول عالجت كل الموضوع من جميع جهاته بكل تفصيل عن مهمة الوزارة وإختصاصاتها، وأحكاماً ولوائح عامة ومقترحات التكوين والتشكيل والإختيار والتعيين والتدريب ووظائف الخدمة الخارجية وإختصاصاتها ومستوياتها ومخصصاتها ثم مسودة للبداية المقترحة والتوصيات لتكوين الجهاز في الديوان العام وفي البعثات مع هيكل مفصل للميزانية الأولية المقترحة. ولأهميتها في نظري كالوثيقة الأساسية الأولى التي إعتمدت لقيام الخدمة الخارجية السودانية ولإنشاء وزارة الخارجية حرصت على أن أوردها بنصها وفصها كملحق مع هاته المذكرات من نسختي (غير الكاملة) التي ما أزال أحتفظ بها بين أوراقي.

تقدمت بمسودة المشروع الذي أكملت إعداده لإنشاء الوزارة وتكوينها عند الإستقلال إلى السيد رئيس مجلس الوزراء في نوفمبر 1955 وتولى مراجعة ومناقشة بعض تفصيلاته معي الأخ/ مبارك زروق مما تمخض عنه إجازة المشروع برمته دون أي إضافة أو تعديل.

وتتلخص التوصيات في إختيار أول فوج من السفراء لشغل السفارات التي لابد من ملئها من بين كبار رؤساء الخدمة المدنية العاملين عن طريق التعيين على أن لا يتكرر ذلك بعد الدفعة الأولى. كذلك بأن يراعى في وظائف السلك الأخرى الشروط الأساسية للجنسية والمواطنة والسيرة والخبرة والسلوك والثقافة العامة ومستلزمات التمثيل اللازمة للوزراء المفوضين والمستشارين وأن يتم تعيينهم عن طريق لجان إختيار، أما السكرتاريون الثوالث والملحقون فلابد من الإصرار على إجتياز إمتحان مسبق يعقد لإختيار ناشئة السلك وإشتراط حصولهم وإكمالهم التعليم الجامعي بنجاح.

ولأهمية هاته المذكرة عن المشروع فقد ألحقتها برمتها كاملة كأولى الملاحق في نهاية هذا الكتاب.

♦ الإستقلال ونشأة الخارجية:-

عندما أعرب البرلمان بمجلسيه عن رغبته في إنهاء مرحلة الحكم الذاتي للبلاد في ديسمبر 1955 توطئة لإعلان الإستقلال، دعاني المستر لوس للتحول إلى السراي للبدء في إستلام مكاتبه والخزائن السرية وجميع الملفات السياسية والخاصة بالشؤون الخارجية. وبالأحرى ما تبقى أو شاء أن يبقيه لنا هو منها، أو ما أبقت عليه النيران التي ظلت تندلع ألسنتها متأججة طيلة يومين كاملين بلياليها ونحن نشاهدها من الركن الشمالي الغربي داخل سور القصر، فإلتهمت العدد العديد منها مما تولوا إعدامه عنوة وإحراقه كي لا يطلع عليه أحد..

في أواخر ديسمبر 1955 وبتوجيه من الأخ مبارك زروق قمت بإعداد مسودة أول موازنة تقديرية وضعتها قمت بمناقشتها مع الأخ/ حمزة ميرغني الوكيل الدائم لوزارة المالية آنذاك وإتفقنا على الهياكل الإدارية للديوان العام وللبعثات وعلى عدد الوظائف المقترحة لكليهما كبداية، ومخصصاتها ومستلزمات البعثات في الفصلين الثاني والثالث وفق المشروع الذي تقدمت به والذي أجازه مجلس الوزراء كما سبق أن ذكرت.

ويوم مغادرة من تبقى من شاغلي السراي الإنجليز إنتقلنا إلى القصر وشغلنا مكاتب الجناح الأرضي الشرقي بأكمله (مبارك زروق وأنا) وبعض الكتبة والطابعين والمحاسب - وحملنا معنا جميع الملفات وأوراق مكتب الشؤون الخاصة (التي زاوجناها) وواءمنا بينها وبين نظيراتها مما وجدناه من ملفات سراي الحاكم العام توحيداً وإعادة تنظيم لها وأجرينا تعديلات على الشفرة التي كانت مستعملة وإستعنت بالأخ زروق في إقناع الرئيس الأزهري للتخلي لنا عن الرجل الكفء الثقة المؤهل السيد/ عبد الله وقيع الله مدير مكتبه بالداخلية ليكون أول مدير لمكتبنا وليتولى الإشراف على الشؤون الكتابية وتسجيل الملفات والشفرة كما إستعنا بالأخ/ عمر عبد الحميد عديل لإستلام عُهد وأثاثات السراي.

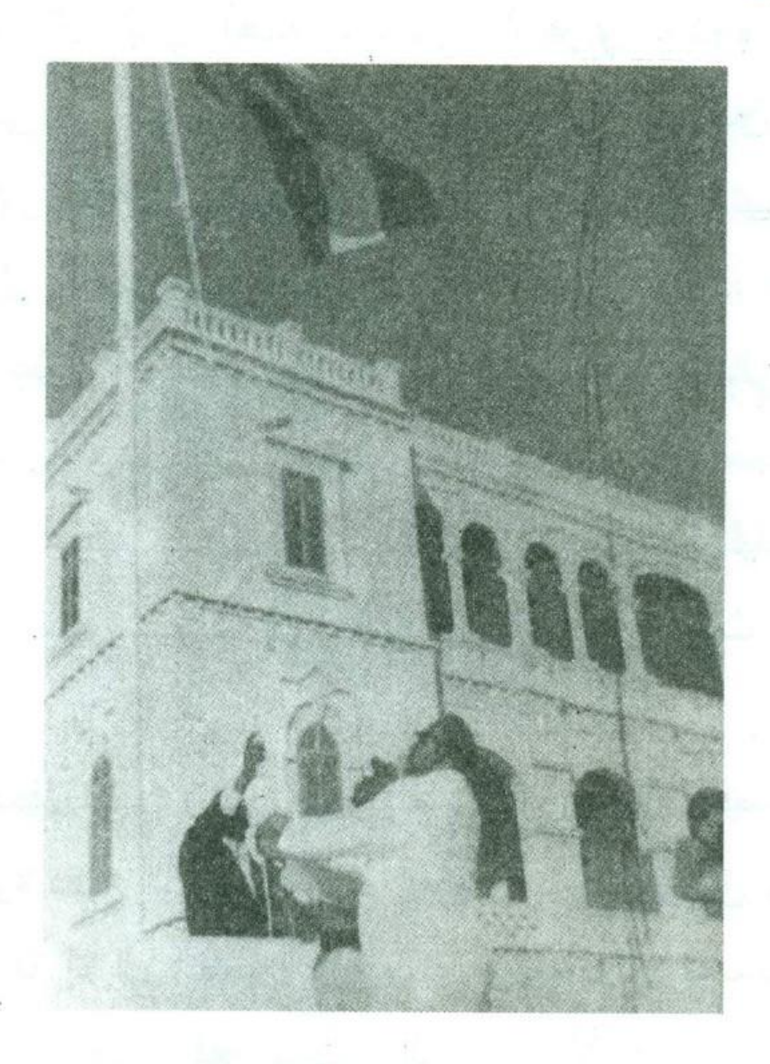
أخذنا بعد ذلك نعد العدة لما سوف يتطلبه الإستقلال الذي بات وشيكاً بل ومحققاً من تصميم علم وشعار ووضع سلام وطني إلى غير ذلك، وإني لأذكر بوضوح تام كيف تم حسمها بما قام به مبارك زروق (بعد أن تعددت المقترحات لشكل العلم في المسابقة التي لم تصل اللجنة إلى إتفاق عليها) من طرحه لكل ما تقدم جانباً عندما داهمنا ضيق الوقت فخطط العلم الثلاثي الألوان الأزرق والأصفر والأخضر (الماء والصحراء والخضرة) وظفرنا بإقرار تصميمه وبمباركة الرئيس له وحددنا أبعاده طولاً وعرضاً.. جاء بعد ذلك دور شعار الدولة ولم يتردد مبارك في قبول وإعتماد ما إقترحته عليه بعد عفوياً وبإستعجال لإختيار وحيد القرن الأبيض - الكركدن - ليكون الشعار (لقوته ولما إشتهر به

من صمود وكذلك لندرته) تلا ذلك التفصيلات الكثيرة والمستلزمات العاجلة كالنشيد القومي. وفيما يختص منها بشؤون وزارتنا فقد قمت بإقتراحات أن يكون عنواننا التلغرافي هو "خارجية" بالإنجليزية والعربية وأن يكون عنوان بعثاتنا في الخارج هو "سوداني" الذي إقترحته بدلاً عن "كركدن" الذي أصر عليه البعض ولكن تم إعتماد ذلك وما يزال معمولاً به حتى الآن.

جاء يوم الإستقلال الذي أعلنه الرئيس الأزهري بتلاوة خطاب إعتراف دولتي الحكم الثنائي في الجلسة الصباحية التي عقدها البرلمان بمجلسيه صباح اليوم الأول من يناير 1956 برئاسة الأخ/ بابكر عوض الله رئيس مجلس النواب وأعقب ذلك مثول أعضاء مجلس السيادة الخمسة (عبد الفتاح المغربي، والدرديري محمد عثمان، وأحمد محمد يس، وأحمد محمد صالح، وسرسيوايرو) أمام ممثلي الشعب وأداؤهم اليمين الدستورية على يد رئيس مجلس النواب الذي ألقى كلمة قصيرة.. بعدها تحرك ذلك الموكب المهيب كله ليدخل السراي من مدخلها الرئيسي، تدفق بعده إلى الميدان الجنوبي حيث أعدت المقاعد المخصصة.

وعند إنتظام الحفل ألقى رئيس الوزراء الأزهري كلمة قصيرة عزفت عند إنتهائها موسيقى قوة دفاع السودان "سلام العلم" وبديء بإطلاق مائة طلقة وطلقة مدفعية جرى أثناءها إنزال العلمين البريطاني والمصري وصعود علم السودان المستقل الذي إشترك في رفعه رئيس الوزراء الأزهري وزعيم المعارضة المحجوب.. وكنت أقف على قرب وكانت لحظة، ما أروع، وما أجل، وما أعظم، طغى فيها الشعور وفاض وتحدرت فيها الدموع من المحاجر وتهدجت في الحلوق الأنفاس وتعالت زفرات السيد/ عبد الرحمن المهدي وتهدجت عيناه بالبكاء والنحيب الخفيت الصوت وبللت مناديله التي تبللها دموع الفرح التي إنهمرت وعلت جبينه المشرق السعادة وإنطلقت تحميداته أن الحمد لله والله أكبر وله الحمد. الحمد لله سمعت ورأيت ذلك كله وأنا أقف بجانب الساريتين لأشهد

تسليم رئيس الوزراء الأزهري العلمين لكل من مندوبي الدولتين (دوذز باركر – وعبد الفتاح حسن) وإنزال العلمين اللذين كانا في الطابق الأعلى من السراي: قام بذلك ضابطان من قوة دفاع السودان بينما تولى ضابط ثالث رفع العلم السوداني ليرفرف خفاقاً بدلاً عنهما مدلاً مزهواً بالألوان الثلاثة الزاهية قشيباً ناصعاً تياهاً بالحرية يعلنها فوق السماء..



لحظة رفع العلم

وذكرت ساعتها أبيات حافظ إبراهيم في ذلك الموقف مع بعد المفارقة في قصيدته التي يقول في مطلعها:–

رويدك حتى يخفق العلمان ... وننظر ما يجري به الدثيان

وإمتعضت لقوله:

فما مصر كالسودان لقفة جائع ... ولكنها مرهونة لأوان

وتبسمت لبقية أبياته التي إنتهت بأن قارن بين يوم الخلاص ويوم حلوله مستبعداً له. وكان مبعث إبتسامتي بل وسخريتي هو صحوتنا نحن أهل إهرامات البجراوية وإتمام الجلاء عن السودان قبل من كانت تشترك في حكمه وإحتلاله "مصر" إهرامات الجيزة.. ولنكمل ما قاله حافظ إبراهيم في قصيدته ونعجب..

إذا غاضت الأمواه من كل مزبد   وخرت بروج الرجم للحدثان

وعاد زمان السمهري وربه   وحكم في الهيجاء كل يماني

هناك أذكرا يوم الجلاء ونبِّها   نياماً عليهم يندب الهرمان

بعد ذلك الحفل مباشرة، وفي نفس المساء عقدنا بمكاتبنا بالقصر (التي أصبحت النواة الأولى لوزارة خارجية السودان) أول إجتماع بها دعونا إليه جميع ضباط الإتصال وممثلي الدول الأجنبية وترأسه الأخ/ مبارك زروق، حضرته ولم يحضره معنا سوى الأستاذ/ يحي الفضلي وزير الإعلام وسواي، توجهنا فيه لمندوبي الدول وممثليها الحاضرين بطلب الإعترافات من حكوماتهم التي يمثلونها – عكفت بعده وفي نفس المساء مباشرة على إبراق حكومات البلاد الأخرى في مختلف بقاع العالم معلناً ومعلماً لها بإستقلالنا.

وإنهمرت منذ صبيحة اليوم التالي سيول البرقيات تحمل الإعترافات أو التهنئات من الحكومات دواليك.. وإنهمكنا في تولي إرسال الردود عليها بالشكر والتسجيل والمتابعة والملاحقة ولهيئة الأمم المتحدة. وأبرقنا وكالاتنا وقنصلياتنا في الخارج برفع العلم الجديد وبمواصفاته ومقاساته وألوانه. ثم قمنا بعدها بتقديم طلب الإنضمام للجامعة العربية ولهيئة الأمم المتحدة.

لم يمض يومان على الإستقلال حتى فوجئنا بطلب سفير مصر الجديد المرشح (محمود سيف اليزل خليفة) الذي وصل إلى البلاد مع مندوب مصر وحامل إعترافها عبد الفتاح حسن لتقديم أوراق إعتماده ليحرز بذلك السبق على الآخرين وليفوز بالعمادة للسلك.

وبسرعة فائقة بدأنا في الإعداد للإجراءات وإقتبسنا من النظم البروتوكولية ما أجمعت عليه مراجع المراسم وتوخينا تبسيطها وإختصارها ما أمكن: وتم تعيين السيد/ إبراهيم جبريل (الرجل اللطيف الأنيق الودود) للمراسم على أن يعاونه الأخ/ أحمد حسن مطر البروتوكوليست.. الذي كان قد طوف في الآفاق من قبل ورأينا صوره بالردنجوت والتوب هات في بلاد المكسيك لنفيد من خبرته ومن معرفته لبعض اللغات أيضاً (الإسبانية والفرنسية بالإضافة إلى الإنجليزية والعربية).

ولأول مرة في التاريخ شوهدت عربة الحاكم العام (الرولزرويس) تتقدمها الدراجات البخارية ويتلوها رتل من عربات السراي ويمتطيها سودانيون هم (إبراهيم جبريل ومطر وشخصي) في طريق ذهابنا لمقر السفير المصري في ناحية المقرن - والتي أستقبلت بوابل من التصفيق والهتاف من قبل الموظفين الذين خرجوا من مكاتبهم في البوستة، والتلغراف، والزراعة، والري، والمديرية، ومن الشركات، والجماهير الذين إكتظت بهم جنبات الطريق ليروا ذلك المشهد لأول مرة في حياتهم.



أول مناسبة بروتوكولية سودانية للتمهيد اتقدم أوراق اعتماد أول سفير مصري للسودان (محمود سيف اليزل خليفة) .
أخذت عند وصولنا لدار سفارته لمرافقته ، ويرى معي الأخ السيد/ إبراهيم جبريل واحمد المرتضى ياور القصر

ولعل من جميل المصادفات أن يكون عمري عندما تم إختياري سفيراً أربعين سنة هي سن الرسالة فأبهجني (تيمناً) إنها كانت كذلك.

كانت مكاتبنا التي أصبحت نواة رسمية لوزارة الخارجية وبعدد محدود لا يبلغ أصابع اليد كعبة يؤمها الجميع وخلية نحل تعج بالحركة وبالعمل الدؤوب الذي كان متصلاً لا ينقطع صباحاً وظهراً وكثيراً ما كان يمتد إلى ساعات متأخرة من الليل، بل وقد يتجاوزها حتى الفجر مما إضطررنا إلى بذل جهد في سرعة تطبيق المشروع بتكوين الهياكل الإدارية والكتابية والحسابية والأمنية وإنشاء قسم للترجمة وتركيب وسائل الإتصالات البرقية والتلكسية لمكاتبنا في القصر على قلة عددها، وأطلت علينا في الوقت ذاته مشاكل المراسم وتقديم أوراق الإعتماد والإمتيازات الدبلوماسية وغيرها مما عمدنا في بعضه إلى الإستعانة بالمصالح الحكومية والمرافق المختلفة الأخرى لتمدنا بيد العون فيه كما شغلنا بالإضافة إلى ذلك كله بحفلات توديع لجان الحاكم العام والسودنة وموظفي السراي وبإستقبالات لا تنقطع لوفود التهنئة التي قدمت من سوريا والأردن والعراق ولبنان وأندونيسيا وغيرها.

بينما تركنا مهمة الصحافة ووفود الصحفيين لوزارة الإعلام لتتولاه، الأمر الذي دفعنا إلى الإسراع بالتوسع وإيجاد الموظفين نواة للسلك الجديد.

أتممت منذ أواخر يناير 1956 صياغة وإعداد الإعلانات وتحديد المواصفات اللازمة للتقديم في الإلتحاق بوظائف السلك بمستوياتها المختلفة (عدا السفير) وحدث أن رشح زميلي وصديقي وإبن دفعتي الأخ/ محمد عثمان يس من بعض الجهات (سياسية) لمنصب الوكيل الدائم (وكان وقتها مديراً لمديرية أعالي النيل) ولكن لم يتم وصوله بالفعل إلا في بداية الأسبوع الثاني من فبراير 1956 وكان أول ما قدمته إليه تلك الإعلانات المعدة للنشر الداعية للتقديم لطلبات الإلتحاق والتي أرجأت إرسالها إلى الصحف عامداً ليوقعها هو حرصاً مني على خلق جو تعاون ودي وإعزاباً عن ترحيبي به في تجرد صادق للتعاون في القيام بأعباء

المهمة الموكلة إلينا والمنوطة بنا معاً على الرغم من حث الأخ/ مبارك زروق لي لأقوم بتوقيعها لتنشر وعدم إنتظارالوكيل الذي لم يبن فيما بعد وسرعة إرسالها للصحف لتقوم بنشرها مراراً لكني إستأنيت ولم أفعل.

وفي أواخر فبراير إنتقلت مكاتبنا بسبب توسعها للمنزل الذي كان يسكنه/ سير جيمس روبرتسون لنتخذه مقراً للوزارة الوليدة بعد أن رفضت حكومة صاحب الجلالة التخلي لنا عن مبنى "السودان كلوب" الذي وقع إختيارنا (أنا ومبارك زروق) عليه مبدئياً وكان ذلك بحجة غريبة.. إذ قيل لنا وقتها إن مبانيه هي ملك خاص، يودون أن يحتفظوا به ليكون داراً للجالية البريطانية بالسودان، وليظل منتدى لهم خلال عهد الإستقلال. ومن عجيب المصادفات أن يكون ذلك الموضع بالذات والذي فكرنا فيه أولاً وقبل كل شيء قد عاد أخيراً جداً، وأنا أسجل هذه المذكرات، ليكون المقر النهائي الدائم لوزارة خارجية السودان بعد أكثر من أربعين عاماً.؟

وأعلن عن تعيين السفراء الخمسة الأول كتوصية مشروع التكوين عن طريق إختيارهم من بين كبار موظفي الخدمة المدنية العامة وهم السادة (عوض ساتي، وبابكر الديب، ودكتور إبراهيم أنيس، ومحمد حمد النيل، وخليفة عباس العبيد) ليكونوا أول سفراء للسودان في كل من بريطانيا وأمريكا وروسيا ومصر وآثرت أن أظل سفيراً في الرئاسة لأكمل مع الأخ/ محمد عثمان يس الشوط الذي بدأته بمحض إختياري الأمر الذي قدره، بل وأكبره الوزير مبارك وسجله في الملف متحفظاً لكي يكون لي حق الإختيار لأية سفارة أراها عندما أتم وأفرغ من إنجاز وتنفيذ ما خططته فيما بعد.

تلا ذلك تشكيلنا للجنة إختيار وظائف السلك العليا بدرجة الوزراء المفوضين التي إنعقدت فأوصت بتعيين السادة (يعقوب عثمان، وأحمد مختار، وأمير الصاوي، وبشير البكري، وعثمان عبد الله، والباقر السيد محمد، ورحمة الله عبد الله، وعمر عبد الحميد عديل، وصادق أحمد مصطفى، ومحجوب مكاوي،

ودكتور عثمان الحضري، وعباس الدابي، ومحمد خوجلي) وزراء مفوضين وتم توزيع هؤلاء الوزراء الجدد المذكورين على المفوضيات التي رأينا أن تقام في الأمم المتحدة والجامعة العربية وباريس وبون وأثينا ونيودلهي وروما وجدة وكراتشي بثلاث وظائف وزراء مفوضين للرئاسة (مؤقتاً) تم توزيعها حسب ذكر أسمائهم أعلاه على التوالي.

وكانت نظرتنا التي حواها المشروع الأساسي الذي توليت إعداده مبنية أصلاً على عدم التوسع في الممثليات في البداية والإقتصار على التمثيل المزدوج غير المقيم أساساً وذلك مراعاة لواقع الحال وإقتصاداً للنفقات والتكاليف في المال والرجال... مما أقر وأجيز. وفي الفترة التي أعقب فيها السيد/ محمد أحمد محجوب - مبارك زروق - وزيراً للخارجية تم تعيين كل من الأخوين السيدين/ جمال محمد أحمد، ويوسف مصطفى التني، ليكونا سفراءنا أولهما للبلاد العربية لما إستجد من قيام " خلف بغداد".

وشكّلنا بعد ذلك لجنة خاصة لإختيار المستشارين وأخرى للسكرتاريين/ والملحقين الجدد/ عن طريق المعاينة لمن إجتازوا الإمتحان الذى إشتركنا في وضعه، وإستوفوا شروط التقديم التى نشرت وسبقت الإشارة إليها. وأذكر كيف كان أعضاء اللجنة يوجهون الأسئلة (الغميسة) والعويصة لا الأساسية أو الجغرافية أو التاريخية الداخلية والخارجية وحدها، بل يحاولون بها سبر أغوار المقدمين وإختبار مدى معرفتهم الشاملة بالسودان. ويحضرنى خاصة ما كان يتوجه به عضوها الطبيب العلامة الدكتور/ التجانى الماحى عن "الجرتق" مثلاً وعما يلقب به رؤساء وزعماء القبائل السودانية الكبار (ما نجل، ومك، وشرتاي، وسنجك، ورث) لتحديد على أي من القبائل يطلق وعن "الحسانية" وأين يقطنون وعن إقتصاديات السودان ومواعيد زراعة وجني محصولاته ومعدل إنتاج الفدان أو"الجدعة " مما حار فيه الكثيرون وأعجز البعض حتى كاد أن يحرم من القبول

وزير خارجيتنا الآن الأخ/ علي أحمد سحلول لولا تدخلي المنطقي الواقعي المسبب والمقنع...

مضت الوزارة الجديدة فى كل شيء تتلمس طريقها بعناية وعناء وتبذل كل الجهود للتأسيس والتأثيث تنفيذاً وعلى ضوء مذكرة مشروع التأسيس. وبدأت بخلق نواة لأقسامها وشعبها وإداراتها المبدئية الأساسية المختلفة بادئة بالمراسم وأقسامها السياسية والقنصلية والعلاقات الإقتصادية والثقافية والإعلام والحقائب والترجمة والأمن والإمدادات وقلم المستخدمين والكتبة والحسابات وغيرها من المتطلبات الملحة العاجلة المتلاحقة لتواكب نموها المتطور والمتجدد يومياً، خاصة فيما يتعلق بالمراسم وإعتماد السفراء الأجانب وإعداد أوراق الإعتماد لسفاراتنا (التي عهدت بها للأستاذ الفنان عثمان وقيع الله بخطه البديع) ولوحات عرباتهم الدبلوماسية وحصاناتهم وإمتيازاتهم وحفلات التوديع لأعضاء لجان الحاكم العام والسودنة، ولإستقبال وفود التهنئة التي أخذت تتقاطر بلا إنقطاع.

في هذا الأثناء كان ممثلو الدول الأجنبية بمختلف درجاتهم في السلك يفدون تباعاً لتقديم أوراقهم ومزاولة عملهم فى الخرطوم وحري بالقول أن كل ذلك وأن البدء فيه الذي تكلل بقيام وزارة الخارجية السودانية كان بجهد سوداني خالص لم تكون له لجنة ولم يستقدم له خبير تولته وكالة الشئون والمهام الخاصة والتي كان لي شرف توليها بعد فترة لم تتعد الأربعة شهور من إنشائها ولشهرين بعد إعلان الإستقلال منفرداً ولا فخراً وحمداً لله على التوفيق.

• تواريخ تقديم أوراق أول مبعوثين دبلوماسيين أجانب للسودان:-

أسماء الدول	عدد الدبلوماسيين عدا الزوجات
سفير مصر قدم أوراقه في 1956/1/4	(13)
سفير لبنان قدم أوراقه في 1/24 ومقره القاهرة	(1)
القائم بأعمال اليونان قدم أوراقه في 1/28	(1)
القائم بأعمال هولندا قدم أوراقه في 2/15	(1)
سفير بريطانيا قدم أوراقه في 3/3	(7)
القائم بأعمال بريطانيا قدم أوراقه في 3/7	(3)
القائم بأعمال ألمانيا قدم أوراقه في 3/12	(2)
وزير المجر المفوض قدم أوراقه في 4/21 ومقره القاهرة	(2)
سفير فرنسا قدم أوراقه في 4/26	(2)
سفير روسيا قدم أوراقه في 4/30	(9)
سفير أمريكا قدم أوراقه في 5/17	(10)
القائم بأعمال تشيكوسلوفاكيا قدم أوراقه في 5/22	(1)
سفير العراق قدم أوراقه في 5/30 مقره القاهرة	
وزير إسبانيا المفوض قدم أوراقه في 6/14 غير مقيم	(*)
سفير أثيوبيا قدم أوراقه في 6/27	(3)
سفير بلجيكا قدم أوراقه في 6/23	(2)
سفير بولنده قدم أوراقه في 6/25	(2)

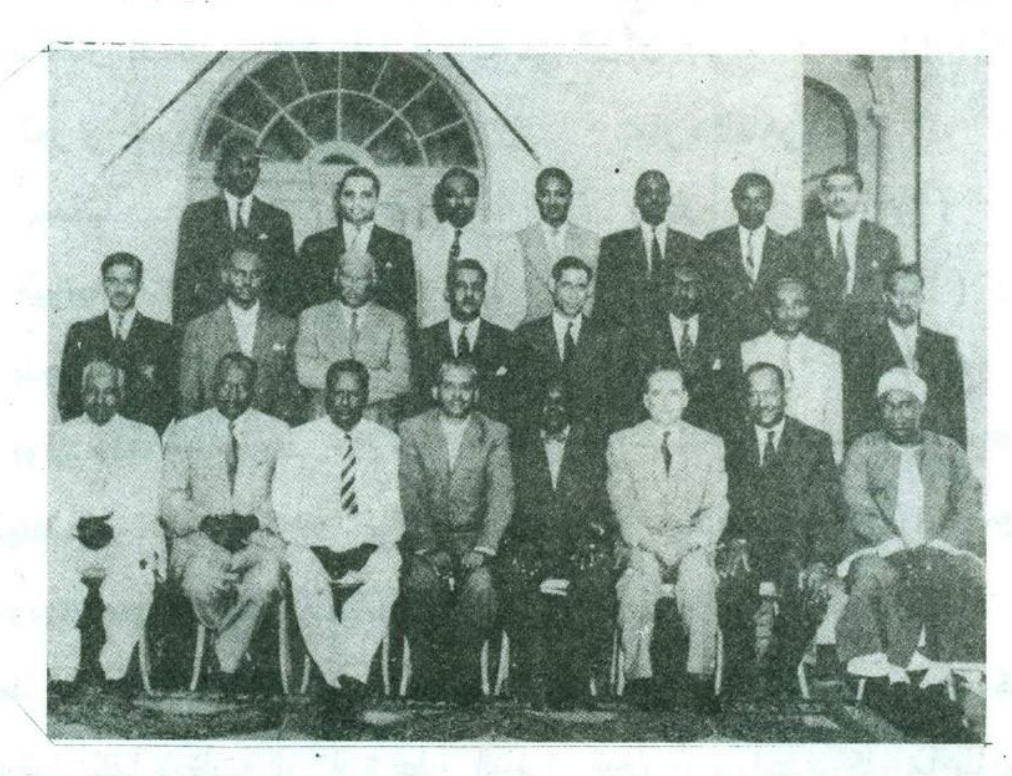
أما الهند فقد بدأ ممثلها "قدواي" كضابط إتصال عمله في 54/12/5 وكذلك مثل اليمن مندوبها السياسي منذ 1955/4/21 .

قمنا بإصدار أول قائمة دبلوماسية في يوليو 1956 ظلت تجدد كل أربعة شهور تلقائياً. كما شغلت الوزارة على النطاق الخارجي بإعداد كل ما يلزم للسفارة والمفوضيات السودانية فى الخارج من دبلوماسيين وموظفين ولوائح وموازنات

وموظفين ودور سكن ووسائل نقل وإتصالات. وقد سلكنا نهجاً لعله لم يسبقنا عليه أحد إقتبسناه من نظام الخدمة المدنية السودانية الداخلية وهو بالإضافة إلى تولي الدولة إعداد السكن المجاني المؤثث لرئيس البعثة وإعداد مساكن لبقية موظفي السلك وأسرهم مقابل خصم 10% من الراتب لما هو موثث منها 7% لغير المؤثث حفظاً على المستوى اللائق بالتمثيل.

ثم أتحنا فرصة قصيرة لتعريف كبار من تعينوا فى السلك حتى السفراء بالضروري اللازم معرفته من النظم والأساليب الدبلوماسية وذلك عن طريق ندوات تعريفية مقتضبة أقمناها قدمها لهم بعض رؤساء البعثات الدبلوماسين المحليون المقيمون وبعض رؤساء المصالح والمرافق الحكومية المختلفة كل فى دائرة إختصاصه.

أما ناشئة السلك فقد أعددنا لهم فترة تدريبية وتعريفية وتأهيلية مفصلة لعدة أسابيع مبرمجة على قرار المنهج الذى حضرته فى لندن والذى تعده وزارة الخارجية البريطانية بتصرف بعد إجراء التحوير والتعديل اللازمين.



أثناء أداء القسم لأول سفراء ووزراء مفوضين بالقصر الجمهوري عام 1956

الجالسون: المفتي ، المحجوب ، عبد الفتاح المغربي ، سرسيو ، احمد محمد يسن ، الدرديري ممحمد عثمان ، عبد الله خليل ، أبو رنات .

الواقفونA: الوزير يعقوب عثمان ، السفراء (حمد النيل ، عوض ساتي ، الديب ،الوكيل محمد عثمان يسن ، د. أنيس ، خليفة عباس) الوزير محمد ميرغني .

الواقفونB: الوزراء المفوضون: الحضري ، الدابي ، أمير الصاوي ، عثمان عبد الله ، الباقر السيد محمد ، بشير البكري ، رحمة الله عبد الله .

بتاريخ 1956/7/24م تم أداء القسم فى القصر لأول سفراء ووزراء مفوضين سودانيين أمام مجلس السيادة وأخذت لهم صورة تذكارية: بعدها أخذت جموعهم تغادر البلاد إلى مقار عملها الجديد في الخارج على التوالي. فغادر أول سفير لنا السيد/ عوض ساتي إلى لندن في 56/7/24 وتلاه السفير/ حمد النيل ثم السفير/ الديب بعد إعداد أوراق الإعتماد التي نسخت لهم بخط الفنان/ عثمان وقيع الله، ولم يكن لدينا من الوقت ما نفكر فيه بلبس دبلوماسي خاص فإلتزمنا بما جرى به العرف الدبلوماسي وقتها شرقاً وغرباً حسب ما هو معمول به من نظم الدول المختلفة من بونجور وفراك وإسموكنق وغيرها..

وأخذت إدارات الديوان العام بالرئاسة في الإتساع تباعاً حتى غدت الوزارة كخلية النحل حركة دائبة تعمل بحماس وجد وبحضور دائم (صباح ومساء) لتواكب المتطلبات المتجددة والإعداد وتصريف كافة الشؤون التي أنيطت بها بعزم وإصرار وإقتدار حتى قويت جذورها وترسخت أقدامها وتوطدت أركانها بحمد الله وتوفيقه.

ودخل السودان عضواً بالجامعة العربية في عهد زروق وعضواً بالأمم المتحدة في عهد المحجوب. وإني لأذكر كيف كان صديقي المحجوب يترنح طرباً عندما كنت أقول له ملاطفاً وأنا أعلم "سفيانيته" لأرضيها: "وماذا تريد أن يقال عنك يا محجوب أكثر.. الرجل الذي رفع العلم وأدخل السودان هيئة الأمم"!! فإستلذها

وأخذ يرددها وما أكثر ما كان يستعيدها مني دوماً أمام الغير... "قلت كيف يا خليفة.." وأذكر أن ذلك هو ما ضمنته رسالة تعزيتي في فقده الأليم التي بعثت بها إلى أسرته وأنا في واشنطون مقترحاً أن يكتب ذلك على "شاهد تربته" لتقرّ به عينه وكفى به شاهداً مدللاً ودليلاً..

وأقررعن قناعة وصدق أن وزارة الخارجية أول قيامها قد حظيت بأقدر وأميز وأنسب وأكيس وزيرين تعاقبا عليها هما "زروق والمحجوب" - فكراً وعقلاً وعلماً وأدباً وثقافةً وفقهاً وشخصيةً ووسامةً وأناقةً وذوقاً - كرماً مظهراً ومخبراً - وإن جاز لي أن أجري بعض المقارنة في الأداء بينهما من خلال فترة عملي الأولى معهما في الرئاسة فيمكنني أن أقول بغير تحيز أن كلاهما كان كفئاً ومقتدراً، غير أن زروق كان يعطي للخارجية من وقته ومن إهتمامه ومن تتبعه لسيرها ولما يدور فيها ومن إستئناسه بالآراء بعد المشورة ومن فرط حرصه على أن يسود النظام والإنضباط والتقيد بذلك ومراعاة وإحترام الصلاحيات في حدود المسؤليات الشيء الكثير المريح على مختلف المستويات، كما كان يحصر نفسه في مكتبه ويقصر كل وقته على العمل الرسمي تاركاً الإدارة وشؤونها وموظفيها للوكيل ولنائبه ولمساعديه ومعاونيه دون أي تدخل. وكنا نرفع إليه ما نراه للمشورة ولإتخاذ القرار وأشد ما كانت تدهشني شدة إحاطته وتتبعه حتى لما كان يدور من المكاتبات حول الموضوعات. فكثيراً ما كان يعيد إليّ ملف البريد اليومي "الوارد (الذي أرفع الهام منه إليه للإحاطة ولمجرد العلم) يعيده إليّ ومع بعضه مسودات بخطه للردود الكاملة عليها - دون أن تكون ملفاتها معها فأعجب لقوة ذاكرته ولإستحضاره: ولم يحدث للوزير زروق أن دخل أياً من المكاتب حتى مكاتب كبار الموظفين بالوزارة إلا عند تعيينه محيياً أو عند إعفائه مودعاً لهم. ولعل سبب إعجابي بكل ما أومأت إليه مما أعده مزايا متفردة فعلاً ربما كان مرده لخلفية الخدمة العامة الحازمة التي أثرت وتأثر بها مبارك بحكم عمله السابق في مصلحة السكة حديد: شأني أنا: وكنت قد إستقيت من نفس المورد وتقيدت بنفس المنهج الواضح الحدود والملتزم بالتجرد

وبالتفرغ الكلي. ولم يكن المحجوب ساهياً أو لاهياً أو مقصراً في تصريف أو إنجاز ما يرفع إليه، ولكنه، وهو القاضي، كان يفضل الإستماع: أن يسمع منك أو يناقش معك الموضوع عرضاً فيبت فيه بالرأي أو بالقرار أكثر من أن يخوض في الملفات ويقلب الصفحات التي أمامه فيؤشر عليها لتأخذ طريقها إليك - والمحجوب الأديب الشاعر كالطائر لا يحلو له أن يستقر طويلاً على فنن ويضيق بالوحدة. فإذا لم يكن لديه ما يشغله دخل عليك في مكتبك وهو يترنم بأبيات له أو لغيره يريد أن يسمعك إياها رغم أنفك أو أن يسمع رأيك فيها: وتدار القهوة ويدور الحديث عن الشعر والأدب أغلبه وعن السياسة أحياناً حتى إذا ما رآك قد إنشغلت أو تشاغلت عنه ولو بعملك ضاق بك ذرعاً وحدجك بنظرة هي مزيج من الإستنكار والإكبار ثم تركك إلى غير مكتبك من المكاتب الأخرى حتى ينتهي به المطاف ويطيب له المقام ليستقر في المكتب الكبير الذي خصصناه للإجتماعات والذي كرسنا فيه عدداً ممن تم إختيارهم للسلك من الناشئة والخريجين فيسحب كرسياً ويجلس عليه بينهم ويتحلقون حوله ويبدأ الحديث فلا يلبث أن ينفلت إلى الشعر فينشدهم القصائد الطوال التي تطربهم وهو يروي لهم مناسباتها فيتجاوبون معه ويستزيدون منها.. وما كان ذلك يروقني بالطبع فأستدعي أكثرهم إلى مكتبي وأعهد إليهم بما يشغلهم تنشئة وتقويماً وتعويداً لهم على النظام والإلتزام..

كذلك وأنا في معرض الحديث العابر عن العلاقات التي كانت سائدة بيني وبين الوزراء الكبار آنذاك وعن إنطباعاتي العامة نحوهم أرى أن أتعرض بذكر لأول وكيل عملت معه وله نائباً وهو إبن الدفعة الزميل الصديق/ محمد عثمان يس. فقد تخرج كلانا كتبة عام 1933 وتدرجت في السكة الحديد إلى أن بلغت مأمور إدارة قسم الخرطوم بعد السودنة. كما إنتقل هو إلى السلك الإداري وتدرج فيه حتى بلغ درجة مدير أعالي النيل. وكما ذكر لي الأخ/ مبارك زروق (الذي لم يكن راضياً كل الرضى وقتها أن يتخطاني أحد وإن كنت قد أكدت له قناعتي التامة ورضائي) أن شيخ الخاتم هو الذي رشح الأخ السيد/ محمد عثمان للرئيس الأزهري ليكون

وكيلاً دائماً للخارجية – فرحبت به كل الترحيب من كل قلبي وكانت تربطنا فوق الزمالة في الطلب صداقة إمتدت لما بعد التخرج. إذ قمت وزميلنا وإبن دفعتنا الأخ/ أحمد مختار بزيارة له في أسمرا عندما كان قنصلاً للسودان فيها. وقد كان التعاون المخلص بيننا تاماً وصادقاً منذ البداية. وقد سبق أن أشرت إلى إرجائي نشر الإعلانات للتقديم لوظائف السلك الدبلوماسي من ناشئة الخريجين عمداً لكي يقوم هو بتوقيعها بعد أن يصل لإستلام أعباء الوكالة عربون مودة وشاهد صدق وإعراباً عن الرضى التام والإخلاص والتضامن والتعاون والولاء الذي ظل سائداً بيننا طيلة النصف الأول من العام في إنسجام تام. ثم توسعت وتشعبت أعمال الوزارة في الرئاسة وإستلزم تعاظمها وقيام نواة أقسامها المختلفة الإحتفاظ بعدد من المعينين الجدد (وزراء مفوضين ومستشارين وسكرتاريين) للعمل فيها، وكانت الغالبية العظمى من هؤلاء إن لم يكونوا كلهم يطمحون لأن يوفدوا للإلتحاق ببعثاتنا في الخارج: ورغم وضع الأسس الواضحة لتوزيع واقعي وعادل إلا أن بعض الإملاءات والممالآت والميولات والشفاعات نالت من سلامة تلك الإختيارات. فكانت أولى الإختلافات في وجهات النظر والخروج عن الخط "المقرر المرسوم" كما يعبر عن ذلك أهل السكة الحديد – وإختلاف الرأي لا يفسد للود قضية ولكنه متى ما إنبنى على الأهواء والإيثار والترضي أو حاول أن يقوم فوضوياً على غير أساس أو تكرر أو تهاون أو عمد إلى خلق تكتلات، أو عمد إلى بعض تصرفات غير سليمة وليس لها ما يبررها، فهناك وعندئذ يكون الخلاف وهناك يتسع البون وتبدو المشاركة في المسؤولية آنذاك أمراً عسيراً إن لم تكن مطلباً مستحيلاً...

ويشهد على ما ذكرته الكثيرون ممن تعاونوا معنا خاصة المساعد للوكيل الأخ/ أمير الصاوي وعبد الكريم وسر الختم السنوسي وأمين مجذوب عابدون من الأحياء أطال الله أعمارهم.

وذلك وبكل أسف هو ما حدث بالفعل. فإحتدم الخلاف وبلغ ذروته وبدأ ينعكس على العمل والعاملين وخشيت أن تمتد آثاره لتعوق ولتقوض كل ما حاولت

إتمامه من بناء. فقررت أن أنجو بنفسي – وكان الخلاص أمراً عجباً – إذ سبق لي أن ذكرت بأنه أول ما عينت سفيراً عرض عليَّ الأخ الوزير/ مبارك زروق أن أتخير من السفارات ما أريد وحدد لي لندن بالذات أو القاهرة ولكن إيثاراً مني وتضحية من أجل مصلحة العمل آثرت أن أبقى بالرئاسة عامداً لأكمل ما بدأته. وعندها وتقديراً لذلك أشَّر السيد الوزير على الأوراق مثنياً ومقدراً وأمر بأن يترك لي الخيار عندما أريد أو أطلب لأنقل إلى أية سفارة إختارها جزاءاً وفاقاً.. ولكن الذي كان على رأس سفارتنا في أثيوبيا الأخ السفير/ يوسف مصطفى التني حدث أن أضر به الإرتفاع هناك فأوصى الطبيب بنقله، وحَددَّتُ أثيوبيا وآثرتها على غيرها مضحياً وذلك لعظم أهميتها بالنسبة للسودان في نظري ورأيتها فرصة مواتية. فطلبت من الوزير المحجوب أن أنقل إليها فوافق مندهشاً وسافرت إليها في أبريل 1957وبهذا تنتقل هاته المذكرات إلى فترة عملي بالبعثات.. فإليها والله الموفق.

الفصل الخامس

في محاريب الدبلوماسية

العمل سفيراً في البعثات 1957-1966

(1) أثيوبيا (2) العراق (3) الأردن (4) لبنان (5) تركيا (6) الولايات المتحدة الأمريكية. ثم وكيلاً لوزارة الخارجية بالرئاسة

أثيوبيا

حدثني الزميل الصديق/ يوسف مصطفى التني أنه عندما قدم أوراق إعتماده سفيراً للسودان لدى أثيوبيا أعرب له جلالة الإمبراطور هيلا سيلاسي وهو يستقبله عن إغتباطه بأن يوفد السودان من بنيه كسفراء من تشعر وتحس وأنت تقابلهم أو تراهم للوهلة الأولى بأنهم سودانيون مظهراً وسحنة ولوناً... فلما أثر إرتفاع الهضبة الحبشية وإرتفاع أديس أبابا على ضغط دمه المرتفع وتقرر نقله من أجل ذلك بقرار طبي طالبت ثم رحبت بأن أخلفه سفيراً في أثيوبيا: وعندما تم ترشيحي لها بشر التني الإمبراطور وهو يودعه بأن سفير السودان الجديد الذي سيخلفه (يعنيني) لا يستوفي جميع المواصفات التي يراها الإمبراطور كلها فحسب وإنما يزيد عليها بأنه سوداني (مشلخ).

طرت إلى أديس أبابا 1957 فأستقبلتني سماواتها الغائمة ساعة وصولي بمطر غزير منهمر وجيئ بالعربة المعدة لإستقبالي إلى سلم الطائرة لتنقلني إلى غرفة تشريفات المطار ومنها إلى مقر السفارة السودانية وسط خرير الأمواه المتدفقة على جنبات الطريق المكسو بزهرات المسكل وسقف الدور وجنباتها وواجهاتها كلها عرائس تبترد تنضح عنها قطرات الطل مترقرقة كالندى لتنحدر فتغيب في جوف المصارف المحكمة الصنع ولتبقى شوارعها المسفلتة العريضة الواسعة صقيلة كحلاء.

وعلى أعلى المستويات حتى من جلالة الإمبراطور نفسه. وسأسوق بعض ما يحضرني من الأمثلة لذلك - فقد حدث في أول حفل عشاء رسمي حضرته بالقصر، بمناسبة جمعت كل الأمراء والرؤساء والوزراء ورجالات الدولة وحضره رؤساء البعثات الدبلوماسية، ما لفت الأنظار وأثار الدهشة وكان حديث الساعة وقتها. فقد كنت بحكم أسبقيتي في آخر قائمة السلك وكنا ونحن نجتمع في ردهة المدخل ننتظر دورنا نرى زملاءنا يُنادى عليهم سفيراً بعد سفير ليقوم كل واحد منهم بإنحناءاته حتى إذا ما وصل إلى حيث يقف الإمبراطور مد إليه جلالته أطراف أصابعه محيياً لينصرف بعدها فيصطف في الموقع الذي يحدده البروتوكول بين ذلك الحشد المهيب.

وجاء دور السودان ونودي على سفيره وتقدمت وحذوت حذو من سبقني النعل بالنعل. ولكن عندما وصلت إلى حيث يقف الإمبراطور رأيت جلالته ينزل من فوق منصته القصيرة المسامنة للأرض فيترجل ويمد كلتا يديه ليودع راحة يدي اليمنى بينهما ويهزها هزاً حميماً وحاراً إستغرق لحظات عددتها لطولها ساعات... وكان الكل حولي ينظر ويعجب مما يرونه.. وكأن الإمبراطور قد أحس بما أحدثه فعله من تعجب وما دفع له من تساؤل. فرفع صوته بالأمهرية جاهراً وهو ما يزال يضع يدي بين يديه وأنا واقف إلى جانبه بكلمات قام وزير قصره بترجمة لها بالإنجليزية حيث قال " لا عجب.. ولا غرابة فالبلد (يقصد السودان) الذي أواني أيام شِدَّتي، البلد الذي شدَّ من أزري وناصرني، والذي بجهوده وعونه وبأرواح بعض أبنائه وأشلاء ضحاياهم إستعدت إمبراطوريتي.. كيف لي أن أجزي صنائعه أو أن لا أقدر ما قدمه لي من جميل..؟"

وتجاوبت القاعة الصامتة أصداء ذلك الخطاب وتأثرت جداً وأنا أسمعه. فلم أشعر إلا بدمعة حارة من الزهو والحمد والرضى الغامر تنحدر على خدي. حاولت إخفاءها ومواراتها فما إستطعت وقد ضمنت ذلك كله في أول رسالة

طويلة خاصة بعثت بها إلى رئاستي في الخرطوم متفائلاً بما يمكن أن تحققه رسالتي من خير ونجاح في مثل ذلك الجو المثالي المواتي...

ومثال آخر أسوقه عن موضوع مقر السفارة والسكن. وهنا لابد لي من أن أومىء إلى مدى إحاطة الإمبراطور بكل ما يجري داخلياً وخارجياً ووقوفه حتى على أدنى تفصيلات القطاعاتِ يوافيه بها المسؤولون على مختلف مستوياتهم وينقلها إليه العدد الغفير من أبناء وبنات شعبه الذين يفتح لهم قلبه وأذنيه فتح أبوابه. ولأدلك على ذلك، أورد حدثين، أولهما يتعلق بموضوع مبنى السكن الذي أشرت إليه آنفاً وهو مبنى تملكه الكنيسة التي تعدل مكانتها وسلطاتها مكانته وسلطانه. فقد أبرم سلفي (السفير التني) عقد الإيجار لمدة ثلاث سنوات مع الكنيسة وهي سلطة زمنية وروحية تفاوض ولا تعارض أوتسامي.. وكان كل من لاقيت ييأسني من وجود أي حل أو أمل في الفكاك من ذلك العقد المبرم. فكان من الطبيعي عندما يسألني الوزراء أو المسؤولون عما إذا كنت سعيداً في أثيوبيا أن تكون إجابتي دائماً وأبداً نعم كل السعادة وأنا سعيد بكل شئ عدا مسألة المقر والسكن.. كان الإمبراطور يحب أن يعرف كل شئ وكانت بطانته ومسؤولوه ينقلون له كل شيء. وقد دهشت بالغ الدهشة عندما كنت أحضر حفلاً أقيم في القصر حضره الإمبراطور في إحدى الأمسيات. وكان من عادة جلالته أن يستدعي بعض السفراء في خلال الحفلات ليتحدث إليهم. فحدث أن أُستدعيت لأتحدث إليه وكان الحديث يدور بيننا غالباً بالإنجليزية وأحياناً بعربية عرجاء، حين إبتدرني بالسؤال عن صحتي وعن أحوالي، ثم بادرني بسؤال هل أنت مرتاح تماماً؟ فرددت عليه دبلوماسياً بالإيجاب. فضحك وأضاف.. إلا عن المقر للسفارة وسكنك. فتبسمت وعجبت أن يكون ذلك قد نقل له عني. فإستدار وتحدث إلى وزيره بالأمهرية الذي قال لي أن جلالة الإمبراطور سيحل مشكلتك فلا تبتئس. فحاولت أن أقلل من شأن المسألة التي قلت أنها لا تليق أن ترقى إلى الزج بها لتثير إهتمامه بين مشغولياته العظيمة الكبرى. وأردفت خاصة وأن

المنزل تملكه الكنيسة وما أريد أن أزج بجلالته في أمر يتعلق بها وبقداستها – وعندها قال لي الأمبراطور سأطلب من وزيري المسؤول عن المرافق الخاصة أن يقوم بمقابلتك وليعرض عليك من الدور ما أرجو أن يكون مريحاً ومناسباً لك لتختار من بينها ما تريد. أما الكنيسة وعقدها فسأتولى أمرها بنفسي..

ولم يمض يومان حتى جاءني وزير مرافق الدولة ليرافقني بعربته الرسمية وليطوف بي على عدد من القصور (لا الدور) وإنتهى المطاف وكانت ثمرته أن يخصص أحد قصور سمو دوق هرر لسفارة السودان سكناً للسفير وأن يبنى للسفارة داخل سوره الفسيح المكاتب اللازمة. وقد كان – وتذرعت بما لا تسمح به ميزانية السفارة المحدودة من فرق الإيجار. فأصدر جلالته أمره بأن يكون إيجار القصر هو نفس إيجار السكن القديم. وتطور الأمر فجر النقاش مع الوزير المسؤول إلى إقتراح مني (والعلاقات بين البلدين أزلية وقوية ستبقى) أن يمنح كل من القطرين للآخر بناءاً مناسباً لسفارة كل منهما في عاصمة البلد الآخر لتكون مقراً دائماً ومملوكاً للبعثة فرحب بالعرض وفرحت بالصفقة وكتبت بها للخرطوم مقترحاً تخصيص أي من البيوت المناسبة التي أخلتها السودنة من الإنجليز لسفير وسفارة أثيوبيا مبادلة لما حصلت عليه منهم هبة دائمة. ولكن الرئاسة عفا الله عنها أو التكالب أو التزاحم على الظفر من الأسلاب حتى على بيوت السودنة والمآرب والمطامح الشخصية قد طغت فأفسدت كل شئ فلم يكتب للصفقة أن تتم لما كان فيه الخير المحقق والوفر الكبير للبلدين معاً وإلى الأبد.

ولا أرى بأساً وانا أتحدث عن إلمام الإمبراطور وإحاطته بكل الأخبار من أن أورد ذكراً لما يقع حتى في الأحاديث العابرة. فمن ذلك أن الخطوط الجوية الأثيوبية كانت من بين من تستخدمهن مضيفة وضيئة حسناء بارعة الجمال إسمها ميري. كانت تنتدب لبعض السفريات الهامة وتختار لتعمل في الطائرات الخاصة التي يسافر بها الإمبراطور أو ضيوفه الرسميون في تنقلاته ورحلاته: وكانت زهرة لا تخلو منها حفلات المجتمع الرسمي والدبلوماسي. وكنت أداعبها

كل ما أقابلها بتوجيه سؤال محدد هو "ما هي أخبار السماء يا ماريا؟؟" تورية بنسبتها إلى العالم الملائكي وسماواته. ولشدَّ ماصعقت وذهلت عندما تقابلت مع الإمبراطور في أحد الإستقبالات بالقصر فمازحني ضاحكاً.. هل لديك علم أو خبر من السماء؟؟ فكانت إحدى قفشاته وتبسطاته معي ومدى أفقه وإتساع دائرة وتنوع نشاطات إعلامه. أما في مجالات التضامن والتساند والتعاون بين البلدين فيمكن ذكر الكثير الكثير الذي لا حد له. ويحضرني وأنا أسطر هذا الجزء من المذكرات وقد أطلت "مشكلة حلايب" بقرونها من جديد أن تعود بي الذاكرة لإستعراض ما حدث عند بروز المشكلة أول ما برزت وموقف أثيوبيا منها. فقد كنت وقتها أقضي شطراً من إجازتي بالسودان. وعندما نشب الخلاف وتطور وتفاقم حتى قارب المواجهة العسكرية بيننا وبين الشقيقة مصر قطعت إجازتي وعدت إلى أديس وقد بلغت الأزمة أشدها. وصلتها لأجد مندوباً من الإمبراطور ينتظرني في المطار مع بعض أركان السفارة ليقول لي أن جلالته قلق ومنشغل ويود أن تصحبني لمقابلته في القصر فوراً إذا سمحت. فتوجهت من المطار رأساً لمقابلة جلالته ووجدته يذرع القاعة جيئة وذهاباً (مشية الليث إذا الليث زأر) فأقبل نحوي مسلماً وأمسك بيدي وأخذ يسألني: ما هي آخر الأنباء وأضاف يقول إن السفير ملس عندوم يوافيني بكل ما يجدُّ أولاً بأول ولكني أطلب منك وأنت لم تصل إلا قبل ساعات أن تعود لتبلغ حكومتك أن نظرتنا إلى أحداث الساعة وإهتمامنا بها وإني وأثيوبيا كلها وبكل ما نملك نقف مع السودان ونضع كل ما لدينا تحت تصرفاته، فليحددوا نوع ومقدار كل ما يحتاجون إليه. فشكرت لجلالته همته ونخوته وأكبرت لجلاله علمنا وتيقننا تماماً بكل ما ذكره وأن أول ما سوف أقوم به فور إنصرافي هو إرسال كل ما حدثني به جلالته إلى حكومتي حرفاً حرفاً ببرقية شفرة مطولة في الحال طالباً أن أفاد بتوجيهاتهم. ووعدته بأن أظل حريصاً على إيفاء جلالته بكل التطورات يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة وشكرته وودعته وإنصرفت.

كان أول ما لفت نظري وأنا أجلس إلى مكتبي في السفارة هو إستئثار مشكلة حلايب بكل مساحات الصحف الأثيوبية التي تصدر بالأمهرية والتقرينية والإنجليزية والعربية والتي كانت كلها مناصرةً وتأييداً مطلقاً للسودان وتهديداً وتنديداً للمعتدين – ولم تقف المشاعر الدافقة الصادقة عند ذلك الحد، بل أمت دار السفارة أفواج من المواطنين ومن طلبة الجامعة الأثيوبيين ومن غيرهم ليسجلوا أسماءهم كمتطوعين مما ملأ صحائف ثلاثة دفاتر كبيرة ضخمة، أعددتها من أجل ذلك الغرض تقف كلها شاهداً ودليلاً لا يرد ولا يمارى في تعاطف ذلك القطر ومصداقيته.

أما في الأحوال العادية فقد كانت هناك زيارات وإتصالات تدور بعضها معلنة، والبعض الآخر من وراء جدار خلف الكواليس بين كبار المسؤولين في البلدين، أخص بالذكر منها زيارة عبد الله خليل رئيس الوزراء السوداني مما عزاه بعضهم للأمور الحزبية ولمعارك الإنتخابات. وقد أورد الصديق عبد الرحمن مختار في كتابه خريف العمر حديثاً طويلاً عن تلك الزيارة وعن موقفي منها وعن تقديمي الإستقالة إحتجاجاً على حجبي، وأنا السفير المعتمد، عن حضور أو معرفة ما يدور... مما لن أتعرض له لأؤيده أو أنفيه، بعد أن أُستُرِدَّت المحافظة على الكرامة وأُستُعِيد التصافي وعادت المياه إلى مجاريها. وقد قلدتني أثيوبيا أثناء تلك الزيارة وسام نجمة أثيوبيا ووشاحها الكبير..

هذا نزر لبعض ما يمكن أن يقال أو يذكر عرضاً عن موقف الجانب الأثيوبي نحو السودان.. ومن جهة المبادرات فلابد أن يذكر أولاً موقفه حيال جمبيلا الأثيوبية أصلاً والتي تنازل عنها السودان طواعية وعن طيب خاطر وقبل أن يطلب إليه ذلك في الشهور الأولى التي تلت الإستقلال ونحن ما نزال نبني وزارة الخارجية في الرئاسة وذلك أثر الجلسة القصيرة التي ضمت من الخارجية السيد الوكيل/ محمد عثمان وشخصي والسفير الأثيوبي/ ملس عندوم وممثل



أول مبادرة فريدة لاعادة قمبيلا إلى أثيوبيا بعد استقلالنا دون طلب منها

المساحة السيد/ الباقر وممثل الأشغال المهندس/ الرشيد وممثل الري السيد/ صغيرون الزين التي أثبت صورة فتوغرافية لها هنا.

سبق ذلك ما سبقت الإشارة إليه من إستضافة الإمبراطور وإيوائه بالسودان وإقامته بقصر الشريف يوسف الهندي في بري وعلاقاته القوية المتينة برجالاته الكبار وبالسيد/ عبد الرحمن المهدي بخاصة وإشتراك السودان في إستعادة ملكه السليب.

وقد تميزت العلاقات بين البلدين بالصفاء والعمق والحب المتبادل. كما إتسمت الصلات الشعبية والشخصية بالتجاوب الفطري وبالصدق وبالوفاء. وهناك من الأمثلة ما يتجاوز الحصر والعد.

وقد تأثرت كثيراً بموت الأمير/ دوق هرر في حادث حركة مأساوي ونظمت في ذلك قصيدة جاءت بنت ساعتها ونشرت يوم تشييعه بالصحف العربية في أثيوبيا كما ترجمت إلى اللغتين الأمهرية والتقرينية وكذلك ترجمت بالإنجليزية، كان لها وقع في نفوس الأثيوبيين وعند الإمبراطور والأسرة المالكة ورجال البلاط بخاصة.

ونظراً لما كان يربطني بالدوق هرر من صلة ود فلم أكتف بالإشتراك الرسمي في مراسم التعزية والتشييع، بل حرصت على التردد على "الفراش" طيلة أيام المأتم رغم تنبيه وزير القصر لي وهو يودعني في إحدى المرات بقوله "يا صاحب السعادة لقد قمت بواجبك ونحن نقدر ذلك فلا داعي لأن تتعب نفسك" وأجبته بأني لا أتردد على المأتم كسفير وأنما كسوداني وكجار وكصديق. وظللت أتوجه كل يوم إلى سرادق المأتم الكبير أفارشهم وأنا بالزي السوداني (الجلابية والعباءة والعمة والمركوب) فيكون الإمبراطور أول من يقف ليحيني ويقف معه الجميع ويجلسني على مقربة منه حتى أنصرف – ولم يعدوا أصدقائي وزملائي بالسفارة الحقيقة كثيراً عندما كانوا يقولون لي في خبث "والله ما قصرت سعادتك وما فضل ليك إلا أن ترسل البن للقهوة كما نفعل بالسودان.. "

كانت الفترة التي قضيتها في أثيوبيا على قصرها حافلة بالنشاط وبالتجوال الدائب في أرجائها الشاسعة التي ذرعتها شرقاً وجنوباً وشمالاً وغرباً ذرعاً بالعربات أنا ومن كانوا يعملون سكرتاريين معي في السفارة ومع كمال البكري (وهما الباقر عبد المتعال وبشرى حامد جبر الدار الذين كثيراً ما كنت أوجههم للقيام بزيارات البقاع النائية بالعربة اللاندروفر أو على الطائرات الصغيرة التي كان يتولى قيادتها أثيوبيون بقولهم "أصلو السفير ده ما برتاح لامن يوم إجيب

خبرنا بتحطم إحدى هاته الطائرات بنا" ولكني أسجل لهم بصدق إعجابي مشيداً ومقدراً لما قاموا به من جهود مقدرة في إرتياد مواضع تجمعات السودانيين وتسجيلهم والتعرف على أحوالهم، بل وفي الإسهام الكبير بإرجاع وإستعادة الكثيرين من غير المرضيٍّ عنهم ممن كانوا مصادر متاعب أو سلوك بإسترداد جوازات سفرهم منهم وإعادتهم إلى السودان حرصاً على سمعة السودان وصوناً لكرامة أثيوبيا وأرتريا.

وشملت رحلاتي الداخلية كل مناطق أثيوبيا وأرتريا تقريباً من جمبيلا وفوري ودمبولو ومديرية "كفا" أكبر مزارع البن وأعظمها إنتاجاً له ولعل (إسم البن Coffe) مأخوذ منها، ومناطق ديراواوه وهرر إلى جيبوتي (بالقطار) الذي فضلته بغريزة السكة الحديد الكامنة المتأصلة والراسخة في دمي وكذلك حيث مناطق البحيرات ووليسوا ولتفاتو ونزاريت وبشقتو وأمبو وكوكا حيث الخزان وأداما وتغلغلت في إرتياد الجهات الوسطى والشرقية وفي إبتدأها شمالاً حتى أكسوم وأسمرة التي بقيت فيها طويلاً للقنصلية متعرفاً على الأوضاع فيها وزائراً لقاعدتها الأمريكية العسكرية ثم إلى عصب ومصوع متتبعاً أرتريا بكامل حدودها من مصوع إلى كرن وأقوردات وتَسَنَيْ وإلى حدود القلابات وقندار وبحر دار وبحيرة تانا حيث خروج الأوابي (النيل) من منبعه وحيث عشرات الأديرة والمعابد التي تحف وتحفل بها جزرها العديدة المنبثة حولها التي زرتها.

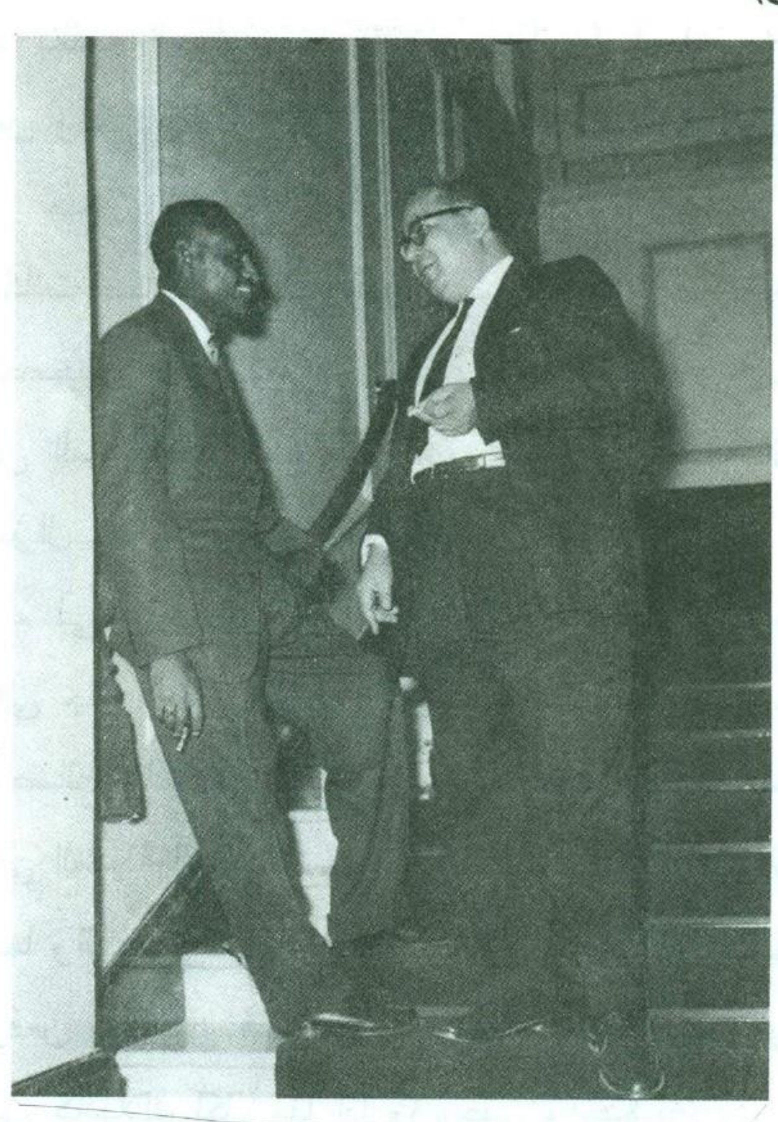
كان الجو مهيأ على الصعيدين الرسمي والشخصي وممهداً لتحقيق الكثير المفيد. وقد تم تبادل بعض المنح الدراسية والتدريبية مدنية وعسكرية وبحرية وعلى نطاق محدود. ولكم تحسرت على التلكؤ في تنفيذ ما ظللت أنادي به وأدعوا إليه من الفراغ من توقيع إتفاقية الحدود بين البلدين والبروتوكول الذي رفض أن يوقعه منليك 1909م والتي أهبت بالمسؤولين في الخرطوم وأكدت لهم مراراً وتكراراً أن الفرصة مواتية جداً لتوقيع إتفاقية نهائية للحدود في عهد هيلا سلاسي بالذات قبل فوات الأوان لننهي بذلك الإشكال إلى الأبد والذي كان مثار

محاولات ومجادلات لاحقة في سني ما بعد الإستقلال حول الفشقة والحمرة وما جاورها لو أنهم فعلوا... ولقد نعمت بصلات ود حميمة مع عدد كبير من آل بيت الإمبراطور ورئيس الوزراء أكليلو وممثل الإمبراطور في أرتريا (البتودد) والرؤوس (أمرو وكاسا ودستا وماكونين) وأبنائهم وأحفادهم والليح أندلكشو وإسكندر دستا. كما حظيت بمعرفة ومعونة الكثيرين جداً ممن عرفوا السودان وسبق لهم أن عاشوا فيه "كاتو هيوات" المحامي وزوجته زكية وبناته (زوج إحداهن بلاتا داود نائب وزير الخارجية) وملس عندوم وأخيه الجنرال أمان، رجل الإنقلاب، وجيلا نقيب المحامين، ومن السودانيين من كانوا لنا عونا فإستوعبناهم في السفارة الأخ/ صديق الجمري والآنسة/ ميري وعبد الرحمن السائق لمعرفتهم باللغة المحلية لحد الإتقان والشيخ/ إبراهيم المقبول وصبحي قرنفلي وقرياقوس ومكي عباس الذي كان أميناً عاماً للجنة الإقتصادية الإفريقية وغيرهم كالمستر جيلان (الإبن) وسلفيا بانكهرست وتوم أمبوبا. أما في الوسط الدبلوماسي فقد كانت صلاتنا بممثلي الدول الشرقية والغربية طيبة وعميقة. وهنا لابد لي من التخصيص بعد التعميم لأشيد بالعلاقة القوية والأسرية التي كانت تربطني برصيفي السيد/ عمر السقاف سفير المملكة العربية السعودية وأركان سفارته التى ما تزال حبالها موصولة بين العائلتين.

ولقد كتب الله لى ولزوجتى آداء فريضة الحج وأنا بأثيوبيا عام 1957م فكانت السفارة فى جدة وعلى رأسها الأخ/ محجوب مكاوى وبعثة الحج مولانا شيخ عوض الله صالح والدكتور/ زين وأسرة السقاف (الكريم المضياف المتلاف لحد الإسراف) فى المدينة المنورة هي التي تلقفتنا وبالغت فى الإحتفاء بنا. وإني لأذكر كيف أدخلنا والد عمر على زوجته وبناته ونحن نحل ضيوفاً بمنزله الفخم وأمرهن بأن يرفعن حجابهن قائلاً لهم أن هذا هو أخ عمر وأخوكم.. وأذكر تخصيص عربتين كاديلاك لكل منا أنا وزوجتي واحدة لنتردد بها على المسجد النبوي طيلة أيام إقامتنا وللزيارات والتحركات وخصنا بجناح كامل من منزله

الرحب الشامخ بمنطقة البساتين فى مدخل مدينة الرسول الكريم (ص) وأغدق علينا من عطفه وغمرنا وأهله بخيراته فكانت أياماً لا تنسى يسعدني أن وشائجها ما تزال ممتدة في الأخوان والأخوات والبنين والأحفاد.

وأتاحت لي فرصة تمثيل السودان فى معرض الصومال 1957م التعرف على ذلك القطر وهو يتهيأ للإسقلال والتحرر من قبضة إيطاليا. فسافرت إليه عن طريق عدن (حيث كرمني وأحسن لقائي حاكمها السير وليام لوس، الذي عملت معه وإستلمت منه فترة الشؤون الخاصة بالسودان، وإحتفى بي في دعوة عشاء كبيرة أقامها بمنزله، وحضرها رواد الإستقلال اليمنيون وغيرهم، دار فيها نقاش طويل ممتع).



مع د. الزيات ممثل الأمم المتحدة في الصومال (المعرض)

ووصلت مقديشو حيث إلتقيت برئيس الإدارة الإيطالى والسيد عبدالله علي رئيس الوزراء ووزرائه، كما كانت فرصة طيبة لأن أجدد اللقاء فيها مع الأخ الدكتور/ "الزيات" بن الأستاذ/ أحمد حسن الزيات وزوج إبنة عميد الأدب الدكتور/ طه حسين، الذي كان مندوباً وممثلاً للأمم المتحدة هناك، وأذكر أن أول لقاء بيننا كان على رصيف محطة عطبرة فى الأربعينات في الإستقبال الذي أقمناه له وهو أحد أعضاء وفد الطلبة المصريين الزائرين للسودان. وقد طفت بمعونة المسؤولين على مواضع عديدة قريبة وبعيدة قبل مغادرتي للصومال والتي توقفت وأنا في طريق عودتي فيها في عدن وقمت بزيارات لمحميات الشيخ عثمان ولحج وحضرموت، كما توقفت ليومين في جيبوتي حيث أعد لي الحاكم الفرنسي والمسؤولون والصوماليون برنامجاً تعريفياً وافياً زرت فيه أهم المعالم وتحدثت وإلتقيت فيه بعدد من الحكوميين والمسؤولين والسياسيين والشباب، عدت بعدها قافلاً إلى أديس حيث أعددت تقريراً ضافياً مفصلاً عن الرحلة بعثت به إلى الرئاسة.

أما عن الإسلام والمسلمين بأثيوبيا فمع أن الإحصاءات تقول بأنهم يمثلون الأكثرية في التعداد إلا أن شوكتهم محصورة وصوتهم مكبوت لا تكاد تحس لهم ركزاً.. وقد تجولت في مناطقهم وإلتقيت ببعض علمائهم ومشائخهم من الجبرته في تخوم جِمَّه وغيرها. وفي داخل أديس أبابا حيث لهم مسجد كبير كنت أحرص على أن أؤدي فيه صلاة الجمعة وصلاة العيدين بإنتظام وأذهب إليه بعربة السفارة وعلم السودان يرفرف خفاقاً منشور اللواء - وكنا نفتح دار السفير والسفارة في مواسم الأعياد فيؤمها المسلمون بعد أداء الصلاة في جموع زرافات ووحداناً فنحسن إستقبالهم ونكرم مثواهم. ولعله لم يكن بمحض المصادفة أن تتكرر إستدعاءاتي للمقابلات الرسمية وأن تحدد أغلب مواقيت مقابلاتي لوزير الخارجية ولغيره من كبار المسؤولين، التي أطلبها في وقت مبكر سابق، ليكون

أكثرها في أيام الجمع وقبيل وقت الصلاة بالذات.. الأمر الذي عندما تكرر كنت إما أعتذر عنه أو أذهب قبله أو بعده بقليل وأنا بملابس الصلاة..

ولأختم هذا الفصل لابد لي القول بأن أثيوبيا كلها جميلة خلابة جذابة ساحرة فاتنة: بلد خيره كثير ومطره غزير وطبيعته المتفاوتة والمتناقضة في العلو والإرتفاع الشاهق الذي يتجاوز الألفي قدم، كما في أديس أبابا وأسمرة، أو المنخفضة إلى ما تحت سطح البحر أو القاع كما في مصوع، تكسو أرضها الخضرة الزاهية الموشاة بأفواف "المصكل والزهر البري المتسلق لذرا الهضاب من ثرى الأعشاب. وهي تزخر ببحيراتها العديدة الجميلة الزرقاء وبأشجارها الملتفة البواسق السامقات وتلفها جناتها المعروشات وغير المعروشات. فكل ما فيها مبهج للنفس وممتع للنظر حيثما أرسلت البصر لا تستقر العين فيها إلا على كل جميل فاتن أخاذ. وشعبها رغم ما يعانيه بعضه من فقر وشظف عيش (وبعض قبائله على وجه التحديد) من أجمل شعوب العالم إن لم يكن أجملها جميعاً بلا منازع كما كان يقرر ذلك ويكرره ويؤكده لي صديقي الأخ السيد/ يعقوب عثمان (الذي عمل سفيراً للسودان بأثيوبيا فيما بعد) ومعززاً قوله بالحجج وبالشواهد المدعمة بالأسانيد وبالشواهد الحية..

ودرجنا طيلة إقامتنا في أثيوبيا على أن نهبط في نهاية كل أسبوع إلى أحد منتجعات ضواحي العاصمة المنخفضة نوعاً ما لنستريح فيها ولنقضي بها العطلة الأسبوعية الطويلة (من أمسية الجمعة إلى مساء الأحد) في بشفتو تارة وأداما "طوراً" "وأمبو" أوليسوا أو البحيرات أو غيرها من مواطن الترويح والإمتاع والإصطياد والجمال السياحي والإستمتاع بمناظرها الخلابة والإستشفاء بمياهها الكبريتية الدافئة وبأكلاتها الشعبية الشهية (الزقني والدوررواط) وبمياهها الصحية المعدنية للشراب في قنيناتها.

حقاً ما كنت أريد بأثيوبيا بديلاً أو أبغي عنها حولاً ولكنها إرادة الله وقدره المسطور. فقد تدنى إنخفاض ضغط دمي رغم إرتفاع البلد وألم بي ألم باطني

مفاجيء ونزيف مِعديّ لم يعرف أن كان من "المريء" أو نتيجة قرحة في الإثني عشر أو المعدة، كاد لولا لطف الله أن يودي بحياتي فعجل أسباب رحيلي.. إذ دخلت المستشفى ولقيت من إهتمام طبيب السفارة اليوغسلافي وأطباء المستشفيات الروسية والأثيوبية ما لم يجد فتيلاً. فقررا سفري الفوري للإستشفاء. ورأيت أن يكون ذلك بعد مشورة "أبو الطب" نطاسينا العظيم الدكتور/ عبد الحليم محمد.. فتم ذلك عبر الخرطوم.

وأن أنسى لن أنسى ذلك العطف الكبير والشعور الدافق الفياض الذي غمرني به الجميع – سودانيون وأثيوبيون ومعارف وزملاء ونزلاء وأجانب. وكانت تلك الرسالة الكريمة الخطية المعبرة، التي وردتني من جلالة الإمبراطور وحملها إليَّ وأنا على سرير المرض موفد من القصر للإستفسار عن صحتي وتمنياته لي بالشفاء، خير بلسم يأسو الجراح ويعجل بالشفاء.

غادرت أديس أبابا في مايو 1959 إلى الخرطوم وإستقبلني إسعاف المستشفى بالمطار وحللت بالقسم الجنوبي بضعة أيام وجهني بعدها د. عبد الحليم محمد بالسفر إلى لندن حيث تم التداوي على يد زميله الذي شهد له بالدراية وبالحذق السير "فرانسيس آفري جونز" في لندن، عدت بعدها وقد أوصي بنقلي لأجمع أغراضي وغادرتها نهائياً ولسان حالي يردد:–

ياجنة فارقتها النفس مكرهة لولا التأسي بدار الخلد مت أسى

فلقد كانت بحق كما وصفها الدبلوماسيون الأوربيون بأنها "سويسرا أفريقيا"!!

وكان الله بي حفياً، فقد عوضتني عنها جنات خلد لبنان وسواد العراق والرافدين والرصافة وثرى ومقدسات الأردن الطاهر ورياض سوريا واللاذقية وأنطاكية وأضنة والأناضول وإسطمبول وحوافي الدردنيل والبسفور، كلها في سفارة واحدة. فله الحمد وله المنة على كل ما به أنعم.

هذا وما يزال البساط الأثيوبي الذي أهداه إليَّ جلالة الإمبراطور يوم سفري (والمنسوج بالأمهرية على وبره أنه من صنع أثيوبيا) يزين أرض غرفة نومي

بالجيلي منذ أكثر من أربعين عاماً – وكذلك علبة السجائر الفضية المذهبة والملسم العاجي الذهبي الشعار والسوار الذهبي الخفيف المهدي إلى زوجتي والذي ما تزال تزين به معصمها أحياناً، والوشاح الكبير لنجمة أثيوبيا الذي قلدنيه، والصورة التي أمهرها بتوقيعه بالخط الأمهري في إطارها الرسمي، كل هاته ما زالت تحتل مكانها البارز في مسكني بصالوني الصغير شواهد ثابتات ناطقات على ما أحللت لذلك البلد ولمليكه من قلبي – ذكرى لشعب جار شقيق ولملك وفيٍّ صديق أحب السودان وأحبه لحبه كل من عايشوه وخبروه وعرفوه..

سفارة البلاد العربية (العراق ولبنان والأردن) وتركيا
1959 – 1964م

أحذر عدوك مرة وأحذر صديقك ألف مرة

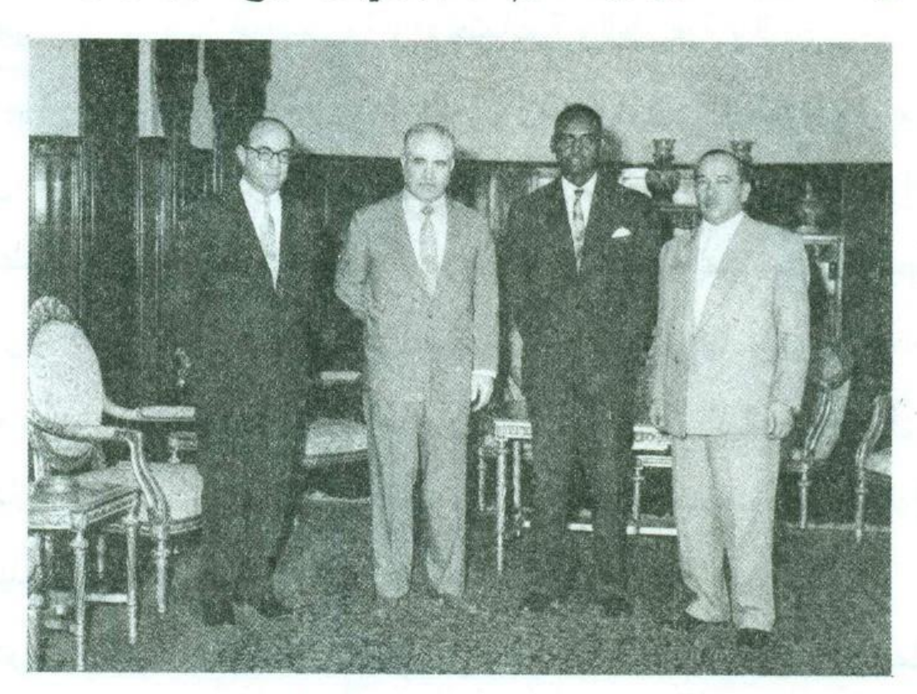
فلربما إنقلب الصديق فكان أعرف بالمضرة

حاولت اليد "الخفية/ الظاهرة" في الرئاسة أن تعبث. فحاولت تقليلي وتقليم رقعة السفارة التي رشحت لها بإقتطاع لبنان والأردن منها تنقيصاً لي. كما حاولت في الوقت ذاته إستفزاز صديقي جمال (وكان كلانا في الخرطوم إستعداداً لتسلم أعباء السفارتين الجديدتين اللتين كنا سنتبادلهما ونتعاقب عليهما) وطال الجدل وإحتدم الخلاف فحسرنا القناع وكشفنا عن المستور وعرينا كوامن ودوافع ذلك النزاع الذي عم وذاع حتى أوصلناه إلى أسماع الرئيس عبود بخطاب طويل جرئ وصريح بما فيه عن طريق الوزير/ أحمد خير وإنتصرنا في النهاية. فبقيت السفارة المنوطة بي والموكلة إليَّ برقعتها كاملة لم تمس . وإستغرق إبطال تلك المحاولات والمشاكسات وقتاً ليس بالقصير أفدنا منه أنا وجمال في إستعراض الأوضاع والمداولات والمراجعات في بعثتينا الشيء الكثير .

كانت رقعة السفارة الجديدة وما إشتملت عليه من أقطار لها وزنها وثقلها في موازين السياسة والموقع والأهمية التاريخية في الساحة العربية والإقليمية والدولية والقيادية وحتى في منزلتها الحضارية والإجتماعية والطبيعية والسياحية، كانت حرية فعلاً بأن يحسدني عليها الحاسدون والحاقدون والمعوقون الأصدقاء والأعداء، كما كانوا يطلقون عليها إسم الإمبراطورية التي أجوبها مخترقاً لها من أدناها إلى أقصاها وأنا مفرد علم سيارتي "علم السودان" مرفرفاً لا أطويه من سواد العراق وعبر الأردن وسوريا (أيام خروجها عن الوحدة) ولبنان إلى تركيا وسواحل بحر مرمرة وإسطمبول.. وليس ذلك وحده ولكن لما بين تلك البلاد من ترابط وتداخل ومؤثرات يكامل أو يمازج أو يباين بعضها البعض ولا تكتمل الصورة للمنطقة إلا بالجمع والمضاهاة بينها جميعاً.

وأصدرت الأوامر بإعداد أوراق الإعتماد كلها فلم أنتظرها وحملت أوراق الإعتماد للعراق وغادرت الخرطوم عن طريق بيروت في النصف الثالث من أغسطس 1959م وبرفقتي جميع أفراد أسرتي وبقيت يوماً في ضيافة الصديق/ عباس الدالي القائم بالأعمال في بيروت ثم غادرناها إلى بغداد لنصلها في حمارة القيظ. وفتحت أبواب الطائرة فإذا بنفثة حامية من جهنم تلج علينا لتلفح الجباه وتشوي الوجوه.. إرتد على أثرها أطفالي عند بلوغهم الباب راكعين متراجعين إلى مقاعدهم بالطائرة فراراً من حر نارها... ولا غرو فقد كان وصولنا في (شهر آب اللهاب) الذي يصف العراقيون العشرة الأولى منه بأنها (تذيب المسمار في الباب) والعشرة الثانية (تفتح من جهنم باب.) وإستقبلنا مع مسئولي المراسم الأخوة أركان السفارة وكانوا نخبة كريمة وضاءة (الدكتور/ محمد أحمد ياجي المستشار، والسكرتاريون/ عبد العزيز النصري وإسماعيل المليك وجعفر أبوحاج) والكاتب والمحاسب/ مصطفى الحاج وآخرون. وإخترقت بنا السيارة الرصافة وعبرنا الجسر فذكرت رائية على بن الجهم وتلفتت عيني علها تبصر عيون المها، وتلفت القلب

ونحن نشق شارع الرشيد يذكر المسجد التليد وحللنا دار مأوى السفير بالمسبح التي لا يفصلها عن شط دجلة غير بيت نديم الباجهجي وشارع عريض واحد.



مجلس السيادة العراقي حين تقديم أوراق الاعتماد

ويرى وزير الخارجية السيد/ هاشم جواد في أقصى اليسار

قدمت أوراق إعتمادي إلى مجلس السيادة الرباعي ورئيسه نجيب الربيعي في مراسم مبسطة. وكان اللقاء الأول الطويل الذي تلا ذلك مع قائد ثورة تموز ومفجرها الزعيم/ عبد الكريم قاسم الذي أبدى فرحاً عظيماً ورحب بي ترحيباً حاراً تبسط معي فيه بحديث جاوز الساعة والنصف دار كله حول ما يربط العراق بالسودان من صلات وتشابه حتى في السمات والصفات وفي عامية اللهجات والمفردات أمثال "شنو" "وهسع" وغيرها. ويبدو أن كانت الأرواح جنوداً مجندة فعلاً فتعارف منها ما إئتلف فما أكثر ما كان يستدعيني الزعيم عبد الكريم طيلة أيام حكمه على فترات متقاربة وعديدة إلى مكتبه، الذي هو مقر إقامته في وزارة الدفاع، إلى لقاءات يمتد بعضها إلى عدة ساعات لتصل إلى موعد الوجبات. إذ تناولت الغداء معه مرتين أثناءها وفطور رمضان مرة من عمود ذي طباق عادية ثلاثة لا تحوي غير الأرز (التِمَّن) والمرق والخبز والسلاطة وقليلاً من الفاكهة وكثيراً من أكواب

الشاي (الطوخ) يديره بنفسه "بالأستكانات" (الكبايات) الزجاجية الصغيرة. ولم تكن تلك الأحاديث على كثرتها وطولها تدور حول السودان وحده بل عن الأوضاع العربية والأحوال العالمية والأهداف القومية والسياسية والإجتماعية ورؤاه الثورية التي كان يجري النقاش فيها بيننا بصراحة تامة وحرية كاملة تلتقي وتتباين فيها وجهات نظرنا بين التنظير والتطبيق. لكنه كان يرتاح لها ويستزيدني منها مما أوحى إليَّ بما يشبه الإصطفاء والثقة... وكان يحرص على تعميق وترسيخ الصلات بالسودان ويهتم بتخصيص المنح الدراسية لطلابه ويرعاهم ويحث على تقوية الصلات التجارية والإقتصادية والثقافية وتبادل الخبرات والزيارات ولكن الدنيا لم تمهله طويلاً وشغلته الأحداث الداخلية والتآمر الخارجي ومشكلة دعوى ضم الكويت للعراق التي أثارها فكهربت الأجواء والتي كان لي وللسودان رأي مخالف حيالها.



مع عبد الكريم قاسم والطلاب السودانيين

في زيارة له بالمستشفى بعد نجاته من محاولة للإعتداء على حياته

ولقد قمت بمبادرات مني بدون تكليف من رئاستي (وإن كنت قد أحطتها بها علماً) في سبيل تقريب وجهات النظر بين البلدين (العراق والكويت) الذي شددت إلى حاضرته الرحال بالطريق البري بعد زيارة مني للبصرة والإستئذان منه فرحب بي وإستقبلني مندوب مشيخته في الحدود وإستضافني "بقصر السيف" عدة أيام وتشرفت بالإجتماع في خلالها مرتين بسمو الأمير/ عبد الله الجابر وبسعد العبد الله إبنه الشاب وببدر الملَّة ولم يكن من اليسير طبعاً الوصول إلى حل أو إتفاق لبعد الشقة بين الموقفين .

وناصر السودان الكويت وبعث بطليعة من قواته تحت إمرة أحمد الشريف الحبيب أولاً والزيبق وأوفدنا السكرتير جعفر أبوحاج من سفارتنا ليكون حلقة وصل ونواة الإتصال الرسمي .. والطريف في الأمر أن تلك الإجراءات لم تؤثر سلباً على علاقاتنا الرسمية والشخصية بالزعيم عبد الكريم قاسم التي ظلت مستمرة ودودة.. والتي أكدها الزعيم بحضوره الشخصي لحفل إستقبالنا بعيد الإستقلال والذي بقي فيه على غير العادة معنا وقتاً طويلاً جداً.. أطول بكثير عما هو معتاد.

ليس من اليسير إفراد الحديث وقصره على قطر واحد من الأقطار العديدة التي تشملها رقعة السفارة كلها في وقت واحد (العراق والأردن ولبنان – وسوريا خارج نطاق الوحدة) وتركيا والتغطية غير المباشرة للكويت وإمارات الخليج خصوصاً خلال فترة مستمرة طويلة بلغت الخمس سنوات أو جاوزتها قليلاً كنت خلالها أتنقل من بلد إلى بلد في رحلات ماكوكية وتدفعني تقلبات الأجواء السياسية إلى أن أكون دائم التجوال فيها كأنني المعني بقول الشاعر ..

يكفيه من لوعة التشتيت أن له — من النوى كل يوم ما يروعه
ما آب من سفر إلا وازعجه — رأي إلى سفر بالرغم يزمعه
كأنما هو في حل ومرتحل — موكل بفضاء الأرض يذرعه

فلقد كانت أحداث المنطقة تتتالى وتتقاطر سراعاً وكأنها أتون متوقد لا يخمد له أوار نار.. يشتعل هنا ليثور ويمور هناك في فوْرات متلاحقة متصلة الدفقات للحد

الذي كان يجعلني الهث وأنا أخف لأقفز أو أطير إليها في محاولاتي وتتبعي لها. فقد كنت حقيقة أعيش بحقيبة جاهزة ومعدة دائماً في جميع الأوقات وبتأشيرات لمتعدد الرحلات.. وعلى هذا فمن العسير أن أورد مذكراتي عنها قطراً قطراً وإنما سأتصدى لذكر ما تسعفني الذاكرة حسبما توحي به الأحداث ومواقيتها وفق وبقدر الإمكان في غير ما ترتيب.

إتسمت الفترة التي قضيتها في المنطقة عامة بالإضرابات وبالهبات وتيارات عدم الإستقرار فقد شهدت عدداً من الإنقلابات والمؤامرات ومحاولات قلب نظم الحكم المتلاحقة في سوريا وفي الأردن وفي العراق كما طغت على الساحة العراقية مشكلة الكويت وقضايا الأكراد والأقليات كالأرمن والبلوشيه والتيارات الناصرية والبعثية والقومية العربية والشيوعية المتطاحنة المتضاربة بالإضافة إلى الفروقات المذهبية بين السنة والشيعة مما لن أخوض في تفاصيله هنا إلا بما يأتي به سياق الحديث خلال الفترة الطويلة التي كنت في سنتيها الآخيرتين عميداً للسلك الدبلوماسي فيها بشقيه العربي والأجنبي في بغداد وسأعود إلى الحديث عنها مرة أخرى .

المملكة الأردنية الهاشمية

وردتني أوراق إعتمادي للأردن في بغداد. ومع إني كنت أحس في نفسي وأدرك صعوبة الجمع بين عراق الثورة وبين الملكية في الأردن (التي قتلت العراق الملك فيصل بن عم الملك حسين وسحلته مع رئيس وزرائه نوري السعيد) فإن ذلك لم يمنعني من أن أظفر بترضية إن لم يكن برضاء العراق القلبي كله بعد شرحي للظروف وإعرابي عن مطمحي وأملي في أن أكون رسول وئام بين البلدين العربيين. وقد سرني تفهم الزعيم عبد الكريم للأمر وقبوله بالوضع الذي لم يبد أي إعتراض عليه متمنياً لي التوفيق.

ورأيت أن يحضر مراسم تقديم الأوراق معي في الأردن سكرتير سفارتنا في بيروت التي تمت إجراءاتها في جو بلاط ملكي كسائر نظمه التقليدية المألوفة.

وإستبقاني خلاله الملك حسين في حضرته وبحضرة وزير خارجيته ورئيس ديوانه ومن معهم وقتاً طويلاً تحدث لي فيها من كل قلبه عن السودان وعن حبه له وعن عظيم ثقته بأهله تلك الثقة التي حاول أن يدلل عليها في إحدى مقابلاته العديدة التالية بما إستشعرته زهواً يمازجه بعض الخجل عندما ذكر لي أن أكثر من يأتمنهم على خدمته في داخل داره وأهله وخاصته وطعامه وشرابه وسلامة مخدعه الخاص هم السودانيون ...

بقيت في عمان الفترة التي يتطلبها أداء الزيارات البروتوكولية اللازمة للتعارف وللمجاملة، والكافية للتعرف على معالمها ومواضعها التاريخية والأثرية والإسلامية المقدسة وعيونها ووجوهها وسياسييها ثم غادرتها لأتردد عليها بعد ذلك مرات خلال السنوات الأربعة التالية لحضور المناسبات الرسمية أو لتلبية الدعوات الحكومية أو لتصريف بعض الأعمال. فقمت بزيارات غطتها كلها من جميع الجهات شملت إلى جانب عمان أمهات بلدانها وإمتدت إلى حدود إسرائيل والخطوط الأمامية في طولكرم ورام الله ونابلس وبيرزيت وصليت مرات عديدة في المسجد الأقصى وزرت مراقد أنبياء الله سليمان وداوؤد ومثلت السودان في أزدواجية عجبت لها مع السيد أحمد المهدي في حفل إفتتاح المرحلة الأولى لقبة الصخرة وحضرت عيداً لميلاد السيد المسيح وزرت موضع ميلاد المسيح ببيت لحم وكنيسة القيامة وحائط المبكى ومسجد عمر بالقدس وزرت مثوى أبو الأنبياء إبراهيم بمدينة الخليل، ومشهد النبي موسى، والبحر الميت (بحيرة لوط) الذي هو فيما يقول به الجيولوجيون أدنى المواضع جميعها إنخفاضاً عن سطح البحر في الأرض ولعل ذلك بسبب خسف الله بهم الأرض، والموضع الذي عُثر فيه على نسخة التوراة القديمة وعلى ألواح توراة سيدنا موسى والذي أخترقت فيه البلاد جنوباً إلى العقبة وشهدت فيها ميناء إيلات الإسرائيلية ترى فيها أنوار الغدر في الليل ولا يفصلها عن العقبة غير عرض الخليج – كما توقفت في البتراء بوادي موسى وهي المدينة المنحوتة بأسرها في الصخور بملاعب ومدرجات وقصور ومعابد كان الرومان يسمونها بطرة البتراء وهي

بالعربية مدينة "سلع" عاصمة الأنباط العرب فكانت لعيني مسرح عبرة وجلال وكانت كما قال عنها فؤاد الخطيب:

بلداً كأن يدا دحته فخرً من قلل الجبال ممزق الأوصال

كما شققتها من حدودها للعراق شرقاً وإلى جرش وأربد ومعان والعدسية والرمثا وطبرية ووقفت بأطلال قصر عبد الملك بن مروان في "أريحا" على قيد خطوات من موضع تعميد النصارى في نهر الأردن. وزرت الدير في عموس وقناة الطور وجامعة بيرزيت وآل طوقان في نابلس وثرى اليرموك مثوى مجاهدي الصحابة الأفذاذ معاذ وسعد وشرحبيل وأبوعبيدة – كما وقفت ومعي صديقنا الأستاذ (المعلم)/ عبد الرحيم الأمين طيب الله ثراه وخلّد ذكراه وقد كان مشرفاً وقتها على مكتب هيئة اليونسكو في الأردن على الموضع الذي سجل فيه المتطوعون السودانيون عام 1948م معجزة الصمود وذادوا عنه فلم يسقط في يد العدو أبداً إلى أن إرتحلوا عنه بعد إنتهاء الحرب مما سجل مفخرة تتناقلها الأجيال وما تزال تجري على كل لسان.

كذلك كانت تلك الزيارات التي قمت بها بمعية السيد/ تيسير ظبيان ومدير الشوؤن الدينية ومدير مصلحة الآثار عام 1960م لما يظن (بل وأرجح) بأنه الموضع الذي آوى إليه أصحاب الكهف والرقيم أعدها حرية بأن لا أغفلها وأنا أسجل هاته المذكرات.

فعلى حافة طرف مدينة عمان وعلى موقع ليس بعيد من الفندق القديم الذي كنت أنزل فيه تقوم ضاحية "الرجيم" وينطقها البعض "الركيم" التي تحوي ذلك الكهف: ذهبنا إليه مرتين ودخلنا فرأينا القبور وموضع بسط ذراعي كلبهم بالوصيد ورأينا مرتين والله على ما أقول شهيد، كيف أن "الشمس تزاور عن كهفهم ذات اليمين وتقرضهم ذات الشمال " من خلال كوة الكهف وفتحته – وأكد لنا خبير الآثار أن الورق أو النقود الفضية التي بعثوا بأحد منهم بها إلى المدينة "لينظر أيها أزكى طعاماً ليأتهم برزق منه وليتلطف"... والتي أسفر عنها التنقيب في الموضع اثبت

الكشف والتوثيق عن أنها كانت في عهد الملك القاسط الذي إعتزلوه وما يعبده ليلاً نهاراً. كانت هذه حقيقة تاريخية ثابتة. هذا وهناك أقوال أخرى ينسب بعضها وجود أصحاب الكهف في تركيا والله أعلم بهم وبعدتهم وما يعلمهم إلا قليل .

وقد تحقق في تلك الفترة من زيارات توسيع آفاق الصلات وفتح باب تسويق اللحوم السودانية في الأردن وذلك بالإتفاق الذي أبرم مع السيد/ حابس المجالي لتغذية القوات المسلحة الأردنية كلها وإمدادها باللحوم من السودان مستعيضة به عما كانت تستورده سابقاً من كل من سوريا ومن الصومال. وفي مجالات التعارف بالمسوؤلين بحسبي أن أذكر ممن تنم أسماؤهم عن مكاناتهم العالية والرفيعة والمؤثرة ممن كانت لي بهم إتصالات وثيقة يرقى بعضها إلى درجات الصداقة والود، أذكر منهم من بيت الرفاعي (سمير باشا) وأخيه عبد المنعم، صديق المحجوب، والمجالي وأبوغزالة والتلهوني والجعفري والطراونة وسعيد المفتي والنابلسي وعاكف وموسى ناصر والشيخ أمين الحسيني مفتي فلسطين وأخيراً وليس آخراً وصفي التل، الزميل الصديق رصيفي السفير العربي، الذي تزاملت معه في ببغداد والذي أصبح رئيس وزراء الأردن فيما بعد، الذي أقرر جازماً بعد طول إحتكاكي وعميق معرفتي به أن الرأي العالم العربي قد ظلمه وتجنى عليه بغير وجه حق. فهو الذي لم يخامرني أدنى شك في سلامة توجهاته العربية الخالصة وصدقها وإبائه ورفضه للتبعية والذيلية والإنقياد الأعمى أو التزلف لينساق سوق الشياه مع القطيع فرموه بالمروق ووصموه بالخيانة التي هو منها براء والتي أردوه بظلمهم قتيلاً على عتبات فندق شيراتون بالقاهرة غيلة وغدراً ..

أما صاحب الجلالة الحسين فلقد تشرفت بلقاءات عديدة طويلة به في جميع الزيارات التي كنت أقوم بها فنشأت بيننا معرفة أُتسمت بالصراحة وبقدر كبير من الإعجاب المتبادل والصداقة التي تجلت فيما تفضل فكتبه بخط يده على صورته الرسمية التي أهداها إليّ وفي وسام الإستقلال ووشاحه الذي قلدنيه والذي أعتز وأفخر به خير ذكرى للأردن ولمليكها ولكل من عرفت وسعدت به فيها.



مع جلالة الملك الحسين ورئيس وزرائه وصفي التل والقائد العام الأردني حابس المجالي
في غداء مختصر خاص



مع صاحب الجلالة الملك الحسين بن علي

لبنـــان

تم تقديم أوراق إعتمادي لها في منتصف شهر نوفمبر بكامل الطقوس والمراسيم البروتوكولية في قصر الرئاسة وصحبني إليها الزميل الصديق/ عباس الدابي القائم بأعمال السفارة في بيروت. وتعاقب خلال فترة بقائي كسفير للسودان بها الرؤساء شهاب والحلو ومن رؤساء الوزراء صائب سلام ورشيد كرامي، ومن وزراء الخارجية العويني وفيليب تقلا. كما تعاقب على القيام بالأعمال في السفارة (بالتداول والتناوب) الزملاء/ صلاح الدين المليك وعبد العزيز النصري وعيسى مصطفى ومصطفى مدني وفاروق مصطفى وطه مكاوي وصالح محمد عثمان، والملحقية الثقافية الأساتذة/ ضرار صالح وأحمد حسن فضل السيد وبانقا الأمين وكملحقين صحفيين الأخوة/ أمين بابكر (إبن الشعب) وصلاح أحمد محمد صالح (الذي شق طريقه ليصبح سفيراً ناجحاً فيما بعد)...



مع الشاعر المعروف نزار قباني ، ويظهر في الصورة الأستاذ أحمد حسن فضل السيد الملحق الثقافي



مع رئيس الجمهورية الجنرال شهاب

مع الرئيس اللبناني بعد تقديم أوراق الاعتماد بحضور السيد عباس الدابي القائم بالأعمال

وماذا عساني أن أقول عن لبنان وهي جنة من جنات الله في الأرض

لبنان والخلد إختراع الله لم يوسم بأزيين منهما ملكوته

هو ذروة في الحسن غير مرومة وذرا البراعة والحجى بيروته

حبته الطبيعة بالنعم والخيرات وحفته بالمتع والشهوات وحنت عليه فحفته بالبحر وبالمغارات وبالبقاع وبالسهل المنبسط نحو البقاع وبالجبل المتدرج في الإرتفاع. فلك متى شئت أن تبترد في مسابح مياه شواطئها الدافئة ثم ترتقي متدرجاً صعداً إلى أعالي عالية وبحمدون وإشتورا وبكفتية... وتقف بجارة الوادي بنت البقاع زحلة التي ضمت ذراعيها رقة الطبيعة وإحتضنتها بحنين والحرمون لتخاطبها بقول شوقي:-

أنت الخيال بديعه وغريبه الله صانك والزمان رواك

التي يقصدها عشاق الشراب والمفتونون بعرقها وننعم نحن بصنوف مزاتها الطيبة الحلال المتعددة الألوان والأشكال التي تسيل اللعاب، ومرتفعات صوفر، ذرا الأرز الذي تكلل هامته الثلوج في بلد صيفها كشتائها وتتجول بين أطلال بعلبك التي تنفض عنها غبار السنين وتبعث فيها الحياة مهرجاناتها التي تقام سنوياً حافلة بالأدب والرقص والغناء والطرب وتحضر مراسم أعياد جني الكرز والدراق وتتنقل عبر مسالك مغارة جعيته وصخورها وأمواهها... ملاعب جنة لو سار فيها سليمان... وتعبر بك التيلفريك في السماء لتصل بك وتحط على القمم التي تلامس السحاب. ولقد زرتها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً من أصغر قراها إلى كبريات مدنها لأسعد بآل كنعان والريحاني وبشقير في "برمانة" وبآل البرجي في أميون وبشارة غريب في الدامور والعويعات وبغالب الترك سفير لبنان بالسودان الأسبق في ولايته صيدا وبزيارات الرؤساء والوزراء والساسة والأدباء شهاب والحلو في صيدا وعجلون وكرامي في طرابلس وصائب سلام واليافي والجميل بسراياهم في بيروت وجنبلاط في بازته المختارة وصربا والمعوشي في البطريكية. ومن أساتذتي القدماء ممن غدو وجهاء وأثرياء شكري شماس ونجيب طرزي وعبد الله وأميل

البستاني وكثير من أدبائها الزهر الشموس الذين تشرفت بمعرفتهم وبزياراتهم وصداقاتهم وإهداء مؤلفاتهم إليَّ وعلى رأس أولئك الأخطل الصغير الشيخ بشارة الخوري وأمين نخلة والريحاني في بيت شباب وغيرهم من العلماء والكتاب والصحفيين والجامعة الأمريكية وأساتذتها فؤاد صروف الذي إلتقيت به مراراً في زيارات المواطن الفذ والمؤرخ والعالم صديقنا الدكتور/ التيجاني الماحي الذي يعجب به إعجاباً شديداً ويجل مواهبه إجلالاً عظيماً والذي يحرص على أن تكون الجامعة الأمريكية أول ما يزور عند مقدمه ويقصدها ويتردد عليها طيلة أيام إقامته. ولا غرو فإنه كان يرى فيها ما رآه شاعر الشرق وهو يخاطبها بقوله:

كلية الشرق إن الشرق مفتخر يعلى مكانك بين العرب والعجم

فكل باب كباب القدس مستبق وكل ركن كركن البيت مستلم

والتي حببها إلينا ورفع من قدرها عندنا الأستاذ الموهوب الدكتور/ منير شماعة الجالس على أحد كراسي تخصصاتها العالمية والتي كان لنا فيها عدد كبير من الطلاب والمبعوثين السودانيين كانوا مثالاً في الإستقامة والعكوف على الدراسة والتحصيل ولهم نشاط ملحوظ يقوم به إتحادهم مع السفارة رأساً وعن طريق الملحقين الصحفيين في عديد المجالات.

وبدأنا في الدعوة والتمهيد لتكوين جمعية صداقة سودانية لبنانية تحمس لها الجميع ونشرت في الصحف لكنها لم تقم على سوقها وتنتظم حتى حين مغادرتنا بالنقل.. وفي مجالات التعاون والتبادل التجاري والإقتصادي (بالإضافة إلى الثقافي والفني) تحقق برتوكول نفذ بالفعل خاصة في ميدان اللحوم والماشية والحبوب في زيارة لوفد رسمي وتجاري جاءنا على رأسه اللواء عروة وزير التجارة. كما تمت خطوات للإفادة في المجال الإعلامي والتعريفي بتوجيه دعوات للصحفيين لزيارة السودان وفي مجال الفندقة والسياحة خاصة .

وكان بلبنان عدد لا يستهان به من السودانيين المهاجرين والمغتربين العالمين كما كان يؤمه ويهرع إليه للزيارة والسياحة والإستمتاع بطيباته ومباهجه ومصائفه

واحة يستظلون ويستريحون بها ليجدوا فيها الراحة والمتنفس سلوى. ولابد من إيماءة إلى مصايفها ومسارحها وملاهيها وكازنيها الفريد وفنادقها المتميزة كفينيسيا والسنت جورج والبرستول والكارلتون التي كنا نقيم فيها حفلات أعيادنا القومية.

وببيروت مركز النشاط السياسي والإعلامي والخيري وصحافتها لا مضارع لها في منطقة الشرق الأوسط كله: كنت أجد فيها حتى عن بقية الأقطار التي أعمل فيها وأحوالها ما لا أجده أو أعلمه عنها وأنا فيها. وإنها لقد كانت بالفعل آنذاك أكثر عواصم العرب لإستطلاع التوجهات المختلفة شرقها وغربها، بل كانت أشد ما تكون عندي كالسيرموغراف جهاز المراقبة والتكهن بالهزات الأرضية والزلازل السياسية.

وتعرفت على أيامي بها بعائلة سودانية الأب أردنية الأم، إشتهرت بالعرافة المشهود لها بصدق النبوءة التي شهدت بها وقائع الأحداث، التي تواترت وجرت على لسان خصت بها سيدتين من بناتها كبراهن إسمها فاطمة وإسم صغراهن بديعة: ويقال بأن مبدأ شهرتها كان مقترناً بدولة رياض الصلح الذي كان فيما يبدو عالماً ومقدراً لموهبتها وكان يأنس ويسلي نفسه أحياناً بالإستماع لما يقرأنه في فنجان الزيت.. ويقال بأنه عندما كان يتهيأ للسفر للأردن في زيارته الأخيرة وفي إحدى جلساته أن الكشف لإستطلاع الرأي "التي حضرها عندهن أنذرته بأن يغير رأيه وحذرته من مغبة تلك الزيارة ومما سينجم عنها من شر وعاقبة سوء.." وكان من الطبيعي أن لا يأبه لمثل ذلك القول أو يحمل ذلك النصح محمل الجد فيتوجه إلى تلك الرحلة ويشاء الله أن يصدق الحدس وتتحقق النبوءة. فيغتال الرئيس الصلح في أثنائها ولا يعود.. ويقول الرواة بما أحدثه ذلك الحدث من أثر تناقلته الألسن مما جعل بيت العرافين قبلة القصاد حتى من الكبراء ومن النواب وغيرهم يتوافدون عليها لتكشف لهم الفنجان: وقد بلوتها بنفسي لأكشف عن حقيقتها ولأقف على سر ما ذاع وشاع من عجيب ما يروى عنها. فوصلت إلى ما أدهشني وعقد لساني عجباً وحيرة في عديد من المسائل وفي كثير من المرات بعضها خاص بي وبعضها لعدد

من الأصدقاء المقيمين والزائرين لبيروت (أذكر منهم ما أجابت به عليَّ من تساؤلات الأخ اللواء/ أحمد عبد الوهاب في إحدى زياراته لها معي مما جعله يقفر فاه ويذهب به العجب إلى أقصاه) فقد كانت طريقتها أن تحضر لها فنجان قهوة فارغ وتصب فيه قليلاً من الزيت وتسلمه لها وأنت تضمر نيتك. فتبدأ مسمية الله ثم تسمعها تقول مرحباً وتهمهم بكلمات ثم تطلب منك ورقة وقلماً (وهي لا تعرف القراءة ولا الكتابة) وتمسك بالقلم فيجري بخط على السطر ما تضمره بخط غير جميل ولكنه واضح يقرأ.. وقد حدث أن أضمرت لها ذات مرة رسالة بالغة الخطورة والسرية وردتني بالحقيبة من الأخ الوزير/ أحمد خير كانت مودعة آنذاك في جيب الجكتة الداخلي التي كنت أرتديها. فمضت تخط مضمونها على الورقة حتى إنبهرت وفزعت وخشيت من خطورة كشفها فإستوقفتها وتناولت الفنجان منها وأنا لا أكاد أصدق..

أروي هاته الوقائع والتي هي أقرب إلى الخيال والتي يصعب تصديقها مع أنها وقعت بالفعل وأنا ما أزال أحار في تعليلها.. ولله في خلقه شؤون.

كان من الطبيعي أن توحي لي لبنان وكل ما فيها بقرض الشعر وإنشاء العدد العديد من الأبيات والقصائد أسجل فيها الخطوات والصبوات والخواطر والمناسبات والمساجلات مع بعض ناظمي الشعر من الأصدقاء كأبي داؤد "رئيس الديوان الملكي العراقي السابق" في وصف الرحلات وفي سهرات الأعياد وليالي عيد الميلاد وفي الندوات واللقاءات مع غيره في الفريكة ومصائف الجبل مما لن أتعرّض له بذكر هنا تاركاً ذلك لنشره في ديوان شعري متى كتب له الصدور .

وغادرت لبنان عند نهاية فترتي بعد سنوات خمس وأنا أحمل وسام ووشاح أرزها العظيم أزين به صدري وحبها يعمر قلبي وأنا ما أزال ذاكراً وفياً لبيروت أردد ...

بيروت يا راح النزيل وأنسه   يمضي الزمان عليَّ لا أسلوك

الحسن لفظ في المدائن كلها   ووجدته لفظا ومعنى فيك

فسلام على لبنان وعلى عهوده الزاهيات وأيامه النضرات .

تـــركـــيا

سافرت إليها بالسيارة من بغداد عبر الأردن وسوريا ولبنان في 23 أكتوبر 1960 لتقديم أوراق إعتمادي بها وسلكنا الطريق البري الساحر الجميل من طرابلس إلى بانياس مروراً "باللاذقية" التي حار فيها ضلال الشاعر للفتنة القائمة فيها :-

بين أحمد والمسيح ... هذا بنا قوس يدق وذا بمئذنة يصيح

والتي تزامن وصولي لها مع زيارة أمير الكويت الشيخ/ عبد الله السالم الصباح الذي إستولى وحاشيته على جميع غرف الفندق الذي كان قد حجز لي فيه..

ومنها إلى بانياس والإسكندرون "وكليتها الحربية" ثم إلى أنطاكية على ضفاف نهر العاص ثم "أضنة" حيث أكبر محطة أمريكية "للرادار." واخترقنا فيها جبال الطوروس "وقونية" عاصمة السلاجقة وأناضوليا حتى القرن الرابع عشر، التي نزح إليها الترك من المدن الإسلامية المسيحية الإغريقية، إلى أن وصلنا عاصمتها الحديثة "أنقرة" بعد أن قطعنا أكثر من الألف من الكيلومترات في الطريق العريض المعبد الممهد الجميل.

كانت المآذن أول ما يطالعنا في كل مدينة أو قرية نمر عليها الأمر الذي جعلني أحس بأن دين الله الإسلام ما يزال في تركيا بخير. ولقد صدق حدسي إذ صادف وصولي إلى أنقرة مساء يوم الخميس ورن جرس التلفون في غرفتي بالفندق قبيل العاشرة من صباح يوم الجمعة الذي يليه، فإذا بالمتحدث ممثل المملكة العربية السعودية يرحب بقدومي ويحييني ويهيب بي أن أتأهب ليمر عليَّ ليصحبني إلى المسجد لصلاة الجمعة.. فشكرت له مبادرته وأبديت إستغرابي متسائلاً عن حلول موعد ميقات الصلاة عندهم وإزداد تعجبي عندما أجابني بأنها تؤدى في الواحدة من

بعد الظهر ولكن الذهاب لحضورها يجب أن لا يتأخر عن الحادية عشر إذا أراد المصلي أن يجد له موضعاً داخل المسجد. وأضاف بأن ذلك ليس في مسجد معين بل في كل المساجد جميعها... وعلى الرغم من تعجلنا في الخروج معاً بسيارته وحمل سائقه سجادتين لنصلي عليها فإننا لم نجد مكاناً إلا في موضع قصي خارج المسجد أدينا فيه الصلاة. وقد رأيت الآلاف من المصلين يلبسون ولا يخلعون وهم في الصلاة أحذيتهم الطويلة العالية بأرجلهم وعلى رؤوس البعض الآخر منهم القلنسوة التركية والقبعة الغربية. وخطب الإمام بالتركية وتلا الفاتحة والسور للصلاة بقرآن عربي مبين فيه لكنة الترك وعجمتهم .

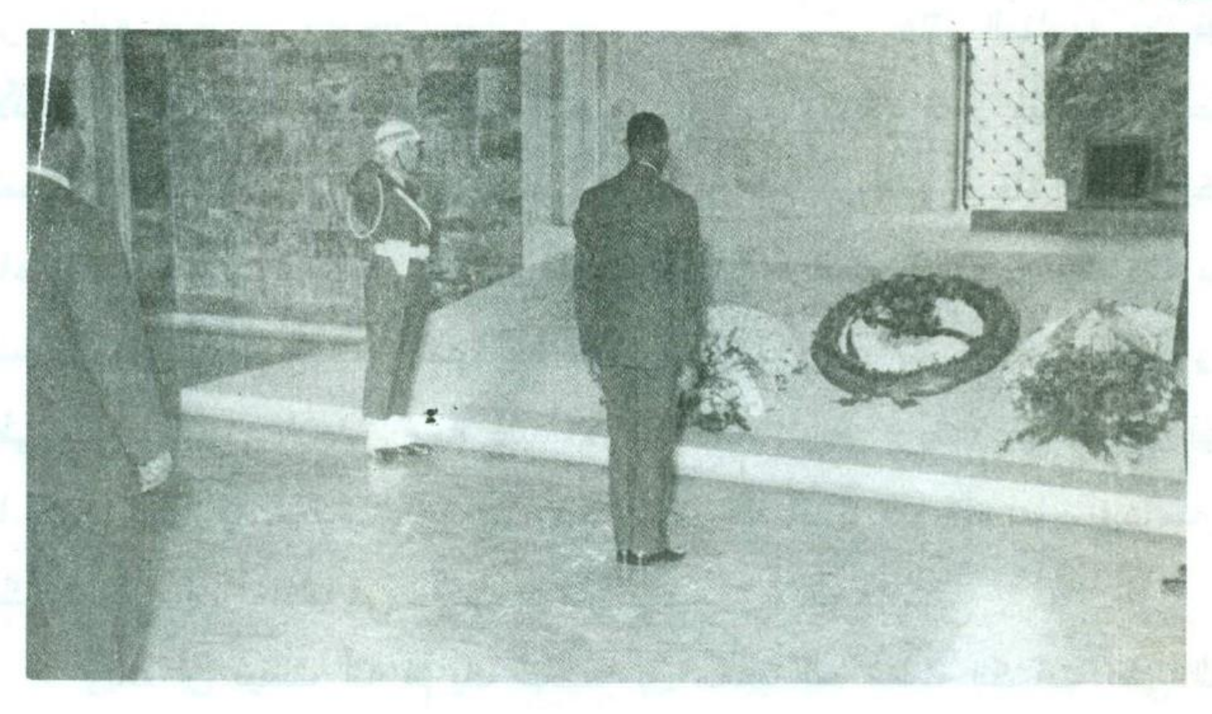
وخصصت لي مراسم الدولة سكرتيرة مرافقة حسناء فارعة الطول ممشوقة القوام تحسن الإنجليزية لتعينني بالترجمة على التخاطب والإتصال. وحل موعد تقديم أوراق الإعتماد للرئيس "جلال بايار" قبيل الغروب ودخلنا إلى القصر بعد الإنتهاء من عزف السلامين الوطنيين وتفتيش قرة قول الشرف فألقيت الخطاب الذي أعددته ورد عليه الرئيس. وفوجئت بما درجوا عليه في أمثال هاته المناسبة من تبادل الأنخاب ورأيت الشمبانيا معدة ومعبأة في الكؤوس والأكواب يدور بها حاملها علينا. فلممت أطراف شجاعتي ولم أتردد في أن أهمس في أذن أحد السقاة ليجيئني بكوب ماء أو بأي مشروب آخر حلال، أسرع به إليّ فرفعته إلى فمي وشربت نخب السودان وتركيا مع الرئيس الذي أخذ بيدي بعد إكتمال المراسم وهو يصافحني ويشد على يدي ويقتادني لأجلس معه على الأريكة المعدة وهو يربت على ظهري ليقول ما معناه "عفواً يا سعادة السفير .. وشكراً لكم. فقد لقنتنا اليوم درسا سنفيد منه بلا شك. فمعذرة إن أخطأنا في حقكم مما كان يجب أن لا يحدث.."

وبعد أن تيقنت أنه لم يك غاضباً بل معجباً بما فعلت إنكشفت عني الغمة وكبرت في عين نفسي وحمدت الله على ما صنعت..

وقمت بالطواف الذي يفرضه العرف الدبلوماسي على المسؤولين وعلى الرصفاء الدبلوماسيين وعلى كبار الزعماء السياسيين خلفاء نيازي وأنور.

فإن لم يكن إلا نيازي وأنور   فقد شغل الدنيا نيازي وأنور

ورئيس الجمعية الوطنية وعثمان بك رئيس حزب الفلاح وأكرم علي خان رئيس حزب تركيا الجديدة وديموريل وغيرهم. وقد كانت الزيارة التي قمت بها لمندوب الترك في مؤتمر لوزان وإلى الزعيم عصمت أينونو، رفيق أنور ونيازي وشوكت، والتي نشرت الصحف صورتها وتحدثت عنها بالرضى، ذات أثر ومغزى عميق. فقد لبثت معه زهاء الساعة والنصف وهو الأصم الذي لا يسمع سر الكايدين له ولا يضيق بجهر المحنق الصخب وأنا أصيح بكل قوى صوتي لأسمعه، لأنه مصاب بالصمم ويستعين بسماعة مثبتة في أذنه مدلاة حول عنقه وبترجمان بارع يتحدث العربية والإنجليزية بطلاقة، طافت بالماضي وأحاطت بمجريات الأحوال الحاضرة في الداخل والخارج وكانت أعينه الصغيرة الفاترة تشع منها نظرات تكاد تقدح توهجاً ونفاذاً يرسلها بعيداً وهو يتحدث إليك كأنه يستشف سحيق الماضي الذي يتملاه .



أثناء وضع الأكليل على ضريح مصطفى كمال أتاتورك ، تركيا ، أنقرا 1960
ويرى معي الزميل صلاح أحمد محمد صالح

ووقفنا على قبر الغازي والذي جعلني وأن مجدّت له إنتصاره في ميادين الحرب والسياسة فلن أغفر له إلغاءه للخلافة ونفي الخليفة وإستبدال الأحرف. وتذكرت أبيات شوقي التي عارض بها قصيدة أبي تمام والتي مدح فيها الغازي مصطفى كمال بمناسبة إنتصار تركيا على اليونان والتي وردت فيها إشارة إلى صمم عصمت أينو نو بالأبيات :-

أتاهم منك في لوزان داهية   جاءت بها الحرب من حياتها الزغب

أصم يسمع سر الكائدين له   ولا يضيق بجهر المحنق الصخب

وطفت على المساجد العديدة البديعة تطل بها المآذن باذخات، والتي تزيد عن المائة مسجد فيما يجاور العاصمة وحدها، تزينها النقوش والفيسفساء وزرت بعض المعاهد والجامعات ودور الرعاية والثقافة الإسلامية وكلية اللاهوت وتوجهت إلى أستنبول عاصمة المجد التليد بالسيارة عن طريق بورصة وأزمير وبولو وأذبازي وأزميت جيئة وذهاباً. وبقيت بها بضعة أيام أتعرف على الإستانة أجوس خلالها دورها وقصورها ومعابدها أياصوفيا الكنيسة التي صارت إلى مسجد بالقرن الذهبي عبر أمواه مرمرة والبسفور والدردنيل ودولما باجة سراي سلاطين آل عثمان. وذرفت دمعة على" خلافة الله في أحضان دولتهم"

شاب الزمان وما شابت نواصيها ...

وتذكرت نصح شوقي لهم الذي لم يصيحو إليه:

فلا تكوننَّ تركيًا الفتاة ولا   تلك العجوز وكونوا تركيا القدم

فسيفها سيفها في كل معترك   وعقلها طوّق الاسلام بالقضم

وكم أثلج صدري وسرّى عما بنفسي شهود تمسك الغالبية العظمى من الأتراك بأهداب الإسلام الحنيف وإقامتهم لشعائره من صلاة ونسك وحج. فحمدت الله وشكرته وتهللت وهللت وكبرت مردداً بيت شوقي ..

يا جذوة التوحيد مالك مطفئ   والله جل جلاله مذكيك

وسرني وأنا أتصفح مجموع أوراد السمانية أن وفقني الله إلى التبرك بغشيان كثير من مزارات سادتنا ومشائخنا وأئمتنا في الطريقة التي ما يزال يتردد عليها

الاتراك نساءاً ورجالاً يوقرونها ويعمرون ساحاتها كأمثال مشاهد برام وعمرو والخلوتي وغيرهم.

وتعاقبت زياراتي في رحلاتي اللاحقة لمنطقة مصانع السكر الضخمة في أسكاشير والتي أوفدنا إليها بعثة من الفنيين والعاملين والدارسين السودانيين قضوا فيها فترات تدريب أفادوا منها كثيراً وأثنى عليهم رؤساء ومديرو المصنع ولم يفسد عليَّ جمال زيارتي الأخيرة لهم ليلتها سوى عربدة السائق السوداني الذي كان يتولى قيادة سيارتي أثناء الرحلة مما عنفته وعاقبته عقاباً صارماً شديداً عليه وإلتزم جادة الصواب فيما بعد .

وقمت في إحدى الزيارات لتركيا بتمثيل السودان في "مؤتمر التراث التركي الفني المعماري" الذي عقد بأنقرة وألقيت فيه بحثاً بالإنجليزية حول الأثر التركي للفن المعماري بالسودان إشترك في إعداده بعض المؤرخين والمعماريين بالخرطوم وبعثوا به إليَّ.. ولم يكن لي من فضل فيه سوى حسن إلقائه وما تلقاه به المؤتمرون من إهتمام بالغ لما حواه من توكيد أثر الفن التركي في المعمار السوداني وشواهده وآثاره خاصة في مدينة سواكن القديمة. وكان من عظيم لطف الله بي أن البحوث لم تكن تناقش وإنما كانت تتلى ثم تودع لسكرتارية المؤتمر لتصفحها وتدارسها ولتدقق فيها وتنشر خلاصتها في كتاب...

وداهمتني علة باطنية أوضح الكشف أنها (قرحة بالأثني عشر) خفقت بها إلى بيروت حيث تولى علاجها ووأدها في المهد الطبيب النطاسي البارع طبيب السفارة الدكتور/ منير شماعة الأستاذ بمستشفى الجامعة الأمريكية، أدخلني فيها مستشفى الخوزي عدت بعدها إلى بغداد لأواجه يوم وصولي إليها بإجراء عملية فجائية أخرى لإبنتي إقبال برئت بعدها ولله الحمد. فالمصائب لا تأتي فرادى.

بعد هاته اللمحات الميسرة عن الأقطار التي تضمها وتشملها رقعة التمثيل للسفارة والتي وإن بدت متباعدة ومتنافرة بعضها إلا أنها في حقيقة الأمر توشج بينها علاقات متشابكة بحكم الجوار من جهة وبسبب المصالح والمطامع المتشاركة أو

المتشابكة أو المتشاكسة. فقد تبين لي عن كثب كيف أن تركيا تنشغل بما يحدث في العراق. إذ كانت عينها على نفط الموصل آنذاك ويؤرقها جوارها للأكراد وما سوف ينتهي إليه قرار مصيرهم في البلدين.

وقبل العودة لمواصلة الحديث عن العراق، مقر البعثة الرئيسي سكني الدائم، أرى أن أشير إلى سوريا وإلى زياراتي المتعددة لها أو أثناء إختراقي لأراضيها في طريق الذهاب أو الإياب إلى لبنان وتركيا والأردن متوقفاً في دمشق الفيحاء وزيارة معالمها والمسجد الأموي فيها وقبر سيدنا يحيى ومشهد الحسين ومزارات الصالحين وسيدي عبد الغني النابلسي الشاعر الصوفي وإبن عربي وقبر صلاح الدين البطل، كما زرت حلب ومسجدها الأموي ومقام سيدنا زكريا فيها وقلعتها، وحمص وقبر خالد بن الوليد سيف الله المسلول، وعبد الله بن عمر. وإجتزت نهر العاص وإخترقت السويدا وتوقفت في صومعة الراهب بحيرا، وفي حماة ، وفي معرة النعمان وأبي العلاء المعري ..

وفي أحدى فترات إنفصام عرى الوحدة بينها وبين مصر سافرت إليها بتوجيه من الخرطوم في زيارة رسمية حاملاً إعتراف السودان للرئيس القدسي بها في 17/ فبراير/ 1963 والذي لم يكتب له أن يعمر بحدوث الإنقلاب المضاد في 8/ مارس أي بعد أقل من ثلاثة أسابيع فقط..

ولنعود إلى العراق مرة أخرى لأصل ما بدأته عنه من حديث إعترضته وقطعته إنطباعات وأحداث الأردن ولبنان وتركيا التي تصديت لها في إيجاز، لأجمل القول بأنه وفي خلال السنوات الخمس التي قضيتها فيه كان هادئاً مستقراً نسبياً ولم يكدر صفو طقسه سوى موسم الهبوب، التي يسمونها الطوز أو العجاج المخيف المرعب، وإلا صفاء الجو السياسي عدا التيارات السياسية المتطاحنة المتعارضة بين البعثيين (بشقيهم) والقوميين العرب والناصريين والشيوعيين خاصة خلال حكم عهد عبد الكريم قاسم ومحاولات قلب نظام حكمه والإعتداء عليه التي إنتهت بإعدامه في فبراير 1963 وعرض جثته، وهو ببزته العسكرية على شاشة التلفاز وهو مضرج

بدمائه وبجانبه المهداوي (عضده الأيمن، المشهور) في ثورة رمضان: وما أريد أن أتجنى على العراقيين اللطفاء الكرماء الأطهار لكني لن أظلم الحقيقة إذا قلت بأن أغلبية العراقيين هم شعب لا توسط عنده يجنح إلى التطرف في كل شيء، دمث في أخلاقه وصفاته تلمس عطفاً ورقةً وحباً. وهو إذا ما غضب تجد بعض قومه قساة القلوب غلاظ الأكباد، كما وصفهم الحجاج، يقتلون ويسحلون، كما فعلوا بعبد الإله وبنوري السعيد، ويمثلون بهم عندما تتأجج ثوراتهم بل هم قوم يستخفون بالموت. ولقد شهدت مرات عديدة في حالات الجنائز التي ندر أن لايذهبوا بها إلى العتبات المقدسة أو لدفنها فيها والتي يحملونها على تندة عربات البكاسي الأمامية والحافلات واهل الميت أو المشيّعون يجلسون على النعش بل من فوقه وهم يدخنون السجائر ... كما كان سماع الطلقات النارية من المسدسات أمراً عادياً يطلقونها حتى بين دور السكن وأذكر تلك التي دوت في أحد الأمسيات خارج أسوار منزلنا (مقر سكن السفير السوداني) في أحد المناسبات عندما كنا نقيم بداخلها حفل إستقبال أفزعت الجميع وكاد لولا لطف الله أن تجهض بسببه زوجة أحد الزملاء الدبلوماسيين السودانيين ولكن الله أسلم.. وأفلت الجناة..

كان الشيوعيون بعيد ثورة تموز 1958 ركيزة لعبد الكريم قاسم وصاروا قوته الضاربة ضد القوى القومية المتصاعدة في العراق ولكنهم تألبوا ضده، وأخيراً لم يطمئن لهم. غير أن القوميين العرب كانوا هم الأسبق فكان إنقلاب عبد السلام عارف في 1963 التي إنفرد بعدها حزب البعث بالحكم المطلق لأول مرة برئاسة أحمد حسن البكر وصدام حسين نائباً له حين نظم الحزب وأحكم سيطرته على أجهزة الدولة ثم على البلاد فيما بعد. سبق هذا أن أعلنت أمارة الكويت نفسها دولة مستقلة 1961 وعندها هددت العراق بالتدخل العسكري وإنتهى الأمر بإدخال مفرزات قوات الأمن من الجيوش العربية التي أسهم فيها السودان بقوة رمزية قادها إليه الضباط العسكريون أحمد الشريف الحبيب والزبيق وغيرهم كما سبق أن وردت الإشارة إليه..

ظلت الصلة وثيقة جداً بيني وبين الزعيم عبد الكريم قاسم حتى أواخر أيام حكمه والزيارات الطويلة تتوالى. وأشهد له بصدق نواياه وبإخلاصه للعراق وللعروبة وقد كان بعيد النظر جداً. فهو الذي مهد لبغداد ذات الطول المتناهي في إمتدادها أن تتوسع في العرض فوق الأراضي الفسيحة الخالية آنذاك تماماً والتي قامت حولها من بعد ذلك مدائن السكن لمختلف الفئات وعمها الإعمار الذي مضى دون توقف منذ العهد الملكي وخصه بشطر كبير من عائدات النفط وكذلك فعلت الثورات التي تلته.



مع عبد الكريم قاسم

بمنزلنا بالسفارة – الصورة لي ولزوجتي السيدة/ صفية

كذلك أتاحت لي إقامتي الطويلة في العراق وفي بغداد بالذات خاصة في السنوات التي كنت أتشرف فيها بعمادة السلك الدبلوماسي لسنتين أن أحظى باللقاء والتعرف إلى الكثيرين من الرؤساء والقادة والسياسيين ومشائخ الخليج وشيوخ

القبائل ورؤساء الوفود والزائرين الرسميين كما كان الإلتقاء بين معظم أولئك وبين رؤساء السلك الدبلوماسي يتم بمقر العميد (منزلنا) وأذكر أحدى زيارات السيد/ عبد الخالق حسونة باشا أمين عام الجامعة العربية تلك التي تحدثت فيها بصراحة شديدة أعجبت العديدين من زملائي يوم كنا نشكو من محاولة تضييق الخناق علينا وتصنيف البلاد العربية إلى "تقدميين ثوريين" وإلى آخرين، وما كنا نلقاه من تفرقة واضحة في المعاملة والتعامل حتى الرسمي تصحيحاً لأوضاع التدخل في الشوؤن الداخلية من بعض من يحاولون فرض الوحدة قسراً: في إحدى الإجتماعات الدورية للسفراء بمنزلي والذي نقله سفير مصر آنذاك فيما يبدو، وهو الزميل/ أمين هويدي، إلى جمال عبد الناصر كما صرح لي به الرئيس جمال بنفسه وهو يستقبلني بمنزله في حدائق القبة، عندما جئت موفداً إليه برسالة من حكومتي حول حرب اليمن بعد مضي أكثر من سنتين وهو يسألني عن حكاية الأنف الطويل الذي قلت عنه بأنه يقحمه.. وأنه لو لم يفعل، ولو أنه إكتفى بما يبذله من جهد في سبيل البعث العربي وحصر ذلك في نطاق مصر لهرع الكل إليه مقتحماً وممتطياً ركب الوحدة إليه ولو سدت في وجهه الأبواب..

وفي بغداد وعلى طول أكثر من سنتين كنا نحضر بإنتظام ندوة متنقلة للقرآن الكريم في صباح كل يوم جمعة يحضرها عدد من العلماء والدبلوماسيين عرب وأجانب، أذكر من بينهم ممثل اليونسكو الهندي المثقف المسلم الدكتور/ كاظمي والأستاذ/ يوسف عز الدين وجون كالي الألماني وزوجته السيدة سيقفريد كالي السويدية (زوج سفير ألمانيا الغربية في السودان من بعد) والكاتبة والمؤلفة الموهوبة المشهورة والتي نفخر وأسرتي بصداقتها الحقة والممتدة حتى الآن والتي أكاد أن أشهد لها بالإيمان غير المعلن... كما كانت لي صلات بجماعة التسلح الخلقي وقد جرت الرسائل نتبادلها بيننا زمناً طويلاً ما أزال أحتفظ ببعضها.

أنشأت عدداً كبيراً من القصائد في بغداد لن يغنيني الإكتفاء بذكر موضوعاتها وتجولت في العراق كما عشت أمجاد ماضيه التليد وحاضره السعيد ومعالمه

ومشاهده وآثاره وتتبعت الرافدين حتى ملتقاهما وزرت بابل وحدائقها المعلقة والمدائن الكسروية وقصر أنوشروان ومقام سلمان الفارسي ومواضع أنبياء الله الصالحين يونس وذو الكفل وحيث إستوت سفينة نوح على الجودي في نينوي كما يقولون ومراقد آل البيت والصحابة في الكوفة والنجف الأشرف وفي كربلاء ومرقد الزبير في البصرة وتمورها ونخيلها وإستضافني مدير السكة حديد الذي خصص لي صالونه الخاص بمحطة البصرة وأهداني المحافظ كتاباً عن تمور العراق – البصرة والمليون نخلة وبيت الشعر الحكمة:

كن كالنخيل عن الأحقاد مرتفعاً يؤذي برجمٍ فيؤتي أطيب الثمر

وفي عاصمة الرشيد بغداد مثوى زبيدة، والكاظمية، ومرقد الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان في الأعظمية وأولياء الله من أهل مشائخ طريقتنا سادتي "ساكن بغداد الفي كل بلد سوا له أولاد" الشيخ/ عبد القادر الجيلاني والسر السقطي ومعروف الكرخي في الكرخ وعمر السهروردي، والمستنصرية، وسامراء (سر من رأى) والملوية، وموضع الإمام الخامس الغائب فيها، والثرثار، وليلات بغداد ولياليها وشارع أبي نواس وسمكه المسقوف. أما شمال العراق الكردي فلقد قمنا بزيارة جماعية رسمية إليه في معية السفراء للموصل وكركوك ودهوك وسوار رابوه وسرسنك والعمادية (التي ذكرتنا أطلالها بخراب كوفنتري) وسلاف، وزاويته، وسانا توحين، وبرطلة بكنائسها، والزاب، والجسر، وأربيل (بلد صلاح الدين)، وشقلاوة منزل الزعيم الكردي/ عثمان ميران، وأربيل، وكركوك بنارها الأزلية، والسليمانية، وسارنجار ودريندرخان، وجلولاء ويعقوبة ، كما إلتقينا اثناء مرورنا بالبرزاني الزعيم الكردي الثائر في رحلة تعريفية ممتعة إستغرقت عدة أيام.

وفي بغداد تعرفت على عدد من أدبائها وشعرائها إلى جانب سياسييها ودبلوماسييها أذكر منهم الجواهري، والشبيبي، وبهجت الأثري، وعاتكة الخزرجي، وعباس العزاوي ومكتبته الفريدة الضخمة، والدوري، ويوسف عز الدين، وحسين جميل، وأخيراً وليس آخراً الجيرة الأدنين " أبا محمد وخالدة وأسرتها العلاوية

الكريمة" والتكريتي والمهداوي وغيرهم وغيرهم ممن لن يتسع المجال لذكرهم. كما سعدت بزيارات العديد من الأهل والمعارف والأصدقاء السودانيين الزائرين لها قادة ووزراء وسياسيون وأساتذة ومحامون ومشائخ يتصدرهم مولانا فضيلة الشيخ/ محمد الفاتح قريب الله ومن بعده نجله الشيخ (الدكتور) الحسن ومدير السكة الحديد السابق المستر فاركسون والسير جلان السكرتير الإداري الأسبق وعدد كبير من الأصدقاء والزملاء.

ومن الدبلوماسيين همفري تريفليان (صاحب قصر الدبارة بمصر) في الجبل والتلوهويدي والخطيب والغازي والأسعد، والسلال والفاطمي والتازي... الخ.

وفي تلك الفترة قمت بترجمة عدة قصائد من ديوان الشعر الإنجليزي تم نشرها بالصحافة بالسودان وإنشغلت عن متابعتها رغم مطالبة بعض طلبة الجامعة بالمزيد.

وفي ديسمبر 1964 ودعت العراق والأردن وتركيا ولبنان منقولاً إلى سفارة السودان بواشنطن في الولايات المتحدة الأمريكية.. وتركت بغداد مزوداً بعدد من هدايا الرسميين والزملاء والأصدقاء وأنا أردد :-

أبغداد هذا آخر العهد فأذكري   مدامع مفطور على الحب بكّاء

في سفارة السودان لدى الولايات المتحدة الأمريكية

نحن الآن في مطلع عام 1965 وقد أُعلنت بالنقل سفيراً للسودان في واشنطون. وبعد تزويج كبرى بناتي "إقبال" توجهت تصحبني بقية أفراد أسرتي إلى هناك جواً عن طريق لندن حيث توقفنا لمرض إبنتي الصغيرة إيمان في مارس 1965.

حطت بنا الطائرة في مطار كيندي بنيويورك لتقلنا منها الطائرة التاكسي الماكوكية الصغيرة إلى واشنطون حيث وجدنا السفراء العرب وبعض سفراء البلاد

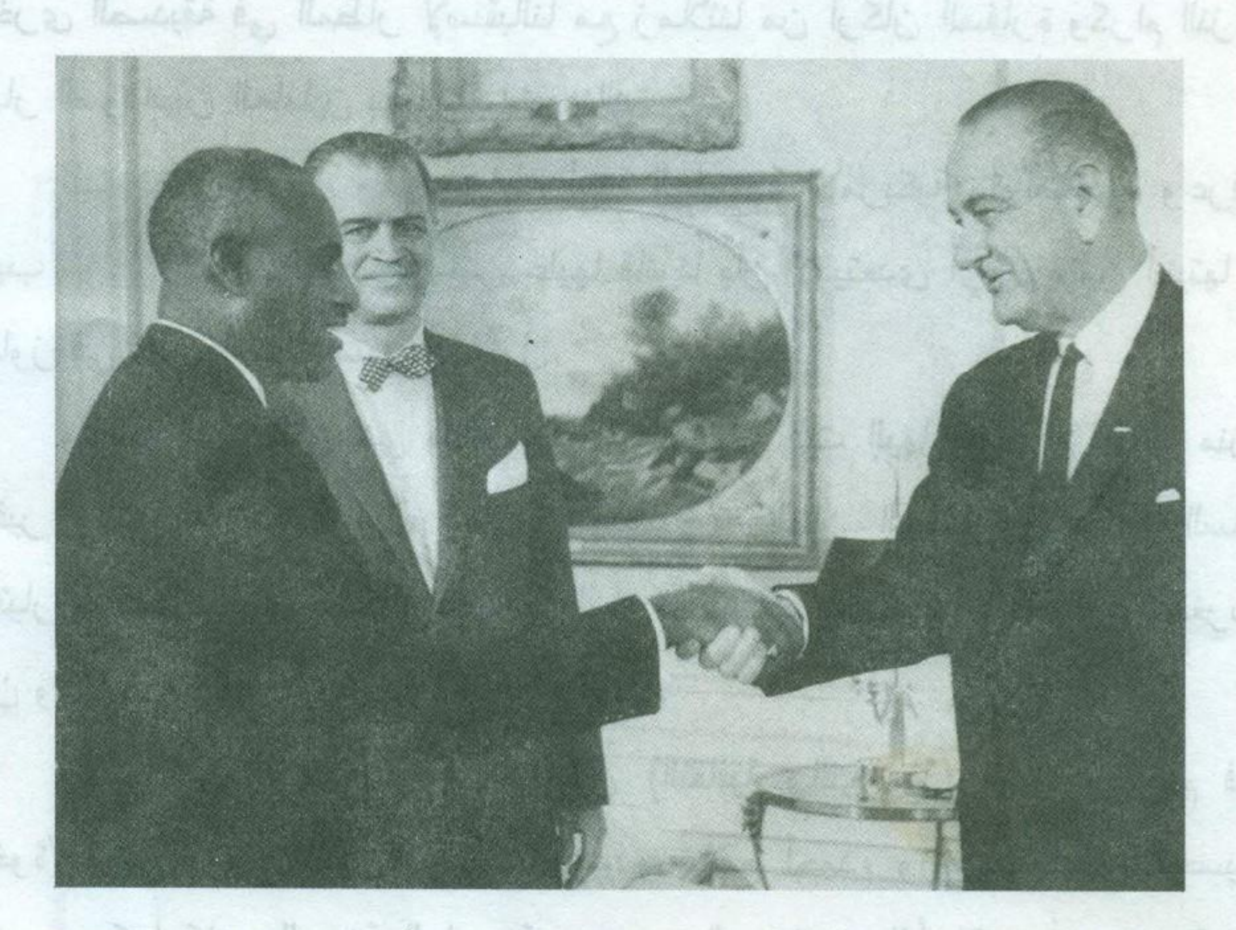
الأخرى الصديقة في المطار لإستقبالنا مع زملائنا من أركان السفارة وكرام النزلاء وكبار السودانيين العاملين بالمؤسسات هناك.

لفت نظري لأول وهلة بساطة أبنية العاصمة الأمريكية وتواضعها، وعرفت السبب مؤخراً بأنه التقيد المفروض عليها قانوناً بأن لا يتعدى أي بناء من أبنيتها أو يتجاوز في علوه ارتفاع مبنى الكابتول.

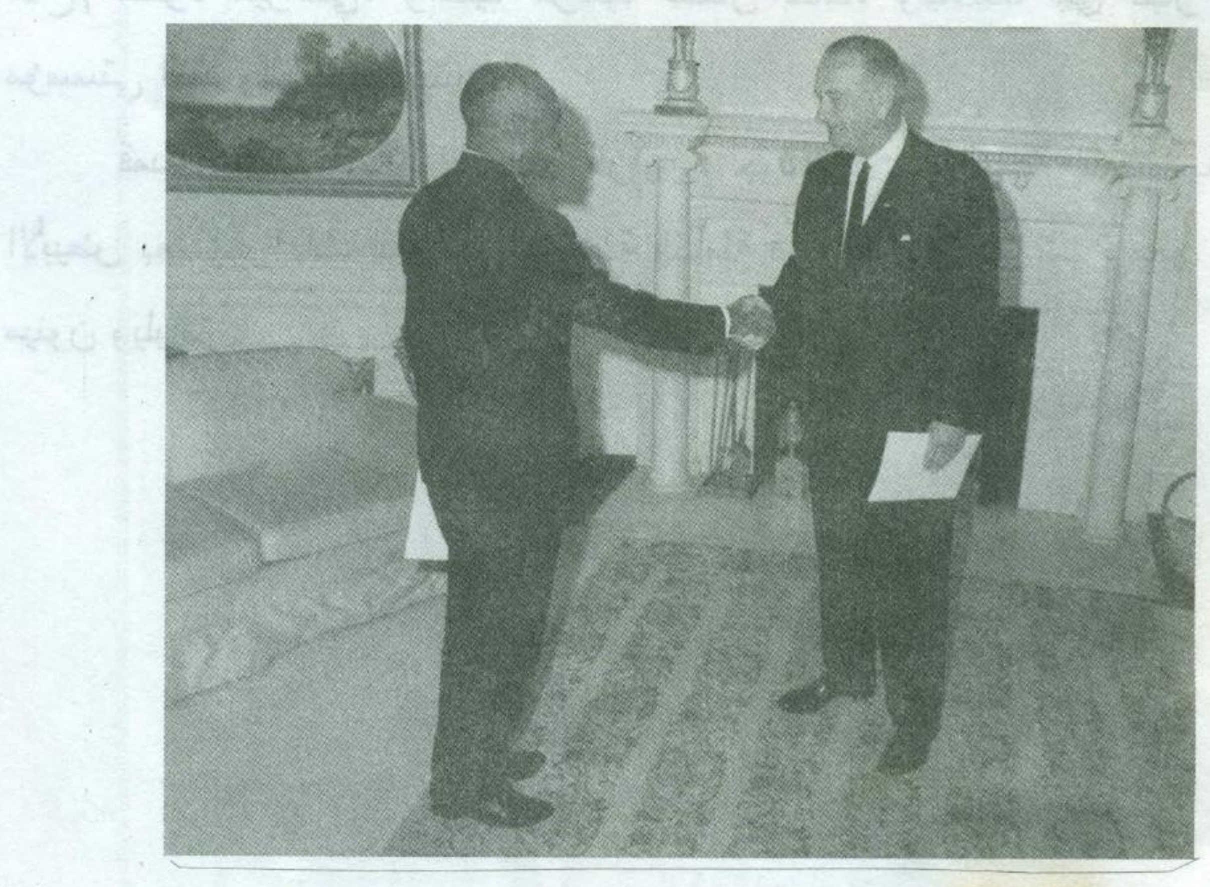
وحللنا الدار التي هي ملك لحكومة السودان آلت إليها بالشراء لتكون منزلاً للسفير والتي أحسن الزميل الصديق الدكتور/ عثمان الحضري السفير السابق بإختيار موقعها بجوار مسكن عدد من السفراء العرب (السعودية، العراق، المغرب، لبنان وغيرهم) ولقربها من دار السفارة أيضاً.

وأذكر من الزملاء ومن الملحقين (الثقافية والتجارية) الذين وجدتهم فيها الأخوة/ قرني، وتاج الدين، وأحمد نور، وصلاح أحمد، وزين العابدين الحسين، والتوم - كما كان بالمدينة العاصمة عدد من السودانيين الأجلاء وأسرهم يتقدمهم الأخ/ حمزة ميرغني، والسيد الرشيد عثمان خالد، وكلاهما من كبار موظفي مؤسستي النقد والبنك الدوليتين.

قمت بتقديم أوراق إعتمادي للرئيس/ جونسون في القاعة البيضاوية بالبيت الأبيض بعد إجراءات المراسم المبسطة الكاملة في الخامس من شهر مايو حضرها مينون ويليامز.



مع الرئيس جونسون ومينون ويليامز بالبيت الأبيض واشنطون 1966



مع الرئيس جونسون بعد تقديم أوراق الاعتماد 1965



الغداء الخاص مع الرئيس الأمريكي ووزير الخارجية



مع السفير الأمريكي المرشح للسودان بمقر السفارة بواشنطون 1966 ، ويظهر بعض أركان السفارة، السادة: الزين وعلي وأحمد نور



مع حرمه وحرم وزير الخارجية الأمريكي في عام 1965

قرأت كل ما وصلت إليه يدي عن أمريكا وتاريخها وعن سياستها وخاصة عن رئيسها لندون جونسون قبل وصولي إليها. ونال وأثار إهتمامي بوجه خاص الخطاب الذي كان قد ألقاه نائب الرئيس في قاعة الإستقبال بولاية فلادلفيا في يوليو 1963 عن حماية الحريات بمناسبة ذكرى مولد أمريكا كبلد وكقطر وكدولة.. كما شد إنتباهي إعلان وثيقة إستقلالها التي ركزت على "أن الناس كلهم خلقوا متساويين وأن خالقهم قد منحهم حقوقاً معينة لا مندوحة عنها من بينها الحياة والحرية".

وأعجبني تشدده وتمسكه بحماية الحريات التي تتضمنها وثيقة حقوق الإنسان والعمل على حماية حقوق السود والعبيد الملونين نساء ورجالاً في العالم كله وعدم التفرقة في المعاملة بسبب العنصر أو اللون في التواجد في الأماكن العامة وإحتلال المقاعد الخلفية من المركبات العامة ونادى بأن تتوفر حياة نفوسهم وثرواتهم وشرفهم المقدس من أجل الحفاظ لجميع أفراد العالم على حقهم في الحياة والحرية والسعي لتحقيق السعادة. والذي أختتمه بما قاله توماس جيفرسون في آخر خطاب له قبل

موته في الذكرى الخمسينية للإستقلال وكانت هذه السياسة التي ألزم الرئيس جونسون بها نفسه أمام الكونغرس عند توليته السلطة لمناصرة وإشاعة وتعميم الحقوق المدنية للزنوج. وقد تكرم وأهدى إليَّ القلم الذي وقَّع به تلك الوثيقة والذي أحتفظ به.



مع المستر همفري نائب الرئيس الأمريكي في زيارة بمنزله

أما نائبه (هيوبرت همفري) الذي تعددت إتصالاتي وزياراتي له أثناء فترة تمثيلي القصيرة، فقد لفت نظري شدة إهتمامه هو الآخر، وكذلك مينون ويليامز، بأفريقيا خاصة وقد خرجت من عديد أحاديثي ومناقشاتي معه بآرائه التي تستحق التسجيل – فمنها "ولجني ثمرات التنمية الإقتصادية كان يرى الدور الذي يجب أن تلعبه أمريكا فيها أولاً (أدبياً) بالإهتمام في تحقيق تطلعاتها لنيل الحرية والحياة الكريمة (وعنصرياً) كمراعاة أنها في المكان الثاني بعد أوربا من حيث كونه مصدر ومنجع للسكان الأمريكيين ولأن 16مليوناً من المواطنين الأمريكان ينحدرون من أصل أفريقي (وإقتصادياً) نذكر أن أول إتصال بأفريقيا كان لشراء الرقيق والعبيد (وسياسياً) بأنها مسرح ومجال الكفاح والنضال والتراحم العائلي.. وكانت آراؤه ومقترحاته لتقوية أواصر الإتصالات بها تنحصر في:-

(أ ولاً) :- أن تتم الإتصالات بوعي كبير وإدراك عميق لتطلعاتها وكبريائها.
(ثانياً) :- تقرير الوحدة الأساسية التي تنظم كأساس مواردها الفنية المتباينة .
(ثالثاً) :- إنتهاج سياسة دبلوماسية جديدة تعزز أسلوب التمثيل الدبلوماسي التقليدي بفرق وأتيام من الأكفاء المتخصصين في مجالات الزراعة والعمل
(رابعاً) :- التوسع الكبير في عمليات تبادل نشاطاتها الثقافية والتعليمية.
(خامساً) :- التعزز والإسراع بتقوية برامج التعاون الفني.
(سادساً) :- المساعدة في تشجيع العمل الإقتصادي والتنمية بزيادة تدفق قنوات التجارة والإستثمار.
(سابعاً) :- مراجعة السياسات لتنمية وتطوير إفريقيا سياسياً على ضوء ما تشاركهم فيه من آمال وطموحات في المستقبل.

في تلك الفترة ضم السودان إلى مكتب الشؤون الإفريقية بوزارة الخارجية الأمريكية بدلاً عن تبعيته السابقة لقسم الشرق الأدنى وجنوب آسيا. وصرنا الآن في شمال أفريقيا (المغرب - تونس - ليبيا - وأثيوبيا)

كانت الحظوة الواضحة الملحوظة والمكانة الظاهرة والمظهرية المرموقة التي نلتها بفضل الله من المسئولين ومن وزير الخارجية دين رصك، ومن الرئيس جونسون خاصة، مصدر دهشة لي ومبعث إرتياح ورضى مني. كما كانت مثار دهشة وإستغراب لدى رصفائي في السلك ممن هم أقدم مني من السفراء شرقيين وعرب وغربيين طيلة فترة إقامتي التي لم تعدو العام الواحد. فقد حدث وعلى غير المألوف أن وجهت لي في خلال هذه الفترة خمسة دعوات للعشاء والغداء منها دعوتان خاصتان بمقر وزارة الخارجية ودعوة غداء خاصة مع الرئيس بالبيت الأبيض، ضمت الأخيرة منها معي أربعة سفراء آخرين من العرب الأفارقة، وجرى فيها حديث لا أرى بداً من أن أذكره وأن أسجله أحسب أنه يدلل أو يفسر أو يكشف عن سر ما أومأت إليه آنفاً. فقد تبسط الرئيس معنا في ذلك الغداء المختصر للحد الذي وجه إلينا فيه سؤالاً طلب إلينا أن نرد له عليه: وكان ذلك السؤال هو "ماذا

كنت تعمل أو لا تعمل لو كنت رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية؟؟ وكانت إجابات زملائي الخمسة الآخرين أما متزلفة أو مترضية أو مترددة أو إنصرافية أو متهربة في كياسة دبلوماسية. وأذكر أنني رأيت أن أعمد للصراحة وقد حملت الإفتراض محل الجد فتسلحت بالشجاعة وقلت (الذي كنت لا أعمله ياسيدي الرئيس، هو أني كنت لا أقحم بلدي أو أزج بها كرئيس في المشاكل البعيدة والعويصة كما في فيتنام مثلاً وحربها القائمة..". وفغرت أفواه بعض زملائي ونظروا إليَّ في تعجب وهمهم أحدهم بالعربية منبهاً لي وزغرني آخر مستعظماً ما قلت. ولكن كان رد فعل الرئيس عن جرأتي على عكس ما كانوا يتوقعون وأتوقع. فقد أبدى كامل إعجابه الشديد وإرتياحه العفوي وسارع بمد يده إليَّ وهو يبتسم ليقول (يا لها من إجابة حسنة وصادقة يا سعادة السفير. فهذا هو ما أود أن أسمعه: نعم أريد أن أسمع رأياً حراً وصريحاً وشجاعاً مثل رأيك. فشكراً لك يا سعادة سفير السودان).

وكانت تلك البداية لمبادرات شتى في مناسبات متكررة تلتها فيما بعد في إحدى دعوات العشاء التي أقيمت على ظهر باخرة الرئيس فوق نهر البوتاك والتي كنا وجميع الدبلوماسيين فيها، إستدعاني رئيس التشريفات المستر هاند وحدي من بينهم لألحق به إلى الطابق الأعلى لأتناول العشاء مع الرئيس وعلى مائدته كطلبه: ولم يقف الأمر عند ذلك الحد فقد أمرت عرباتنا بعد إقلاعنا أن تعود لتنتظرنا في مكان التجمع المحدد عند إنتهاء الرحلة. ولكن ونحن نهم بمغادرة الباخرة إلى حيث تقف عرباتنا ناداني مدير المراسم وإقتادني إلى حيث كان يقف الرئيس أمام عربته وطلب مني الرئيس أن أركب معهم حتى البيت الأبيض وأن تتبعني عربتي لأستقلها من هناك – وكان معنا بعربة الرئيس في تلك الليلة وزير الخارجية ومعه رئيس القضاء أو أحد كبار رجال القانون. وكان مما إمتدح به السودان في شخصي وهو يقدمني لذلك القاضي هو إعجابه بالصراحة والشجاعة والإحترام النفسي أو كما قال.

هذا وفي خلال إقامتنا القصيرة في واشنطون قمنا بزيارتين حملتنا إليها طائرة الرئيس الخاصة (أولاهما) لولاية تكساس للوقوف على الإنجازات والتطورات

الكيماوية وتحلية مياه البحر في فري يورت (وثانيتهما) لولاية فلوريدا لشهود إقلاع أول رحلة فضاء من مطار أندروز (Gemini five)، وأعقب ذلك دعوتنا لإستقبال رجال الفضاء بعد عودتهم في حفل أقيم بالبيت الأبيض حضرته مع زوجتي وأطفالي وأُخذت لنا صورة تذكارية فيه مع الرئيس ورجال الفضاء ما أزال أحتفظ بها وأذكر أنها نشرت آنذاك في حينها في بعض صحف الخرطوم .

وحدث في خلال إقامتنا القصيرة في واشنطون أيضاً أن أجرت إذاعة صوت أمريكا إتصالها بي مرتين سجلت وأذاعت لي في أولاهما بتاريخ 1965/5/19 حديثاً باللغة العربية عن السودان وسياسته وأهدافه وعن علاقاته بأمريكا. كما سجلت وأذاعت لي حديثاً مطولاً بالإنجليزية في 1965/12/16 أرى أن أورد هنا بعض فقرات الحديث الأول متضمناً ما وجهته لي من أسئلة وما رددت به من أجوبة عليها أدناه :- قلت مقدمة لهذا الحديث في إجابة على سؤالهم الأول وهو عن علام ستقتصر دولة السودان جهودها في بداية عهدها بالإستقلال؟ فكانت إجابته إننا سنقصر جهودنا لتدعيم إستقلالنا وضمان إستقرارنا وصيانة سيادتنا على أرضنا أولاً ثم للنهوض بمستوياتنا الداخلية في مجالات التعليم والصحة والإقتصاد وفق مقررات خطط التنمية ونهدف إلى تحسين حال الفرد. بالطبع لن ينسينا ذلك ما يفرض علينا من إسهامنا بالقيام بدورنا في المحيط العالمي بوجه عام والمحيطين الإفريقي ودول الجوار بوجه خاص. مشاركة فعالة في نصرة الحق والعدل وتخفيف حدة المعاناة والتوتر وتوفير فرص السلم.

وفي إجابة على سؤالهم الثاني: "على أي من المرافق ترى يا سعادة السفير السودان سيعتمد في تنميته وبناء مستقبله؟ أجبت "نعتقد أن الركيزتين اللتين سيستند عليهما مستقبل السودان هما ما منحه الله من التوسع الزراعي وفي الثروة الحيوانية كأساس. فلدينا النيل ولدينا الأمطار ولدينا حوالي مائة مليون فدان من الأراضي التي يمكن زراعتها. إذ أن المزروع منها الآن لا يتجاوز السبع ملايين. نأمل في توسع

الرقعة وتطوير الحاصلات وبدأنا بالفعل في إقامة الخزانات وتطوير الحاصلات. وتطوير البنك الزراعي ثم في تصنيع بعض ما ننتج كالقطن والسكر والغلال.

سؤال (3) "وفي مجال علاقاتكم الدولية والخارجية كيف ترى أن تكون علاقتكم وصلاتكم مع الولايات المتحدة الأمريكية؟" الإجابة:- لقد كانت علاقتنا دائماً وأبداً طيبة سليمة ودودة مع الولايات المتحدة الأمريكية ونحن أشد ما نكون حرصاً على تقوية هاتيك الروابط وتنمية هاتيك الصلات، نريد أن يسود بيننا الإحترام المتبادل والتفاهم الحقيقي للمشاكل والقضايا وبذل الجهود المشتركة لتحقيق المثل التي ندين بها لحسن الحظ في مجالات الحرية والديمقراطية والسلام... وإستمرت إجابتي لتقول: "وبما أن الولايات المتحدة الأمريكية بلد أفاء الله عليه الوفير من الخير، وأجزل له الرفد وأغدق به النعم، فإنا نأمل أن نفيد من تقدمها العلمي والفني والثقافي في كافة المجالات وفى مشاركتها ومساعدتها لنا في بذل العون لتمكننا من النهوض بمرافقنا في مجالي التطور والبناء والتعمير الذي لقينا منه الكثير وما زلنا نأمل في إستمراره وإزدياده.

سؤال (4)

ما هي أهداف وجهود السودان العليا بإختصار شديد ؟

الإجابة "الحفاظ على الإستقلال وتوفير أسس الإستقرار وبذل الجهود في النهوض بالمستوى في مجالات التعليم والصحة وتحسين حال الفرد إجتماعياً .

سؤال (5)

والوسائل ؟

(أ) الإعتماد على الموارد الداخلية والترحيب بالعون الخارجي الخالي من الغرض من المؤسسات والدول الصديقة.

السؤال (6) :-

وموقف الدول إزاء مشكلة الجنوب ؟

الإجابة " إفترض سلفاً أنكم تدركون قدم المشاكل التي ورثناها ولم نتسبب نحن في خلقها. نواجهها الآن بروح جديد وصراحة متوفرة تجلت في المؤتمر الذي كان خطوة أثبتت لأخواننا في الجنوب صدق نوايا أشقائهم في الشمال نحوهم. وبنفس الروح لا يغامرني أدنى شك في أنها ستوفق إلى إزالة الشوائب التي لم تتعد الخلافات التي قد تحدث عادة حتى بين أفراد البيت الواحد أو الأسرة الواحدة. وذلك بفضل الإنتفاضة وروح نشوة الإنتصار التي تبشر بإعادة الحياة الديمقراطية النابعة من الداخل والمستمدة من الواقع لثورة الشعب في 21/أكتوبر/1964... وتضمن الحديث تحشيات وتحسينات تعرضت لذكر الجمعية التأسيسية والدستور والإنتخابات والتفرغ للإنماء والتعمير والبناء".

في خلال تلك الفترة تم عقد إجتماعات موفقة أفضت إلى الحصول على عدد من المعونات الأمريكية للسودان ووعود بأخرى في مجالي الإقتصاد والإتصالات والطرق، كما قد قمت بتوقيع قرض البنك الدولي الكبير للسكة حديد نيابة عن السودان في ديسمبر 1965م، وعلى ذكر السكة حديد أجريت إتصالات بالسكة الحديد الأمريكية في شيكاغو تتعلق بمهام فنية وتنموية خاصة بتطوير السكة حديد، هيأت إليَّ تلك الفترة التي سافرت إليها بالقطار الوقوف على تقدمهم، على المستوى الرفيع لقطاراتها التي تشمل قمرات النوم فيها على كل أسباب الراحة والمتعة بما في ذلك جهاز الراديو وشاشة صغيرة تعرض الأفلام السينمائية والتلفزيونية أيضاً.

وقد كنت أؤثر السفر بالقطار في تحركاتي الرسمية ولحضور دورة الأمم المتحدة أو في خلال عطلات أواخر الأسبوع بين واشنطون ونيويورك لأنها "في الدم"... وما أكثر ما كنا نتبادل الزيارات الأسبوعية فيها وبإنتظام مع الزملاء/ جمال محمد أحمد، وفخر الدين محمد ومن معهما من الأخوة في نيويورك وأسرهم، نتعاطى المودة ونتبادل الآراء والأفكار فيما حولنا..

كانت تؤم أمريكا أعداد كبيرة من السودانيين في تلك الفترة من وفود رسمية وتفاوضية وتجارية ومن مبعوثين وموفودين وطلاب وزائرين ومنتجعين للتداوي

والإستشفاء يتركون إنطباعات تعيننا كثيراً في آداء مهام التمثيل المشرف المجدي في مختلف المحافل والمجالات التي نتعامل معها بما يمهدون له أو يخلفونه من آثار وأفكار طيبة في نفوس كل من يلتقون بهم في جميع الأوساط.

وأذكر بعض هؤلاء، خاصة الوفد المفاوض لإجتماعات صندوق النقد الدولي ووفد القطن وتقفز إلى الفكر أسماء غيرهم من الأقطاب الكبار أمثال مأمون بحيري، والشريف حسين الهندي، وداؤود عبد اللطيف، وعبد الرحيم ميرغني، وميرغني حمزة، وعلي عوض الله، والنذير دفع الله، وأحمد عبد العزيز، وأمير الصاوي، وعبد الرحمن مختار، وسعد أبو العلاء. ويذكرني الأخير بحدث طريف له مدلوله ومغزاه. فقد جاءنا كعضو في وفد القطن، وكان قد صحب معه زوجته الدكتورة زروى من السودان، لكنه خلّفها في لندن توخياً لما كان يتوقعه من حر يشتد أحياناً في صيف واشنطون، لكنه عندما وجد الطقس لطيفاً على غير العادة ندم على تخلف زوجته في لندن: ذكر لنا ذلك ونحن على مائدة العشاء الذي أقمته للوفد بمنزلي بالسفارة وكان من بين المدعويين عدد من المسؤولين الأمريكان ورجال المال والأعمال والشركات: سأله أحد أولئك عندما أخبره بترك زوجته خلفه في لندن قائلاً له إذاً لماذا لا تتصل بها لتحضر الآن إذا أردت؟ فأجاب سعد بأنه لا يدري عنوانها وبأي الفنادق نزلت في لندن، وهنا قال له الرجل إن المسألة بسيطة. هل تذكر رقم السفرية التي وصلت بها وتاريخها ووقتها؟ فأجاب سعد بنعم. وعندها توجه إليّ الضيف الأمريكي ليستأذن في إستعمال التلفون، فأذنت له فإتصل ببدالة الهاتف وقال أريد أن أتصل بسيدة وصلت من الخرطوم إلى لندن بالطائرة (كذا) بالسفرية (كذا) بتاريخ (كذا) وليس عندي سوى إسمها وهي زروى أبو العلا. فهل يمكن التحري على ضوء هاته المعلومات عن عنوان أو تلفون يمكننا من الإتصال بها..؟

عجبنا كلنا لهذا الطلب الذي بدأ لنا غريباً جداً، ولم يزد الرجل عما ذكره وأقفل سماعة التلفون، ثم تحدث إلينا قائلاً الأمر بسيط فستتصل الكبانية بمطار هيثرو وبموظف الإستقبال في قاعة الوصول الذي سوف لن يفعل أكثر من أن

يراجع أسماء الواصلين على تلك السفرية والبطاقات التي أكملوها بحوزته وهي تحوي عادة مكان وعنوان الإقامة في لندن. وبعد ذلك يتم الإتصال. وكم كانت دهشتنا عظيمة عندما رن جرس التلفون ونحن نحتسي الحلال ونتناول القهوة بعد العشاء لتكون المتحدثة في الطرف الآخر من لندن هي الدكتورة/ زروى. وتملكنا العجب. وإبتدرها سعد وظل يسألها في دهشة بالغة مش ممكن، كيف عرفوا نزلك بمثل هاته السرعة؟ وطلب منها أن تلحق به في واشنطون متى شاءت!! أذكر هاته الحادثة وأرددها كثيراً في أحاديثي خصوصاً عندما أضطر إلى الإستنجاد بعاملة الإستعلامات في بلدتنا الخرطوم أستفسرها عن رقم تلفون شخصية كبيرة ومعروفة كشخصية زميلي الأخ/ أحمد محمد يس (رئيس أول مجلس شيوخ وعضو أول مجلس سيادة، ثم رئيس بلدية العاصمة فيما بعد)، فتبحث وتبحث ثم لترد عليَّ وبكل بساطة بعدم إمكانها الإهتداء إلى الرقم، لأنه غير معروف... وهنا تصفعني الحقيقة المرة ببعد الفارق في الإتصالات وفي مجال خدمة الغير..

وأذكر أيضاً الحديث الصريح القاسي في حفل العشاء بمنزلي والذي ودعت به السفير الأمريكي المرشح للسودان (حضره صدفة الشريف حسين الهندي) والذي تطرقنا فيه لعلاقات إسرائيل بالغرب والذي جرى على لساني فيه وصفي لإسرائيل "بالربيبة" وما أثارته تلك الكلمة من إنفعالات الحاضرين من المسئولين والسفير المرشح بالذات الذي إحتد مدافعاً لتبرئة ساحة إسرائيل حتى إنبرى له الشريف بما أفحمه مما كاد أن يفسد جو تلك الليلة حتى تداركناه دون أن نعدل من رأينا.

وكانت لنا إتصالات ونشاطات في أوساط مجلس الشيوخ والبنتاغون والكابتول وبعدد من أعضاء المجلس ورجال الصحافة وبإذاعة صوت أمريكا التي قامت ببث حدثين الأول في 19/مايو والثاني في السادس عشر من شهر ديسمبر 1965 توطئة لإحتفالاتنا بعيدنا القومي إقتطفنا منها بعض ما تضمناه في مكان سابق.

أما على المستوى الرسمي فقد أثبتت سياسة المصارحة والصدق، التي إنتهجناها، نجاحها وفعاليتها وآتت أكلها ثماراً دانية جنية تجلت في جو الثقة التي تمكنت عن طريقها من الكشف عن خفايا وخبايا سياسية خطيرة ومثيرة حملت بعضها بنفسي في قفزة سريعة للخرطوم، عدت منها عن طريق روما والرباط ولندن كان قد أسر بها إليّ وكشف لي عنها وزير الخارجية دين رصك في إطمئنان عن السياسة ذات الوجهين أو ذات الوجوه المتعددة والتي تخفي من السياسة غير أو ضد ما تعلن وتتهدد وتتوعد ظاهراً أمام الأقطار وتترضى وتتودد للبلاد (والأمصار) المتمثلة من جهة في الإحراق بالنار وفي نفس الوقت ومن جهة أخرى تقدم الإعتذار وتقدم هدايا قطع الآثار.. واللبيب بالاشارة يفهم، مما حسر اللثام عن خدعة كبرى من خدع السياسة، التي أحسن البعض سبكها فجازت على الكثيرين.

وسعدت بزياراتي في واشنطون بالكثير من أصدقائي وبجيرتي آل علاوي من العراق. كما نعمت بالتعرف على العديد من الشخصيات الأمريكية والعربية والإسلامية وبعض أساتذة الجامعات، كما إشتركت في إلقاء كلمات في المركز الإسلامي بمناسبة المولد النبوي الشريف بالعربية والإنجليزية وبإسهامات في مسجده وأجريت إتصالات عدة بكثير من المسلمين السود ومن أتباع (مالكوم أكس) الذي أحتفظ بصورته أُهديت لي منهم، تضم الزعيم الأمريكي الملون المسلم مع صديقه الشيخ أحمد حسون السوداني.

ولم يشاء الله لتلك البداية الموفقة أن تترك لتستمر وتطول لتثمر فقررت الرئاسة أن تنقلني إليها مترقياً لأشغل منصب الوكيل للوزارة على كره مني وذلك لما سوف أوضحه من أسباب.

وغادرت واشنطون وأنا حزين على شوط السعي الذي لم أكمله وودعني الرئيس بهدايا ضمت إلى جانب صورته وزوجته معي، القلم الذي وقع به وثيقة الحقوق المدنية التي أشرت إليها آنفاً (وكتشينته) تحمل كل أوراق لعبها توقيعه عليها (مع أني لا أعرف من ألعاب الورق شيئاً سوى العشرة الطيبة والبصرة)....

كما أهدى إليَّ نائب الرئيس همفري طاقم أزرار قميص فضي يحمل شعار الرئاسة، وكذلك أهدى إليَّ وزير الخارجية دين رصك مجموعه من كتب القانون، كما أهدى إليَّ الزملاء السفراء العرب علبة فضية كبيرة للسجائر ممهورة بأسمائهم وتوقيعاتهم محفورة عليها... كل ذلك كذكرى لفترة عزوفات لحون لم يسمح لها بأن تبقى لتواصل جني الثمرات.

الوكالة في رئاسة وزارة الخارجية
(أبريل 66 إلى أغسطس 1968)

سبق لي أن ذكرت قبلاً أنني كنت قد إعتذرت عن الوكالة عند عرضها عليَّ وأنا لم أكمل أكثر بقليل من العام في سفارة السودان بواشنطون، فساقوني إليها قسراً، وجروني إليها جراً، وأنا لها كاره وعليها مرغم. وكانت قناعتي وما تزال هي، إنها إنما كانت نتيجة أمر دبر بليل في أروقة الوزارة تحت ستار إعادة التنظيم والتقويم!!: فعقب ثورة أكتوبر وما أعقبها.. وبعد تعيين الأخ الصديق الأستاذ/ محمد إبراهيم خليل وزيراً للخارجية زين له بعض من كانوا معه بالوزارة من نواب الوكلاء والسفراء آنذاك إجراء تعديلات جذرية على اللائحة، بدأت برفع درجات عدد من السفارات والسفراء الكبار إلى المجموعة الأولى، التي هي نفس درجة الوكيل!! وهم التابعون له إدارياً!! مما لا يستقيم عقلاً ولا منطقاً ولا تطبيقاً، وأجروا عدداً من التنقلات الغريبة وغير العادلة للبعض ورفعوا المخصصات للسفراء في بعض السفارات. ولم يقفوا عند ذلك الحد، بل عمدوا إلى إقتسام "كريم الكيكة" فيما بينهم والغنيمة والأسلاب الناجمة عن التعديلات، فتخير أحدهم واشنطون، وثانيهم مندوبية الأمم المتحدة في نيويورك، وحاولوا تعويض من كانا سفيرين في الموضعين وترضيتهما بعرض وظيفة الوكالة للأول، وعرض سفارة لندن على الثاني، الذي كانوا يعلمون ميله إليها أو عدم ممانعته لها..

وهكذا تمت الحبكة. فجنى البعض فوائد ثمار إعادة التخطيط وإرتدى الحلة التي فصلها لنفسه بينما ذهب الآخر ضحية للأغراض والأهواء وباء بالعروض التي في ظاهرها الترقية والترفيع الإسمي وباطنها الإلقاء في خضم الأمر الواقع الذي خلقوه فمسخوه والفقد والخسارة المادية والتضحية بالمصلحة الوطنية والشخصية، فيما يتعلق بي على أقل تقدير، لأنها تسلب باليمين ما تمنحه باليسار من سلطة إشرافية إسمية منقوصة بمساواة الوكيل بالسفراء من جهة ومن حرمان مادي من المخصصات التي عدلوها فحسنوها للسفراء من جهة ثانية دون أن يشمل الوكالة منها بشيء.. أو لإعطاء أي إعتبار لما يعلموه وما نبهتهم إليه لما كان من الممكن تحقيقه لمصلحة السودان بسبب الحظوة الكبيرة التي قدر لي أن أنالها والتي لاحت تباشير ما كان يمكن أن تؤتي أكله للبلد من ثمرات على قصر مدة تواجدي في واشنطون، الذي لم يكمل العام وقتها تماماً..

ولم يجد تقديم المعاذير ولا المكاتبات ولا المقابلات في ثني السيدَ الوزير الذي أصر على النقل بحجة ثقته في أنني (أو كما قال أو قيل له) خير من يراه لإصلاح الأوضاع في الوزارة والإضطلاع بمنصب مهام الوكيل لها.. رغم الإعتراضات العديدة المسببة فيما يتعلق بالناحية الإدارية والإشرافية ذاتها التي ذكَّرت وحذرت مورداً ما عرفت به وما أعرفه عن نفسي من شدة، وما وصفت به من صرامة وحزم، درجت عليه في مراحل حياتي حتى صار طبعاً ملازماً لي في التشدد لمراعاة الأسس وإلتزام جانب الحق في تطبيق العدالة وعدم المحاباة أو التدخل أو الترضي لأحد كائناً من كان مما عده البعض من سيئاتي وآخذني عليها.. كما إعترضت على التفرقة في المعاملة وعدم المساواة في قبول إعتذار البعض عن الوظيفة ذاتها بحجج واهية، بل وغير واقعية فيما أوردته عن الإفتراء بالأقدمية وحرماني من نفس الحق. ولكن كان كل ذلك دون جدوى وبحسبي من شواهد عليه الرسائل العديدة المفصلة التي تُبودِلت والتي ما تزال محفوظة لديَّ معززة لكل ما أسلفت.

تسلمت أعباء وظيفة الوكالة للوزارة في عهد الأخ الكريم الأستاذ/ محمد إبراهيم خليل بروح "خادمة الفكي" وجعلت همي الأول إجراء مراجعة جذرية وشاملة لواقع الحال وإعادة النظر فيما يمكن تداركه مما أدخل على اللائحة من تعديلات ومن ترقيات ومن ترفيعات ومن تنقلات من شأنها أن تسلب الكثير مما لصق بالجسد ليؤذي.. وبدأت بالقيام بمسح جديد بعين متأنية واقعية فاحصة وعادلة تشمل رقعة التمثيل العريض الممتد ومواضعه ومستوياته الحالية ومضاهاتها بما أراه أن تكون عليه على ضوء التجربة وواقع مواردنا ومقدراتنا المالية ومتطلباتنا الفعلية وحاجاتنا الضرورية الماسة إليها ثم إلى مستويات ونوعية التمثيل وتصنيف وترتيب أهمية البعثات بحسب أهميتها الواقعية المتوخاة والمرونة لمتطلباتنا الفعلية منها وتقرير ما تحتاجه من المال والرجال.. بل وفي الرجال أنفسهم نوعاً وعدداً.. وضرورة توحيد النظم الأساسية لتطبق في جميع الممثليات على نسق واحد ونظام موحد محدد يوقف ويصحح التفاوت في النواحي الإدارية والحسابية والعمالية ويحد من المفارقات الصارخة والمتباينة في الدور والأجور والمخصصات.

أستلزم كل ذلك إلى جانب الدراسات والتشاور أن أقوم بزيارات سريعة مني للتعرف وللتفتيش، كانت أولاها الرحلة التي إصطحبت فيها الأخ/ السواحلي رئيس قسم مستخدمي الوزارة في جولة سريعة لأقطار شرق إفريقيا المجاورة (أثيوبيا وتنزانيا ويوغندا وكينيا وبعدها الكنغو)، بدأت بها لتقرير المخصصات وعلاوات بدل الغلاء، التي ظلت إفتراضية طيلة العشر سنوات السابقة، لوضعها على أسسها الواقعية فعلاً والتي أسفرت عن إختلافات ومبالغات كثيرة وكبيرة ومثيرة ومذهلة للغاية. ولن أستطرد أو أتصدى لأستعرض ما تم القيام به في خلال تلك الفترة أو أمكن تحقيقه بأي سرد أو تفصيل داخل الوزارة وخارجها تزكية لنفسي، وسأكتفي بإيماءات قصيرة لأهم ما تميزت به من أحداث شهدتها أو أسهمت فيها سواء في إجتماعات الجامعة العربية أو منظمة الدول الإفريقية أو دورات الجمعية العمومية للأمم المتحدة أو مؤتمرات الدبلوماسيين التي كنا نغتنم فرصة المأموريات واللقاءات

الدولية والإقليمية لنعقدها لسفراء المناطق خلال سنة 1966م على عهد محمد إبراهيم خليل، ثم على عهد الأخ الوزير/ إبراهيم المفتي. أذكر منها عودتنا من إجتماعات الأمم المتحدة المرهقة في تلك الدورة عن طريق البحر من نيويورك إلى ميناء كالي بلندن، بنفس تكاليف الطائرة ومنها بعد ساعات إلى الخرطوم، ثم أحداث الحرب الإسرائيلية العربية وما أدى إليه من قطع علاقاتنا بكل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية والتي قمت بتبليغها رسمياً إلى سفيري الدولتين بإستدعائهما لمكتبي في لقاء متجهم وجو سياسي مكفهر نفس يوم صدور القرار ليلاً، وإستدعاء سفيرينا من لندن ومن واشنطون إلى الخرطوم (ولسوف أتحدث عما عمدت إليه بشأنهما في الرئاسة).. وما تلا ذلك من ذهابنا لحضور مؤتمر وزراء الخارجية العرب الذي عقد بالكويت على أثر النكسة (وكان ذلك في عهد رئاسة المحجوب لوزارة الخارجية) الذي قرر مؤتمره التوجه بكامل أعضائه الذين حضروه من وزراء الخارجية إلى نيويورك – وخصصت لنا الكويت طائرة خاصة لحملنا إلى باريس. وأذكر إعتراض المقاتلات التركية لنا ونحن نعبر أجواءها وقسر طائرتنا على الهبوط في مطار أنقرا بحجة عدم الحصول منها على إذن مسبق للمرور... وكيف أسهمت بمعرفتي السابقة بالمسئولين فيها، الذين كنت سفيراً معتمداً لديهم، بتهدئة الموقف والإكتفاء بقبول الإعتذار بإعتبار أن ذلك لم يكن أمراً متعمداً وإنما حدث سهواً عن طريق الخطأ. وسمح لنا بمواصلة رحلتنا بعد أن ساورتنا الظنون والشكوك والمخاوف لما كان يقال عن موقف تركيا من إسرائيل آنذاك...

وإمتطينا من باريس الطائرة الأمريكية ذات الأرائك والمراقد الوثيرة الناعمة لتحط بنا في مطار كيندي بنيويورك لتبدأ فيها جلسات المنظمة، وما كان يسبقها من جلسات صاخبة نشطة ومحمومة للوزراء العرب وأمين الجامعة العربية والمنظمة الفلسطينية، تبلورت فيها فكرة الدعوة إلى عقد قمة عربية في الخرطوم كان صوت السودان فيها عالياً وطغى على غالبها صوت الشريف الهندي (حسين) المتحدث البارع القوي الحجة المفصح المبين وتجاوبت أصداؤه لترددها القاعة في نيويورك

ثم في القاهرة من بعد في الإجتماع التمهيدي الذي عقد ونحن في طريق عودتنا بالقاهرة مع الوفدين الجزائري والسوري بحضور عبد الناصر والرئيس الأزهري والمحجوب وحضرته معهم فيها للتمهيد لقيام القمة العربية.





أثناء إستقبالات مؤتمر القمة العربية بالخرطوم

وأذكر كيف كان الشريف متحمساً لقيام ذلك المؤتمر للقمة، وكيف كان يصاول ويجادل لإقناع بعض العرب الآخرين لتحقيق قيامه ولضرورة حضورهم إياه.

كان منذ الوهلة الأولى منادياً بضرورة قيامه واثقاً من إمكانه تذليل كل عقبات في طريقه ومطمئناً إلى ذلك، للحد الذي أصدر قراراً فوضني فيه بوصفه وزيراً للمالية، أن أمضي قدماً بوصفي وكيلاً للخارجية في الإعداد الجاد للمؤتمر كحقيقة واقعة لا محالة، كما خول لي (بعد النقاش حول أمر إسكان الرؤساء) أن أتولى مع الجهات المسئولة البدء الفوري في تحويل غرف فندق السودان " لنكوّن منها أجنحة منفردة تكون مكتملة الإستعدادات ولائقة بكل رئيس. وقمنا بإعداد ذلك فعلاً بأيسر التعديلات وبأقل التكاليف. وتحضرني نكتة أو قفشة أسارع بأن أرويها، حدثت فيها بعد قيام المؤتمر حول أمر السكن (خشية أن أنساها إن أنا أرجأتها إلى موضعها ووقتها) وهي أننا قد كونا لجاناً لإستقبال الرؤساء وأخرى لمرافقتهم إلى مقار إقامتهم في الجناح المخصص الذي أعد لهم بالفندق عند وصولهم. وكان من نصيبي أن أصطحب الرئيس/ جمال عبد الناصر لأقتاده إلى جناحه الخاص وأطوف به في داخله معرفاً له بمواضع ما يحتوي عليه.

رافقته مشيراً له بأن هذا هو الصالون وهذه هي غرفة النوم وهاته هي الصالة والأنتريه.. وعندما جئنا إلى الحمام وكان بابه منخفضاً كثيراً عن مستوى الباب العادي وأراد أن يطل عليه من الداخل. قلت له.. يا سيادة الرئيس إنت تقول دائماً وفى كل مكان أرفع رأسك يا أخي. ولكن هاته المرة فيؤسفنا أننا لا نملك إلا أن نقول لك بدورنا في السودان أن طأطي رأسك يا أخي.. ويظهر أن النكتة قد أعجبته فإنفجر ضاحكاً وربت على ظهري قائلاً لي... يا إبن الإيه.. حلوة دي خالص " ولست أعلم إن كان قد أدرك أو جال بخاطره ما يكون قد إنطوت عليه من مغزى ومن معاني!!.

وما دمنا نتحدث عن عبد الناصر وعن بعض ذكرياتي معه تحضرني مقولة نكته أخرى كان لها مغزاها أيضاً نقلت عني إليه: كان ذلك عندما كنت سفيراً للسودان في بغداد عام 63 /64 وكنت عميداً للسلك فيها، عندما قدم إليها حسونه باشا أمين عام الجامعة العربية زائراً. وقد رأى السفراء العرب أن يحتفوا به ويكرموه وأن يلتقوا به وأن يعقدوا معه إجتماعاً صريحاً طويلاً وأن يكون ذلك كله في مقر العميد... الذي هو بيتي بيت سفير السودان: ودارت أحاديث صريحة وجريئة وشجاعة فعلاً في ذلك الحفل المختصر. وكانت بعض الدوائر السياسية العربية والعراقية وقتها تصنف الأقطار العربية وتقسمها إلى تحرريين وتقدميين (مصر، سوريا، الجزائر واليمن) وإلى تقليدين جامدين أو متخاذلين ومتقاعسين... وكانت حتى المعاملات البروتوكولية الرسمية في تلك الدول وفي العراق تنم عن التفريق والتفضيل بين هؤلاء وأولئك. وجرى الحديث عن القومية العربية وعن مصر، إلى تمجيد عبد الناصر بإعتباره الرمز وبطل الدعوة للوحدة العربية والمخطط لها بلا نزاع، وأذكر حديث بعض الزملاء وآرائهم ونقدهم وكنت معهم ومن بينهم وأشاركهم في الرأي. وكان مما قلته ما عده البعض خطيراً في حينه فيما أذكر "أن عبد الناصر هو رائد وموقظ القومية العربية بلا نزاع وأنه نفخ في الأمة روح القومية العربية وأذكاها وإنطلقت دعوته القوية الصادقة للوحدة العربية ورفع راية العروبة في سماوات مصر ذاتها.. "وأضفت" ولو كنت مصرياً لخفقتْ وبهجتْ وسبحتْ بحمده كل خلية من خلاياي إعجاباً وحباً وتقديراً. ولو أنه ركز وقصر جهوده على بث الدعوة في الخارج وكرس عمله وقصره على الداخل في قطره لجعل من مصر الكعبة والمثال والقبلة التي يولي شطرها كل عربي ولإقتحم كل عربي ولأقحم نفسه يسعى لها وليؤمها وليضع يده في يدها ولو أغلق هو دونها الأبواب... وفي رأيي المتواضع أنه لو كف الرئيس/ عبد الناصر "أن يقحم أنفه الطويل" في شؤون الأقطار العربية الأخرى والتدخل المتحدي السافر والمتغول بحجة التثوير والإثارة، إذاً لهرعت تلك البلاد إليه طائعة مختارة لتشيد صرح الوحدة

العربية الطوعي الحر. ولو أنه بدل إقحام أنفه الطويل في داخل البلاد العربية الأخرى وإكتفى بإستمالتها بالقدوة والأمثال وبالتي هي أحسن وبالتنوير الفكري الدعائي الحر.. ولو أنه صبر وجعل من بلده القدوة والمثال الحي للوحدة التي تمت بينه وبين من أقامها معهم بالحكمة والعدالة وعدم مس الكينونة وطمس الشخصية لذاتيتها.. إذاً لإقتحمت بلاد العرب كلها جميعاً ولإقتحمت شعوبها وقادتها عليه أسوار مصر، يطلبون الإنخراط في سلك الإتحاد الحر الخالص النظيف الشريف الذي يحفظ لهم وحدتهم ويحتفظ بحرية إتخاذ القرار في شؤونهم الداخلية الخاصة، مهما سدَّت مصر في وجوههم الأبواب وأحكمت الرتاج.. ولساوت القافلة العربية في طريق تحقيق الوحدة المنشودة برضى وقناعة وإطمئنان".

كان ذلك فحوى ومجمل ما صرحت به من آرائي في ذلك اللقاء. وكان يحضر الحفل والحديث معنا بالطبع الأخ الزميل/ أمين هويدي سفير مصر الذي ضحك كثيراً وهو يسمع تعبير (الأنف الطويل) ولم يدر بخلدي آنذاك أنه لم يعجبه أو أنه سوف ينقله عني لآخرين ينقلونه. وعلى أي الحالات فقد حدث وأنا أقابل السيد/ جمال عبد الناصر بمنزله في منشية البكري عندما وصلت إلى القاهرة، وأنا وكيل لوزارة الخارجية في السودان، أحمل إليه رسالة شفوية من الرئيس الأزهري ووزير الخارجية إبراهيم المفتي حول قضية اليمن، ومعي الأخ الزميل الدكتور/ الحضري سفيرنا في مصر، أن يفاجأني الرئيس بعد تبادل التحية والترحيب بي في منزله وقبل الدخول معه في الحديث حول الرسالة التي جئت أحملها إليه وأن يبتدرني وهو يبتسم إبتسامته العريضة الوادعة التي يغلب عليها طابع الدعابة والتبسط بقوله: إنما قل لي أولاً وقد إلتقينا وعليك الأمان.. إيه هي حكاية الأنف الطويل دي؟ وكانت مفاجأة لم أتوقعها.. ولكنها لم تذهلني أو تربكني. فكان ردي عليه طبيعياً وتلقائياً ومتسائلاً.. (يا خبر حتى هذه أوصلوها إليك يا سيادة الرئيس) ثم أردفت ذلك بقولي الصريح الفوري.. أن كل ما أرجوه هو أن يكونوا قد نقلوا لك كل ما قلته أنا بالحقيقة كلها.. ومضيت أسرد عليه كل ما حدث بحذافيره معترفاً له بما قلته ومعيداً ومكرراً له.

ولنعد بعد هذا التشذيب الذي بعد بي عن السياق وعن الإطراد في السرد إلى قصة مؤتمر القمة العربية الذي تم إنعقاده في الخرطوم لأقول عنه بإيجاز بعض ما يحضرني في الذاكرة عنه.

♦ مؤتمر القمة العربي بالخرطوم:-

كان الموقف العربي العام أواخر 1967م يعج بالمشاكل وبالخلافات (علاقات جمهورية مصر العربية وسوريا، تونس ومقاطعة الجامعة لها بسبب عدم قطع العلاقات بألمانيا الغربية الإتحادية مع دول الجامعة بسبب إعتراف ألمانيا بإسرائيل، قضية اليمن وإنعكاساتها على العلاقات السعودية المصرية، خلافات الأردن مع منظمة التحرير الفلسطينية..إلخ) كل ذلك بالإضافة إلى النكسة وما خلفته من آثار..

هذا عن دوافع الفكرة. أما عما إكتنفها من ظروف وما كان لابد أن يثيره أي جدل من حساسيات للوضع العام والخشية من أن يزيد إنعقاد المؤتمر في تقسيم البلاد العربية إلى مجموعتين أو مجموعات متعددة متنافرة – مما كان موضوع إجتماعات وزراء الخارجية العرب في الكويت وفي نيويورك، والذي تمخض عن إجتماع القمة المصغر في القاهرة، الذي قام بعقده وفد السودان مع مصر والجزائر وسوريا وحضره الرئيس الأزهري والشريف وأنا معهم، فقد نجح في تليين صعوبات البلاد المتشددة. وعندها أعطاني الشريف النور الأخضر للبدء الفوري في الإعداد لقيام المؤتمر في الخرطوم بما في ذلك التفويض لإجراء التعديلات اللازمة لفندق السودان ليحول لأجنحة لإقامة الرؤساء كما سبق لي أن ذكرت.

وبدأ العمل وعقد مؤتمر المال والإقتصاد تمهيداً له وتلاه عقد مؤتمر وزراء الخارجية بالخرطوم الذي صادق على قيام المؤتمر بعد نقاش صريح جريء طويل للتدارس "بنية الوصول لعمل عربي موحد ومركز لقرارات تضامنية تنقي الجو وتعين على مواجهة قوية لتحديات الواقع ومتطلبات المستقبل وإزالة آثار العدوان."

قمنا بتكوين سكرتارية عامة ولجان فرعية محددة الإختصاصات للمؤتمر وتسييره وإدارة دفته وتقرير جلساته، وأخرى لمقر المؤتمر (بالقصر) وإعداد القاعات ومقار اللجان، وثالثة للإستقبال والمرافقة والإقامة والترحيل، ورابعة للأمن، وخامسة للضيافة، وسادسة للإعلام والصحافة إلخ...

وقد قصرت جُلَّ نشاطي في الإشراف العام على اللجان وتتبع أعمالها والتنسيق بينها إلى جانب حضوري للجلسات (ما سمح الوقت) وقد عهدت إلى الأخ الزميل السفير/ صلاح بخاري بالناحية التحضيرية والتدوينية والتقريرية لكافة أعمال المؤتمر في لجانه وجلساته، فأبلى ومن معه البلاء الحسن للحد الذي لم يحوجني معه والشهادة لله إلى أية تتبع أو توجيه أو عون.

وجاءت قرارات المؤتمر في مجملها، كما هو معلوم، كلها حاسمة قاطعة وإيجابية وعملية وموفقة... سندت وأمدت التضامن العربي بدفعة مادية ومعنوية قوية وأحيت الروح ودفعت إلى التصالح والتسامح والتصافي ورفعت المعنويات وخففت من آثار الهزيمة والنكسة خاصة لعبد الناصر ونفخت فيه روح العزيمة والمضاء من جديد: وفي المجال السياسي قررت في الخرطوم ما إشتهرت به من "لاءاتها الثلاثة" ولم يكن من بين سلبياتها ما يمكن أن يقال أو يعتد به فيما أذكر، سوى "حرد" المشير السلال وإنسحابه وسفره الذي لم يستطع أحد أن يثنيه عنه.

◆ الوساطة لحل قضية اليمن:-

وأذكر موقف السودان من قضية اليمن وإقتراحه للحل والرسالة الشفوية التي حملتها إلى الرئيس/ جمال عبد الناصر، التي سبق الإيماء إليها في معرض القفشات، من الرئيس الأزهري والوزير إبراهيم المفتي والتي تلخصت في ستة نقاط هي:-

(1) يقوم السودان بإبلاغ رأيه للدول العربية المختلفة وينتظر ردها وعلى ضوء ذلك يتخذ الخطوات المقبلة.

2) أن تشرف على تقرير المصير لجنة من خمس دول عربية مقبولة لدى أطراف المتنازعة (يقترح السودان والكويت ولبنان والجزائر والمغرب) لتتولى هذه الدول تحضير قوات لحفظ الأمن من بلدانها في اليمن، والسودان مستعد للقيام بواجبه بإعداد ثلاثة ألف جندي مع مثيلاتها من ثلاثة دول عربية.

(3) في ظرف ستة شهور يعد الجو الحر المحايد لتقرير المصير وذلك بسحب القوات العربية وإبعاد العناصر اليمنية التي ترمز للنزاع (بين حميد الدين والسلال) لأن وجود السلال على رأس الجمهورية يعقد الحياد.

(4) الحكومة التي تتولى المسؤولية في فترة تقرير المصير تكون حكومة إدارية تكونها اللجنة الخماسية من بين المحايدين اليمانيين.

(5) تلتزم الدول العربية الخمس بإحترام ما يقرره شعب اليمن وتبدي إستعدادها لمساعدته في بناء دولته.

(6) أن يقرر الشعب اليمني مصيره ونظام الحكم في بلاده.

حملت الرسالة وقمت بتبليغها للرئيس جمال عبد الناصر بحضور الأخ/ عثمان الحضري سفيرنا لدى القاهرة بمنزل الرئيس ولا أجد خيراً من أن أنقل عنها ما أورده المحجوب في مذكراته (وإن كان قد أشار إليه بتقرير وكيل الخارجية فيه دون أن يذكر إسمي) ما رفعته عنه بعد عودتي للحكومة.

كذلك أذكر لجنة تحكيم مشكلة الحدود بين الجزائر والمغرب التي توليت رئاسة وفد السودان فيها والتي حضرت إجتماعاتها في كل من أديس أبابا ثم في طنجة، وأذكر العتاب البليغ الذي وجهه إليَّ جلالة الملك الحسن الثاني عندما قمنا بزيارة مجاملة له في الدار البيضاء منتقداً عدم مبادرتنا ومبادلتنا بإرسال سفير سوداني مقيم لهم كما فعل هو معنا، والذي بعد أن أبديت له المعاذير وأوضحت له أسباب التقصير، ردَّ عليَّ بحكمته التي طيرتها إلى الخرطوم والتي قال لي فيها "متلف الشيء غريمه" مهيباً لنا لرأب ما صدعناه.

كما أذكر في خلال تلك الفترة للوكالة الفرصة التي أتاحت لي المناسبة غير السعيدة لتمثيل السودان في تشييع جنازة الرئيس/ عبد السلام عارف، من زيارة لبغداد (التي أحببتها) والتي جددت فيها مع أخوة كرام ما تزال تربطني بهم أقوى الصلات وأحلاها وأغلاها كبيت العلاوية وبيت الهداوي وبيت التكريتي وغيرهم كثر...

ولن أفيض فيما بذلت وما لاقيت وما كابدت وأنا وكيل في سبيل التقويم والإصلاح الذي كان أغلبه بسبب ما رأيته وما عددته تغولاً أو تدخلاً في الإختصاصات أو تعدياً على الصلاحيات وخلطاً لأوراق بين ما هو من الشؤون التي يجب أن يصرفها الوكيل وبين ما هو من المهام التي يجب أن تخضع لتوجيهات وسلطات الوزير كما تحتمها أسس وسلامة الخدمة المدنية العامة لتنتظم ولتسير ولتنتج؟ وذلك هو ما درجت عليه وما أصررت عليه. وقد سبق لي وأن ذكرت في معرض حديثي عن عملي الأخير بالسكة الحديد موقفي مع ناظر الأقسام ووضعي كمأمور مسؤول لإدارة قسم الخرطوم من ضرورة وضع الحدود الفاصلة الواضحة وضرورة التقيد والإلتزام بها.

ويسعدني أن أقرر بأني لم أجد ذلك ضرورياً في فترة الشؤون الخاصة، لا في عهد زروق أو فترة المفتي ولكني إضطررت أن أواجه بها صديقي المحجوب وأن أتشبث بها فيما يشبه الشرط بأن تكون المسؤولية الإدارية والتنفيذية كلها في يد الوكيل، وأن تكون السياسة ورسمها وتوجهاتها والإشراف العام له، بوصفه المرجع الكلى الأخير له هو كوزير... مع الإحتفاظ بحق الإستئناس بالرأي والمشورة بيننا والتنسيق والإشتراك وإطلاع الفريقين والإتفاق على كل ما يجري في الساحتين السياسية والإدارية لكل منهما. ودفعني إلى ذلك أحداث ووقائع معينة ومحددة كلها موضوعي وبعضها أساسي مبدئي يتعلق بمبادئ النظم المقررة المالية والقانونية التي أصرّ على تمسكي بها وضرورة تطبيقها دون أي تفرقة في المعاملة على الجميع سواء بسواء: وسأكتفي مما يحضرني في الذاكرة بإيراد مثل أو مثلين أو ثلاثة

إكتشفت أنها ظلت تصرف خطأ وبلا مبرر شهرياً لسفيرينا الكبيرين الذين تم إستدعاؤهما من لندن وواشنطون بعد قطع علاقاتنا بالدولتين والذين كانا يحاسبان بفئات بعثتيهما السابقتين حتى في فئة بدل غلاء المعيشة وهما مقيمان في الخرطوم!!

وثانيهما:- إسناد مسئوليات عمل محددة في رئاسة الوزارة إلى الزميلين السفرين الكبيرين خلال تلك الفترة التي طالت بالخرطوم.

ولكن كلا الأمرين لم يعجبا السيد الوزير الذي أمتعض ولكنه لم يجد ما يبرر به تجاوز ما هو واضح من قوانين. فأقرها على كره منه.

وهناك (كمثل ثالث) القضية التي لم أتردد في أن أحيلها بكل جدية وحزم وإصرار إلى لجنة تحقيق ثم إلي مجلس تأديب لأحد الزملاء السفراء العاملين في الخارج لإتهامات مالية وسلوكية سيئة لا تليق بالخدمة الخارجية، وما عمد إليه الوزير المحجوب، عفا الله عنه، من محاولة تغطيته له بجعله مساعداً شخصياً له برئاسة مجلس الوزراء وإصحابه في تنقلاته الخارجية إلى كنشاسا وبيروت وصنعاء... ثم ماذا ؟؟ لترفع أوراق الخارجية المحولة للرئاسة إليه هو عن طريقه إياه مما لم أفعل به لعدم توفر الأمانة فيه لمثل ذلك.

وفى سبيل إتخاذ بعض الإجراءات لتحقيق ذلك لم أسلم من المؤاخذة وأن أرمي بكبيرة هي على حد تساؤل السيد الوزير إرادتي أن تسير الخارجية على نسق ونمط السكة حديد؟ والذي كان ردي الصريح عليه هو إن كان ذلك فيما يتعلق بالإنضباط والإنتظام أقول نعم بكل فيَّ... وليتني أستطيع.. إذاً لنجحنا في أن نضع لها الطريقة القويمة المثلى والأساس المأمون الصحيح. وليس ذلك وحده بل كانت محاباة واضحة لهم أو كيداً أو تحدياً لي لست أدري؟!

كما كانت هناك سلسلة التعديلات لقوائم الترشيحات التي كانت تجري بعد الموافقة عليها لمن يسمون أو يرشحون للإشتراك في عضوية الوفود من بين العاملين بالوزارة في عضوية الوفود بإضافة البعض أو إستبدالهم بآخرين من المحيطين أو المحبين أو المدللين أو المرضي عنهم في الجلسات المصطبية وسهراتها الليلية. وحتى في محاولات الإنضباط والتشدد في التقيد بمواعيد العمل الرسمي ومحاسبة المقصرين أو إتخاذ بعض الإجراءات معهم لم أسلم من المؤاخذة وبأن أرمى بكبيرة، وكان آخر هاته فيما أذكر تكوين وفودنا لمؤتمر الجامعة العربية بالقاهرة ثم لقمة منظمة الوحدة الإفريقية بكنشاسا في أغسطس من عام 1968م وما أفضى إليه من مواجهة وأزمة أفتعلت وحيكت خيوطها تلك.. أدت في النهاية إلى إعلان إحالتي إلى المعاش وأنا عضو في المؤتمر الأخير .

فقد حدث عندما أبديت دهشتي وإمتعاضي وإعتراضي، بل وإحتجاجي على أن أسمع من المذياع وأنا الوكيل، في اليوم السابق لسفرنا إلى كنشاسا كشفاً جديداً بأسماء أعضاء الوفدين مغايراً لما سبق أن أعد ووافق عليه السيد الوزير المحجوب وتم توقيعه وأحطنا أعضاءه به علماً: وجرت محادثة جافة ومتجهمة وصاخبة بيننا حول ما جرى وما يجري وإحتدم الجدل وإنفعل على أثره الوزير وأظهر جمَّ غضبه وإفترقنا – وذهبت إلى المطار مع الوفد الذاهب إلى كنشاسا في الساعات الأولى من الفجر لأجد الأخ الوزير السيد/ عبد الماجد أبو حسبو ينتظرني في المطار والذي أخذ بيدي مصطحباً بي إلى خارج قاعة الإستراحة لنتمشى معاً قليلاً وليتحدث إليَّ فيما ذكر أن السيد/ المحجوب (وزير الخارجية ورئيس مجلس الوزراء) قد كلفه وطلب منه أن يناقشه معي وأن يراجعني فيه "وهو عرضه عليَّ أن أقبل بالنقل سفيراً للسودان في باريس" الذي سبق أن أومات إليه في هاته المذكرات والذي لمحت إليه ممازحاً عند توقفنا في باريس ونحن في طائرتنا إلى نيويورك مع وزراء الخارجية العرب والذي عاد فعرضه عليَّ السيد الوزير كتابة بتاريخ 10/15 ورددت عليه بتاريخ 10/27 في طلبه متشبثاً بالطريق الرسمي معتذراً عنه...

طلب مني الأخ/ عبد الماجد أبو حسبو أن أقبل بذلك النقل: فتملكتني الدهشة وذهب بي العجب كل مذهب من أمر تلك المقابلة التي إستدعت ملاحقتي بالمطار وبعد منتصف الليل وأنا أغادر في مأمورية رسمية لن تطول أعود بعدها لأن يفاتحني فيها وزير لا علاقة له بالخارجية وعلاقتي وصفتي الشخصية لا تتعدى أن تكون علاقة معرفة عادية في مثل ذلك الوقت المتأخر من الليل ولم أخف دهشتي عن الأخ أبو حسبو وعن الأمر العجاب وسألته في إستغراب عن السر في إثارة ذلك الموضوع معي بتلك الطريقة والوقت وعن أهميته وعن السبب في إستعجاله وإيفاده هو ليناقش ما سبق لي أن أوضحت رأيي فيه كتابة وما كان يمكن أن يرجأ لينتظر عودتي إذا رؤى أن يرجع إليَّ فيه وأن أبلغ به بعد أن أعود: وطال الحديث بيننا وقلت له إنني لا أفهم إطلاقاً أي معنىً لتدخله ولا لمثل تلك الملاحقة وفى مثل ذلك الوقت وذلك الظرف خصوصاً عندما أخذ يصر على أن يسمع رأيي النهائي ليحمله إلى المحجوب... وهنا ثارت ثائرتي وتعالت الأنفاس وإستحر الجو وتسعرت الكلمات وتلظت وتفجرت من فمي تحت تأثير الغضب كلمة نابية لست أدري كيف وجدت طريقها إلى لساني في حقه وفى حق رئيس الوزراء الذي أرسله وكانت خاتمة اللقاء: وجم بعدها كلانا وإنصرفنا مفترقين أنا إلى الطائرة التي كانت على أهبة التحرك وهو إلى الساعات القليلة الباقية على الصباح ليقابل بعدها المحجوب ولينقل إليه ما حدث.

وإنقضت أيام المؤتمر وكأن شيئاً لم يحدث لي أو معي ورأيت في ختام أيام جلساته أن أغتنم فرصة وجود سفرائنا في المنطقة بكنشاسا. فعقدت معهم مؤتمراً إستعرضنا فيه شؤون الوزارة وأحوالهم وأحوال سفاراتهم وشاء الله وسخريات القدر أن يصادف إتخاذ قرار إحالتي العشوائي للمعاش من حيث التوقيت ليكون إصداره في نفس الساعات التي كنت أعقد فيها مؤتمر ممثلينا في أقطار تلك المنطقة المتجاورة أولئك الأخوة السفراء في كنشاسا. وهو القرار الذي لم أعلم به إلا من أفواه من قابلونا صباح يوم عودتنا في مطار الخرطوم، والذي كنت بين مصدق

ومكذب له حتى فاجأني به نشره في جريدة الصحافة التي تصفحتها أول وصولي إلى المنزل، فكانت تلك هي نهاية المطاف للسنتين الأخيرتين العجاف لي بالرئاسة، وطويت بذلك آخر صفحات خدمتي التي إمتدت إلى عشرين سنة في السكة الحديد وإلى أكثر من إثني عشر سنة في خدمة خارجية حكومة السودان.

الفصل السادس

فترة المعاش وما بعد التقاعد

أبدأ هذه الفترة بردي الذي أرسلته إلى مجلس الوزراء، رداً على قرار إحالتي للمعاش وفيه يجد القارئ وجهة نظري كاملة حول هذا الموضوع

♦ الرسالة التي أرسلتها إلى مجلس الوزراء:-

بسم الله الرحمن الرحيم

(والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما إكتسبوا فقد إحتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً)

صدق الله العظيم

إلى مجلس الوزراء الموقر

بواسطة السيد/ وزير الخارجية

"المحترمين"

تحيةً وإحتراماً: وبعد.. فقد وردني الآن فقط خطاب قسم شؤون الموظفين بوزارة الخارجية سري/و خ/50 / أ /1 /2 بتاريخ اليوم (26/ ديسمبر/ 1967م) كأول إشعار رسمي لينقل إليَّ وللمرة الأولى قرار مجلس الوزراء الموقر المشار إليه فيه... بعد أن لاكته الألسنة وتناقلته الصحف ورددته الإذاعة وورد ذكره "بالتعريض" في مداولات الجمعية منذ صبيحة إجازته قبل عشرة أيام كاملة خلت. ذلك القرار الذي أصدره مجلسكم الموقر بتاريخ 17 /67/12 عندما كنت يومها غائباً خارج البلاد في مهمة رسمية مع السيد رئيس مجلس السيادة... بل والذي شاءت المصادفة الساخرة أن تتم إجازته في نفس الوقت من نفس المساء الذي كنت أباشر فيه أعباء وظيفتي وأعقد فيه أولى جلسات مؤتمر سفراء السودان لدى دول وسط وشرقي أفريقيا في كمبالا بمبادرة مني... وأنا لا أعلم من أمر ما حدث شيئاً... لا ولا أعلم سبباً واحداً يجعلني أتوقع حدوث شئ بشأني أو إتخاذ أي إجراء تجاهي أو ضدي إطلاقاً..

لقد أخذت الآن فقط علماً بقرار مجلسكم الموقر رسمياً من خطاب الخارجية الروتيني المذكور... ولكن هذا الخطاب لم يزدني بكل أسف علماً بما لا أزال أجهله كل الجهل.. فلقد تلقفت القرار عندما سمعت به لأول وهلة بمجرد عودتي مما يدور على الأفواه، منذ عشرة أيام، بمزيد من الدهشة والأسى، ذلك لأني كنت وما زلت أنتظر أن أحاط به مسبباً كما وردت بذلك إشارة السيد وزير الخارجية في معرض حديثه في الجمعية، ولأني ما زلت حتى هاته الساعة أجهل حقيقة دوافعه ومسبباته وأجد غموضاً في تفهم أبعاده وأغراضه وأستشعر تجنياً لا يليق في أسلوبه وتعجلاً لا يدرك كنهه في توقيته... وذلك أيضاً لأنني لا أعلم إطلاقاً بأنه قد سبق أن وجه لي، في أي وقت من الأوقات، سواء في عملي أو في سلوكي، ما يبرر إتخاذ أي إجراء ضدي له بإنهاء خدمتي مما يشهد به سجل خدمتي الطويل النظيف... ولأني أيضاً وحتى مغادرتي الخرطوم في سفرتي الرسمية الأخيرة السابقة، بل وفي خلالها أيضاً كنت أصرف أعمالي كالعادة دون أن أستشعر من السيد الوزير شيئاً من دلائل عدم الرضى يأخذه عليَّ أو يضمره نحوي.. ودون أن يكشف لي سيادته عن أي جديد يجابهني به، بل لقد كان السيد وزير الخارجية، السيد محمد أحمد المحجوب، حتى آخر لقاء لي به في مكتبه برئاسة الوزارة، قبل سفره إلى القاهرة ذلك اليوم، طلقاً وعادياً معي وكذلك كان حالي معه. وإفترقنا وهو لا ينتظر مني فيما أعلمه سوى فراغنا مما كان قد أقره وعهد به إلى اللجنة المصلحية الثلاثية (التي كنت قد إقترحتها أنا ووافق سيادته على تشكيلها) لتنظر فيما رفعته إلى سيادته من توصيات مكتوبة عن الأسس والقواعد التي أعددتها وعددتها مناسبة ليعاد النظر في تنظيم أوضاع الوزارة كلها في الداخل وبعثاتها كلها في الخارج على هداها.

ثم سافر السيد الوزير إلى القاهرة وذهبت أنا إلى كمبالا، كل مع وفده ولم يحدث أن إلتقينا منذ ذاك الحين حتى هاته اللحظة. وكل ما حدث بيننا في هذا الأثناء من إتصال في العمل لم يزد على أمر ذلك الخطاب، الذي بعثت به إليه، والذي لا أراه إلا موضوعياً وواقعياً ومشروعاً فيما ألفت النظر إليه بصراحة شديدة فيه، دون

أي نبو أو خروج عن الخط أو القصد أو تبذل أو تجني في الخطاب، والذي يسعدني جداً أن أحاسب عليه إن وجد فيه ما يدعو إلى أية مؤاخذة.

أذكر هذا لأنه كان هو كل ما يسعفني به تفكيري من أسباب، ولأنه هو كل ما أفضى به إليَّ السيد الوزير عبد الماجد أبو حسبو في المطار صبيحة سفري لكمبالا وهو يتحدث لي بصفته الشخصية والأخوية (كما ذكر)... لما قاله لي بأنه أي الخطاب كان سبباً في الإثارة والإنفعال للسيد المحجوب... ذلك الإنفعال الذي طغى أو ثار وما كنت أقدر أن يتمخض عنه مثل هذا القرار والتشفي. وأن أعجب فأن عجبي لما كان السيد الوزير أبو حسبو يحاول إستمالتي إليه ويحاول أن يحملني عليه حتى ساعة سفري من أن أقبل بالنقل للعمل في السفارات بالخارج، الأمر الذي سبق أن عرض علي وأوضحت وجهة نظري حياله كتابة، ثم لأن يصدر القرار بعدها بالإقالة أو الإحالة دونما أي إنذار ودون مواجهة بأي أسباب أو إنتظار لأي إستجواب على ما بين عرض الإستمرار في العمل بالخارج في لقاء الصباح وإنهاء الخدمة كلها في إجتماع المساء من مفارقة، أقل ما يمكن أن توصف به أنها عجيبة وغريبة ومذهلة حقاً!!

وهنا أرى أن لابد لي من أن أشير إلى ما خلفته تلك العروض والمحاولات لحملي على النقل إلى الخارج من إنطباع عميق في نفسي، وما خلفته تلك الملاحقة الأخيرة الغريبة في المطار وبذلك الأسلوب الذي نمَّ لي عن دوافعها من أثر ما لم أفهمه إلا بأن أزاح ولو عنوة وإقتداراً، ليتاح بذلك لمن هو محور الضجة المفتعلة، فتى القصة المدلل، أن يرفع في درجتي ولأن يحل محلي.

ومهما يكن الأمر فإني أرجو أن لا أرى إلا محقاً، إذا أنا إلتمست بكتابي هذا من المجلس الموقر أن أحاط علماً بالأسباب التي أدت هكذا وبجرة قلم إلى إنهاء خدمتي دون أي مقدمات وبلا سابق إنذار أو ذنب أو جريرة أو إتهام. أو حتى دون مجرد أي إلفات نظر سابق، خصوصاً وأنها لخدمة إمتدت طويلة ومتصلة لستة وثلاثين عاماً أفنيت فيها زهرة شبابي وردحاً من كهولتي، خدمة أعتقد صادقاً أنني

قد عملتها كلها في إخلاص دؤوب وأمانة وصدق وإستشعار للمسؤولية جهد ما أملك من طاقة، ولأنها أيضاً وبالإضافة إلى ما تقدم خدمة لا تقتصر أبعاد سمعتها على السودان في داخله كغيرها من الخدمات فحسب، بل تنعكس آثارها وتتجاوز أصداؤها، بحكم طبيعتها، الحدود والسدود لتنداح فيصل خبر إنهائها وبالشكل الذي حدث إلى كل من عملت معهم أو بينهم، ملوكاً ورؤساء وأمراء، وإلى كل من عاشرت وعرفت وصادقت من زملاء ورصفاء ومعارف وأصدقاء، وإلى كل من زاملت وعاملت من غيرهم، حكاماً ووزراء وسفراء... لتنال من سمعتي لدى هؤلاء وأولئك جميعاً.

إن كل ما يهمني وأنا أسطر هاته العجالة هو هذا وهو أن لا يكون من بين الدوافع والمسببات (أن حدث) ما يمس الشرف والأمانة والإخلاص والنزاهة أو الحق أو العدالة. ذلك هو ما يهمني في المقام الأول ثم بعدها أن لا يكون فيما قد أتخذ من إجراء أراه تعسفياً ما تضار به أسس الخدمة المدنية ليهدد أمنها وسلامتها وإستقرارها أو ليقوضها من أساسها. وذلك بإنهاء خدمة موظف قديم وفي مركز كبير في الخدمة المستديمة وفي أعلى مراقيها هكذا (إيجازياً). وبكل بساطة دون أن تأخذ العدالة مجراها في أمره... بل ودون أن يوجه إليه أي اتهام أو لوم أو تقصير. فذلك حق تكفله له القوانين كمواطن عادي، على أقل تقدير، لصون حقوقه وللحفاظ على كرامته وسمعته والمراعاة التامة لمصلحته ولمستقبله والحماية له ولأسرته من عبث العابثين وكيد الكائدين ودس الدسائس وتآمر المغرضين.

هذا وفي إنتظار تحقيق عادل، رجائي بأن أفاد بما لدى المجلس الموقر من الأسباب التي حملت على إتخاذ هذا القرار، الذي جاء مفاجئاً ومباغتاً لي، والذي أعده غادراً وجائراً، بل ومزرياً ومشيناً، حتى أكون على بينة من أمري ولأحدد موقفي على ضوئه يطيب لي أن أعرب لمجلسكم الموقر عن عظيم إحترامي وأكيد ولائي.

خليفةعباس العبيد

وكيل وزارة الخارجية (تحت الإنذار)

نسخة إلى:

السيد/ رئيس مجلس السيادة الموقر

السيد/ رئيس لجنة الخدمة العامة

بعثت بذلك الخطاب بتاريخ 1967/12/26 ولما لم يرد إليَّ رد خلال شهرين كاملين، حررت إستعجالاً بتاريخ 1968/2/26 أرجو فيه معرفة ما تم بشأنه وللرد على ما أوردته فيه من إلتماس لمعرفة الأسباب... وجاءني الرد بالعجب العجاب، بموجب خطاب أمين عام مجلس الوزراء بتاريخ 1968/5/4 (أي بعد أكثر من شهرين آخرين) أورد نصه كاملاً أدناه:

"بالإشارة إلى خطاب سيادتكم المؤرخ 26/فبراير1968 أرى أن أخبر سيادتكم أن خطابكم بتاريخ 1967/12/26 لم يصل لهذا المكتب، مما أدى إلى عدم إرسال ردكم بشأنه في حينه. وعليه فقد كلفت أن أفيد سيادتكم بأن مجلس الوزراء غير ملزم بإبداء الأسباب ".

وتقبلوا بقبول إحترامي

التوقيع: كرار أحمد كرار

عن/ الأمين العام لمجلس الوزراء

والخط تحت السطر من صنعي ليستبين مصدر العجب الذي يكشف المخبؤ "لا في جمادي وحدها ولا رجب" وليكن هاته آخر ما أخطه لعهد أسود أريد هكذا أن أطوي آخر صفحاته في وزارة خارجية جمهورية السودان التي يحق أن أدعي بكل صدق أنني كنت أول من وضع لها الأساس فهل ترون حاجة إلى أي تفصيل أو تعليق؟

لم أعد إلى الوزارة أو أدخلها إطلاقاً ولم أثق لأن أقابل أي مسؤول فيها منذ تسليمي مفاتيح الخزانة السرية مع رسول بعد عودتي من كمبالا. وإن كانت قد أمت داري أفواج تمثل الكثرة الغالبة، زملاء وموظفين وأخوة ومعارف ومن وجوه القوم وعليتهم ومواطنين ودبلوماسيين وأجانب، وإستمرت سيولهم تتدفق بلا إنقطاع. وفي اليوم الذي إنتهت فيه المدة المستحقة لدي بعد الإخطار، قمت بإخلاء المنزل الحكومي(الذي كان يشغله قبلي السيد/ بابكر عوض الله، هو المنزل الذي إنتهى به الأمر ليكون مركز تحقيقات الملاريا حالياً بالقرب من مشتل الفنطاس على شارع 15 الإمتداد، الخرطوم) ورحلت من العاصمة عائداً إلى قريتي الجيلي وإلى منزلي المتواضع فيها، الذي هو كل ما أملك في الدنيا من حطام أو عقار. وعكفت على تحويل مجرى حياتي وحصر وتسخير كل ما أملكه من حركة أو نشاط ليصب فيها وليكون قصراً عليها وعلى من حولها .

وهكذا كانت نهاية المطاف... عدت كما تعود الشاة إلى مراحها.. ليست بحمد الله عرجاء أو عجفاء أو شوهاء، بل بروح عالية ونفس راضية وثقة في النفس عالية وبأرجل صحيحة قوية ترتكز بحمد الله وقوته عليه عازمة على مواصلة سيرها إليه في ما شاء الله أن أقضيه أو ما يقضي به عليَّ فيها من دروب الحياة.

وبدأت في إعادة ترتيب سكني وصيانته بالجيلي، وشرعت في مزاولة نشاطاتي وفي تعهد مزرعتي الصغيرة فيها، التي آلت إلي عن طريق الوراثة من أبي، غشيته الرحمة وطيب الله ثراه. وكان الخطاب الطويل الجامع الذي ألقيته بحلفاية الملوك بإسم الجيلي إسهاماً في حفل تأبين الأخ اللواء/ حسن بشير نصر الجماهيري الكبير الحاشد الذي حضره كبار رجالات الدولة ورؤساء الحكومة ووزاراتها وقاداتها. وهو أول صوت يرتفع لي على الملاء بعيد تقاعدي أو إقعادي لتسمعه آذان عشرات الألوف المحتشدة. وكان خطاباً جريئا وصريحاً ومليئاً، لا بالغمز واللمز، ولكن بالنقد اللاذع والمرير وبالتشهير لحكومة ذلك العهد. وهو خطاب على طوله أورده برمته في هاته المذكرات ليتحدث عن نفسه بنفسه:

• الكلمة التي ألقيتها بإسم الجيلي في حفل تأبين المرحوم اللواء حسن بشير نصر/ بحلفاية الملوك:-

بإسم الجيلي المفجوعة فيك، الحزينة عليك، الثاكلة لك، الجيلي موطنك الذي فيه نشأت ومراح طفولتك، الذي فيه درجت، بإسم أهلك فيها جميعاً قدمت، وأنا المريض، لأبث هاته الخطرات الأليمة والزفرات الحارة في أليم ذكرى تأبينك، جئت أبعثها من صدري بعد أن جمعتها من قلوب المكلومين أهلوك وأهلي..

الجيلي قريتي، التي يحز في نفسها أن ترى يوم ذكراك تجدد مشهد نجم هوى، وغصن ذبل، وجرح كوى، وخطب فادح أناخ بسوحهم فإستقر بأحشائهم وثوى.

فلقد كنت يا حسن للفضيلة مناراً وللقبيلة فخاراً. وكنت من أهم عمدها وأرفع هاماتها. في شكلك إستقامة وإستقرار. وفي نظرتك صرامة وإصرار. وفي مشيتك قوة وإعتزاز. وفي عشرتك نبل ووفاء. وفي ذيلك طهر وصفاء دونه صفاء اللجين ونضار العسجد. لله درك كنت من رجل... لو أمهلتك غوائل الأجل: ألفت الأباء والشمم منذ الصغر. وأنفت الخضوع والضيم المذل منذ نعومة أظافرك. ومضيت تقفز في مسالك مسارك حتى تسنمت ذرا المجد وحملت اللواء حتى قبل أن يحملوك رتبة اللواء.

هذا اللواء الذي صنت قداسته في الحرب وتوليت حراسته والذود عنه في السلم، فظلل ربوع القطر بأمنه وإرتفع بين البرية شامخاً ومدلاً.. هذا اللواء الذي عز عليه أن لا يلف به جسدك أو أن يدرج فيه جثمانك، كما عز علينا أن يعسر ما كان سهلاً ميسراً لغيرك عند مرضك، فلم تحملك الطائرات فيمن حملت إلى حيث نطس الأطباء إنتجاعاً للبرء وطلباً للعافية وتلمساً للشفاء.. وإن كانت الأعمار مرهونة بمواقيتها، ولكنهم حرموك، عفا الله عنهم، حتى مجرد تلمس أسباب التعلق

أدنى في المراتب - ولكن لعل من حسن تصاريف القدر أن كانت غفلة الحاكمين عنك في الأرض هي من أجلّ مظاهر رضوان الله العلي عليك.. فلقد لقيت يا حسن ربك متجرداً إليه من كل حول وطول، وخطوت خطواتك الأخيرة إليه متحللاً من كل جاه، متخلياً عن كل سلطان وهيلمان، إنها دنيا سوداننا يا صديقي:

هي محنة وزمان ضيق وتمخضت عن لا صديق... وما ذاك بضائرك
إن هُدَّ ركنك منكوباً فقد رفعت لك الفضيلة ركناً غير مهدود
إن المناصب في عزل وتولية غير المواهب في ذكرى وتخليد
كنت الوزير وكنت المستعان به وكان همك هم القادة الصيد

ولكنها بلية هذا القطر ومصيبته..

عشت وإمتدت حياتي لأرى في الثرى من كان قبلا في القمم
إنهيار المثل العليا وإنكار آلاء وكفر بالنعم
من يكن عض بناناً نادماً فأنا قطّعت إبهام الندم
وإذا إنحط زمان لم تجد عالياً ذا رفعة إلا الألم

لقد كنت يا حسن - رحمك الله - روحاً طموحاً شديد الحساسية وقلباً دائم الخفق، تعتصره الواجبات وتؤوده التبعات وتنوشه المسؤوليات بالمطالب. كنت رجلاً تحمل في أعماقك جحيم أسى مكتوم، ونبع بكاء حبيس، لكثرة ما قاسيت أنت ولكثرة ما عانيت من ظلم الناس للناس حتى شهدتك ونحن نتحدث عن الأوضاع المتردية، تذرف الدموع. وكم هي غالية يا صديقي دموع الرجال... فناء لذلك جسدك وتداعى كيانك وإنطفأ سراجك...

وضاق جسمك عن مداك فلم يطق صبراً عليك وأنت شعلة نار

كنت أعلم الناس يا صديقي بما كان يختلج به قلبك الكبير من إشفاق على البلد وما تومض به نفسك من إستبطاء إشعاعات النجدة وهبات الخلاص لإجتزاز فساد المفسدين وظلم الظالمين وجور الطغاة المتحكمين.. هذا الفساد الذي إستشرى حتى طغى وضرب بجرأته على كل شئ..

لا يا صديقي. فما كان لي في مثل هاته العجالة الحزينة أن أعدد من مآثرك يا حسن. وكلها شاخص للعيان يتحدث عن نفسه بأنصع بيان وبأفصح لسان، سواء في منجزاتك وأنت الحاكم أو في بلائك وأنت القائد أو عندما تنحيت أو نحيت فسرت في أهلك سيرة "ود البلد"، النزيه العف النظيف، وفخر البلد المجد العامل، ورجل البلد، بل في مثله العلي الكامل.

كنت في الميدان شجاعاً صلداً وبطلاً صنديداً وفارساً مغواراً، لا يشق له غبار. فسجلت لنفسك ولبلدك حسن الأحدوثة وعليَّ الإنتصار. وكنت في داخل السودان وخارجه عنواناً مشرفاً وأنموذجاً صالحاً للمواطن الصالح الحر. لا يغريك المدح ولا يغرك البهرج ولا يستهويك البريق الزائف... بل كنت كمعدنك أبداً أصيلاً تنفذ إلى الأعماق. وصميماً لا تحفل بغير اللباب...

وعملت على تقوية الجيش جهدك. فإذا به قوي متين الأركان يوم أن كنت ركن أركانه، فإذا هو مرفوع الرأس واضح الجبين... وغذوته حتى غدا منذ أن توليته وأولاك أمره عزيز الجناب كثير العدة وفير العتاد كثير العدد... وحققت لبلدك من الكسب ما جعل الأعداء من حوله والمتشككين من الدول المجاورة له، خاصة، أصدقاء متوددين من غير ما إفراط في ترضي ولين أو تفريط في حقوق.

وما كان برك الخاص أو العام قاصراً على أهلك وذويك، بل تعداه إلى كل من هو جدير به ومستحق أياً كان.. فلم تقم لك من دون الناس حجاباً ولا حجَّاباً، ولم تخلق من أهلك ومن أقاربك وأصهارك بطانة، ولم تكن في معاملتك الصارمة الحازمة دخن ولا وهن ولا ميل ولا مين.

لقيتك في لبنان وأنت تعود من زورتك إلى تركيا. وكان قد منعني عمل ما عن القيام بواجب إصطحابك إليها، وأنا السفير المعتمد آنذاك. فلم تثر ولم تتجهم، بل أكبرت مني ما فعلت وربت على كتفي أن عفارم عفارم.. وحللت لبنان ضيفاً رسمياً. فلم تكن مباهجها الفاتنة مسترابك ولا مبتغاك، وإنما شغلت كل وقتك فيها بما جئت من أجله، فكان أن بهرت كل من لقيت فيها بقوة شخصيتك وبواسع إطلاعك

وبعميق خبرتك وبغزير إخلاصك وإنسانيتك. وغمرتني بفيض من الزهو والإعتزاز بعد مغادرتك دارنا.. أشهد ما خلفته زيارتك تلك في نفوس القوم من أثر ومن حرص على إفادة السودان من كل خطوة كنت تخطوها.

وفي عام 1958 مثلاً تجسدت فيك آمال البلاد، يداً قوية أمينة على دفة سفينة النجاة، يوم أن لم يكن من الخلاص بد.. وفي عام 1964 كنت المواطن الذي ينزل على إرادة مواطنيه، يوم أن بدا لهم أنهم يفضلون ما حسبوه الديمقراطية، وما كانوا يعلمون...

واهاً على تلك المواقف إنها　　كانت مواقف ليث غاب ضاري

ما كان أحوجنا إليك إذا عدا　　عاد وصاح الصائحون بدار

أيها الأخوة المنكوبون:-

ما كان موت حسن موت فرد واحد، ولكنه بنيان قوم تهدما... أنه أمل أمة ذوى، ورجاء شعب ضوى، ونبراس قوم تحطم.

على أن تخليد حسن وأمثال حسن لا يكون بإقامة مثل هاته العرضات التي مات حسن وهوبها كافر، وتولى وهو عنها غير راضي، بل يجب أن تكون في رأيي المتواضع إستمراراً لسمو روحه وإمتداداً لنمط حياته تلك، التي جبلت على حب الخير للناس وتطوير حياتهم .

لو أقمنا له مستشفى أو مصحة أو دار نشر أو مكتبة... بل ولماذا لا نعمد إلى أضعف الإيمان لتخليد هذه الساحة بأن ينتصب ويخلد إسمه تمثالاً عليها؟

ما أريد أن أسترسل. فلابد لي من أختم وتحضرني هنا هاته الساعة أبيات لأبي، رحمه الله، أستعير منها قوله:

أنت يا إبن القبائل السبع أصلاً　　إبن قطر يرجو بقاك طويلا

غير أن الأيام تفني لتردي　　وتقيم البناء كيما تميلا

وإني وأنا أتلفت إلى هذه الدار وقلبي يتلفت معي، لا أملك إلا أن أسائلها مساءلة ناجي:

أين بانيك وأين السمر أين أهلوك بساطاً ونداما
كلما أرسلت عيني تنظر وثب الدمع إلى عيني وغاما

أو لأعود إلى أبيات أبي حين يقول:

ولمن شدت هذه الدار تزهو بجمال وإعتضت عنها بديلا
في رياض الفردوس عش هانئ البال قريراً وجر فيها الذيولا
وتمتع بسندس عبقري وبحور وشم عرفاً عليلا
وليثبنا الإله أجر عزاء في مصاب دهى وعز مثيلا

أيها الأخوة المحزونون:-

لقد خلَّف حسن بحمد الله رجالاً كلهم حسن، وكلهم بشير، وكلهم بإذن الله إلى النصر يسير. وختاماً فمني عليك السلام يا أخي، يا سليل المجد، يا بطل الأبطال، يا إبن القبائل.

وعطر الله ذكراك يا من:

أحنى لعرش الله رأساً ما إنحنى بالذل يوماً في رحاب عظيم

وإنا لله وأنا إليه راجعون، وأنا يا حسن عليك لمحزونون.

"والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"

♦ ثورة 25مايو 1969:-

وجاءت ثورة مايو في 69/5/21 وكنت بطبيعة الحال حانقاً موتوراً لما حاق بي من ظلم. فكانت برقية ترحيبي المشروط بها أول برقية تهنئة وتأييد تذاع. وكان وفد تهنئتنا، الذي أحسن تخيّرة وتميّز تمثيله، أول الوفود زيارة لمجلس قيادة الثورة الجديد.. أعقب ذلك توجيه دعوة منا لنميري وأعضاء مجلسه ووزرائه لحضور لقاء جماهيري كبير جداً أقمناه له في الجيلي، ضم أعداداً ومجموعات غفيرة، ممثلين ومندوبين لكل قرى الريف الشمالي وباديته. وألقيت فيه خطاباً ضافياً جامعاً صريحاً ناصعاً، أذيع على الهواء مباشرة، تناول إلفات النظر إلى المثالب وتعرض إلى

مواضع التخلف وطرح مقترحات لما هو لازم من إصلاحات ضرورية وفورية عامة، وبخاصة للمنطقة وأوضاعها. وكان ذلك في أواخر شهر أكتوبر. وكان أول حفل جماهيري أقيم لثورة مايو في أي جزء من بقاع السودان.

وتقدمت بشكوى إلى الثورة ضد ما عددته جوراً وظلماً أحاق بي من جراء إحالتي إلى المعاش. ووجدت تفهماً ومناصرةً وعدلاً. وعرض علي الأخ السيد/ بابكر عوض الله (رئيس الوزراء ونائب رئيس مجلس قيادة الثورة) كنتيجة لذلك وظيفة مستشار لمجلس قيادة الثورة في الشئون الخارجية، كما طلب مني قبول رئاسة لجنة التطهير لوزارة الخارجية. وأبديت ملاحظاتي على العرضين بما يقارب السلبية والرفض، معللاً ذلك بأسباب موضوعية عقلوها. ثم عرض علي السيد/ محمود حسيب، وزير المواصلات، وظيفة وكيل بوزارته، التي تشمل السكة الحديد والنقل والمواصلات السلكية واللاسلكية. ونشر خبر التعيين في الصحف قبل أن أبت فيه برأي وذلك لعدم الموافقة عملياً ولكون مدير السكة الحديد وغيره من رؤساء مصالح الوزارة تلك هم في نفس المستوى درجةً وراتباً من جهة أخرى. فإعتذرت ولو كنت أطمع في مجرد الكسب المادي أو الإنتصار الشخصي ورد الإعتبار، لما ترددت لحظة في تلقف أي من العرضين والقبول بأي من المنصبين. ولكن تلك هي شيمتي وطبعي ومبادئي وقيمي، التي لا أملك أن أتخلى عنها فتيلاً أو لتنفك هي عني...

وخطفت رجلي وزوجتي ذلك العام في جولة خارج البلاد، زرنا فيها بغداد تلبية لدعوات كريمة وجهت لي من قبل أصدقائنا الكثر فيها.

◆ مع لجنة التطوير:-

وبعودتي أسندت إليَّ رئاسة لجنة تطوير الجيلي، وهي أول لجنة تطوير وثقت وتحمل الرقم (1) الأول في البلاد بطولها. وقد وفقنا الله كلجنة قوية مقتدرة ومتجانسة، بها من القدامى والحادبين من المواطنين إلى تحقيق منجزات عديدة هامة

في مجالات الصحة والتعليم والمواصلات والري والزراعة والتعاون والنشاطات الشبابية والطلابية والنسوية والاجتماعية المحلية الأخرى. وقمنا بتسجيل ذلك كله في كتيب مطبوع يقف شاهداً على ما تم تحقيقه وإحرازه، ما تزال نسخ كثيرة منه موجودة معي ومع الكثير من المسؤولين ومع جمهرة من المواطنين. ويجب أن أشير إلى أهم الإنجازات المذكورة كرؤوس موضوعات فقط. فمنها تكوين مجلس التعليم الموحد، وحل مشاكل المياه، وإنشاء روضة نموذجية للأطفال، ومد المواسير للعرب الرحل وللمقابر، وتكوين أول مجلس قضاة محلي، وتوصيل كبانية وتلفونات تجاوز عددها نحو الثلاثين خطاً للجيلي، وتطوير الشفخانة والسعي لإقامة مركز صحي أو مستشفى ريفي، ووقاية القرية وإقامة الجسر وصيانته، وإبادة الأوبئة والحشرات، وتطوير الزراعة، والنادي الثقافي الإجتماعي، وتنظيم المواصلات إلى غير ذلك.

وحضرت مؤتمر لجان تطوير القرى (الفاشل) وإستقبلنا وفد ممثلات الأمومة والطفولة العربي ومهرجانات الشباب بالخليلة والفكي هاشم ووفد المسح الإجتماعي وتكوين أمانة عامة للنساء وكتيبة للشباب بالجيلي. كما دعوت سفراء جميع الدول التي عملت بها، فشرفوني بزيارة كانت أعلام سياراتهم التسع هيئة أمم مصغرة، كما إستقبلت عدداً من كبار الزائرين، كان من بينهم مندوب الإذاعة البريطانية بمنزلي بالجيلي.

وكانت الجيلي على طول فترة عهد لجنة التطوير المشار إليها قبلة الأنظار وموضع إهتمام كبير، يفد إليها المسؤولون من مختلف الوزارات وعلى أعلى المستويات تباعاً وفي سيل لا ينقطع، تعج بهم وبنشاطاتهم ومتابعاتهم ودفعاتهم الفعالة المثمرة القوية حتى صارت البلدة كخلية النحل التي تعمل دائبة لا تفتر. وتدفقت ثمارها يانعة جنية للخيرين المخلصين، ونارا أثارت غيظ الشائنين وسخط الحاسدين من الذين لا يعملون ويؤذيهم أن يعمل الناس، وخاصة فيما حالت بينهم وبين ما كانوا يغنمونه بأساليبهم الملتوية غير الأمينة...

♦ تأميم البنوك:-

وعشية إعلان الثورة لقرار تأميم البنوك عينت رئيساً لمجلس ما يسمى ببنك أم درمان الوطني أو جوبا أم درمان، لما كان قبل ذلك البنك العثماني، ثم بنك "ناشونال آند قرند يلز" (بنك الوحدة فيما بعد) وأختير له كأعضاء لمجلس الإدارة معي السادة الدرديري إبراهيم مديراً، والأخوة صالح محمود إسماعيل ومحمد سوار الذهب وإدريس الهادي (رحمهم الله).

تقرر أن يكون رؤساء مجلس إدارات البنوك المؤممة (متفرغين) يداوم كل منهم يومياً. فكنت بذلك بمثابة العضو المنتدب الذي يرأس البنك ويمثله شخصياً في إجتماعات بنك السودان. وتوجه كل الرسائل وتجرى كل الإتصالات عن طريقه، الأمر الذي أدى في البداية، على أقل تقدير، إلى تداخل وتشابك في الإختصاصات والصلاحيات وعدم وضوحها، خاصة بين رئيس مجلس الإدارة وبين المدير العام. ولذلك ولتفاوت مستويات التجارب وإمكانات التجانس والتنسيق والمرونة، ظهر أثر ذلك جلياً في مصرفنا. وكان محافظ بنك السودان، الذي يشرف على البنوك المؤممة، السيد/ محمد علي محسي بميوله اليسارية يستقطب ويناصر، فيما بدا لي، من يشاركونه ميوله. وبإختصار لم تكن البداية ميسرة. وكان من الطبيعي أن تعثر العمل بسبب المعوقات، لتباعد بين ما تقتضيه الفترة من دقة في الإشراف والتتبع، وبين منح فرص اللامركزية وإفساح حدودها.. وتعذر في نظري التوفيق، الأمر الذي إضطرني أخيراً، ولم تمضي أكثر من ثلاثة شهور، لأن أعتزل وأفر بجلدي، تاركاً العمل في الوظيفة. وكان هناك خلط للأوراق فيما بين رئيس مجلس الإدارة وبنك السودان، الذي شاء أن يتدخل حتى في العموميات العادية... ويكفي أن أذكر مثالاً لذلك:- تكريم وتوديع رؤساء البنك الأجانب القدامى، الذين لم يترك لنا حق القيام بذلك لمن خلفناهم، حتى إضطررت إلى أن أكرمهم بحفل شاي كبير ضم أكثر من الأربعين موظفاً معهم بمنزلي بالجيلي وعلى نفقتي الخاصة. وإرتحت له لأن كلفتة جاء ت وفاء وللتعارف.

♦ **وفاة عبد الناصر:-**

روعنا فى تلك الفترة بالحدث الخطير والفقد الكبير، بوفاة الرئيس جمال عبد الناصر، وهزني المصاب وأسهمت بتأبينه بكلمات ألقيتها من بوق الإذاعة ورددت إذاعتها عدة مرات، وأن أغفل صديقي الدكتور أبو هالة تضمينها فى ما نشره من كلمات التأبين والرثاء لذلك البطل، فى ما أصدره من كتيب، فرأيت لذلك أن أوردها أدناه.

♦ **كلمة الجيلي القرية المروعة فى الريف المكلوم ألقيتها من منبر إذاعة أم درمان يوم الأربعاء 1970/9/30 وأعيد بثها مراراً:-**

فى رجب الخير، شهر البر والبركة لدى المسلمين، وفى يوم الإثنين وفى مثل ومضة العين إنطفأ السراج الذي لم يخب قط، وهمدت الشعلة التي لم تفتر قط.

وتوقف ذلك القلب الكبير الذي لم يهدأ يوماً ما أبداً، ولم يتوقف يوماً ما أبداً،عن الخلق وعن الدفق، وعن الخفق. كان خفقاً كله يمن وبركة ودفع ونفع.

في يوم الإثنين، وفي أصيل يوم الإسراء، سرت روحك الطاهرة يا ناصر الحق والعروبة إلى السماء... في يوم السمو والرفعة والمعراج المشهود سمت روحك يا أمل الأمة وعرجت مفذة في الصعود .

وفي هدوء مباغت وفي فجأة خاطفة، شأنك لدى الملمات في حياتك، لفظت آخر أنفاسك وأسلمت روحك يا زينة الشرق إلى خالقك، فيممت وجهها فرحة متهللة مشوقة مستبشرة شطر الشرق، قبلتها وقبلتك التي إرتضيت...

ومرق سر الله منك في مضاء الشهب الثاقب وإنفلت في مروق الصاروخ الوضئ المضيء، يسمو متعالياً ويندفع صعداً بعد أن تنفست أنت الصعداء ليستقر طيباً وادعاً آمناً في رحاب ملكوت الله في سمائه، وليتفيأ راضياً مرضياً فسيح قدسه في عليِّ جناته ولينعم قريراً وادعاً هانئاً في كنف الإله المعبود مستشرفاً ببركة يوم

المعراج مدارج العز ومراقي الشهود جزاءاً وفاقاً لكل ما قدمت ولكل ما أسلفت يا ناصر.

عزاء بني أمي، عزاءاً جميلاً قومي، وإن عز في ناصر العروبة العزاء...عزاء أيتها الإنسانية، عزاء أيتها البلاد الآفروآسيوية، عزاء يا شعوب الأقطار الأفريقية، عزاء أيتها القومية العربية، عزاء أيتها التقدمية، عزاءاً وصبراً يا مصرا،عزاء زوجه وأبناءه وأحفاده، عزاء عزاء، فقد مات جمالكم البطل، مات وفي يده، رحمه الله، علم الجهاد وحبل القياد من أجلكم جميعاً...

مات الذي وقف حتى أخريات ساعات أيام حياته لوقف تصدع الصف العربي، ولوقف إراقة الدم العربي في الأردن.. فلا عجب أن تصدع من جراء ما بذله كيانه، وأن انهد بنيانه، وأن إنفطر وإنفجر من جراء ذلك شريانه.

مات جمال الرجل الرجل.. الطود الشامخ القوي العملاق، الذي أفنى كل جهده ووهب كل طاقاته، وظل يجد ويكد، يكافح وينافح.. يستنزف من قوة العدو لينال من حياة العدو، فلا غرابة أن إستنزف كل ذلك معين الحياة الثرة فيه.. تلك الحياة المليئة الوضيئة المترعة المثمرة الزاخرة الخيرة.. أوقفها كلها على خدمة وطنه الكبير وعلى خير شعبه كله وعلى نفع أمته قاطبة.. كرسها بإيمانه وعزمه وبعقيدته وصبره وإصراره وثباته لصون كرامة الإنسان في كل مكان..

مات ناصر، من كان للدنيا بأسرها صفاءً ونقاءً وعزماً ومضاءً..

مات ناصر، من كان للعروبة موئلاً وحصناً وعدةً وزخراً وأملاً ورجاءاً..

مات من كان لمصر إنسان عينها ودم قلبها، بل كان لأمتنا بأسرها عنوان مجدها ورمز كفاحها وحادي نهضتها وباعث عزتها والنافخ في روحها.. حتى تمثلت ذلك البشر السوي والعضد القوي في الكيان العربي الذي بذخ وشمخ..

آمنت بك اللهم وبرسولك وبقدرك: ورضينا بحكمك وبقضائك فينا: فقد ترك ناصر في كل قلب جمرة، وفي كل عين قطرة، وفي كل حلق شجى وعبرة.. وفي

كل صدر زفرة وفي كل نفس لذعاً أليماً وحزناً مقيماً... وإن له في كل أسرة لمناحة، وفي كل بيت لمأتم، وفي كل قطر حسرة ولوعة وتوجع وأنين...

إن هذه لعمري هي العظمة، وإنه لعمرك هو المجد الذي عم الأرض، فكان أكبر من الأرض... المجد الذي شهدت لك به الدنيا.. كل الدنيا.. من تركك بوفاتك في الدنيا:-

"دوياً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر" فالله الله للعروبة من بعدك، والله الله للشرق من بعدك، والله الله لنا ولكل من عرف فضل الرجال وقيم الرجال وأقدار الرجال...

إن عزاءنا فيك أن لنا في حياتك الغالية، حياتك الفانية، وفي أثارك الباقية، عبر وعظات وحوافز نافعات.. وأن سلوانا ما لمسناه من أن الموت في سبيل العقيدة ومن أجل المبادئ.. حياة.

ولئن مات عبد الناصر، فإن أثاره حية لن تموت وإن مآثره لن تمحى وإن مبادئه لن تهدر وإن عهوده لدينا لن تخفر، بل أننا سنظل على عهد الوفاء له أبداً، نحمل عنه الأمانة ونؤدي الرسالة ونقول:

حين قلت إنتهيت قلنا بدأنا نحمل العبء وحدنا والصعابا

ألا رحم الله عبد الناصر، وأحسن عزاءنا وعزاء الوطن فيه، وألهمنا الصبر على أليم فقده، وألزمنا محجة الصواب ووهبنا قوة الصمود والتماسك من بعده.

ولا حول ولا قوة إلا بالله وإنا لله وأنا إليه راجعون.. وأننا والله عليك لمحزونون.. (إنتهى).

♦ في السعودية والمؤتمر الإسلامي:-

عندما من الله عليَّ مرة أخرى بالعمرة والزيارة في أواخر العام، إلتقيت فيها برصيفي سفير المملكة في أديس أبابا سابقاً، الأخ/ عمر السقاف (وزير خارجية المملكة فيما بعد) الذي أفضى إليَّ بميل جلالة الملك فيصل لترشيحي لرئاسة المؤتمر

الإسلامي المزمع إنشاؤه في جدة (إذا ما ساندتني في ذلك حكومتي) ولكن سبق السيف العذل، وجيء بمن لا قبل لي بمزاحمته، وهو السيد/تنكو عبد الرحمن، رئيس وزراء ماليزيا الأسبق. فأسندت إليه الوظيفة.

تلا ذلك إنعقاد مؤتمر الدبلوماسيين بقاعة الشعب، الذي لم أحضر سوى جلسة إفتتاحه- وتمت في أثناء إنعقاده زيارة الإمبراطور هيلا سيلاسي للسودان، الذي خصني فيه وزوجته بهدايا منه غالية، ما تزال موضع فخرنا.

في أوائل يناير 1972 إنعقد المؤتمر السياسي التأسيسي الأول للإتحاد الإشتراكي السوداني بالخرطوم. وتم إختياري عضواً فيه، لكني لم أكن متحمساً له رغم أن كل الدلائل كانت تشير إلى "تلميعي"وتقريبي فيه. ولكني كنت عزوفاً عن أضوائه، لم أسهم فيها بغير مجرد حضور بعض جلساته. وكنت أقضي أيام ذلك المؤتمر كلها ضيفاً على الصديقين د/ سعيد محمد أحمد المهدي، وزوجته الفضلى د/ فاطمة عبد المحمود على مقربة من موضع إنعقاد جلساته.

وجاءت إلى الجيلي بعثة التنقيب عن الآثار، التابعة لجامعة روما الإيطالية (مدام بوري والبروفيسور بلقيس والأستاذة ايزابيلا وغيرهم) وتوثقت صلاتي بها وأمددناهم بكل ما أمكننا من معونة لهم في الإقامة والسكن وكل ما يحتاجون إليه.. وأتممنا تركيب كبانية تلفونات الجيلي، وفتح تعاون النساء وفتح روضة الأطفال بها.

وقمت بجهود في إعادة تعمير وتحسين وتطوير مزرعتي الخاصة وغرس أشجار حمضيات وفاكهة إضافية عديدة بها، بإشراف صديقي، زميل الطلب، وديع جورج، مدير وقاية النباتات والبساتين آنذاك. ووجهت إليَّ الدعوة لحضور مؤتمر الجنوب بقاعة الشعب، وحال المرض بيني وبين حضورها. ولكني بعثت بإسهام كتابي متواضع إليها.

♦ في خدمة دولة قطر الخارجية:-

عندما إستقلت قطر وتسلم مقاليد حكمها الأمير الخليفة بن حمد آل ثاني، وبدأت في إقامة أركان دولتها الحديثة وتأسيس علاقاتها الخارجية، إستعانت ببعض أبناء البلاد العربية الشقيقة لتفيد من خبراتهم السابقة في مضمار التأسيس والتكوين والتنظيم والتدريب.

وفيما يتعلق بإنشاء وزارة خارجيتها وبعثاتها الدبلوماسية، تم إتصال بعدد من قدامى السودانيين المتمرسين في العمل الدبلوماسي وعلي أردني واحد وتونسي واحد وظفتهم كخبراء دبلوماسيين. ووقع إختيارهم من السودانيين على بعض الوكلاء والسفراء القدامى السابقين، بدءاً بالسيد/ محجوب مكاوي الذي (إستبقى بالرئاسة) ثم تلاه خليفة عباس العبيد ليساعد في فتح أول سفارة قطرية في لندن، وجمال محمد أحمد ليعين على فتح سفارتهم الأولى لأمريكا في واشنطن، ثم يعقوب عثمان لسفارة الباكستان. ومن السودانيين رجال الصف الثاني السيد/ اللماح:- حسان المصباح... كما شمل التعيين عدداً قليلاً من بعض الكتبة والمحاسبين السودانيين. وكان قد سبق هؤلاء بعض المصريين والفلسطينيين. كما عينت دولة قطر عدداً من رجالات القانون والقضاة السودانيين، كمولانا الفاتح عووضة ومحمد أحمد عبد الرحمن، ومن أبرزهم عبد الرحمن سوار الذهب (المشير لاحقاً) ثم صلاح حسن وإداريون وإستشاريون ومستشارون في الجيش والشرطة وفنيون ومهندسون ومعلمون من السودانيين .

وصلت الدوحة في أبريل 1972 وبقيت فيها فترة أتعاون فيها مع الأخ/ محجوب مكاوي في إعداد التخطيط الأساسي الأول وإنجازه وما يلزمه من ميزانيات وكوادر ومستلزمات للرئاسة.

وتم إختيار عدد من القطريين بواسطة سمو الأمير وأخيه الشيخ سحيم، وزير الخارجية، ليكونوا سفراء وسكرتاريين، كنواة للسلك. وكان من حظي أن رشح الأخ/ الشيخ أحمد بن سيف آل ثاني ليكون أول سفير لهم في لندن، وتقرر أن أكون خبيره

الدبلوماسي لفتح السفارة هناك. وإكتفينا بأن يصحبنا سكرتير أول وآخر ثالث وأن نقوم، كما إقترحت، بتعيين محليين للوظائف الحسابية والكتابية والإدارية هناك. وكان يتولى القيام بأعمال دولة قطر قبل فتح السفارة في لندن بعض البريطانيين الذين كانوا يشرفون على مكتبها الطبي وعلى غيره من شؤون العلاقات العامة، ممن لم تكن لهم أية صبغة رسمية.

وبعد الفراغ من وضع الهيكل للوزارة في الداخل والخارج في الدوحة وإقراره من السيد/ الوزير ومباركة سمو الأمير له وتحديد الإختصاصات والتصديق على اللائحة التي إخترناها وإجراء التعيينات وتقرير رواتبها ومخصصاتها وتحديد مستوياتها، قرَّ الرأي على أن نسمي (خبراء دبلوماسيين) لعدم مواءمة لفظ المستشارين في السلك الدبلوماسي المتعارفة وإنطباقه علينا، كوننا مشيرين في واقع الأمر من جهة، ولئلا تلتبس الوظيفة مع درجة المستشارين في السلك الدبلوماسي المتعارفة والتي هي أدنى من درجة الوزير المفوض!! وكان الإشكال الذي واجهنا هو موضوع جواز السفر الدبلوماسي القطري، الذي كان محتماً وإلزاماً علينا أن نحمله... ونحن نحمل جنسيتنا السودانية... وقد دار نقاش وجدل طويل حول الأمر مع الجهات القانونية ووزارتي الداخلية والخارجية وقسم الجوازات والهجرة، إشتركنا فيها وتفتق ذهني عن حلّ غريب إقترحته ووافق عليه الجميع بأن يصدر الجواز وأن يكتب عليه في خانة الجنسية (سوداني في خدمة دولة قطر الخارجية) وفي خانة المهنة "خبير دبلوماسي." وقد كان، رغم أنه قد خلق بعض إشكالات أخرى لم تكن في الحسبان أو يكون لها سابقة في العرف الدبلوماسي.. ووجهت بها مع وزارة الخارجية البريطانية ودائرة المراسم بها، خاصة حول تصنيفي ونعتي في القائمة الدبلوماسية، التي يتحتم أن أضمن فيها مع أعضاء السفارة القطرية. وبعد مكاتبات مع دائرة المراسم ومقابلة كبير أمناء دائرة التشريفات الملكية وشروحات عديدة متواصلة، أفلحت في أن يورد إسمي بعد السفير مباشرة، وأن تكون التسمية هي كما أردت (الخبير الدبلوماسي) وأن أتمتع بسائر الإمتيازات والحصانات

والمعاملات المرعية. ولعل من أطرف ما نشرته بعض الصحف وقتها ومجلة الـ Diplomatist الدبلوماسي التي نشرت الخبر تحت عنوان مثير هو.."شيء خاص متميز فريد" Something very special والذي أطلق على ذلك، رغم عدم إرتياحي لما كان يحمله ويوحي به من ملابسات لإطلاقه هو تشبيهه بنوع متفرد وخاص من أنواع "الويسكي"... لكن خفف من وقعه علي ودفعني للتقاضي عنه أنه صدر عن محررة صحفية شابة فاتنة جميلة ساحرة تعرفت إليَّ هي مارقريت أوشي...



مع أركان السفارة القطرية في لندن بوصفي خبيرا دبلوماسيا لهم

حللنا في لندن فندق (الرويال لانكاستر) سكناً ومقراً مؤقتاً لنا ونواة لمكاتبنا في البداية ونقطة إنطلاق لنا ريثما ندبر خطانا. ثم إستأجرنا بناية متواضعة في منعطف منزو، وإن كان يقع في منطقة ال May Fair على مقربة من فندق القروفنر Grovener قبل به الشيخ أحمد السفير المرشح، بعد أن دلنا عليه أخ وجيه كريم كويتي، هو السيد مبارك الحساوي، صديق مالكه. وهو الذي عرض على السفير أيضاً وفي نفس الوقت ما برني به ليكون سكناً لي في مبنى بيت الفسقية The Fountain House الذي كان يلبي مطلبي الوحيد من أن يكون سكني قريباً

جداً من مقر السفارة، رغم إعتراضي عليه وتهيبه لروعته التي تبهرك منذ أن تلجه لتطأ قدماك مدخله الفسيح الفخم، المزينة جدرانه بالنقوش الزاهية، المزدانة أسقفه باللمسات الفنية الأخاذة، والمتدلية نجفاته وثرياته كالعناقيد، والذي يجلس من وراء دست طاولة إستقباله المستديرة الفخمة حارسه وموظف إستقباله، بزيه المزركش الفضفاض وبزته المهيبة.. وكانت الدار التي تم إختيارها لي في ذلك الموقع المتميز رحبة جداً، منسقة، حسنة الترتيب والتنسيق، مكتملة الأعداد، حافلة بكل المستلزمات والأثاث الجيد. ولا أبالغ إذا قلت بأن الجناح الصغير المخصص للخدم فيها، بسعته ومستواه الرفيع، خليق بأن يرضي مطامح أي ساكن عادي.

كانت المهمة التي أوكلت يسيرة وعسيرة، هينة وصعبة في وقت واحد معاً. فقد إستشعرت مسئوليتها العظيمة وحملتها محمل الجدّ وبذلت فيها من الجهد ومنحتها من العناية والإهتمام والإخلاص ما لا يقل أو ينقص شعرة عما أوليته لتكوين وإنشاء خدمة خارجية بلادي على أرسخ عمد وأقوم نظام وأحدث أسلوب. وعلى الرغم من غرابة وضع وظيفتي، التي "هي كل شيء" في ظاهر الأمر وباطنه، ولكنها هي لا شيء في معرض التعامل الدبلوماسي الرسمي.. إلا أنني وجدت من الأخ الشيخ/ أحمد بن سيف آل ثاني، الذي عين سفيراً، والذي هو من خيرة وأطيب وأكرم أبناء العائلة الحاكمة خلقاً وتواضعاً ومعرفةً وحسن معاملة، جعل طريق عملي معبداً ميسراً وحراً طليقاً.. فتح لي عقله وقلبه وصدره وحاطني بتقديره وإحترامه ومنحني غالي ثقته وحفظ علي كرامتي كاملة غير منقوصة. فوفقنا بحمد الله إلى إقامة أركان البعثة على الأساس السليم والنهج القويم لها ولإداراتها ولأقسامها المختلفة في داخلها وفي ملحقيتها الطبية وفي مجالاتها الإعلامية وصلاتها الخارجية الأخرى.

وكان من الطبيعي أن تتقاطر وتتابع الإتصالات بالدوائر وبالبعثات الدبلوماسية عربية وإسلامية وأجنبية، حميمة نشطة منذ البداية. وكان الأخوة والزملاء في سفارة السودان طليعة من إتصلوا بي مرحبين ومهنئين. وأذكر، عندما أرادوا المجيء إليّ للتحية والسلام أن بادرت بزيارتهم لأحييهم ولأقدم لهم فروض

الولاء وواجبات الإحترام أولاً. وبعثوا إليّ بعربة لتوصلني إليهم : وخطر لي وأنا في طريقي إلى السفارة أن أسأل السائق السوداني إن كان يعرف مكان إقامة الأخ محمد أحمد المحجوب، الذي يسكن فيه وإن كان في طريقنا.. فقال لي أنه يعرفه.. ومرّ بذهني شريط طويل للأحداث التي أدت للقطيعة فيما بيننا، منذ أن أحالني إلى المعاش عنوةً وإقتداراً، والتي لم نلتقي بعدها أبداً.. وتأملت في مجيء إلى لندن لأعمل فيها لفترة قد تطول وتمتد ربما لسنوات، وقسرت نفسي على أن تكبر وتعلو عن الأحقاد والشنات وترتفع وتتسامى عن الضغينة والبغضاء، وأن تصفو وتصفح وتعفو، فأبدأ بزيارة المحجوب غافراً ما سلف ومسترداً وصل حبال الأخاء والصداقة والود القديم.

وخادعني الشيطان بأن لا أفعل.. ثم وسوس إليّ مهيباً بأن أذهب إليه وأنا مزهو معتد ليرى كيف أن الله قد إنتصر لي وزين لي فعوضني عن الدرهم ديناراً، بوضعي الذي أنعم به علي من جديد... فإستعذت بالله ولعنت الشيطان وإستجبت لنداء دافعي الطاهر العفّ النقي الأصيل ومبعثه ومقصده الخالص النبيل، وأمرت السائق بأن يمرّ بي على داره لأحييه قبل توجهنا إلى السفارة.

وكانت لحظة رهيبة ومشهداً عجيباً... هبطت من السيارة وتوجهت نحو باب شقته وضغطت بإصبعي على الجرس ونفسي تموج وتضطرم بأحاسيس متباينة ومتضاربة شتى... وكان المحجوب هو الذي فتح الباب بنفسه، وهو يرتدي برنساً قصيراً تكشف عن ساقيه العاريتين. وكان أثر المفاجأة أو الصدمة عليه عنيفاً... وبدا وكأنه لم يصدق عينيه اللتين كانتا غائرتين من أثر النوم أو النعاس، الذي كان ما يزال عالقاً بهما، فبرزتا وجحظتا وأخذتا تحدقان في سهوم ووجوم وإصطكت وتراجفت ركبتاه كأنهما لم تعودا تحملانه، وفغر فاه وأطلق صيحة دهشة وإستغراب صارخة، ولكنها ودودة حارة قائلاً "خليفة." ثم إندفع نحوي بكله مطوقاً لي بكلتا يديه... وإستمر العناق فترة سالت بعدها الدموع لتنهمر من مآقينا.. وإجتذبني معه إلى الداخل وهو ممسك بيدي يودع راحته المختلجة بقوة وحرارة. وكسرت هدأة

الصمت بأن قلت له "لقد شاء الله أن تجيء بي حكومة قطر خبيراً دبلوماسياً لسفارتها هنا. وما أردت أن أعمل وأعيش في لندن وأنت مقيم بها فنظل متباعدين متباغضين متقاطعين.. وعفا الله عما سلف... ثم إستأذنت مستعجلاً للإنصراف بعد أن أكدت له أن ما وسوس به إليّ الشيطان ليس له أي دخل في زيارتي تلك له... وحاول أن يستبقيني وما زال التأثر يتملكه ويهيمن عليه. وأردفت "لن أحاول أن أخدعك أو أغشك. فأدعي بأن ما كان بنفسي قد محي كله تماماً.. ولكن جئت لأؤكد لك وأشهد الله على سلامة صدري والأيام كفيلة بأن تعيد إلى قلبينا صافي الأخاء والمحبة والود". وما لبثت الحياة أن عادت سيرتها الأولى. فصرنا نتبادل الزيارات واللقاءات والإجتماعات الرسمية والأسرية وفي الصحة والمرض، حتى غادرت لندن وإلى أن توفاه الله فبكيته وأنا بتونس. وأذكر أني ضمنت رسالة عزائي فيه ما كنت أمتدحه به وأمجده فيه – مما كان يعجبه ويرتاح إليه – من إقتراحي بأن خير ما يكتب على شاهد قبره بعد عمر طويل... هو (هنا يرقد الرجل الذي رفع العلم وأدخل السودان في هيئة الأمم.. رحمه الله ونضر مثواه).

وفي خلال إقامتي بلندن وأنا أعمل خبيراً لسفارة دولة قطر الشقيقة، تجددت صلاتي وتوثقت معارفي مع الكثيرين من المعارف والرؤساء والأصدقاء القدامى، بريطانيين وعرب ومسلمين وأجانب، ممن عرفتهم أو تدربت على أيديهم بوزارة الخارجية البريطانية أو بالسكة الحديد الإنجليزية أو بالخدمة المدنية أو الخارجية بالسودان. أذكر من هؤلاء السير شابمان أندروز، والسير آنقس جملان، والسير وليام لوس، والسير همفري أنديفليان، رصيفي والسير السفير في بغداد، ورؤساء السكة الحديد المستر ولبي، والمستر دبن، والمستر ولسون، والمستر وود، وأستاذنا/ ريتشارد هل (واضع المعاجم والفهرست والمراجع الثلاثة عن السودان، ومؤلف كتاب تاريخ المواصلات في السودان) الذي ما أكثر ما كنا ننعم بزياراته وبدعواته لنا في أكسفورد ودرهام (كانت آخرها بمعية الأخوين الأستاذين/ محمد عمر بشير،وإبراهيم نور) وكذلك أعضاء جمعيات الصداقة البريطانية السودانية والعربية،

بيتر كلنر ووتنجتن (ممن تسلمنا منهم البنك العثماني عند تأميمه وإسناد ر جلس إدارته إليّ) وغيرهم كثيرون، بالإضافة إلى من كانت تعج بهم لندن وغيرها من كبار السودانيين، زائرين ومقيمين، حكوميين ومعارضين، وفي هيئة الإذاعة البريطانية، التي كان يعمل فيها وقتها الأستاذان/ الطيب صالح ومحمد خير البدوي، وكذلك المذيع رشاد رمضان، الذي إستخدمنا زوجته في القسم الطبي للسفارة القطرية بلندن.

وبناءاً على إتصالات مع المسؤولين عن الإعلام في دولة قطر عهد إليّ بالتحسس (بالحاء المهملة) وجس نبض الأخ الطيب صالح وإمكان إستمالته للعمل الإعلامي فيها. وبالفعل كللت المساعي بالنجاح في وجبة غداء، دعوته لها بمطعم قريب من السفارة، قابل بعدها السفير وتمت الموافقة. فكانت نفحة خير ودفقة خبرة واسعة ودراية سودانية قوية فريدة حققت للإعلام القطري الخير الكثير على يديه.

وبعد أن إستقرت الأوضاع في السفارة، وقامت أقسامها وإنتظم العمل فيها أخذت دولة قطر بإقتراحي، بأن تعهد إلى سفيرها في لندن بتقديم أوراق إعتماده سفيراً غير مقيم لمجموعة من دول غرب ووسط أوروبا.. وصحبت السفير لإتمام مراسم إعتماده في سبع دول أخرى في السويد في أبريل 1973، حيث لقينا من الدولة، ومن سفيرنا الأخ/ فرانسيس دينق، كل إكرام وإهتمام، ثم زرنا "هولندا " حيث زرنا محكمة العدل الدولية في لاهاي وتعرفنا إلى أمستردام وروتردام ومعالمها وطريقها الساحلي الجذاب وبرجها ومشتلها المخملي وميناءها، بمراكبه التجارية عبر القنوات وأقواس النصر، وجسورها التي قيل أن عددها يبلغ التسعمائة والثلاثين جسراً، وحوضها العائم، والسفن السياحية الفارهة التي تتخذ كفنادق خاصة، ومعامل أبحاث شركة شل الضخمة، وفن المعمار القديم وميازبيه الرخامية. ولفت نظرنا، بشكل خاص، ذلك العدد الهائل من القطط المترفة السمان التي تؤويها بواخر خاصة.

كذلك صحبت السفير إلى النرويج (بعد السويد) حيث كانت تكسو قممها الثلوج ويغطي أرضها الجليد. وتوقفنا في "ستا فنجار" الهادئة الوادعة التي يلفها صمت الموتى منذ حلول الغروب. وزرنا مرتفعات التزحلق فيها ومقر مؤسسة جائزة نوبل وقاعة البلدية وسفينة نور مندية تقليدية عتيقة.

كما رافقت السفير لتقديم أوراقه "بالدنمارك" في مطلع أيار (شهر مايو) وقمنا بزيارة إلى مدينة البهجة والأضواء والنافورات والثريات والنجف ومواطن النزهة والترفيه في "كوبنهاجن "... ثم شددنا الرحال بعدها إلى "النمسا"، حيث بقينا خمسة أيام، قدم السفير في أثنائها أوراق إعتماده وتجولنا في عاصمتها "فيينا" ومشاهدة أمجادها ومعالمها الفنية والأثرية. وحججنا إلى معاقل كبار فنانينها وموسيقييها:- موزارت وبتهوفن وبيكاسو، وإلى غابتها ومغارتها وقلعتها وإلى قصورها، البولفدير، بتحفه الرائعة وحدائقه وبركته المطلة على المدينة من علٍ، وقصر الهابسبيرج وبرجها ومتاحفها وكنائسها ونصبها التذكارية، التي يتجلى عليها أثر الفن الروماني والإغريقي، والتماثيل والتحف والمنتزهات ودار البرلمان فيها. وعبرنا الدانوب وسعدنا بحضور لباليه الروسي فيها، وهو يعرض رائعته "عائدة" و"أنا كارنينا" الخالدة.

وفي خلال عملي مع القطريين في لندن أبت مكارم الأخ السفير القطري، رغم مخالفة ذلك العرف الدبلوماسي، أن أنوب عنه وأن أقوم مقامه بتصريف أعمال السفارة أثناء تغيبه خارج البلاد الأمر الذي كان مثار مأزق وإحراجات شتى. كما كان يعهد إليّ بتمثيل دولته في بعض اللقاءات والندوات وإجتماعات جمعية الصداقة العربية البريطانية "كابو" وفي مؤتمر المراكز الإسلامية، خاصة الذي عقد في مارس 1973 بفندق "بيكاديلي" بلندن، برعاية السيد سالم عزام. كما كنت أحضر معه سائر الدعوات الرسمية والأعياد القومية وحفل المملكة السنوي بحدائق قصر بكنجهام، التي كانت توجه فيها الدعوات بلا إستثناء. وقمت في ذلك الأثناء بتوجيه عدة رسائل، كان يبعث بها إليّ صديقي إبراهيم حسن المحلاوي من السودان، إلى

جلالة الملك فيصل حول الحركة الإسلامية العالمية لأرسلها عن طريق البريد. وكذلك عن كشوفاته المعدنية وثروات البحر الأحمر ومطالباته لحكومة السودان. وما أزال أحتفظ بنسخ من المكاتبات الهامة الأخيرة معي وسأعمل بإذن الله إلى إحالتها إلى وزارة الثروة المعدنية والمشرفين والمهتمين بأبحاث الطاقة في السودان.

وداهمت السيول قريتي الجيلي ودمرتها، وأنا بلندن ذلك العام. وبعثت برسالة مطولة أنحيت فيها باللائمة على من تسببوا فيها من المسؤولين المحليين والمركزيين، إهتم بها وتكرم بنشرها الأخ/ الوزير جعفر محمد علي بخيت في جريدة الصحافة وعمل بما فيها.

وجرت أحداث ميونخ ومقتل الإسرائيليين فيها، أثناء مباريات كأس العالم فيها، وأبت إلا أن تنعكس آثارها لتمتد إليّ!! وأذكر ذلك الصباح الذي طرق باب مسكني، في الفاونون هاوس، مفتش المباحث وضابط أمن بريطاني وبرفقتهما بعض الجنود، نقلا إليّ أنني مستهدف من قبل الموتورين الإسرائيليين، الذين أثارهم الحدث والذين يخططون لأن يقوموا بعمل إنتقامي يكون رد فعل عليه، وأنهم قرروا أن أكون من بين هؤلاء بوصفي من كبار الدبلوماسيين العرب المقيمين في ذلك المبنى... وقمت بإتخاذ ما رأيته لازماً من الإجراءات والتحوطات، لي ولأفراد أسرتي، الذين كانوا يسكنون معي. فمرت الخطة بحمد الله وإنتهت بسلام ولم يمسنا فيها تعد أو أصابنا فيها أذى أو سوء .

وكانت لإحدى زيارات سمو الأمير، الشيخ خليفة بن حمد، إلى لندن، أثناء عملنا بسفارتهم بلندن، بعض ملابسات وذكريات، تستحق أن أومئ إليها وأن لا تنسى. فعند ما صادف موعد زيارته إلى لندن وتوافق ذلك مع وصول حاكم قطر السابق (الذي إستحوذ سمو الأمير الشيخ خليفة على الحكم من بعده وبدلاً عنه) وكان وقتها يقيم في دبي ونزل في الفندق الذي كنا نزمع أن ننزل فيه سمو الأمير بالدوسستر، فحولناه وحجزنا له ولحاشيته أجنحة كافية مناسبة في فندق القروفنر.. ولعل من أطرف ما أذكره أمر الهدايا النقدية التي قرر سمو الأمير أن يقدمها

للعاملين بالسفارة، بمناسبة زيارته، والتي طلب مني تحديدها بالنسبة لمواقع ومستويات العاملين، بدءاً من الحراس وسائقي السيارات والفراشين والسعاة والكتبة والمحاسبين والسكرتيرات والطابعات. وقد قمت بالفعل بتحديد المبالغ، بإعداد الكشوفات التي رأيتها مناسبة لكل منهم. فراجعها السفير وأقرها وأمر بإجراء الصرف بموجبها.. وجاءني السفير بعد ذلك بمظروف كبير مغلق بداخله حزمة من الأوراق النقدية المالية ومكتوب عليه إسمي.. ناولني إياه قائلاً:(هذه هدية الأمير لك ونصيبك بمناسبة زيارته) فلم أتردد في ردها إليه معتذراً عن قبولها وشاكراً لسمو الأمير نفحته ومترفعاً عن أن أعامل فيها معاملة الخدم والسعاة وصغار المستخدمين بتوزيع بعض المال عليهم بالغا ما بلغ ما يريد تقديمه لي.. وجن جنون السفير عندما أصررت على الرفض وعلى الإعتذار عن القبول. وأخذ يسألني، وقد عقدت الدهشة لسانه "كيف أنقل ذلك إلى سمو الأمير؟ وماذا عساي أن أقول له؟؟" فأجبته ببساطة وكل هدوء "قل لسمو الأمير المعظم أن الخبير السوداني يجلك ويحترمك ويشكر لك مبادرتك الكريمة وهبتك العظيمة ولا يرى أن يذكر زيارة سموك بنفحة مالية أو يقدرها بمنحة مادية كغيره من مستخدمي السفارة وصغار العاملين المحليين بها، وأنه كان يشرفه جداً محض هدية رمزية متواضعة يقبلها على العين والرأس، لتذكره بمناسبة زورته الميمونة وتكون عينية بسيطة يحتفظ بها للذكرى.. صورةً أو قلماً أو ساعةً أو حتى مشلحاً أو دلّةً أو عقالاً قطرياً، هو أقل قيمة من المبلغ النقدي الكبير وأغلى وأجل وأخلد وأبقى أثراً.." وحاول السفير أن يؤكد بأنه هو نفسه والسكرتيران الدبلوماسيان القطريان قد كانت هبة الأمير لهم بمناسبة الزيارة مالية نقدية.. فلم أزدد إلا تمسكاً وتشدداً بموقفي وإعتذاري، مؤكداً له عن قناعتي بسلامة القصد ومردداً لهم بأن الأمر يتعلق بنظرتي إليه من ناحية المبدأ ومن وجهة النظر إليها كسوداني لا يقيس التعبير أو التقدير أو المهاداة بقيمة العطاء والمال.. وقرر السفير أن يشتري لي بالمبلغ سجاداً أو أبسطةً، وعدل عن ذلك بأن زودني بكسوتين

وبقماش مشلحين قطريين عندما إنتهت مهمتي وغادرت لندن لأفتح سفارة لقطر في تونس.

كان من بين ما تعرفت إليهما وأكبرتهما إبان فترة بقائي، التي إمتدت لما يزيد عن السنتين والنصف بلندن، رجلان أجنبيان مسلمان توثقت بهما وبأسرتيهما صلاتي وصداقاتي وعائلتي.. أحدهما من جزائر "الفيجي" هو الرجل الخليل الوقور ذو الشهامة والأريحية والنخوة الإنسانية والكرم والأصالة الإسلامية "محمد حسين خان" الذي كان سبب معرفتي به موقفه النبيل من فضيلة مولانا الشيخ يوسف إسحق حمد النيل، الذي جاء مستشفياً إلى لندن من أثر مرض السكر على عينيه، وما أصابه من القلوكوما، التي أودت ببصره أو كادت. فتعرف عليه ولزمه لزوم الظل في مرضه ولم يفارقه طيلة إقامته بالمستشفى قبل وبعد إجراء العملية له. ثم أصر بعد ذلك كله على أن يستضيفه بمنزله القريب من كلية أيتون (Eton) في ويمبلي (Wembly) بمدل سكس (Middle Sex) من ضواحي لندن.

علمت بتواجده معه وصرت أتردد عليهما لا أكاد أنقطع عنهما مع أفراد أسرتي. فتوثقت بيننا وبين عائلته الصلات ولم أزدد إلا إعجاباً وإكباراً له وحباً. وقد جاء فيما بعد إلى السودان زائراً وحل ضيفاً مكرماً على مولانا الشيخ يوسف إسحق حمد النيل وتشرف به منزلي بالجيلي وظل حبل الود والمراسلة بيننا موصولاً إلى وقت قريب.

أما الرجل الضرب الثاني الآخر، الذي سعدت وتشرفت بمعرفته وأسرته وأهله وذويه، وما تزال تربطني به أشد وأحب الأواصر وأقواها، فهو السيد/ إدريس شاه، إبن صديقي القديم، السردار/ "إقبال علي شاه"، حفيد السيد/ جمال الدين الأفغاني... والذي يعمل مديراً لمعهد الدراسات الثقافية. وقد كتبت تعريفاً به تحت عنوان "ليعرف الشرق والمسلمون هذا الرجل معرفة الغرب له" نشرته جريدة الصحافة، بعثت به إليها من لندن في أكتوبر عام 1972 جاء فيه.

* **"إدريس شاه" رجل جمع المجد من أطرافه:-**

نمته أصول عريقة وغذته جذور عميقة: ولكنه، وهو العصامي المتطلع الدؤوب، لم يتكل عليها يوماً ولم يركن إليها ساعة، بل إنطلق مغذاً يمتح من عيونها الثرة ليمد غراسها بالنماء وليكحل مقلتها بالضياء، فظلت مخضلة نضرة وتدلت دانية القطوف ممرعة الجنن، ظلها وارف وثمرها يانع وأكلها دائم غير مقطوع ولا ممنوع...

عكف يشيد ويبني، كما كانت أوائله.. بل ويفعل فوق ما فعلوا.. لم يطر شاربه حتى تلقف راية الجهاد والتحصيل من أبيه السيد السردار إقبال علي شاه (الذي طبقت شهرته الآفاق وترك في الدنيا دويا قويا) ومضى يركض في حلبة التصنيف والتأليف يكشف عن عظمة الشرق ويميط اللثام عن روحه ويصدر عن روحانيته يهز أعواد المنابر ويسود الطروس تلو الطروس باعثا لحكمته مستحثا لنهضته مستعيدا لمجده محييا لتراثه.

إدريس شاه كاتب وشاعر ناظم وناثر، فنان موهوب ذو خيال مشبوب، ومؤلف نشط، واسع الخبرة، غزير المعرفة، ضخم الإنتاج.. وهو فوق ذلك كله عالم محقق، وباحث مدقق، وأديب لوذعي، وناقد منطقي..: فيلسوف يمعن في التأمل ويدمن في التفكر والتبصر.. نافذ الفكر، فاتح البصيرة، ثاقب النظر، منطيق، ذرب اللسان، عامر الوجدان، عميق الإيمان – دان بالإسلام عقيدةً وفهماً، وتقصاه علماً وإقتفاه عملاً... يعرف الدين بجوهره وحقيقته ومعناه، بل يعيشه ويحياه في نفسه وفي أهله وفي ولده وفي كده وعمله.. في واقعه وفي أمله..

ظل إدريس يعمل ويدعو له السنوات الطوال بالحكمة والموعظة الحسنة، في صمت وفي عمق وفي سماحة.. بلا تقطع ولا تزمت ولا كهنوت، متصوف تحدر إليه الطريق من أسلافه، وراثةً وتنشئةً وتثقيفاً، فوهب نفسه له ووقف عقله وعلمه وروحه عليه. فتفرغ له درساً ودعايةً ونشراً وحكايةً وتعريفاً وهدايةً وطفق يدعو بالتي هي أحسن للتي هي أقوم... سلاحه في ذلك الإيمان واللسان والقلم.

بهر السيد/ إدريس شاه الألوف المؤلفة بمؤلفاته وغمر المجتمعات بكتبه وخطبه وبندواته. وقد أصدر كتابه السابع عشر منذ قبل أسابيع، وهو بعد لم يتجاوز من عمره الخمسين، بينما أربى ما طبع له من مؤلفاته أكثر من المليون نسخة، صدرت في أكثر من ستين طبعة لفتت الأنظار إليه، كما لفتها أب له من قبل، هو السردار إقبال علي شاه، الذي أخرجت له المطابع، في بريطانيا وحدها، أكثر من السبعين كتاباً.. صاغها كلها بأسلوبه الجزل وطرزها بفطنته ووشاها بذخائر نفائس آفاق معرفته الواسعة وبحواره الممتع وبإشراقاته المشعة في باحات الإسلام وفي دروب التصوف، وجاس فيها في عرصات المناسك، فأخذ الناس يهرعون إليه يقرؤون له ويستمعون إليه ليشهدوا سماحة دين الإسلام وكماله في أبهى صوره وروعة التصوف ونقائه وجلاله في أعلى مراقيه، وليلمسوا الدين واقعاً معاشاً وصوراً مجسدة وإنسانية حية تسعى، لا مجرد طقوس تمارس دجلاً وتلفيقاً أو تلاك همهمة وتنميقاً، وإنما ليحسوه واقعاً ويلمسونه تطبيقاً.

تشرفت بمعرفة أبيه المغفور له، السردار إقبال علي شاه (حفيد السيد جمال الدين الأفغاني) وأنا في بعثتي الدراسية الأولى أوائل الخمسينات بكارديف في جنوب ويلز ببريطانيا، على عهد السكة الحديد.. وكان مسجد "نور الإسلام" آنذاك قبلتنا وملتقانا كما كانت دار الشيخ "علي الحكيمي" رحمه الله مراحنا ومنتدانا.. عنها كانت تصدر مجلة "نور الإسلام" ومنها كنا نعاون ونتعاون بالإسهام في الإشراف على تبويب وتصويب وتوزيع ما قام به أبوه من "بعث" لمجلة "العروة الوثقى" بالإنجليزية، تلك التي كان يخرجها جده العظيم، جمال الدين الأفغاني مع إمام عصره المصري الأعظم سماحة الشيخ محمد عبده طيب الله ثراهما.

كان والد إدريس حركة دائبة لا تهدأ وشعلة متأججة وضاءة لا تخبو ولا تموت.. أخرج إلى حيز الوجود "مؤتمر جميع مسلمي العالم" في كارديف عام 49/ 1950 الذي طافت مسيرته ومشينا فيه، مع جمع غفير من مختلف مسلمي العالم، في محفل مهيب حفه الجلال، جاس خلال شوارع المدينة وبين منعطفات "بيوت

استريت." أردفه بعدها بندوة إسلامية كبرى وبمحفل جامع في مسجد "يوتني" بلندن، ثم قام من بعد ذلك بزيارات شتى إلى عدد كبير من الأقطار الإسلامية، كان من بينها السودان، حيث إلتقى فيه بالكثيرين، وحيث لقي من حسن وفادة أهله، وعلى رأسهم سيادة المغفور له الإمام السيد/ عبد الرحمن المهدي، أكرم ضيافة وأطيب تكريم وأجمل ترحيب وأجل تعظيم، إلى أن توفاه الله وهو يخدم الدين والعلم والأدب والفلسفة والسياسة بالمغرب الأقصى.

هذا وإني لأرجو أن أوفق إلى تقديم أو تعريب بعض كتب إدريس وكتب أبيه إلى الأخوة المسلمين والعرب، ليروا أي جهد صادق وأي جهاد صامت صامد قام به الأب وما يزال يقوم به هذا الإبن المبارك، من كشف لذخائر الفكر الإسلامي في التصوف وعلاقاته بالثقافات العصرية والتيارات الفكرية في الشرق وفي الغرب، أول ما يسمح لي بذلك الظرف ويسعفني الزمن لأن كتابات إدريس شاه قد شملت القصة والأدب والرحلات والأقاصيص والتصنيف والمحاورة والدين والحكمة والفلسفة.

يعمل السيد إدريس شاه الآن مديراً لمعهد الدراسات الثقافية الشرقية ببريطانيا، كما يعمل محاضر اً مناوباً نشطاً وأستاذاً زائراً في عدد من الجامعات في القارة.. كلها تخطب وده وتسعى لتنهل من فيض علمه الثر ومن غزير معرفته ومما ضرب فيه بسهم وافر من نقل ثقافات الشرق وروحانياته وعرضها تماماً كما فعل "الغزالي" في عصره ثم "الأفغاني" من بعده .

وقد أفاء الله على السيد إدريس شاه خيري الدنيا والآخرة ونعيمهما، فخصته المؤسسة التي يعمل لها الآن بقصر منيف باذخ ذي شرفات في ضاحية "لانجتون" بكنت، يتوسط خميلة مخضلة نضرة فسيحة، تزيد مساحتها عن الخمسين هكتاراً، يزينها المصلى الذي يتحنَّث ويتعبد ويتأمل فيه أحياناً، والذي صممه وبناه وزينه بيديه، كما أفرغت زوجته الفضلى فنها الشرقي على غرفه وباحاته وحديقته ومدرسته. فبدأ آية في الروعة والجمال والكمال... ترتيباً وتأثيثاً وتقسيماً

وتنسيقاً،ولقد تفضل الأخ السيد إدريس فدعاني وعائلتي مرات في جمع من الزملاء والرفاق إليه، حشد لنا ما يناهز الخمسين من عارفي فضله وأصدقائه ومريديه وجيرته من رجالات الفكر والأدب والقلم والقانون والقضاء والدين والعلم.. شيباً وشباباً، نساءاً ورجالاً، فقضينا به يوماً فريداً كاملاً ومشهوداً لا ينسى، يوماً تحدثت عنه صحيفة الضاحية المحلية مشيدة ومطنبة بأرطب لسان وبأفصح بيان.. يوماً كان وسيظل من أيام العمر الأغر، الذي نتباهى به ونفخر بما أحسسنا به من غبطة وما بهرنا به من روعة ومن ما تملكنا من مشاعر وما غمرونا به من فيض وعطف وفضل وشملونا به من جميل. وكانت الدار العامرة التي ضمتنا، هي قصر "اللورد بادن باول" الكشاف الأعظم السابق، التي آلت إلى المؤسسة، فخصصتها بدورها سكناً للسيد/ إدريس ومقراً له. فازدهت به وتألقت حتى صارت بحق وحقيقة قبلة للزائرين ومستزاداً للباحثين وكعبة لحجيج العلماء والفضلاء من رواد الحقيقة والمعرفة وجهابذة الفكر وتلاميذ الفلسفة.

هذا وللسيد إدريس إلى جانب زوجته وأطفالهما، أخت كريمة عظيمة، إسمها أمينة وإبنة لها فنانة، أصدر كلاهما كتباً أهديا إليّ نسخاً منها. وقد منحتني مؤسسة الدراسات الثقافية هاته عضويتها الفخرية بعد أن عدت إلى السودان مؤخراً في عام 1980.

♦ وكخاتمة لفترة عملي بسفارة قطر في لندن:-

في إحدى زياراتي للعمل، التي قمت بها إلى الدوحة من لندن، رتبت لي زيارات قصيرة إلى كل من البحرين والإمارات، شملت المنامة، وبرنامجاً ممتعاً لكل من "أبي ظبي" و"العين" و"دبي" و"الشارقة" و"عجمان" و"أم القوين" و"رأس الخيمة" "وواحة البريمي" الحد الفاصل والموضع المعروف، الذي كان قبلاً عظمة نزاع ما لبث أن سوى بين السعودية ومسقط وعمان والإمارات.

وأذكر مبرة الأخ البارز السيد كمال حمزة، الذي كان القوة الفاعلة والمحركة خلف ستار بلدية دبي، والبرنامج الذي أعده لي لأغطي المنطقة في أيام ثلاث، إختصرتها وطويتها كلها في خلال صبيحة يوم واحد، عدت في مسائه بعد أن طفت بها جميعاً، وإلتقيت فيها بكوكبة وضاءة من كبار السودانيين العاملين بها خبراء ومستشارين.

وقبل مغادرة لندن نهائياً قمت بعمرة وزيارة، أثناء إجازتي للسودان، سلكت إليها طريق باريس وجنيف وروما وأثينا وبيروت والقاهرة وطرابلس والمغرب، في طريق العودة، لأشد الرحال بعد نصف شهر، في أواخر يونيو 1974، إلى تونس منقولاً لأساعد على فتح سفارة دولة قطر فيها...

في تونس الخضراء

غادرت لندن تصحبني أسرتي بطائرة الكرافيل الفرنسية متوجهين إلى تونس، التي نقلت إليها لفتح أول سفارة لدولة قطر، وقضيت فيها الفترة من 74/6/22 حتى 1977/6/11. وكان مسار الطائرة عبر باريس وليون: وهبطنا مطار قرطاج الدولي التونسي على الساحل الغربي للبحر الأبيض المتوسط، الذي بدأ وكأنه واصل، لا فاصل، لروعة ونضرة وخضرة "الريفيرا"، التي توشح جانبيه، وكأنها إمتداد يتحدى، لشدة جماله، البر الفرنسي المقابل جواً وطبيعةً ونظافةً ونظاماً.. وشوارعها الفسيحة النظيفة المغسولة الدكناء وسماؤها الأزرق وبيوتها المصقولة البيضاء .

حللنا فندق أفريقيا، الواقع في قلب المدينة على مقربة من الزيتونة وجامعتها وجامعها العتيق العتيد.. ولفت نظر الأسرة السودانية وسحنتها وزيها، والثوب السوداني خاصة، نظر التونسيين وأثار واضح إهتمامهم. فتابعونا بنظراتهم وحفوا بنا يحيون ويرحبون ويتسآلون.. من أي بلاد إفريقيا نكون؟ لكن زاد عجبهم وإستحال إعجاباً، عندما سمعونا نتحدث العربية بطلاقة وعرفوا أننا سودانيين.

خف إلى زيارتنا بالفندق، إلى جانب أخوتنا الدبلوماسيين القطريين، الذين قدموا لفتح السفارة، أيضاً عدد من التونسيين الذين كان لبعضنا سابق معرفة بهم في البعثات الدبلوماسية الخارجية وبأسرهم، أمثال الأخ/ المنجي الصخيري، وكذا الأديب العروسي المطوي، الذي جاء يحمل إليّ عدداً من مؤلفاته، كهدية. كما شرفت بزيارة الأستاذ/ حسن الزمرلي وأهدى إليّ بعض مؤلفاته أيضاً وبعض الصحفيين، أذكر منهم الأخ الصديق الكريم السيد علي يوسف، المحرر بجريدة العمل، الذي توثقت بهِ وبأسرته بيننا الصداقة والصلات الطيبة وتبادل الزيارات الأسرية المنزلية.

وتعرفنا إلى المدينة وجسنا خلالها وزرنا أحياءها وضواحيها وأهوازها القريبة في حلق الوادي، وحمام الأنف، والزهراء، وقرطاج، وسيدي بوسعيد، وقمارت. وإنتقلنا إلى فندق الهيلتون، حيث استأجرنا بها غرفاً لتكون نواة مؤقتة لمكاتب السفارة، إلى أن يستقر بنا المقام، فيما تم إختيارنا له مقراً ثابتاً للبعثة ودوراً لسكنانا في حي ميتوفيل، كان نصيبي منها فيلا فيحاء.. وتجولنا أثناء إقامتنا، والتي إمتدت لأكثر مما ناهز الثلاث أعوام في تونس، لتغطي أكثر أراضيها، إلى حدودها الليبية، شملت "نابل" والحمامات وصوصه والمونستير والقيروان، حيث جامع عقبة بن نافع، الذي أسس عام 50 هجرية، ومنبره الأثري الخشبي المصنوع في سامراء "العراق" يوم كانت عاصمة الخلافة (836 –883 هـ) ومحرابه الزاهي الذي يرجع تاريخ صنعته إلى القرن الثالث عشر، وما يزال محتفظاً بروعة النقش الزاهي، الذي "كأنما نفض صانعه منه اليدين بالأمس نفضاً".. والرخام المخرم، وقد إزدان بالزخرفة الخشبية البديعة الدقيقة التي تلتقي عندها ميمات (أسماء الله)، تلتقي هذه الميمات في ميم وسطى موحدة – وقد حوى الموقع أقدم ما عرف من نماذج البراق في الشمال الإفريقي، يرجع عهده إلى عام 862 هـ. وبالمسجد مثوى الصحابي الجليل، أبو زمعة الأنصاري (عبد الله بن آدم البصري) الذي صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديبية، وبايعه بيعة الرضوان، وشهد فتح عمرو بن

العاص لمصر، ودخل القيروان مع أعيان من الصحابة، منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ،وعبد الله بن الزبير (35هـ) وبه دفنت حفيدة سيدنا عمر.

كما شملت زيارتي صفاقس (بتونس) وقضينا أياماً ثلاثة في جزيرة "قرقنه" في ضيافة جارنا الملاصق، السيد كريم، الذي أصبح وزيراً للشباب والرياضة لتونس (فيما بعد) بدعوة عائليه كريمة عبرنا إليها البحر وإنتقلنا بحضور موسم جني التين(الكرموس) فيها كما شهدنا خلالها المركب الأثرى والمنزل، الذي حط به ولجأ إليه السيد الرئيس بورقيه متخفياً، حين هجرته إلى مصر.

وفي خلال إجازة ذلك العام حظينا بأداء عمرة أخرى عن طريق طرابلس الغرب، وبزيارة لمدينة الرسول(صلعم) عن طريق "تبوك" ولقضاء العيد بمكة المكرمة قبل سفرنا إلى السودان. وحضرنا في ذلك العام المبايعة التونسية لبورقيبة بالرئاسة مدي العمر، كما شهدنا مؤتمرات محلية عديدة وندوات سياسية وثقافية ودينية عديدة، أسهم فيها السودان وأمتها وفود كثيرة علي مستويات عالية من المسؤولين، شملت حتى القراء (المشايخ صديق أحمد حمدون، والعبيد البرعي) الذين شرفوا السودان بتونس بشكل خاص بالإنتماء والإنضمام والإسهام، مع نفر كريم وكوكبة وضاءة، ضمت لفيفاً من أبرز العلماء والفقهاء والأدباء والقادة والصحفيين وأعلام المفكرين وكبار رجال السياسة المقيمين بتونس.

كان مما حرصنا علي إقامته بصفة منتظمة دائمة في تونس العاصمة مما أسميناه (ندوة الجمعة) التي كنا نقيمها مساء كل يوم جمعة ونعقدها في منزل كل منا كل أسبوع على التوالي. وقد ضمت تلك الندوة من الأقطاب التونسيين الأستاذ كمال التازي (مدير الشئون الدينية) والشيخ مختار السلامي (إمام مسجد حيّنا ومفتي الديار التونسية حالياً) وغيرهم من رجال الفكر والثقافة والأدب، والدكتور/ فاضل الجمالي (وزير خارجية العراق في العهد الملكي) والدكتور محمد صلاح الدين (سكرتير الوفد المصري ووزير خارجية مصر السابق) وفرحات شبيلات، سفير الأردن السابق، الذي تزاملت معه بواشنطن، وغيرهم ممن أوردت ذكرهم في إحدى قصائد

ديوان شعري، الذي لم ينشر بعد، بعنوان (ذكرى تونس بعد عام) جاء فيها :-

ندوة الجمعة التي طوقتني   مننا جمة بغير حساب
حسبها ما به عليَّ أفاعت   بإنتماء لصفوة إنجاب

إلى أن قلت :-

أخوة في الإله قد نلت منهم   فضل ما يتحفون للطلاب
من نقاش يدور في فلك العلم   وطوراً في فضل آي الكتاب
وخضم من السياسة والتاريخ   والفلسفات والآداب
فإلتقى التونسي فيها بمن   في مصر أو بالعراق من أقطاب
كصلاح وفاضل وكمال   وشبيلات والبشير العرابي
وكمختار السلامي شيخي   من إلى كل رفعة قد سما بي
وكعزوز والرواسي وهادي   مسعفي كل سائل بالجواب
كلهم مرجع إذا ما إستبينوا   وإذا ما قضوا ففصل الخطاب
يا رعاك الإله يا دار جلول   وحيا جلال ذاك الجناب
ورعى الإله للعروسي وأحيا   بلداً ذكره بهيج إنتحابي

والإشارة هنا إلى العالم النحرير أبي البركات والكرامات، الشيخ جلول الجزيري، الذي بدرنا بصداقته. وهي قصيدة طويلة قد أعود إلى إقتطاف مقاطع أخرى منها، لأنها كانت عامرة حافلة طافحة شاملة لعديد الذكريات، مسجلة لمختلف الإنطباعات عن الطبيعة والمعالم والناس.

وعلى الرغم من توفر أسباب سعادة الحياة وطيبها في تونس، فلم أسلم من توالي الوعكات والإنتكاسات الصحية، الأمر الذي حدا بزوجتي لإنتجاع الإستشفاء في لندن، رغم عناية نطاسي أطبائها وطبيب السفارة، جارنا الودود الدكتور/ ربانه. وكان ذلك بلطف وفضل دولة قطر وعلي نفقتها المبرورة المشكورة .

وعدنا من لندن عن طريق (جنيف) بعد آداء عمرة وزيارة أخرى، شرفني خلالها الصديق القديم السفير سالم سنبل، مدير المراسم بالمملكة، بالتعرف على

رئيس وزراء ماليزيا في غداء خاص، أقامه لي بمنزله في جدة، جددت لنا عهد الزمالة القديم به وبزوجته وأسرتها الكريمة عندما كنا في أثيوبيا معاً.

كما قمت برحلة عمل إلى الدوحة زرت خلالها دولة البحرين وقضيت بعاصمتها المنامة يومين كاملين متعرفاً لما فيها. وصادف تواجدي بتونس فتح أول سفارة سودانية بها، على يد الأخ السفير/ معتصم البربر، خلفه عليها الأخ السيد/ جعفر أبو حاج (زميلي في سفارتنا ببغداد سابقاً) وقد قضينا معاً أياماً جميلة لا تنسى، خاصة في عطلات آخر الأسبوع الطويلة هناك، التي كثيراً ما كنا نقضيها بعائلاتنا معاً خارج تونس العاصمة في الرفراف وقرية منزل بورقيبة.

وأن أنسى لا أنسى اللقاءات الروحانية العديدة والطويلة التي كنا نحظى بها عن طريق السفير جعفر مع السادة مشائخ الطريقة التجانية ومع أبي البركات والكرامات الشيخ جلول الجز يري.. وكان أول من نبهني إليه وكشف لي عما خصه الله به من أسرار، وزير الإقتصاد المصري السابق، ومستشار صندوق دولة أبوظبي آنذاك (السيد حسن عباس زكي) عندما كان يجلس علي المقعد المجاور لي في سفرنا بالطائرة معاً، ونحن في رحلة من الخرطوم إلى القاهرة وأنا في طريقي إلى تونس، فقص عليّ جانباً من كراماته، التي أنهاها بخاصية وسرّ هاتفه، الذي يعمل دون سلك موصل ليس بموبايل كما قال، وحمّلني إليه التحايا وطلب مني على لسانه قوله "وأدع لنا ولا تنسانا من صالح دعائك يا صاحب التلفون." وقد شهدت منه وله (أنا وجعفر) الكثير والعجيب خصوصاً عندما كان يختلي بنا، عندما نزوره بدكان طرابيشه، إلى حجرة مكتبه العامرة الممتلئة إلى سقفها بمجلدات الكتب والمخطوطات والمراجع النادرة. وقد أهدى إليَّ الشيخ جلول نسخاً من كتبه الأربعة التي قام بتأليفها وتجميعها وطبعها.. هذا وللشيخ جلول مكانة خاصة لدى عدد من المسؤولين في قمة الجهاز الحاكم في السودان إبان حكم ثورة مايو. وقام بأكثر من زيارة إلى الخرطوم بدعوة من الحكومة، قام في بعضها بإفتتاح مسجد عمر محمد الطيب بكوبر. وكان لأحدها علاقة بتفاقم أزمات الحكم.

وعلى ذكر هاتة الهدايا، فإن من الهدايا التذكارية التي أعتز بها ما قدمه إليَّ وإلى الأخ/ جعفر أبو حاج عند مغادرتي النهائية لتونس شيخ من مشائخ الطريقة التجانية هناك. وهي حبات عدد المسبحة الخاصة بمولانا الشيخ عمر فوده، التي قسمها مثالثة بينه وبين جعفر وبيني بالتساوي .

* **مؤتمر المغتربين :-**



شرفتني سفارة جمهورية السودان بتمثيل السودانيين المقيمين بتونس بمؤتمر المغتربين، الذي عقد بالخرطوم الذي حضرته وعهد إليَّ أعضاؤه وممثلوه هناك بإعداد و إلقاء كلمة المغتربين العامة فيه، نيابة عنهم وبأسمائهم جميعاً، والذي ضمنته إقتراحي لقيام "وكالة متخصصة تحت مظلة الإتحاد الإشتراكي السوداني لرعاية شئون المغتربين": وهي الكلمة التي عانقني بعد إلقائها طويلاً ونحن نغادر القاعة معاً لفترة الإستراحة الأخ الصديق/ عمر الحاج موسى، وزير الإرشاد، مهنئاً ومطوقاً وهو يشد على يدي بحرارة، ما كاد دفئوها يذهب حتى روّعتْ البلاد وروّعتُ بسماع نعيه الأليم المفاجئ من المذياع، ولم يمضي على إفتراقنا أكثر من مدى ساعتين بعد الإستماع إلى خطابه البليغ البديع، الذي كان قطعة أدبية باهرة حاكها في ثوب قشيب رائع وصاغها في أسلوب رصين مشرف وإلقاء معبر فصيح متين. فكانت آخر فرائده وإبداعاته في الحياة. رحمه الله رحمة واسعة. فلله دره، كان رجل دين ودولة، وسيف وقلم، وخلق وأصالة وقيم..

وودعنا تونس الخضراء في يونيو 1977 بإنتهاء فترة عملي كخبير دبلوماسي لدولة قطر. وتوقفت فيها مع شقيقي أحمد وأسرته الليبية في طرابلس، متجولين في أنحائها ومزارات سيدي عبد السلام وآثار البلاد وعدت بعدها إلى السعودية للعمرة والزيارة، لأحط الرحال بعدها نهائياً بقريتي الجيلي لتكون نهاية المطاف.

◆ وللسودان أخيراً:-

ساقت العناية أيامها صديقنا الدبلوماسي الألماني القديم (جون كالي) وزوجته (سيقفريد) وأسرتهما، الذين نعمنا بزمالتهما وبرفقتهما في بغداد في أوائل الستينات، وتوثقت بهما الروابط وتوشجت الصلات الودية والإجتماعية والثقافية والعائلية بهما هناك، خاصة في حلقات اللقاءات والندوات التي كنا نعقدها أيام الجمع لنتدارس حقائق الأديان ونتلو ونقرأ تفاسير القرآن، والتي كانت سيقفريد تسهم فيها إسهاماً بقدر كبير من النقاش والفهم والإدراك، الذي يكاد أن يرقى إلى مشارف ومراقي الإيمان.. ولا غرو فوالدها في طليعة قوائم الباحثين وأئمة المستشرقين والعلماء الألمان. وأذكر ساعة وصوله إلى منزلنا بالجيلي في صبيحة ذلك اليوم المطير، الذي إكتسحت فيه السيول جسور القرية، فخرجت ساعتها مع الأهل نتفقد الدور المهددة ونخوض في المياه الجارية والأوحال. فإستوقفت نظرنا عربة اللاندكروزر التي كانت تمخر العباب وهي تئن لتشق طريقها حتى وصلت ووقفت على عتبة مدخل باب دارنا المرصوفة العالية. وظللنا نرقبها على بعد دون أن نعلم من كان بها. وكم كانت دهشتي عظيمة عندما قبلت وجهتي قافلاً إلى منزلي لأجد شخصاً غريباً ينتظرني بداخله، لم أتبينه لأول وهلة وحسبت أنه عابر سبيل إضطره السيل والوحل أن يلجأ فيستكن بما صادفه من الدور، التي حسب أنه سيكون بمأمن فيها هو وعربته، ريثما تنحسر المياه.. رحبت به كضيف عابر دون أن أتبين من هو. فإذا به يندفع نحوي ليطوقني بيديه وليعانقني وهو يقول "كالي يا سيد خليفة، أنا جون كالي، بغداد" ثم أضاف كلماته التي لن أنساها. "وصلت إلى الخرطوم مساء الأمس معيناً سفيراً لألمانيا الإتحادية في السودان. وحرصت على أن تكون أول مبادراتي هو أن أقوم بتقديم واجب تحياتي وإحترامي لك ولأسرتك وفاءاً شخصياً قبل أن أقوم بتقديم أوراق إعتمادي للدولة رسمياً."

ثم لحقت به زوجته بعد بضعة أسابيع. فكانت أول زيارة قامت بها، صبيحة يوم وصولها، إلى منزلنا بالجيلي. وظللنا على صلة دائمة وإتصال وثيق بتبادل

الزيارات طيلة فترة إعتمادها في السودان كأسرة حميمة، إلى أن تم نقلهما إلى سفارة تونس بعد أكثر من عامين.. وظلت المراسلات تصل بيننا حتى الآن بعد تقاعدهما متنقلين بين ألمانيا وأسكندنافيا، حيث إتخذا من الأخيرة مقراً وسكناً دائماً في ستكهولم عاصمة السويد.

حفلت الفترة التي أعقبت عودتي للإقامة بالجيلي، من أواسط عام 1977 وحتى 1983، نشاطات محلية كثيرة وتحركات داخلية وخارجية شتى في القرية أو بمجلس القرية الشعبي المحلي، الذي تخليت عن لجنته عندما غدت رهينة التكتلات و التشرذم أو في نشاطات اللجنة الشعبية للإتحاد الإشتراكي، الذي عينت عضواً فيها وحضرت جميع مؤتمراتها.

ولقد سعدت بمعرفة بعثة الآثار الإيطالية، التي درجت جامعة روما على إيفادها طيلة الفترة منذ عام 1976 وحتى الآن للتنقيب عن الآثار في قريتنا الجيلي وخلائها وما حولها (السقاي) سنوياً. وتوطدت الصلات بيني وبين رؤسائها، البروفسرات بوقليزي وبالميري ومدام بوري، وخاصة الأستاذة/ إيزابيلا كانيفا، التي آلت إليها رئاسة البعثة في السنوات الخمس الأخيرة. ولقد أصدرت البعثة كتاباً ضخماً مطبوعاً تزيد صفحاته عدد الأربعمائة صفحة، أعدته الأستاذة/ إيزابيلا تحت عنوان "الجيلي:- تاريخ لبيئة أواسط النيل من قبل عام 7000 قبل الميلاد إلى سنة 1500 بعد الميلاد، تفضلت بإهداء نسخة منه إليّ. ويقف الكتاب شاهداً بالإضافة إلى ما حوى من كشف وتنقيب وتحليلات وآثار وعاديات ونماذج ورسومات وصور، تمتد منذ العصر الحجري القديم، والنظرات والأبعاد الإقليمية للموضع ومستوطنات ما قبل التاريخ والصناعات الفخارية ومواضع وأصول مصادرها ومنابعها وما كشفت عنه حفريات القبور من البقايا البشرية وآثار ومساكن العهد الحجري القديم وخلال العهد المروي والمسيحي والإسلامي، تقف كلها شاهداً على عراقة الموضع (الجيلي) الذي يرجع إلى أكثر من سبعة آلاف سنة قبل الميلاد، وإن كانت حضارات مواقع الشهيناب والسقاي قد تكون أقدم منها قليلاً.

ولعل الإستطراد والتحدث عن هذا الماضي البعيد السحيق يدفع بي، فيما أحس، ويلفتني وأنا أقص طرفاً منه، لأن أسترجع ذكريات فترة حياتي الماضية القريبة، لأتأملها في خاطري مستعرضاً، فتقفز بي الذاكرة إلى تلك الدعوة، التي وجهتها، وأنا في سنة عودتي الأولى من العمل في الخارج، إلى رؤساء بعثات كل الأقطار التي عملت فيها أو تزاملت معهم فيها، وهم يمثلونها كسفراء في السودان، لما يطلقون عليه، عودة للتلاقي من جديد بمنزلي بالجيلي، وجهتها إلى سفراء أثيوبيا والعراق والأردن وسوريا ولبنان وتركيا والولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة وتونس (بالإضافة إلى سفراء مصر والسعودية وألمانيا الإتحادية وبريطانيا، كرصفاء قدامى وأصدقاء) ولقد لبى جميعهم الدعوة في أصيل يوم جميل دخلت إلى الجيلي فيه عرباتهم الطويلة الفارهة، في رتل طويل متعدد الأشكال والأحجام والألوان، من كاديلاكات ومرسيدسات ومونتيكات ورولزرويسات وغيرها، إصطفت كلها أمام مدخل دارنا المتواضعة وعلى سارياتها أعلام دولها مرفرفة خفاقة، فكان مشهداً للجيلي كالخيال وكرنفالاً. وتاهت دارنا بأن بدت وكأنها منتدى أممي أو مجمع لمحفل دولي مصغر، شابته روح الصداقة والود وظللنا نجتر فيه الماضي ونستعرض الأحداث وتطوف بنا الذكريات والساعات طويلة، وإنفض بعدها السامر، والكل مأخوذ ومزهو بما تحقق فيها من إمتاع ومؤانسة.

وفي نهاية ذلك العام قمت بزيارة إلى لندن لأكون بجوار شقيقي أحمد، الذي ذهب إليها مستشفياً، وفي خلال تلك الفترة بلندن كنت ألتقي كثيراً، وبصحبة صديق العمر الأخ/ محجوب الماحي، بالسيد الشريف حسين الهندي، الذي كانت منزلته تعج بعشرات السودانيين من الطلاب والزائرين. وقد شهدت تلك الليالي عجباً من نشاطات الشريف ومن ندواته ومن فيوضات برّه وأياديه وهباته ونفحاته على العفاة والمحتاجين، وبتوجيهاته ونصحه وإرشاداته الوطنية التعبيرية للمغتربين، وبث روح الصمود والمقاومة والتحدي فيهم، بأسلوبه الهادئ ومنطقه السليم ولسانه الذرب المنطيق، وبذله السخي، خاصة للطلاب..عدت إلى السودان عن طريق جنيف

وروما وأثينا لأجد عرضاً مغرياً ينتظرني من شركة فرنسية بليبيا عن طريق الزملاء في وزارة الخارجية، الذين شددوا عليّ ملحين لقبوله ووصفوه بأنه يسيل له اللعاب.

وإقترب موعد الحج، فسعدت بصحبة سيدي الشيخ محمد الفاتح. وحججت في رفقته. وأن أنسى لا أنسى الأيام التي قضيتها وأنا أجاوره بمسجد الخيف ليلة التروية، التي لم يغمض لنا وله فيها جفن، والتي غادرناها في الصباح إلى مسجد نمرة بالمزدلفة ثم إلى عرفات الله إلى الوقوف الذي بللنا فيه من السماء مطر الرحمة غزيراً هتناً. وبفضل وساطة كريمة من أخ قديم ومسؤول سعودي كبير، هو الأخ/ سالم سنبل رئيس إدارة المواسم بوزارة خارجية المملكة في مكة، أن أقفز إلى الظهران في زيارة لصهري وإبنتي وأحفادي بالخبر بتصديق خاص، عدت بعده لأجد الشيخ ومن معه من الرفاق ما يزالون في مكة. وذهبت إليه في الخلوة محيياً وهي الخلوة الخاصة، التي خصه بالنزول فيها داخل الحرم، عند عودتي مباشرة. وكان أشد ما أثار عجبي هو ما إبتدرني به من أمر فاجأني به وطلب إليّ أن أنقله إلى أخوتي المرافقين في منزلتهم، من أن يهيئوا أنفسهم ليغادروا مكة تواً... لنعود كلنا إلى جدة فوراً وقبل حلول المساء. وأضاف هيا.. فأذهب إليهم ولتستعدوا على بركة الله.

عدت إلى منزلة الرفاق وأفضيت إليهم بما أمر به الشيخ ودعوتهم إلى التهيؤ للسفر. فدهشوا وحاروا وإستغربوا وأرسل الشيخ في طلبنا ليستخفنا التعجيل بالرحيل. فحزمنا الأمتعة وأعددنا الناقلة. وما هي إلا ساعات حتى إمتطيناها تنهب بنا الأرض ونحن نيمم وجوهنا شطر "جدة" التي وصلناها قبل الغروب. وإستقبلتنا دار مضيفتنا الرحبة وربها الجواد الكريم، الشيخ/ محمد باشيخ بما نعهده فيه وفيها من بشاشة وترحاب وتجلة وكرم فياض. ولم يخفوا إستغرابهم لفجأة عودتنا، التي لم يكونوا يتوقعونها أو حتى نتصورها نحن... ذلك لأن مولانا الشيخ الفاتح، في كل مرة من مرات حجه العديدة المتواترة، كان يحبذ، كما كان يفعل أبوه القريب من

قبل، على أن يبقى في "مكة" معتكفاً بالمسجد الحرام فيها إلى حين مطلع الشهر المحرم، ليجيء بعمرة تحتسب له في العام الجديد. وما إن فرغنا من صلاة مغرب ذلك المساء حتى إلتفت إلينا الشيخ الفاتح ليواجهنا بالمفاجأة الثانية، التي عقدت ألسنتنا جميعاً... قال الشيخ دون مقدمات " لقد عزمنا على أن نعود جميعنا بإذن الله إلى البلد (السودان) هاته الليلة لنصبح فيه غداً بإذن الله." قال هذا وأشار على من كانت بحوزته جوازات ووثائق سفرنا على أن ينتدب من يشرع في محاولة الحصول على حجز لنا على طائرات ذلك المساء. فبلغ منا العجب أقصاه وتملكتنا الحيرة، خصوصاً بعد أن قدرنا كبر مجموعتنا وصعوبات الحجز. وحاولت التملص من جانبي وإستأذنته ليسمح لي بالتخلف لبضعة أيام، إلا أنه أفقدني كل أمل في ذلك، بأن قال لي في رقة، ولكن بلهجة حاسمة صارمة، وهو يبتسم (أو يصح هذا؟ لقد جئنا سوياً ويجب أن نرجع سوياً..) فأسقط في يدي وتوقعت أن تحل المشكلة بتعذر إيجاد الحجز لنا كلنا، وفي مثل ذلك الظرف الضيق، لكن إنتظارنا لم يطل. لقد عاد إلينا المندوب، عريفنا الشيخ خلف الله ونحن نتهيأ لصلاة العشاء، وبأيديهم كل الجوازات مؤشراً إليها بتأكيد الحجز على طائرة مقرر لها أن تغادر قبيل الفجر. وقرر الشيخ أن ننتقل إلى المطار فوراً لنقضي الليلة فيه في إنتظار قيام الطائرة. ففعلنا وكلنا مشدوه حائر في تعليل أو فهم ما حمل الشيخ إلى ذلك الإستعجال. وأقلعت بنا الطائرة عند الفجر ووصلنا إلى مطار الخرطوم... وهالنا ونحن ننتظر إكمال إجراءاتنا في قاعة الوصول أن نستمع إلى أجهزة الراديو وهي تذيع أنباء "حوادث الحرم" الدامية التي وقعت، والتي أخذت تلعلع بها الإذاعات وتبث تفاصيلها، فتلغتها آذاننا بالدهشة والوجوم، وفغرت منا الأفواه وأخذ كل منا يحدق في وجه أخيه وقد إنعقدت الألسن... فأدركنا أنها "الكرامة" للشيخ...

كشف الحجاب عن ناظريه فشاهدا . من حكمة ما لا يراه الناظر

وتيقنا صدق مشاعر المتصوفة التي تقول . "نعم لقلوب العارفين نواظر.."

♦ وتكليف بمهمة للإتحاد الإشتراكي:-

بعيد عودتنا حدث أن عهد إليّ الأخ/ عمر محمد الطيب "نائب رئيس الجمهورية الأول وقتها" في زيارة خاصة، شرفني بها إلى منزلي بالجيلي، برئاسة لجنة إعادة تنظيم الإتحاد الإشتراكي بالريف الشمالي ومنطقة شرق النيل، في أعقاب شهر فبراير وطوال شهر مارس من ذلك العام، قمت فيها بمعية رفاق من طليعة المواطنين وكبار السياسيين، شملت الأخوة نصر الدين السيد وسيد أمين، ومهدي حامد، و د/ توفيق الديب وحسن زكي وغيرهم من خيار المواطنين والمواطنات، فجبنا المنطقة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وجسنا خلال مدنها وقراها وفرقانها بأبي قرون "والعيلفون"، والعسيلات والفادنية، ومنطقتها الوسطى من الخوجلاب، والفكي هاشم، والخليلة، والدروشاب، والسلمة، والكباشي، وأطرافها الشمالية الممتدة إلى السقاي، التمانينات، النية، والجيلي وضواحيها إلى ود رملي، والريان، والسبلوقة، والبان جديد وتقدمت بتقريرنا الطويل المتصل، الذي أعددته. وقمت بإلقائه في الإجتماع الختامي للجنة وسلمته لنائب رئيس الجمهورية، الذي أشاد به وأجاز توصياته. كما أجريت معي والعضوية النسائية فيه ندوة تليفزيونية صريحة كاشفة، عبرت لي سكرتيرة اللواء الحسناء عن إعجابها بقولها "(كنت فيها سعادتك مليء الشاشة ومليء العيون، ومليء الأسماع.) وإن إمتعضت عضوة اللجنة التي رافقتني بأني قد إستأثرت بالوقت كله دونها. فلم أتح لها فرصة للتحدث .

ولقد لفت نظري، عندما فرغنا من أعمال تلك اللجنة، ما لم أحسب له حساباً أو يدور بخلدي.. هو أن عدداً ممن شملتهم عضويتها قد حرصوا على أن يستفيدوا من تلك العضوية بإستغلالها في ترشيح أنفسهم للدورة التي تمخضت عنها، الأمر الذي فوجئت به وعجبت له، بل إستهجنته .

وبمناسبة الإنتخابات، فلقد زين لي كثير من مواطني منطقتنا ترشيح نفسي لدورة مجلس الشعب. فرضيت.. وخدعت وما كنت أعلم.

وشهدت من مناورات ومكايدات الأحزاب ودعاياتها وإغراءاتها الدعائية والمالية، ما لم يرقني وعرض عليّ الزميلان الصديقان، أبوبكر عثمان محمد صالح، وزير الرئاسة آنذاك، ومعه الأخ مهدي مصطفي الهادي، الذي كان محافظاً لمدينة الخرطوم، وعداً نسباه للنميري، بأنني سأكون من ضمن من سيتم تعيينهم للمجلس ونصحاني بعدم خوض المعركة غير النظيفة التي توقعوها وأن أسحب ترشيحي. ولكن لمجرد العناء (النفسي) ولعدم رضاي وقبولي للنيابة بالتعيين، أصررت على أن يكون ترشيحي قائماً وان أخوض المعركة. وكان من الطبيعي أن أخوض المعركة التي تقدمت إليها محايداً ومنفصلاً عن الإنتماء لأي حزب من الأحزاب.

ومنيت في مطلع عام 1981 م أنا وزوجتي وأبنائي خاصة، بنعي أعز الناس علينا، وأحبهم إلى قلوبنا وأقربهم لنا داراً وأدناهم لنا جواراً في بغداد... السيدة الكريمة الفاضلة، بل الأخت الودودة الطاهرة/ خالدة علاوي، زوجة جاري المقرب، من كان ولا يزال شقيق روحنا وصديق عمرنا، أخي المحبوب، الأستاذ المعروف والقانوني والتاجر الوفي الثري المتدين الأخ/ توفيق علاوي. "فحزنا عليها حزناً كثيراً ولم يكن لنا من يد سوي أن نشد الرحال للقيام بواجب التعزية لأنفسنا ولنشهد مأتمها الحزين في بيروت، خاصة وأن وفاتها كانت فجائية، أثر حادث لسيارتهم في طريقهم إلى بغداد منها. فكانت صدمة عنيفة لنا ولأسرتها ولأهلها ولمعارفها الكثيرين.. ألا رحمها الله رحمةً واسعة وتغمدها برحماته وأسكنها عليِّ جناته "آمين".

وفي طريق عودتنا للسودان، عُجنا على الحجاز لتأدية العمرة ولزيارة الرسول الكريم صلوات الله عليه والتسليم... وكانت عادة الإعتمار في العشر الأواخر من رمضان من أجلِّ النعم التي أفاء الله بها عليّ وعلى زوجتي وبعض أعضاء أسرتي، لعدة سنوات متواليات كثيرات. ولله الحمد.

♦ أخطاء في بعض كتب تفاسير القرآن الكريم:-

وإنشغلت في ذلك الوقت وأنا أعكف على قراءة بعض كتب تفاسير القرآن الكريم بما أقلقني وأثار شدة إهتمامي فعلاً. فلقد كانت الطبعة التي بمكتبتي لتفسير مصحف الجلالين (طبعة الأردن) مليئة بالأخطاء، التي نالت العديد من الآيات، فحورتها بل وبدلت بعضها تبديلاً جائراً مخلاً، حملني ذلك على إعادة مراجعة كل تلك الأخطاء المطبعية ومتابعتها كلمة كلمة. وقمت برصدها جميعاً فبلغ عددها رقماًكبيراً من الأخطاء غير المغتفرة، خططتها كلها في جدول إستغرق عدداً من الصفحات ووجهتها كمذكرة في خطاب بنفسي وأسلمتها إلى الأخ الأستاذ الكبير الدكتور/ عون الشريف قاسم، بوصفه وزيراً للشئون الدينية، بمكتبه بالإتحاد الإشتراكي السوداني من جهة، كما وبعثت بنسخة منها إلى مشيخة القرآن بالديار المصرية وإلى المسئولين من رجال الدين بالمملكة العربية السعودية للعمل على سحب ومصادرة تلك الطبعة من التفسير أو إصدار تصحيحات لها على أوسع نطاق، تلافياً للأمر وحفظاً لكتاب الله والحيلولة بينه وبين ما خشيت أن يكون مقصوداً، وربما بفعل من لا يجب أن نأمن ساحتهم من المعتدين الماكرين اليهود.

♦ وإستنفار في السكة الحديد:-

ووصلت إليّ بالجيلي دعوة من اللواء خالد حسن عباس (وزير المواصلات آنذاك) للإشتراك والإسهام في (مؤتمر السكة الحديد التداولي) الذي قرر أن يدعو إلى إنعقاده بالخرطوم في عام1980. وصادف ذلك هوى وإرتياحاً من نفسي. فالسكة الحديد هي مهد غرامي الأول. وكان وما يزال حبها يجري في دمي.. ولا غرو ولا عجب، فالإنسان بطبعه وكما يقولون "حنينه أبداً لأول منزل".

وقمت بإعداد مذكرة أو بحث إستعرضت فيه حالة السكة الحديد، التي عرفتها وخبرتها، وأرصد مقارنة بين ماضيها الزاهر وما آلت إليه من تدن هو إلى الإنهيار أقرب، وأتلمس العلل ومواطن الزلل وأوجه القصور، التي إجتاحت كافة مرافقها

وأتحرى أسبابه. وطالت المتابعة حتى أصبحت ملفاً كبيراً بخط اليد الدقيق... بعثت بها إلى وكيل الوزارة "العميد شرفي" ليتدارسوها ولتكون ورقة عمل في المؤتمر، الذي أعربت عن سروري وغبطتي بالإشتراك والإسهام فيه.

وما أريد أن أورد كل تلك المذكرة التي أرضتني وعبرت عن إنطباعاتي وآرائي الجريئة الصريحة، كاملة بنصها وبطولها في هاته المذكرات، وكان مرد التكليف لأيدي صديقة حانية حاول إسداءها إليّ الأخوان أبوبكر عثمان محمد صالح ومهدي مصطفى الهادي أثابهما الله الخير.

وأذكر أنه وقبل إفتتاح الجلسة الأولى للمؤتمر نقل إليّ مقرر الوزارة رغبة الوزير في أن أتولى رئاسة اللجنة وإدارة إجتماعاتها. فإعتذرت متعللاً بطول فترة إنقطاعي عن السكة الحديد وعدم إلمامي بتفصيلات ما طرأ عليها من تطورات وان كنت أتابع كل ذلك من بعيد. ووقع نظري على أخي وزميلي القديم الجديد "السيد/ مكي السيد علي" يجلس في آخر الصفوف الخلفية بالقاعة. فهرعت إليه وجلست بجانبه... وحزّ في نفسي أن أسمع منه أنه جاء متطوعاً تدفعه صلته بالسكة الحديد وحدها ليحضر ذلك المؤتمر مستمعاً... لأنه لم توجه إليه دعوة لحضوره... وعدت إلى مقرر الإجتماع وإقترحت عليه موصياً، بل ومشدداً بأن تسند رئاسة جلسات اللجنة وإجتماعاتها إلى الأخ مكي، الذي أزكيه وأراه أحرى بها مني، ولأنه مع طول تزاملنا في السكة الحديد وتقلبنا في مناصبها معاً، إلا أنه أقرب عهداً وأطول باعاً وأوسع خبرة ومعرفة بها مني... وقد كان ... ولا أريد أن أصف ما إستحوذ علينا من مشاعر الحسرة والأسى والألم وما دفع بنا إلى الإشفاق والرثاء مما كشفته لنا حقائق الوضع المتردي والمتداعي، الذي صدمتنا به مراجعاتنا ومشاهداتنا وجولاتنا التفقدية الأولى، التي كادت أن تؤدي بنا إلى الإحباط والإنهيار. وصبرت وصابرت بحضور جلسات المؤتمر على مضض، وصحبت اللجنة في طوافها في بعض أقسام السكة الحديد بالخرطوم ولرئاسات مصالحها في عطبرة كذلك. وهنالك تبدي لي عن طريق السمع واللمس والمشاهدة ما أقنعني بأن الفتق كبير، وأنه قد إتسع على

الراقع، وأنه سيكون عسيراً على العطارين أياً كانوا أن يصلحوا ما أفسد الجهل والدهر. فتملكني اليأس وإستبد بي القنوط. وحملني ما منيت به من خيبة أمل أن أخلي موضعي من الصالون رقم (11) وأن أهبط منه وأن أغادره عند وصولنا إلى محطة الجيلي، في طريق عودتنا من رحلة زيارتنا لعطبرة، وأن أترك الأخ مكي بمفرده فيه ليواصل سفره مع بقية أعضاء اللجنة إلى الخرطوم. ووجهت وجهي وجه داري لأبقي بها دون أن أعود إلى ذلك المؤتمر أو إلى جلساته بعدها أبداً... راضياً من الغنيمة بالإياب.

كان من أكثر ما عززه وأكده لي ما سبق لي أن إقتنعت بصدقه من بين دواعي التردي ومسبباته مشهد عددته مذهلاً وغريباً. فقد دخلت من بين ما زرته من مكاتب مكتب الرئيس البريطاني الذي كنت أعمل مساعداً له في أحد أقسام عموم الإدارة فهالني أن أجد من كان يشغل وظيفته ويجلس على كرسيه من السودانيين أحد من كانوا تلاميذ إدارة على عهدي من الخريجين وهو رجل وإن كانت له كل الصفات ما لا أستطيع أن أقدح فيه إلا أنه وكما كنت أقدر وأخشى آخر ما يمكن أن يدير ذلك القسم التجاري التخصصي، لا لشيء إلا لأن ذلك الشخص أذكر بكل وضوح عنه أنه كان قد رسب في آخر إمتحان أجريته له ولدفعته في ذلك النوع من التخصص. وأسفت وتذكرت وفهمت: وترحمت على ذلك العهد الذي سلف والذي كان لا يعطي السيف إلا لباريه ولا يسند الأمر إلا لأهله.

♦ جماعة الخروج في سبيل الله :-

وإنتهى عام 1982 بحضوري المهرجان الديني الكبير، الذي إنعقد لأول مرة بساحات مسجد مولاي السيد محمد الفاتح الشيخ قريب الله، لجماعة الدعوة "والذي أمته وفود كثيرة من الدول الشرق أوسطية ومن مصر ومن الباكستان ومن الهند، والذي ضم من بين ما حضره أساتذة أجلاء وأئمة علماء وصفوة من المشائخ المتصوفة.. كانت أول معرفتي بتلك الجماعة " جماعة الخروج في سبيل الله" كما

كانوا يسمونها خلال السبعينات، عن طريق الأخ الورع الدكتور دهب حينما أتخذ لها "مسجد شروني" بالخرطوم مقراً، ثم في زياراتهم العديدة اللاحقة بالجيلي، وما أزال في حيرة لأن الله لم يفتح عليّ بعد باستكناه حقيقة سرها وأهدافها ومرماها أو الإقتناع بنتائج ما يمكن أن تحققه، على النطاق المحلي، خاصة عندما يقومون بجولاتهم أو خروجهم متنقلين بين القرى يطرقون على الناس الأبواب ليخرجوا معهم في سبيل الله ولو بضع خطوات. وأن أعجبتني منهم مزايا الصحبة وتأميرهم أحدهم على كل جماعة ونزولهم بالمساجد ومداومة تبادلهم الوعظ في أدبار كل صلاة، دون أن يكلفوا أحداً شيئاً. فهم يتولون الإنفاق على أنفسهم كاملاً ولا يقبلون أية معونة عينية أو مالية من سواهم كائناً من كان.

- **إلتحاق بعمل إستشاري بالمملكة في جدة:-**

وفي خلال زيارة أخرى إلى السعودية، لأداء العمرة والزيارة عرض فيها عليّ صديقي الوجيه السيد علوي السقاف أن أكون مديراً عاماً لمؤسسته، التي كانت مكاتب رئاستها في جدة، والتي لها فروع في المدينة المنورة وفي المناسك كلها، والتي قبلت على أن أكون مستشاراً خاصاً بها. وكانت المؤسسة تعمل في مرافق متعددة أهمها بناء الطرق وصيانتها. وقد بدأت تعمل في مرحلتها الأولى بالإشتراك مع مؤسسة بن لادن، ثم إستقلت بنفسها وأنجزت عدداً من شبكات الطرق الرئيسية، منها طريق جدة –مكة– المدينة، وطريق المناسك منى والمزدلفة وعرفات. وكان من الطبيعي أن تنحصر مسئولياتي على النواحي التنظيمية والإدارية والإشرافية فيها. ولظروف خاصة ولما تبدي لي من بعض الممارسات الخاطئة في نظري لبعض من كانوا يعملون على رأس بعض إدارات أقسامها وتصرفاتهم الخاطئة ومحاولتهم تغطية ذلك عن طريق التزلف والتملق لمن يسيرون أعمال المؤسسة من مالكيها، عقدت العزم على التخلص عنها والنأي بنفسي عما إستشعرته من حرج.. إذ وجدت أن المبررات للبقاء بها أمران، أحلاهما مرّ.. <u>أولهما</u> إما أن أجاهر وأكاشف

صديقي رئيس مجلس إدارتها، السيد علوي، بما تكشف لي، فأضع بذلك أسفيناً بينه وبين من كانوا موضع ثقته وحبه فلا أرضيه.. وثانيهما أن أحاول التقاضي وغض الطرف عنه، بالتستر والمداراة، فلا ترضى عن ذلك نفسي.. وبالفعل إنقطعت عن العمل وإعتذرت عنه ولزمت داري ورجوت صديقي أن يقدر لي ظرفي ويعفيني، الأمر الذي شق عليه قبوله، بل وحيره وأذهله. وأريد أن أقف هنا لأقر ولأسجل للحقيقة والتاريخ أن ما لقيته من تقدير وتقويم، ومن معاملة كريمة وممتازة، وراتب مالي كبير، وإمتيازات في السكن (فيلا أنيقة في حي من أرقى أحياء مدينة جدة المجهزة بكامل تأثيثها وفرشها وخدمها وسياراتها وسائقيها وجهاز هاتفها الذي يمتد إلى كل حجراتها وإلى غرف الخادمين والخادمات فيها ببدالته الداخلية ذات الخطوط التسع...) وغير ذلك من إمتيازات الرعاية الصحية الكاملة والسفر والإنتقال لي ولأسرتي... هو أكثر وأجل وأرفع بكثير من ما أكرمني الله به من قبل في جميع مراحل ومستويات خدمتي المدنية أو خدمتنا الخارجية أو في خدمتي كخبير دبلوماسي للدولة القطرية سابقاً.

وبقيت بعدها بالمملكة شهوراً عديدة قمت فيها بتحركات واسعة وأسفار متصلة للتعرف على كثير من مناطقها الغربية والشرقية والوسطى، زرت خلالها الطائف ومثوى حبر الأمة، إبن عباس، في مرقده وقضيت أياماً قصيرة في الرياض وما حولها وجيزان والظهران وفترات طويلة متنقلاً بين مدن المنطقة الشرقية في الهفوف (الاحساء) والجبيل والدمام. وترددت على الحرمين الشريفين مراراً معتمراً وزائراً.. كانت رابعة حجة حججتها وثانية مع سيدي الشيخ الفاتح قريب الله ومع أسرتي للمرة الثالثة.. فلله الحمد وله الفضل وله المنة وله الثناء الحسن الجميل على كل ما به قد أنعم.

* **إنتفاضة رجب في السودان:-**

في أثناء وقبل مغادرتنا للملكة حدثت الإنتفاضة بالسودان في مارس أبريل 1985، فكانت لها ردود فعل تلقائية واضحة، إنعكست في نشاطات ولقاءات كثيرة من المغتربين السودانيين وتعدتهم إلى الأوساط السعودية المحلية الأخرى، الرسمية والشعبية، لما تعرض له السودان بعدها من كوارث... تصحراً وجفافاً وجوعاً من جهة، ونكبات بسبب السيول والفيضانات، وما خلفته من أضرار وخسائر مني بها المواطنون في العديد من الأنحاء في العاصمة والأقاليم... وقد هب لنجدتها ومد يد العون لضحاياها من السعودية ملكها، خادم الحرمين الشريفين، وأمراؤها وحكومتها ومؤسساتها، كما عقدت لها الإجتماعات بين المغتربين من السودانيين وغيرهم من السعوديين الممولين والخيرين المحليين، حضرنا عدداً منها. وكان من أبرز من شارك فيها الأخ محمد علي المرضي من السودانيين، وسامي المنيعي من السعوديين وآخرون. كما إهتمت لها السفارة والبعض الآخر ببرقيات شخصية بعثنا بها للمجلس الإنتقالي الجديد. ووجهت واحدة منها بإسمي إلى الأخ المشير عبد الرحمن سوار الذهب، الصديق الذي سعدت بمعرفته وبرفقته وزمالته ومعرفته عن قرب، عندما كنا نعمل كمستشارين وخبراء لدولة قطر معاً في أوائل السبعينات، ضمنتها بعض إقتراحاتي بما رأيت أن ينظروا فيه من أسس وقواعد جديدة لبعض السياسات.

وإلتقيت في تلك الفترة بالعديد من الشخصيات، الأمير ممدوح وسهل القباني صاحب مؤسسة دار الإسلام ونشاطاته في "نيو مكسيكو" وبعض كبار العاملين بمؤسسة دار المال الإسلامي. كما كانت صلاتي بالأخ السفير السوداني السيد/ عيسى مصطفى قوية حميمة متجددة أبداً. وكان إكرامه لي وحفاوته بي تتيح لي وتمكنني دائماً من الإلتقاء بداره المضيافة العامرة أو على موائده المتواترة الزاخرة الفاخرة، بالعديد من الشخصيات من الأقطاب وكبار المسؤولين. ومن المحليين والسودانيين الزائرين بين الفينة والأخرى، مما هيأ لي الوقوف على مجريات الأحداث والتعرف عليها وتتبع تطوراتها بإنتظام وفي سهولة ويسر في تلك الفترة

القلقة بالسودان، بأيامها ولياليها المثقلات الحبالى اللواتي كن يتمخضن مؤذنات بأن يلدن كل عجيب...

ودفعتني حالة ذلك القلق والإنشغال بما هو جار بالوطن من تيارات وتفاعلات وإحتمالات أن أقرر إنهاء إقامتي، التي لم يكن لها من مبرر بعد أن تخليت عن العمل. وعقدت العزم على أن أعود أدراجي وأهلي قافلاً إلى بلدي. فالعرجاء إلى مراحها، كما يقولون. وتزامنت تلك الفترة مع موسم ذكرى مولد الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، فجرى القلم يعبر عما فاض به الخاطر من رحيق تلك الفترة في قصيدة نظمتها جاوزت المائتي بيت، حرصت على أن أقوم بإلقائها مواجهة أو مشافهة بنفسي أمام حجرة الرسول الأعظم (صلعم) في المدينة المنورة. فشددت إليها الرحال وسافرت إليها بالسيارة تصحبني أسرتي، والتي قدمت لها أبيات أخرى أوحى بها إليّ الوجد وأنا في السيارة، عند مدخل يثرب، حينما قرت العين لما سرها النظر:-

برؤية القبة الخضراء وقد ظهرت	إلى العيون وقتها المصطفى القمر

فكتبت على ظهر أوراق قصيدتي، التي كنت أحملها، هاته الأبيات الإضافية إرتجالاً:

أتيناك يا خير الورى بك نرتجي	نوالاً وتوفيقاً وفضلاً وإحسانا
وتيسير أرزاق وتفريج كربة	وتحقيق آمال ونوراً وأيمانا
وتمنحنا ما نرتجي من مواهب	وتكرمنا فضلاً وتعلي لنا شأنا
وتدني لنا ما طال منا إنتظاره	لنلقي الذي قد عز قبل وقد هانا

ودخلنا مسجد الرسول الكريم (صلعم) وصلينا في روضته التي هي روضة من رياض الجنة، ثم تحولنا إلى المواجهة الشريفة. وهناك قرأت القصيدة التي نظمتها، على طولها، أمام مضجعه الطاهر وقبره الشريف... ومن عجب أن من هم موكلون بالحراسة أمامها وحواليها، والذين ما فتئوا يذودون الناس عن الإقتراب منها ويدفعونهم لئلا يطيلوا الوقوف عندها، قد قيض الله لي أن أحظى بغفلتهم أو بتغافلهم عني أو ربما بغض طرفهم، فلم يعترضوا على (تسمري) أمام الحجرة الشريفة تجاه

باب الرسول (صلعم) وقبالته وأنا أتلوها بيتاً بيتاً (في سري) إلى أن أتممتها كلها وأكملت قراءتها عن آخرها، بحمد الله دون أي توقف أو تشويش أو إعتراض.

وودعنا مدينة الرسول وساكنها عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم تاركين ساحاتها ومساجدها وبقيعها ومزاراتها وراءنا. وإمتطينا سيارتنا في مساء نفس الليلة ذاتها متوجهين إلى مكة المكرمة:-

وتلفتت عيني .. ومذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

ووصلنا إلى أم القرى قبيل فجر اليوم التالي. فدخلنا حرمها الآمن وطفنا بالبيت العتيق والحِجْر والملتزم والحطيم وسعينا بين الصفا والمروة وغادرنا رحابها وشعابها وتضلعنا حتى إرتوينا من ماء زمزم وإكتملت بذلك عمرتنا ولسان حالنا يردد:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وعدنا قافلين إلى جدة لنعود منها ويا للحسرة... نهائياً إلى السودان... عندها أهبت بزوجتي أن تتزود، لا من شميم عرار نجد وحده ولكن من خيرات ذلك البلد الوفيرة. فجاست خلال الأسواق خفافاً عيابها، فأضمرت المحافظ وأخلت الجيوب ولكنا عدنا ونحن بجر الحقائب...

وإلى هنا أرى أن يقف بي جواد الإضطراد، وقد وصل بي هذا التدوين والسرد إلى أواخر سنوات العقد الماضي الأخير، لأكف عن الإستطراد لما لا يصح أن ينسب إلى الذكريات وإجترارها، بل إلى ما هو إلى الحديث المعاصر المقارب للحاضر أقرب. وعليه يكفي هذا الحدّ .

♦ حزب الأمة وغيره:-

وردت إشارات عديدة في هاته المذكرات عن حزب الأمة وبعض رجالاته وقادته. وقد يستدل من ذلك وكذلك من إستئثار صحف الأمة وصوت الأمة والنيل بنشر العديد من مقالاتي منذ عهد السكة الحديد وحتى سلسلة المقالات الثمانية

المتابعة في عام 1988 عن إصلاح الريف، أو القصيدة التي طلب مني أهلنا وجيرتنا في الكباشي إعدادها وألقائها بإسمهم في حفل إستقبالهم التكريمي للسيد/ الصادق المهدي في الكباشي أو يفهم منها إنتمائي إلى ذلك الحزب أو عضويته فيه. وبحسبي، لا دفاعاً عن نفسي أو تبريراً أو تنصلاً مما لا أعده تهمة، بل تشريفاً، أن أؤكد بجانب ما ذكرته عن نفسي، من أنني لم أنتم في أي يوم من الأيام في حياتي وعلى كثرة ما إشتركت فيه من النشاطات السياسية، مع تواضعها، مع كل ذلك.. لم أنتمي لأي حزب من الأحزاب إنتماءاً عضوياً أو رسمياً، وإن كان من الطبيعي أن تكون لي ميولاً وصلات عاطفية... ولو كنت حزبياً لأنتميت إلى حزب الإتحاديين القديم (عبد الله ميرغني وحماد توفيق والأبروفيين)... أما عن حزب الأمة وقادته ورجاله وساسته فإن لهم في قلبي كل حب وتقدير وإحترام وإكبار، بدءاً براعيه، السيد عبد الرحمن المهدي، وخليفته الزميل الصديق السيد الصديق من بعده ورموزه، لمناداتهم بالإستقلال ووقوفهم وراء مطلبه حتى يتحقق. وكذلك لي إحترام يبلغ درجة الإكبار للسيد الصادق لما يتميز به من مزايا عديدة. وبحسبي تعرضي لما ورد في قصيدة تحيتي له التي ألقيتها بحضوره في الكباشي، وخاصة الأبيات التي أقول فيها:

مبادؤكم جاءت كأهداف حزبكم	يمينية المنحى وعصرية البنا
وهل كان نهج الحزب إلا دعامة	أتى عن قناعات لها الكل أذعنا
وإني وإن لم أنتسب قط سابقاً	لحزب فإني الآن أقرب من دنا
لمن كان للأوطان منذ عرفته	أميناً وبالسودان مذ شب مؤمنا
عليم بتاريخ خبير سياسة	لحصد ثمار العلم أقطف من جنا
ومن كان أرضي خصمه بإختياره	حري بأن ترضى قيادته لنا
وما أنا حزبيٌ ولكن تعاطفي	وقدري وإعجابي بما سقفه لنا
يؤكد إيماني بكم وبنهجكم	لخير علاقات توشج بيننا
فإنك أنت الفجر قد لاح صادقاً	بكم حيعل الداعي وصاح مؤذنا

♦ ثم ما حسبناه الديمقراطية والأسلمة:-

أما في المجالات المحلية والأحداث القومية، دع عنك الدولية أو العالمية، فقد كان من بين أسوئها وقعاً وأمرها مذاقاً التقلبات والإنقلابات والفترات السياسية المدنية المؤسفة. فقد عايشت فترة ما بعد مايو العسكرية المدنية، وعودة فترة الحكومة المدنية النيابية، التي أعادت حكم الأحزاب التقليدية المتنافرة المتناحرة، وتلظيت بلهيب المعارك العارمة المستعرة، التي إمتد سعيرها إلى ريفنا المجاور، خاصة بين جبهة الميثاق الإسلامية وغيرها من الأحزاب (الأمة والإتحادي) في معركة إنتخابات عام 1986، تلك التي حرصت على أن أقف فيها موقف المحايد المستقل. فلم أفلح في كبح جماح نفسي إزاء ما كان يدور في لياليها السياسية، التي كانت تقيمها متواترة تباعاً بأساليب وأضاليل وترهات لم أملك إزاءها إلا أن أذود فيها عن حوض ومبادئ مرشحنا المحلي، الذي خاضها تحت راية حزب الأمة، وأن أسفر عن تأييدي الشخصي له ومساندته ومناصرته بالدعاية له بالقلم وباللسان وبتحبير ما أجريته على ألسنة المتحدثين من ردود جريئة وصريحة أثارت عليّ حقد وضغينة الجبهويين، الذين نجحوا في إستدراج الكثيرين وتخديرهم والتغرير بهم بإسم الدين. فهرع إليهم البسطاء وإنحاز إلى صفهم من إستمالوهم بالبذل والعطاء والوعود من الإنتهازيين ممن نعرفهم. فتجاوبوا معهم وإستجابوا بما بهم يعرفون. فأطلقوا اللحى وأطالوها وقصوا جلاليبهم وقصروها وأرخو لعذبات عمائمهم وأبرزوها. وإمتد بنا العمر لنشهد ما ناله بعض هؤلاء من يسر بعد عسر، ومن توظيف بعد فاقة، ومن خير عميم ونعيم مقيم أغدقوه عليهم ومرغوهم فيه... جزاءاً وفاقاً وثمناً بخساً ووفاءاً عاجلاً لما قدموه... هذا وقد أعود إلى هاته الفترة، التي إستولت فيها الجبهة على الحكم، والذي ما يزال قائماً تحت إسم ثورة الإنقاذ الوطني حتى كتابة هذه السطور، لأعلن بما له وما عليه في سياق ما سيرد في هاته المذكرات .

ن أقف عندما مني به السودان من أحداث جسام على الصعيد المحلي وال ي أو ما كانت له أثار وإنعكاسات على سمعته ووضعه الخارجي (تردي الأوضاع في الشمال والجنوب وإستئناف الحروب) وفضح فضيحتها الخيبة المزرية والفساد الذي إستشرى وأشار بأصابعه إلى الكبار وأزكمت رائحته الأنوف، ولكن سأطوي عنه صفحاً وعن كل ما تمخض عنه من عقابيل تاريخنا الحاضر المعاش.

كما أذكر سلسلة المقالات الثمانية التي نشرتها لي الصحف تباعاً، تحت عنوان "صرخات من الريف إلى المسؤولين" تناولت فيها أوجه بعض القصور في الخدمات لأهلنا، وإقترحت بعض الحلول في مجالات التعليم والصحة والإدارة والتعاون. كما بذلت بعض الجهود في التصدي لتصرفات اللجنة الشعبية المحلية بالنقد الباني الهادئ والمحترم، وفي تشجيع المنظمات الشبابية ورفع معنوياتها، والإشادة بمجهوداتها في الصحف وبمبادراتها لدرء الفيضانات والكوارث والسيول. وكذلك النشاطات النسوية في منظمات الرعاية الإجتماعية وجمعية تنظيم الأسرة الناشئة بالجيلي، متعاوناً في الأخيرة مع صديقي وشقيق روحي أخي الدكتور الأستاذ/ "أبو هالة" ومع رئيسها المركزي الأعلى، صديقي وزميلي وإبن دفعتي، الدكتور عبد السلام صالح المغربي ومساعديه، والإسهام في حل قضية ماء الشرب التي إستحكمت بنزول مستوى مياه البيارة التي غاصت ولم تعد كافية للقرية، فتمكنا بمعونة المنظمة الخيرية والكويتية من حفر بئر جديدة وتركيب طلمبة ساحبة بها، إقتطعت لها مساحة صغيرة من أرض مزرعتي، إحتساباً لله وإبتغاءاً لأجره وثوابه والتي من المؤلم والمؤسف أنها قد تمخضت مؤخراً عن نقمة في ثياب نعمة لأن ماءها السطحي قد أصبح مصدر شكوى وأمراض لما مازجه من مسببات عدم صلاحيته للشرب... وما يزال..

• اليوبيل الذهبي لمؤتمر الخريجين:-

ذلك بعض ما شغلت به على الصعيد الداخلي المحلي. أما خارج قريتي وفي ما كان يجري بالعاصمة من نشاطات خلال تلك الفترة، فقد إنبهرت بفكرة إقامة اليوبيل الذهبي لمؤتمر الخريجين وهرعت إلى تلبية الدعوة التي وصلتني من اللجنة التمهيدية ومن الصديق الأستاذ/ "شيلاب" لحضور جلساته. ومكنتني وهيأت لي إستضافة أخي وزميلي وإبن دفعتي السيد/ أحمد محمد يس العوض، عضو أول مجلس سيادة، في منزله حضور نشاطاته الصباحية والمسائية وإعداد مذكرة ضافية عن "المؤتمر" لجان الأقاليم مركزاً على مدينتي عطبرة وبورتسودان، حيث عملت سكرتيراً ورئيساً لعدد من دوراته فيها وقمت بتقديمها مرفوقة ببعض الوثائق والصور ونسخ من خطابات بعض الدورات. كما أسهمت بحديث قصير في إحدى جلساته المسائية.

وحالت موانع صحية دون حضوري مؤتمر نقابة الدبلوماسيين السودانيين. فكتبت إليهم معتذراً ومباركاً ومهنئاً ومسانداً ومؤيداً لما سبق لي أن بعثت به إليهم من رسالة عند تكوينها.

وحفزني مقال نشرته إحدى الصحف، للزميل الرفيق الكيس الفطن والدبلوماسي المخضرم الأخ الدكتور البشير البكري، عن الخارجية ونشأتها، لم أجده وافياً ولا كافياً في شموله وتفاصيله لتدوين تاريخ دقيق لإنشاء وزارة الخارجية منذ فترة التمهيد لها بقيام وكالة الشئون الخاصة وتطوراتها التي عاصرتها وعايشتها. ولكم أسعدني قيام الأخوة الزملاء في رئاسة الوزارة (الطيب أحمد حميدة ورفقاؤه) الذين بعثت به إليهم بنشره في مقالين طويلين بعددين متتابعين في إحدى الصحف. وهي نفس الفترة التي منينا فيها بفقد صديقنا وزميلنا الأديب اللوذعي المثقف (جمال محمد أحمد) رحمه الله رحمة واسعة، أحد أعمدة وأساطين سلكنا الدبلوماسي القديم الوضيء، والودود الوفي، الذي ربطتني به وبأسرته أواصر صلات حميمة في الوطن وفي المهاجر التي عملنا فيها، والذي أحتفظ له بمآثره وأفضاله وجم أياديه،

التي كان من آخرها ما سطره عني في كتيبه الصغير عن نشأة الدبلوماسية السودانية، والذي قامت وزارة الثقافة والإعلام بنشره في سلسلة ما أصدرته.

هذا وقد عينت عضواً في المجلس الإستشاري لوزير الخارجية، الذي أنشأه الوزير السيد زين العابدين الهندي، مع أخوة من الزملاء القدامى. وقد بذل ذلك المجلس جهداً في مهمته. لكن الأيام لم تمهله ليرى وصول بعض ما كشفته رؤاه وبلوغه مرحلة البت والتنفيذ.

وقبيل ختام ندوة وزارة الخارجية، التي إشتركت فيها قمت وزميلاي السفراء، رحمة الله، وبشير البكري، بعقد ندوة عن الإستقلال بمناسبة ذكرى أعياده، كان من دواعي سروري وإبتهاجي أن أتسلم إشعاراً كتابياً بالبريد من مؤسسة البحوث الثقافية في إنجلترا، تنبئني فيه بقرارها منحي العضوية الفخرية لتلك المؤسسة. وكان ذلك فيما علمت بترشيح من مديرها الكاتب الكبير والباحث النحرير، الذي أثرى المكتبة وغمرها بمؤلفاته الزاخرة البادرة المتقاطرة، إدريس شاه.. فأضفت عليّ بذلك سعادةً وشرفاً عظيمين.

وفي عام 1989 م سافرت والعائلة في رحلة طويلة إلى السعودية، قضينا أغلبها متنقلين بين مناطقها الغربية والشرقية والوسطى، في الرياض والهفوف والإحساء وهجر والدمام والخبر والجبيل. وأنهيناها بحجة وعمرة نسأل الله أن يتقبلهما منا. عدنا بعدها إلى القرية، حيث عكفت على ترجمة ما أهداه لي الأستاذ الصديق الدكتور جعفر ميرغني، الأستاذ بجامعة الخرطوم، والذي كنت قد بعثت إليه بما سبق لي إعداده من موجز لحياة الزبير باشا، جمعته في تسلسل زمني عن أعوام حياته منذ ميلاده حتى وفاته، أعاده إليّ معتزاً به ومرفقاً به نسخة مصورة كاملة للمقالات التي كانت قد كتبتها صحفية بريطانية في إحدىالصحف البريطانية، تحت عنوان مراجعات معاصرة، عندما حظيت بمقابلات شخصية للزبير باشا في جبل طارق عندما كان منفياً هناك. وكلا هذين الكتابين جاهزان، منذ ذلك الوقت وحتى طبع هذا الجزء من المذكرات، في إنتظار الطباعة التي أرجو أن ييسرها الله.

هذه نتف لبعض ما علق بالذهن في الداخل والخارج وعلى الصعيد المحلي والنطاق الخارجي، لا أجد ما أضيفه عليها سوى تبادلي لبعض المراسلات والإتصالات الكتابية النشطة مع العديد من الجهات والأصحاب والأجانب وإستقبالاتي لعدد من الأصدقاء القدامى، الذين جاءوا لزيارتنا في السودان، أذكر منهم جون كالي، الألماني، وزوجته سيقفريد، السويدية الأديبة المقتدرة. والصديق الوفي أتوجيلا، نقيب المحامين في أثيوبيا، والزميل الصديق أبو هندي، قائم أعمال دولة قطر، وإيزابيلا، رئيسة بعثة جامعة روبا للتنقيب والكشف عن الآثار في قريتنا، وأفراد بعثتها، الذين ظلوا وما زالوا ينقبون منذ أكثر من الستة عشر عاماً الذين توثقت معرفتي بهم وبذلت ما وسعني الجهد لتقديم كل مساعدة وعون ممكن لهم وتوجيه رسائل مني لمصلحة الآثار ولوزيرها ملفتاً النظر لما هم به من حاجة لرعاية وعناية وإهتمام أكثر.

وما أريد أن أغفل الزيارتين الكريمتين الطويلتين اللتين خصني وشرفني بهما الأستاذ "عبد المطلب الفحل" بمنزلنا بالجيلي واللتين سجل فيهما لبرنامجه الناجح "أهلاً وسهلاً" شرائط عدة بثت وأذيعت من الإذاعة السودانية في وقتها آنذاك خلال شهر يوليو. وكنت قد تحدثت فيها وأجبت عن الكثير من الأسئلة الشتيتة المتفرقة عن الخلفيات والذكريات والتعليقات والإنطباعات والآراء والرؤى لمختلف الموضوعات الكبيرة والمثيرة والعامة والخاصة التي أظنها كانت في مجملها ممتعة حقاً.

* **إنقلاب يونيو 1989م:-**

وجاء إنقلاب الإنقاذ الوطني في نهاية يونيو، نتيجة متوقعة لما إنطوت عليه الأحداث وما تمخضت عنه مذكرة القوات المسلحة إلى حكومة السيد الصادق المهدي الأخيرة... وبصراحة أقول أنه على الرغم من رأيي المضاد المناهض لأي حكم عسكري، فقد شعرت ببعض الإرتياح النفسي والتقبل التلقائي والعفوي للإنقلاب تفاؤلاً بما قد يجيء به من إنقاذ أو يحدثه من تغيير جذري، كان لابد منه لتلافي ما وصل إليه حال البلد من سوء وما تخبطت به سياساته وأحزابه من متاهات وتردت إليه من حضيض... وبالفعل عجلتُ بتقديم مذكرة خطية طويلة أردت بها أن تكون توجيهية وتنبيهية وتذكيرية، أكثر من كونها تراجيدية لمجرد التهنئة والتبريك التقليدي، ضمنتها بعض المقترحات التنظيمية والملاحظات المتعلقة بضرورة تجديد النهج وتفصيل أطر السياسة المعلنة بوضوح، ومنادية بتغليب النظرة القومية، وناصحة بالإعتبار بالماضي لتحقيق إنقاذ حقيقي آتي ووحدة وطنية مستقبلية وإستقرار دائم... بعثت بها إليهم عن طريق البريد ولكني لم أتسلم عليها رداً أو أي أثر لها ومحاولة للتطبيق.

خاتمة:-

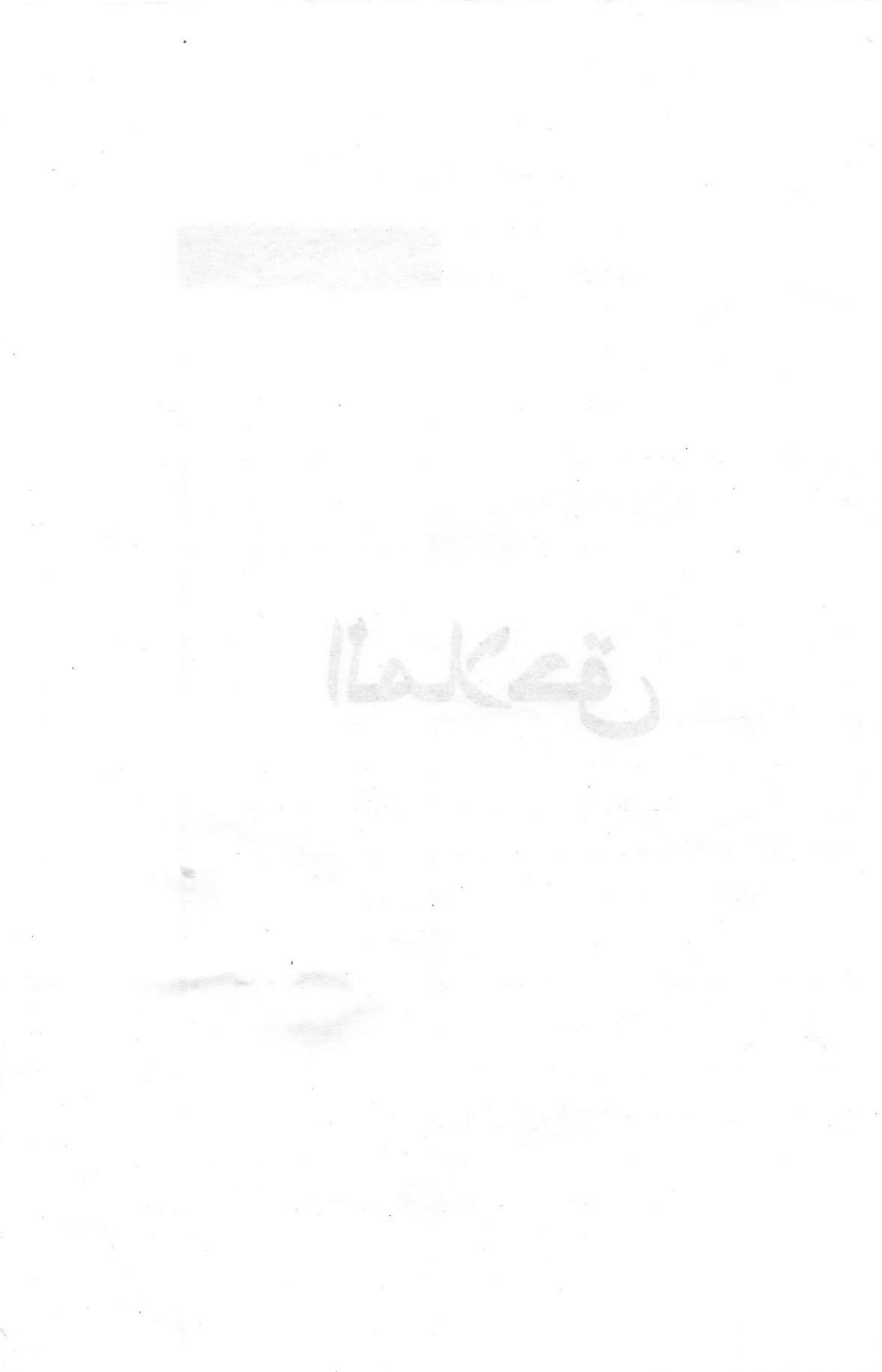
من باب التفاؤل لحسن خاتمة أخروية.. أو تطلباً إليها أن يكون آخر ما أخطه هو آخر ما إستمتعت ونعمت به من مناهل ومحافل ومناهل دينية تمثلت في تلك الرحلة الجماعية الصوفية، التي قام بها مريدو وأحباب الطريقة السمانية في ألوفهم المؤلفة وفي تجمعهم الكبير الحاشد، الذي قاده شيخنا ومولانا الأستاذ/ العالم العامل الشيخ/ حسن الفاتح قريب الله، والذي حملته العشرات من المركبات العامة والباخرات الكبيرة وأرتال من السيارات الخاصة، والذي شمل نخبة من العلماء والفضلاء وأساتذة الجامعات سعدنا بهم وبصحبتهم عبر مناطق النيل الأبيض وعلى حافتيه، والتي سايرته وعبرته مروراً بالكلاكلة والتريعة وطيبة الحسناب والحديبة وجبل الأولياء، حيث الشيخ الياقوت، والقطينة وشيخ موسى "أب ضلع حديد" وأبو جبيرة والصفراوية والعرشكول وشبشة، وزيارات الشيخ برير والشيخ عوض الله وخليفة الشيخ حمزة إلخ. والإستمتاع بضيافتهم وضيافة مولانا أبي البركات الولي الصالح، الشيخ عبد الرحيم البرعي (رجل الزريبة) وزيارة الشيخ الوسيلة الشيخ السماني، والعودة من تلك الغزوة الممتعة المباركة الناجحة بعد ثلاثة أيام كاملة بلياليها، كانت كلها إحياءاً وذكراً وتلاوةً ومدائح وأحاديث ومحاضرات إشتركت فيها بإلقاء كلمة شكر في ختام إحدى أمسياتها، بتوجيه وإنابة من الشيخ الحسن: عدنا بعدها عن طريق أم جر، مروراً ببخت الرضا والدويم، بما نحمد الله عليه ونسأل منه المزيد.

وليكن مسك الختام ذكر ما أنعم الله به عليّ وما شرفني به شيخي وكرمني به وأضفى به عليَّ من تشريف لا أستحقه ومقام لم أكن أتطلع أو أطمح إليه، بأن أجازني (في إحتفال ذكرى الشيخين الحولية بالجامع بأم درمان) شيخاً في الطريقة السمانية.

أسأل الله أن يجعلني خادماً للطريق وأهلاً له وأن أكون عند حسن ظن شيخي بي فيه وأن يهبني من الهداية والرعاية والعناية والتوفيق ما يعينني على الإلتزام

والوفاء له وأن يهديني سواء السبيل وييسر لي حسن السلوك وصالح الأعمال وأن يختم لنا بالحسنى، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير. إنه نعم المولى ونعم النصير. والحمد لله والصلاة والسلام على نبيه الأمين عدد كمال الله وكما يليق بكماله صلاة تليق بجماله وجلاله وكماله... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الملاحق



1- مشروع نظام الخدمة
الخارجية للسودان المستقل
قمت بإعداده بتكليف من أول حكومة وطنية واعتمد وطبق
عند إعلان الاستقلال في مطلع 1956

الفصل الأول
مهمة وزارة الخارجية واختصاصاتها

1- مهمة وزارة الخارجية هي تنسيق وتنفيذ المبادئ العامة لشئون السياسة وتوجيهاتها . وتتولى كل ما له صلة بالعلاقات الدولية وبمعالجة القضايا الخاصة بالسودان وبالمصالح السودانية في البلاد الأجنبية حسبما تحدده المعاهدات والعرف الدولي والقوانين والأنظمة المقررة .

ويدخل في عداد تفاصيل اختصاصاتها ما يلي :

1) تنظيم تبادل التمثيل الدبلوماسي والقنصلي مع الدول الأجنبية وتمثيل السودان في المنظمات والمؤتمرات الدولية .

2) دراسة مختلف الأمور السياسية من الوجهة الخارجية وجمع المعلومات اللازمة لهذا الشأن من سائر الإدارات الداخلية وتوزيع ما يرد عنها من البعثات الخارجية على تلك الإدارات .

3) توجيه التعليمات السياسية لممثلي السودان ومندوبيه في البلاد الأجنبية .

4) الإشراف على المباحثات والمفاوضات لعقد المعاهدات والاتفاقات الدولية ذات الطابع السياسي وإعداد كافة الإجراءات المؤدية إلى إبرامها ووضعها موضع التنفيذ ومراقبة تطبيقها .

5) الإشراف على معالجة قضايا الحدود .

6) إبداء الرأي في المرشحين من الممثلين الأجانب المراد اعتمادهم بالسودان . وتتم أيضا عن طريقها المراسم والإجراءات الخاصة بتقديم أوراق الاعتماد والاستدعاء .

7) الاشتراك مع الوزارات والإدارات الداخلية المختصة في الإشراف على علاقات السودان الاقتصادية والمالية والثقافية والاجتماعية بالأقطار الأجنبية ودرس المعاهدات والاتفاقات ومختلف القضايا المختصة .

8) إبداء رأيها حكما في تمثيل السودان في المؤتمرات الدولية غير السياسية .

9) العناية بشئون الهجرة من السودان وإليه ومنح جوازات السفر السودانية والسمات (الفيزات) وتمديدها وجوازات السفر الدبلوماسية .

10) تعهد السودانيين في علاقاتهم بالدول الأجنبية ورعايتهم وإعادتهم إلى بلادهم .

11) ملاحظة شئون الأجانب في السودان ودرس ما ينشأ عنها من معاملات إدارية .

12) تعريف السودان والمنافحة عنه في الخارج ونشر ما يفيد السودانيين في الداخل من الشئون الخارجية .

13) التوسط في الأمور القضائية الخاصة بالعلاقات الدولية كتنفيذ الاستنابات واسترداد المجرمين الخ ...

14) التأشير على الوثائق لاعتماد توقيعها في المعاملات التجارية .

الفصل الثاني

أحكام ولوائح عامة

1) ينص على تعيين وزير الخارجية والوكيل البرلماني لها وتحديد اختصاصاتها في دستور السودان .

2) تعتبر وظائف الخدمة الخارجية بشقيها في الإدارة العامة وفي البعثات وحدة مسلكية قائمة بذاتها وتكون الرتب والشروط العامة والدرجات والمرتبات والترقي (على أساس مشابه للخدمة المدنية) مع المخصصات الإضافية وفق الكادر الخاص الملحق بهذا كمشروع .

3) فيما عدا ما ذكر من شروط خاصة في التعيين يشترط توفر الجنسية السودانية مع حظر التزوج من أجنبية لجميع موظفي الخدمة الخارجية كشرط أساسي .

4) يقرر إنشاء العلاقات الدبلوماسية والقنصلية بمرسوم يتخذ في مجلس الوزراء بناء على اقتراح وزير الخارجية (رئيس الوزراء الآن) .

5) تحدد أنظمة البعثات الخارجية بمراسيم تصدر بناء على اقتراح وزير الخارجية وتكون دائرة الممثل الخارجي هي أرض الدولة المعتمد لديها وجميع الأراضي التابعة لها .

6) يؤدي موظفو الخدمة الخارجية بعد تعيينهم وقبل شغل وظائفهم قسما تصاغ صيغته .

7) يجوز اعتماد ممثل خارجي واحد لدى أكثر من دولة .

8) أ- تحدد دائرة القنصلية في المرسوم الصادر بإنشائها ويعتبر رئيس الهيئة الخارجية أو من يقوم مقامه مكلفا حكما بالوظائف القنصلية وله أن يخصص أحد موظفي السلك التابعين له بالقيام بها في مقر بعثته أو في غيرها من بلاد الدولة المعتمد لديها .

ب- يتبع أمثال هؤلاء القناصل في الدولة المقيمين فيها رئيس البعثة السودانية أما إذا وجدوا في قطر ليس للسودان تمثيل دبلوماسي فيه فيتبعون للديوان مباشرة .

ج- يمكن إحداث قنصليات فخرية وتعيين قناصل فخريين تحدد أنظمتها بمرسوم بناء على اقتراح وزير الخارجية .

9) لا يجوز لموظفي الخدمة الخارجية قبول أية أوسمة أو نياشين أجنبية ما لم يقر ذلك رأس الدولة عن طريق وزير الخارجية (باستثناءات معينة — أنظر قوانين بريطانيا)

10) لا يجوز لموظفي الخدمة الخارجية قبول الهدايا أو التحف من أية نوع أو جهة إلا بعد الحصول على موافقة وزير الخارجية .

11) أ- لا يجوز لموظفي الخدمة الخارجية دون الحصول على تصديق سابق من وزير الخارجية قبول أية وظيفة أو منصب خارجي في إدارة أي عمل تجاري أو صناعي أو مالي أو مهني خارج الخدمة .

ب- لا يجوز لموظف في الخدمة الخارجية الاشتغال بأي عمل أو الاشتراك في أي نشاط من شأنه أن يعوق قيامه بتأدية وظيفته أو يحد من فائدته (له تفاصيل أكثر) .

ج- لا يجوز بأي حال من الأحوال لموظف في الخدمة الخارجية استغلال نفوذهم أو وظيفتهم أو تسخيرها لفائدتهم الشخصية وأية محاولة من هذا القبيل أو قيام مجرد شبهة لذلك تعد مخالفة خطيرة من شأنها أن تعرضه لإجراءات تأديبية .

12) أ- لا يجوز لأي موظف في الخدمة الخارجية أن يسهم في أي شركة أو يشارك في عمل تجاري تكون له أي صلة بأية مصلحة حكومية دون أن يوضح ذلك لوزير الخارجية سلفا .

ب- إذا اتفق أن وجد أي موظف أن أعباء وظيفته من طبيعتها أن يكون لها أي مساس بأي شركة أو عمل تجاري معين يكون له فيه صالح خاص فعليه أن يوضح ذلك لوزير الخارجية .

ج- لا يمنع ما تقدم آنفا الموظف من امتلاكه أسهما محدودة في شركة عامة على أن لا يكون نصيبه من الأسهم فيها كبيرا للحد الذي يجعل له مصلحة أو امتيازا خاصا فيها .

13) على أي موظف في الخدمة الخارجية يصبح مفلسا أو مدانا أو يتضح له عجز في ما هو مسئول عنه من أموال تبليغ ذلك في الحال إلى وزير الخارجية عن طريق رئيس بعثته ويعتبر عدم التبليغ عن مثل هاته الحالات مخالفة خطرة .

14) أ- لا يجوز لموظفي الخدمة الخارجية الاشتغال بأي نشاط سياسي يتعارض مع مصالح الخدمة الخارجية أ ويتنافى مع مركزه كعضو في الخدمة الخارجية .

ب- إذا أراد موظف في الخدمة الخارجية أن يرشح نفسه للبرلمان فعليه أن يقدم استقالته قبل إعلان رغبته في ذلك الترشيح بصفة علنية .

15) أ- على موظفي الخدمة المدنية الاحتفاظ بالسرية التامة المطلقة لكل ما يصل إليه علمه من معلومات خاصة بالخدمة الخارجية وفق ما هو مفصل في القانون . (يوضع)

ب- يكون الموظف الذي يخل بهذا البند عرضة لإجراءات تأديبية وقد يؤدي ذلك إلى محاكمة جنائية .

16) لا يجوز لموظفي الخدمة الخارجية محاولة استخدام أ واستغلال أ واستعمال أية سلطة سياسية أو خارجية في تعزيز مطالبهم الخاصة في الأمور المتعلقة بالخدمة أو بمراكزهم فيها وسيكون لأمثال هاته المحاولات أسوأ الأثر في سجل خدمة الموظف وربما عرضته لإجراءات تأديبية .

17) تتحمل الدولة نفقات تحنيط ونقل جثة الممثل إلى أرض بلده حتى إذا حدثت الوفاة للممثل في إجازة في غير مقر عمله .

18) حينما تدعو الحاجة إلى إيفاد بعثة رسمية للخارج يجوز منح الموفدين سواء أكانوا من موظفي الخدمة الخارجية أو غيرهم في مراسيم تعيينهم أ و إيفادهم التمتع بصفة مؤقتة بمزايا السلك مدة قيامهم بالمهمة .

19) التقاعد والمعاشات :

أ- يحدد سن التقاعد لموظفي الخدمة الخارجية ببلوغ سن الستين .

ب- يجوز لوزير الخارجية أن يحيل إلى المعاش أي موظف تثبت عدم صلاحيته للاستمرار والتدرج في السلك .

ت- نظام الأحقية للمعاش يكون مشابها لأوضاع الخدمة المدنية – ملحوظة: إنجلترا لا تخصم استقطاعات للمعاشات وإنما تمنحها في النهاية بشرط إكمال المدة .

20) التأديب : يقترح نظام بريطانيا ومصر .

21) الإجازات السنوية والمرضية لموظفي الخدمة الخارجية :

أ- لا يجوز لرئيس البعثة مغادرة أراضي الدولة المعتمد لديها إلا بموافقة رئيس الخارجية .

ب- لا يجوز لموظف السلك الخارجي مغادرة مركز عمله لأي سبب كان إلا بموافقة رئيس البعثة .

ج- 1) يمنح موظفو الخدمة الخارجية إجازات اعتيادية سنوية حسب مقتضيات العمل وظروفه كباقي موظفي الحكومة المدنيين المحليين ولكن مع الفارق عادة في استبعاد المدة التي تستغرقها المسافة وتحديد أمد الإجازات وفق اعتبارات الغربة والمناخ في الدول المعتمدين لديها .

2) يجوز جمع إجازات الموظف لمدة سنتين أو أكثر بحسب قوانين الخدمة المدنية بالسودان .

3) يجوز استدعاء الموظف أثناء الإجازة للعمل في وطنه إذا دعت إليه الحاجة دون أن يخصم ذلك الوقت من إجازته .

4) عند تقديم طلبات الإجازات العادية على رؤساء البعثة أو الأقسام أن يوضحوا اسم الموظف الذي سيخلف مقدم الطلب عند غيابه .

5) يقوم رئيس البعثة مقام وزير الخارجية بمنح الإجازات للموظفين المقيمين في دائرة اختصاصه وفق هاته القوانين إذا أرادوا قضاء مدة إجازاتهم في تلك الدائرة على أن يخبر بذلك مسبقا وزارة الخارجية .

6) الموظفون الذين يودون قضاء كل أو جزء من إجازاتهم خارج منطقة البعثة التي يعملون فيها لابد لهم من الحصول على موافقة الوزير على منحهم تلك الإجازة سلفا .

7) يشترط في موظفي الخدمة الخارجية في البعثات قضاء جزء من إجازاتهم بالسودان كل سنتين بغرض تتبعهم لحالة التقدم بالقطر والاتصال بالبيئة المحلية فيه والوقوف على التطورات في شتى المرافق .

د- الإجازات المرضية :

1) على الموظف المريض في البعثات الخارجية أن يعلم رئيس البعثة أو من يقوم مقامه بالأمر إذا لم تتجاوز مدة المرض ثلاثة أيام وعليه إذا تجاوز المرض هذه المدة أن يقدم تقريراً من طبيبه المداوي ولرئيس البعثة أو من يقوم مقامه أن يعتمد أحد الأطباء الموثوقين لفحص المريض . وإذا استمر المرض أكثر من ثلاثين يوما يحال الموظف على لجنة طبية تؤلف في مركز البعثة من ثلاثة أطباء يختارهم رئيس البعثة .

2) إذا تبين من تقرير اللجنة الطبية المؤلفة وفقا للمادة د(1) أعلاه أن الموظف المريض غير قابل لشفاء أو كانت المدة التي تغيب خلالها قد بلغ مجموعها ستة أشهر في السنة السابقة وجبت عودته للسودان على نفقة الحكومة واحالته على لجنة التسريح الطبية وفقا لقانون الموظفين الأساسي .

3) تمنح الإجازات المرضية بعد الرجوع فيها إلى رئاسة وزارة الخارجية عن طريق رئيس البعثة .

4) في حالة إصابة أي موظف بمرض أثناء تواجده بالإجازة الاعتيادية أو أثناء سفره وتقديم شهادة مرضية على ضؤ ذلك ، فإن هذه المدة المرضية ستعتبر إجازة مرضية .

هـ- الإجازة المحلية :

1) لرئيس البعثة الحق في التصديق بما لا يزيد عن السبعة أيام إجازة محلية لموظفيه في الظروف الطارئة التي تبيح ذلك على أن تقضى محليا وعلى أن تخطر الإدارة العامة مؤخرا .

الفصل الثالث

مسودة مشروع وزارة الخارجية

التي أوكل إليّ أمر إعدادها والتي أجازها مجلس الوزراء دون تعديل أو إضافة أو حذف والتي تم تطبيقها حرفياً فيما بعد

التكوين والتوظيف والتدريب

1) فيما عدا وظيفتي وزير الخارجية والوكيل البرلماني (اللذين تكون وظيفتاهما سياسيتين يعين من يشغلهما رئيس الوزراء في مجلسه) فإن جميع الموظفين الذين يعملون في سائر أقسام الوزارة وفروعها الموضحة فيما بعد يتبعون وحدة مسلكية خاصة لها كادرها تعرف بالخدمة الخارجية وفق الشروط المذكورة عنها بعد : -

2) تتكون الخدمة الخارجية للسودان من :-

أ- الإدارة المركزية بالديوان العام .

ب- البعثات الخارجية .

3) أ- يشكل الديوان العام من الإدارات الآتية حسبما هو موضح أمامها :

1- إدارة سياسية (حسب التقسيم الجغرافي كما هو مفصل في الجدول الملحق بهذا).

2- دارة المؤتمرات والمعاهدات والمكتبة .

3- إدارة الشئون الإدارية والقنصلية .

4- شئون الموظفين والميزانية .

5- إدارة شئون الحسابات والتوريدات .

6- شئون المراسم والزيارات .

7- إدارة شئون الكتبة والمحفوظات والرموز والترجمة .

ملحوظة: للتكوين المفصل أنظر الملحق.

ب- يجوز تشكيل إدارات أخرى – حسب الحاجة – للشئون الاقتصادية والثقافية والصحفية والقانونية وغيرها .

ج- يعهد برئاسة هذه الإدارات في البداية إلى موظف بدرجة سكرتير ثالث من المعينين الجدد يكون مسئولا عنها أمام وزير الخارجية عن طريق نائب الوكيل الدائم بقصد مرانه .

د- يتنقل رؤساء الإدارات في الديوان العام والسلك الخارجي بالشكل الذي يؤمن سير العمل لاكتساب الخبرة في فترات يحددها الوزير .

هـ- يحدد الوزير الأعمال التي تناط بكل إدارة والاختصاصات المنوطة بها .

4) تتكون البعثات الخارجية من :

1- السفارات .

2- المفوضيات .

3- المكاتب الدائمة لدى الهيئات الدولية .

4- الوفود المنتدبين لمهمات سياسية .

5- القنصليات بأقسامها : العامة – النيابات – الوكالات .

ملحوظة: أنظر الفصل الخامس عن تفصيل الواجبات .

5) تنقسم الخدمة الخارجية السودانية إلى ثلاثة مجموعات من حيث موظفيها يشترط في شاغليها (عدا المجموعة الثالثة) أن يكونوا عرضة للخدمة في الديوان العام أو في البعثات الخارجية حسب ما تدعوا إليه الحاجة ويكون المجال مفسوحا لهم للتقدم في السلك وفق الشروط الموضوعة المقررة :

المجموعة الأولى: تتكون من رجال السلك الدبلوماسي المعينين وفق شروط مبتدئة من سكرتاريين ثوالث أو مساعدي قناصل متدرجة إلى درجة سفير في المستقبل في البعثات كما وتشمل الوكيل الدائم ونائبه ورؤساء الأقسام في الديوان العام وتنقسم إلى عدة قطاعات متفاوتة كما هو منصوص عنها بعد .

المجموعة الثانية :

وتتكون من موظفي الخارجية التنفيذيين بما في ذلك الكتبة والمحاسبون والملحقون بصفة انتداب من الوزارات بالديوان العام أو بالبعثات وتنقسم إلى عدة قطاعات متفاوتة كما هو منصوص عنها بعد.

المجموعة الثالثة :

وتشمل الكاتبين على الآلة الكاتبة وكتبة الاختزال والخدم والمراسلات والحرس . ويعين هؤلاء من المحليين في مواضع البعثات وفي الديوان العام وموظفو هاته المجموعة ليسوا بعرضة للنقل .

6) الاختيار والتعيين :

1- المجموعة الأولى : وظائف السلك الدبلوماسي:

أ- تشمل وظائف السلك السياسي والقنصلي بالديوان العام والبعثات الخارجية الآتية :

1- رؤساء البعثات من درجة سفير أو وزير مفوض أو قائم بأعمال .

2- الوكيل الدائم بالديوان العام ونائبه ومساعده ورؤساء الأقسام في الوزارة .

3- المستشارون .

4- السكرتيرون الأوائل وتعادل هاته قنصل عام .

5- السكرتيرون الثواني وتعادل هاته قنصل درجة ثانية .

6- السكرتيرون الثوالث وتعادل هاته قنصل عادي .

ب- يتم اختيار 1 (و3 أعلاه إذا دعت لها الحاجة الآن) في البداية عن طريق الانتخاب المطلق على أن تراعى فيه الصلاحية وتوفر المؤهلات والميزات والخبرة العامة والسن والتراهة ومستلزمات التمثل الصادق المشرف والأفضل أن تكون غالبيتهم العظمى من الممتازين من رجال الخدمة المدنية أو القضاء أو الجيش الذين تقلدوا مناصب عليا ذات مسئولية أو الذين تقاعدوا ولهم من الخبرة العملية والإدارية ومن حسن السير والسلوك والتراهة ما يسهل عليهم القيام بالمهمة بجدارة على أن يكون تعيينهم أول الأمر لفترة معينة ريثما يتم إعداد وتدريب المبتدئين الجدد الذين سيختارون للسلك (سنتين أو ثلاثة) .

وبهاته الطريقة نأمن تعقيدات شروط الخدمة واشكالات التعويضات من معاشية وخلافها متى ما أريد استبدالهم برجال السلك بعد نضوجهم من جهة وتهيأ الفرصة للدارجين في السلك لأن يصلوا إلى نهايته فنضمن بذلك الاستقرار للسلك واستمالة الخبرة المنتقاة للتقدم للالتحاق به .

وكل ما يشترط في هؤلاء فوق أهليتهم هو أن يكونوا مواطنين سودانيين سليمي البنية مقبولي المنظر ليسوا متزوجين بأجنبيات .

وتسري عليهم جميع قوانين السلك ويتمتعون بكافة مخصصاته وامتيازاته كما هو منصوص عنها في اللائحة هاته .

ج- تطرح وظائف نواة السلك الخارجي (4 و5 و6 أعلاه) في جميع الحالات عن طريق الإعلان عنها ويتم الاختيار والتعيين لها بالمسابقة والمعاينة معا وفق الشروط الآتية :-

1. الجنسية السودانية .
2. عدم الزواج بأجنبية .
3. ألا يكون قد حكم عليه من المحاكم أو من مجالس التأديب لأمر مخل بالشرف .
4. الحصول على شهادة جامعية أيا كانت ومعرفة لغتين على أقل تقدير .

5. اجتياز الكشف الطبي .

6. السن: أدناها 25 سنة إلى 30 مع مراعاة تدرجها في البداية فقط .

7. اجتياز امتحان تحريري عام في معرفة تاريخ وجغرافية وهيكل الإدارة الإدارية للسودان والشئون العالمية والمسائل المعاصرة البارزة بلغتين .

8. المعاينة والاختبار في أعمال اللجان وتشمل التقارير عن الطالب .

9. قبول العمل في الداخل والخارج وفق الشروط المقررة في البداية فقط بفسح المجال لكل من توفرت فيه الشروط المذكورة عاليه . ويشمل موظفي الحكومة على أن يكون تقديمهم بواسطة رؤساء مصالحهم وعلى شريطة أن يمكن الاستغناء عنهم إذا قبلوا .

10. يجري الامتحان التحريري بواسطة مجلس امتحانات السودان بالاشتراك مع وزارة الخارجية .

ملحوظة: أما في المستقبل فيشترط فوق ذلك أن يتضمن الامتحان المواد التالية:

- القانون الدولي العام والخاص .
- الأحوال الشخصية .
- الحقوق التجارية .
- التاريخ الحديث والتطورات السياسية .
- الجغرافيا السياسية والاقتصادية .
- موضوع في إحدى اللغات الأجنبية (إنجليزي وفرنساوي)
- وتعطى نمر إضافية لمعرفة أية لغات إضافية أخرى .

11- تكون لجنة المعاينة الخاصة النهائية من :

1- ممثل من لجنة الخدمة العامة رئيسا .

2- ممثل للكلية الجامعية .

3- ممثل للهيئة القضائية .

4- عالم نفساني (دكتور تجاني) .

5- ممثل للخدمة المدنية .

6- نقيب السلك الدبلوماسي الأجنبي .

7- ممثل للخارجية .

12- تتقدم هذه اللجنة بتوصياتها إلى وزير الخارجية (رئيس الوزراء الآن) لاعتمادها فيتم التعيين في السلك

13- يوضع المعينون في المجموعة الأولى ويقرر القطاع لهم حسب مؤهلاتهم وخبرتهم وسنهم والوظيفة التي ستسند إليهم ويعتبرون عادة سكرتاريين ثوالث يلحقون إما بالديوان العام (انظر 4) أو بالبعثات الخارجية القائمة فعلا لاكتساب الخبرة والقيام بالأعمال كما يقررها وزير الخارجية (رئيس الوزراء) .

14- يراعى بقدر الإمكان إسناد الشئون القنصلية (في البداية) إلى البعثات الدبلوماسية ويستخدم اللائقون من هؤلاء كقناصل عاديين تحت رعاية رؤساء البعثات في المناطق التي يشرفون عليها .

15- لا يثبت في الخدمة الخارجية المعينون الجدد إلا بعد مضي عامين من تاريخ التعيين واجتياز امتحان عملي في نظام السلك وأية لغات يطلب منهم تعلمها وفق ما هو مفصل في بند التدريب من هاته اللائحة .

16- يشترط أن يكون التقديم كتابة على الأورنيك التالي :

اورنيك نمرة خارجية ....

طلب التحاق بالخدمة الخارجية السودانية

للمجموعة الأولى : (السلك الدبلوماسي)

يشترط في الطالب أن يكون قد حصل على درجة جامعية أيا كان نوعها

1- اسم الطالب : ....

2- جنسية الطالب : ....

3- تاريخ ميلاد الطالب : ....   دين الطالب : ....

4- محل ميلاد الطلاب : ....

5- محل ميلاد الأب : ....

6- محل ميلاد الأم : ....

7- جنسية الأب : ....

8- جنسية الأم : ....

9- مستوى التعليم الذي حصل عليه الطالب مع ذكر المعهد والبلد الذي تعلم فيه ....

10- الشهادات التي حصل عليها الطالب :

....

....

.... (يجب أن ترفق مع هذا)

11- اللغات التي يحسنها الطالب : قراءة وكتابة : ....

محادثة فقط : ....

12- الوظائف والمهنة أو الأعمال التي التحق بها الطالب بعد تخرجه :

....

13- تاريخ التحاقه بها : ....

14- تاريخ انتهائه منها : ....

15- سبب تركها : ....

16- الوظيفة أو المهنة أو العمل الحالي للطالب : ....

17- الدرجة أو المرتب و الدخل الشهري للطالب حاليا :............................

18- هل الطالب عضو أو شريك أو مساهم في أية شركة أو مؤسسة تجارية أو مالية حاليا وما هو مدى مساهمته أو اشتراكه ومركزه في مجلس إدارتها : ....

19- هل الطالب متزوج : ....

20- إن كان متزوجا :

- تاريخ الزواج : ....

- جنسية الزوجة : ....

- مستوى تعليم الزوجة : ....

- عدد وأعمار الأطفال : ....

21- النشاط الاجتماعي أو الثقافي الذي ساهم فيه الطالب أو اشترك فيه مع ذكر وظيفته في لجان إدارات هذا النشاط : ....

22- المديريات التي زارها الطالب أو تواجد فيها أو عمل بها بالسودان : ....

23- الأقطار الخارجية التي زارها الطالب وأسباب الزيارة : ....

24- الألعاب الرياضية التي يمارسها الطالب : ....

25- هوايات الطالب المفضلة : ....

26- هل قدم الطالب للمحاكمة أو لمجلس تأديب مع ذكر نوع المخالفة والعقوبة والتاريخ :

....

3- يتم اختيار (أ) بطرقة الامتحان والمنافسة و(ب) بالطرق العادية السارية .

4- يتدرج هؤلاء في كادر مجموعتهم – ويجوز لموظفي (أ) بعد مضي ما لا يقل عن سبعة سنوات أن يتنافسوا عن طريق الامتحان للمجموعة الثانية بعد استيفاء شروطها الأخرى .

الفصل الخامس

وظائف الخدمة الخارجية واختصاصاتها

أ- الديوان العام

- الوزير : هو المسئول عن التوجيه السياسي للوزارة وهو المرجع الأعلى فيها ويشرف على أعمالها وله وحده أن يصدر تعليمات ذات صفة تنظيمية أو توجيهية أساسية .
- الوكيل البرلماني : يكون حلقة الوصل بين الوزارة والبرلمان: - الأسئلة والأجوبة المكتوبة والمتوقعة .
- الوكيل الدائم : يتولى الإشراف العام على جميع أعمال الوزارة داخليا وخارجيا ويرأس جميع الإدارات ويراقب مباشرة سير أعمالها وتكون مسئوليته للوزير . ويساعده نائب ومساعد عام أو مدير مكتب .
- الإدارات : انظر جدول التنظيم المقترح بالملحق ( ) للبداية . (انظر لورد استرانق)
- البعثات الخارجية
- السفير أو الوزير المفوض :

1) إن منصب السفير هو أرفع مناصب السلك الدبلوماسي ويليه الوزير المفوض وقد يعهد برئاسة البعثة إلى أيهما أو حتى إلى قائم بأعمال .
2) يتصل برئيس الدولة في الشئون الهامة عن طريق وزير الخارجية .
3) مسئول عن إدارة مكاتب البعثة الخارجية بصفته رئيس البعثة .
4) يكون واسطة المخابرات بين حكومة السودان وحكومة البلاد التي يعتمد لديها ويوافيها بتحليل المواقف السياسية والاقتصادية في القطر المعتمد فيه .
5) يتوسط – حينما يصاب أحد الرعايا السودانيين أو عندما يحتمل أن يصابوا بأضرار في الأنفس أو الأموال – لدى المراجع الرسمية المختصة للمحافظة على مصالحهم والتمسك بحقوقهم وامتيازاتهم .
6) يزود الحكومة السودانية بواسطة المرجع المختص التابع له بالمعلومات القيمة المتعلقة بأحوال التجارة والصناعة والملاحة وغير ذلك من الأمور التي يطلبها وزير الخارجية .

- المستشار :

1) يمدّ سفير البعثة أو الوزير المفوض بمشورته فيما يتعرض من الشئون الهامة التي تحتاج إلى خبرة خاصة .

2) ينوب عن السفير في تلبية الدعوات الرسمية التي توجه للسفير أو الوزير المفوض من القطر المعتمد لديه في حالة عدم تمكن الأول من الذهاب أو تغيبه .

- السكرتاريون :

1) يأتي السكرتير الأول في المرتبة بعد المستشار ثم يليه الثاني والثالث .

- اختصاصات الفنيين :

- الملحق التجاري :

1) دراسة الشئون التجارية عامة في تعمق ودقة .

2) التعاون مع رئيس البعثة والقنصل في عملهما التجاري والإشراف على القنصل في ذلك بأن يرسم له طرق البحث والاستقصاء .

3) وضع التقارير العامة والخاصة عن المعاهدات التجارية واتفاقيات الدفع والشئون التجارية والاقتصادية والمالية والمعارض الدولية والمحلية ، مستعينا بما يمده القنصل من أبحاث في هذا الشأن.

4) مراقبة تنفيذ أحكام المعاهدات التجارية المبرمة بين دولته والدولة المعين فيها.

- الملحق الحربي :

يكتفى في الوقت الحاضر بانتداب ملحق حربي عام في البعثات التي تكون بحاجة إليه ليشرف على النواحي الحربية الثلاث على أن ترشحه وزارة الدفاع .

- الملحق الصحفي :

1) يشترط فيه أن يتقن لغة الدولة المعين فيها ويستحب فيه أن يكون قد مارس الصحافة أو النشر.

2) يستحسن أن تطول مدة خدمته في القطر المعين فيه حتى يلم إلماما تاما بأحوالها وثقافتها وتياراتها السياسية .

3) مهمته مطالعة الصحف وترجمة المقالات الهامة الخاصة بالسودان وتولي الرد أو التوضيح كل ما لزم ذلك .

4) الاستماع إلى الأخبار المذاعة من راديو القطر المعتمد لديه وعرض ما يذاع ضد السودان أو ما هو مغاير للحقيقة على رأس البعثة .

- الملحق الثقافي : (من المعارف)

1) يقوم بالإشراف التام على البعثات التعليمية وشئون إلحاق الطلبة السودانيين الموفدين إلى القطر المعتمد لديه الملحق بالمعاهد وصرف إعاناتهم وتتبع سيرهم .

2) يقدم تقاريره لرئيس البعثة أو للوزارة المختصة عن طريق رئيس البعثة .

3) يشمل تقاريره أوجه النشاط الثقافي عن مؤتمرات الهيئات العالمية وخاصة تلك التي يرى أن يكون السودان ممثلا فيها .

- اختصاص القنصل في الشئون التجارية :

1) إجراء البحوث المحلية من تجارية وصناعية ومعدنية وموافاة الملحق التجاري بها وبكل الدراسات والأبحاث التي يعهد الأخير إليه بها .

2) الإجابة على الاستعلامات الخاصة بأسماء المصدرين والموردين والمتعلقة بالمسائل التجارية والاقتصادية والصناعية والسياحية وتسويق محصولات القطر .

3) الهيئة القنصلية هي الأداة الطبيعية لخدمة التجارة الخارجية .

- القنصل :

1) يباشر القنصل قيد مواليد السودانيين ووفياتهم في حدود دائرة اختصاصه ويحرر عقود الزواج والطلاق للرعايا السودانيين .

2) للقنصل تحليف اليمين وتدوين الإفادات في القضايا المقامة في المحاكم وتعتبر إجراءات هذه كما لو جرت في المحاكم السودانية .

3) يصدر القنصل جوازات السفر ويجددها كما ويقوم بالتأشير على جوازات سفر الأجانب للسودان وفق الأحكام .

4) يعتبر القنصل كاتب عدل بمقتضى أحكام القوانين المختصة .

5) للقنصل أن يستودع الوصايا والوثائق الأخرى ويحفظها في محل مضمون .

6) يقوم القنصل حسب الصلاحية التي يخولها بالمحافظة على أموال السودانيين الذين يتوفون وبمساعدة وارثيهم للحصول على حقوقهم في التركة .

7) يراجع القنصل المراجع الحكومية المحلية لالقاء القبض على المجرمين الذين يطلب استردادهم للسودان .

8) يقوم القنصل بتسفير السودانيين المعوزين إلى السودان مباشرة أو يبذل المساعدة لهم ولا يسوغ له الإنفاق عليهم إلا بموجب التعليمات التي يصدرها وزير الخارجية بهذا الخصوص والمبالغ التي ينفقها بشأن تسفيرهم تكون واجبة الاستيفاء للحكومة .

9) تدفع للقناصل نظير بعض الأعمال التي يقومون بها مبالغ لا تزيد على مجموع الرسوم التي يستوفونها وذلك إضافة إلى رواتبهم على أن يجري ذلك بنظام .

10) يستوفي القنصل رسما عن الأعمال التي يقوم بها والتي يستوفي رسما عنها حسب القوانين والأنظمة المعمول بها بنفس النسبة والطريقة المبينتين فيها ولوزير الخارجية أن ينظم جدولا بها .

الفصل السادس

العلاوات والمخصصات الأخرى

بالإضافة إلى المرتبات الأساسية يمنح موظفو الخدمة الخارجية المنصوص عنهم العلاوات الآتية :

1- علاوة اللبس :

تمنح هذه لموظفي المجموعة الأولى على الأساس التالي :

أ- القيمة الفعلية للزي الرسمي إذا وجد عند التصديق بشرائه .

ب- عند أول التعيين :

- رئيس بعثة درجة أولى : 75 جنيه .
- رئيس بعثة درجة ثانية : 75 جنيه .
- المعينون الجدد للسلك : 50 جنيه .
- كبار الديوان العام : 75 جنيه .
- رئيس البرتوكول : 75 جنيه .

2- علاوة النقل :

للموظفين من البعثات إلى الديوان العام الذين كانوا يتقاضون علاوة تمثيل بمعدل عشر المرتب الأساسي على أن تراعى فيها أحكام ونصوص علاوة النقل المقررة للخدمة المدنية .

3- علاوة الخدمة الخارجية وعلاوة التمثيل وبدل الاغتراب :

أ- تمنح هذه لموظفي المجموعة الأولى بالبعثات الخارجية ويراعى فيها:

- أولا : تكاليف المعيشة الخارجية .
- ثانيا : المصروفات التي يتكبدها موظفو البعثات الخارجية خاصة بالضرورة دون موظفو الديوان العام.
- ثالثا : تكاليف التمثيل التي تفرضها ظروف وظيفتهم في الديوان العام أو الخارج .

ب- يجب أن لا تكون هاته خاضعة لضريبة الدخل في البلاد التي يعتمدون فيها .

ج- تراعى فيها العائلة وعدد الأطفال وتقرر المبالغ على هذا الأساس لكل هيئة خارجية منفصلة .

4- علاوات الخدمة بالديوان العام :

تمنح هاته لبعض وظائف خاصة من المجموعة الأولى للخدمة الخارجية (بالرئاسة للوزير والوكيل الدائم ومدير إدارة المراسم) وللموظفين الذين ينقلون للديوان العام بعد الخدمة بالخارج (البند 2 أعلاهـ) على الوضع الآتي :

أ- علاوة سنوية للضيافة الرسمية .

ب- علاوة سنوية للسكنى في حالة عدم منح سكن .

ت- علاوة سنوية لتعليم أطفالهم إذا لم توجد لهم أمكنة بالمعاهد .

- بدل السفرية :

كنظام الخدمة المدنية باشتراطات خاصة عن طريق السفر وأفراد العائلة وعددهم .

- بدل السكنى :

تمنح لموظفي المجموعة الأولى والثانية للبعثات الخارجية في حالة عدم إعداد سكن رسمي مؤثث لهم وتكون إما على أساس أجر السكن المؤثث أو غير المؤثث للموظف في مقر البعثة بنسب متفاوتة .

- علاوة اللغات :

تمنح هاته لموظفي المجموعة الأولى فقط بعد اجتيازهم امتحانا في اللغات المقررة أو اللغة المحلية في القطر الذي يعتمدون فيه على أن تكون هاته مشمولة في نطاق اللغات المقررة .

- بدل السيارة :

تمنح سيارة حكومية لرئيس البعثة في كثير من الدول ولكن بعضها يكتفي بمنح بدل سيارة فقط تفاديا لتكاليف الثمن والسائق والوقود .

الفصل السابع

(1) التشبيهات المقترحة لدرجات الخدمة الخارجية

1) يقترح أن تكون هاته على الوضع المشابه الآتي للخدمة المدنية كأساس على أن تضاف إليها العلاوات المنصوصة المخصصة .

السفير في المستقبل البعيد بعد تقرير المصير ورفع مستوى التمثيل) - وكيل وزارة دائم

الوكيل الدائم في المستقبل البعيد بعد تقرير المصير ورفع مستوى التمثيل) - وكيل وزارة دائم

رئيس الهيئة في البداية للبعثات الكبرى) - مدير مديرية

الوكيل الدائم) - مدير مديرية

رئيس الهيئة للبعثات المتوسطة من درجة قائم بأعمال أو مستشار) تواً - نائب مدير مديرية

ونائب الوكيل الدائم) تواً - نائب مدير مديرية

مساعد نائب الوكيل الدائم) تواً - باشمفتش مركز

السكرتير الأول) تواً - باشمفتش مركز

السكرتير الثاني) تواً - مفتش مركز

السكرتير الثالث) تواً - مفتش مركز (مساعد)

السكرتير العام بالديوان العام) مستقبلاً - مفتش مركز (مساعد)

الملحق بالسلك من الجدد لحين تثبيتهم) تواً - Q

الملحقون الفنيون - حسب درجاتهم التي يشغلونها مع إضافة مخصصات الخدمة الخارجية

رؤساء القلم الإداري بالرئاسة = يشغل هذه في البداية المعينون الجدد بقصد مرانهم والاستفادة منهم في الوقت ذاته على أن يساعدهم موظفون من المجموعة الثانية حسب الحاجة .

الكتبة والمحاسبين - حسب نظام الخدمة المدنية .

رئيس التشريفات - يبدأ Q ويستحسن أن يعهد بها في البداية إلى أحد المعينين في Q للتدريب أو التخصص إذا أرتضى أن يتدرج فيها لحدها الأقصى .

شيكوسلوفاكيا
المجر
ايطاليا
اليونان

- التوصيات المباشرة

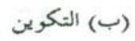
- أن يعين: -

أ- للديوان العام:-

العدد	المجموعة	الوظيفة	ملحوظات عن الميقات
1	سياسية	وزير خارجية	مستقبلا بعد تقرير المصير
1	سياسية	وكيل وزارة برلماني	مستقبلا بعد تقرير المصير
1	الأولى	وكيل وزارة دائم	مستقبلا بعد تقرير المصير وعند بدء التمثيل الخارجي ورفع درجته
1	الأولى	نائب وكيل وزارة دائم	توا
1	الأولى	مساعد وكيل وزارة دائم	توا
1	الأولى	مدير مكتب أو سكرتير عام	مستقبلا
5	الأولى	سكرتاريون ثوالث	يختارون من الملتحقين الجدد بالسلك للتدريب في الإدارات الداخلية بالرئاسة (أ-ب-ج-د-ز) توا
1	الأولى	سكرتير ثالث للمراسم	يختار من الملتحقين الجدد بالسلك للتدريب في الإدارات الداخلية بالرئاسة (ج) توا
2	الثانية	كتبة مدربون لشئون الموظفين والميزانية	بالانتداب من المالية أو الداخلية
1	الثانية	مترجم له إلمام بلغات	يعين توا أو يعهد بها إلى أحد السكرتيرين الثوالث إذا توفرت شروطها فيه
1	الثانية	محاسب مدرب للحسابات والتوريدات	بالانتداب من الوزارات
3	الثالثة أ	كتبة وطابعون على الآلات الكاتبة عربي وإنجليزي	توا
5	الثالثة ب	حفظة الأمن وفراشين ومراسلات وسائقي سيارات	بمجرد تعيين الوظائف المشار إليها توا

هذا يعني الحاجة المباشرة إلى :-

1 مساعد لنائب الوكيل الدائم .



(ب) التكوين

الديوان العام

وزير الخارجية (سياسي)

القسم القانوني
(يشرف عليه مستشار الحكومة)

الوكيل البرلماني (سياسي)

الخدمة الخارجية

الوكيل الدائم (مستقبلاً)

نائب الوكيل الدائم (توآ)
مساعد الوكيل الدائم (توآ)

سكرتير عام أو مدير مكتب (مستقبلاً)

الترجمة
الكتبة
الرموز
المحفوظات

الحسابات
التوريدات والميزانية

شئون الموظفين
والزيارات

المراسم
والمعاهدات (الآن)
والبروتوكول (الآن)

المؤتمرات
مستقبلا (مكتب الجوازات

القنصليات

القسم السياسي (واحد الآن)

أفريقيا

شرق أوسط وأقصى

آسيا ودول مؤتمر باندونق

أوروبا

الأمريكتين

البعثات الخارجية

I
لندن

I
مصر
وليبيا

II
إثيوبيا

I
لبنان
وسوريا
والعراق
والأردن
وإيران

II
المملكة العربية
السعودية
اليمن
عدن

I
الهند
الباكستان
اليابان

I
المانيا
بلجيكا
فرنسا
روسيا

I
أمريكا
هيئة الأمم

II
الكنغو
السودان الفرنسي
نيجيريا
يوغندا
ليبريا

5 سكرتاريون ثوالث جدد أحدهم للبرتوكول (المجموعة الأولى) للتمرين والاستفادة منهم ريثما يلحقون بالبعثات عند فتحها بعد إعلان الاستقلال .

1 مترجم يحسن عدة لغات ويستفاد منه في الأعمال .

3 كتبة ومحاسب بالانتداب .

3 طابعون على الآلة الكاتبة ومختزلون .

ب- للبعثات القائمة والتي ستحدد : -

مقر البعثة	البلاد المعتمد فيها	التمثيل			ملحوظات
		العدد	المجموعة	الوظيفة	
القاهرة	مصر وليبيا وجامعة الدول العربية				قائمة توسع بالحاق: 1 سكرتير أول 2 سكرتير ثوالث للتدريب
لندن	بريطانيا				قائمة يلحق بها: 1 سكرتير أول 5 سكرتيرون ثوالث للتدريب 3 ملحقون
جدة	المملكة العربية السعودية – اليمن – عدن			قائم بأعمال	قائمة يلحق بها : 1 سكرتير تالث للتدريب
أديس أبابا	أثيوبيا واتحاد اريتريا			قائم بأعمال	قائمة يلحق بها : 1 سكرتير ثاني لأسمرا 1 سكرتير ثالث للتدريب
بيروت أو دمشق	لبنان – سوريا – العراق – الأردن – إيران				بحسب الضرورة والإمكانات بمجرد إعلان تقرير المصير (الاستقلال)
دلهي	الهند – الباكستان – اليابان – دول جنوب شرق آسيا – إندونيسيا – الفلبين – سكرتارية دول باندونق				بحسب الضرورة والإمكانات بمجرد إعلان تقرير المصير (الاستقلال)
واشنطون	هيئة الأمم المتحدة والولايات المتحدة				بحسب الضرورة والإمكانات بمجرد إعلان تقرير المصير (الاستقلال)
بون	المانيا – بلجيكا – فرنسا – روسيا				بحسب الضرورة والإمكانات بمجرد إعلان تقرير المصير (الاستقلال)
روما	شيكوسلوفاكيا – المجر – ايطاليا – اليونان – تركيا				بحسب الضرورة والإمكانات بمجرد إعلان تقرير المصير (الاستقلال)
؟	الكنغو – يوغندا- السودان الفرنسي – نيجريا – ليبريا			قنصليات	بحسب الضرورة والإمكانات بمجرد إعلان تقرير المصير (الاستقلال)

بالإضافة إلى ما ذكر سابقا ، هذا يعني تعيين :

4 قائمون بأعمال الآن .

2 سكرتيرون أول
1 سكرتير ثاني
9 سكرتيرون ثوالث
3 ملحقون

نهاية وثيقة المشروع الذي تقدم وقامت على أساسه خدمة السودان الخارجية

2- ملخص خطاب السيد/ إسماعيل الأزهري في مؤتمر باندونق 1955

نقلا عن مجلة المؤتمر

تضمن خطاب الرئيس إسماعيل الأزهري ، رئيس وفد السودان ، ما يلي :

إنها لمناسبة سعيدة حقا أن يكون الاندفاع الأول للسودان الجديد نحو العالم الخارجي ، وقد أصبح على عتبة حياة وطنية كاملة الحرية ، هو اشتراكه في هذا المؤتمر التاريخي العظيم . وإذا كنا نتمتع اليوم بأكمل الحرية في تسيير شئوننا الداخلية الخاصة فإن هذا المؤتمر يمهد لنا أرضاً جديدة ، ويسجل الدلالة الأولى على ممارستنا لسيادتنا الخارجية واستقلالنا .

ولقد أحسن رؤساء الدول الداعية صنعا عندما قرروا أن قبول أي بلد الدعوة إلى هذا المؤتمر لا يتضمن أي تغيير في نظرها إلى وضعية أي بلد آخر ، وأنه لا يتضمن أكثر من الموافقة على أهدافه .
ونحن نرى أن جدول الأعمال المؤقت الذي وزع مقدما تضمن جميع المواد التي يجب أن تثار . ولهذا فأننا لا نحاول توسيعه باقتراح مواد جديد ، بل أننا نحاول تضييق مدى بنوده الرحبة قصد الظفر بمناقشات مثمرة والوصول إلى نتائج محسوسة .

إن مشاكل الاستعمار والتسلط الخارجي التي أثارت اهتماما عميقا لدى عدة أمم في آسيا وأفريقيا ، لهي من الأمور التي تستدعي عملا جماعيا وتعاونا مخلصا . وليس مصدر ذلك الشعور غير الودي تجاه أي بلد معين ، بل أيماننا بالعدالة الطبيعية واحترامنا لحقوق الإنسان المكتسبة ، ووحي شعوبنا والعمل بموجب تقاليدنا التي تعزز الحرية . ولا يستطيع أحد أن يغالي في تأكيد الحقيقة القائلة بأن المصاعب الاقتصادية يمكن أن تؤدي إلى قبول مساعدة خارجية بشروط وقد تهدد تماما الحرية والسيادة الوطنيتين . واكتفاء بنصيبنا ، وكوننا منساقين بالرغبة الصادقة في حفظ حقوقنا ورفع مستوى المعيشة بين مواطنينا فإننا نستطيع أن نعلم هذا العالم المضطرب أن المقاصد السليمة والتعاون الشريف يمكن أن يؤتيا ثمارهما . وبعملنا هذا سوف نقيم مثلا حيا ، وأخوة حقة بين المجتمع الدولي .
وفي مضمار الثقافة نستطيع أن نخلق مجالا لنشاطنا الثقافي . وبهذا نزيد ثروة الإنسانية الفكرية ، وتكون مساهمتنا مظهرا لحياتنا العملية ونتاجا لتاريخنا الخاص حين كانت قارتانا تنيران العالم في الدين والعلم والفن والفلسفة . ويتيسر تحقيق هدفنا إذا تهيأت لنا المزاوجة بين معلوماتنا وبحوثنا وتجاربنا . ونستطيع أن نكسب كثيرا عن طريق تبادل الطلاب .

أما بالنسبة لمساهمتنا نحن السودانيين المتواضعة في خدمة أغراض المؤتمر ، فنحن في السودان ، بحكم موقعنا الجغرافي بين آسيا من جهة وبلدان البحر المتوسط من جهة ثانية ،وأفريقيا من جهة ثالثة ، نستطيع أن نعاون بوصفنا وسيطا ممتازا لنقل الحركات الفكرية .

3- نماذج رسائل الشيخ قريب الله والشيخ الفاتح قريب الله:-

بسم الله الرحمن الرحيم

اما بعد من الفقير اليه تعالى قريب الله ابن صالح عفى عنه

اما بعد من الفقير اليه تعالى قريب الله ابن صالح عفى عنه
الى ولدنا الاديب خليفة احمد بن الشيخ العباس رعاه الله تعالى
كل مسوء وبأس السلام عليك والرحمة وقد وصلني خطابك
الذي يدل على ذكائك وحسن وفائك وقد شكرت الله تعالى على
مانحته وجزى الله والدك خيرا فانه قد خدمك بعد ان كان سببا
في وجودك من عدمك ولا تجعل لما نذرته هما بعد خدمتك في [illegible]
فان ما يعود اليك عائد الي ولا ترى شفقتي عليك وحبي لك
الا كشفقة ابيك عليك وحبه لك فنجاحك وكونك على خطة
مرضية اكبر فائدة تعود الي منك وعلى ذلك احثك واوصيك
واولى ذلك محافظتك على المفروضات الدينية وبعدك عما
يشين سمعتك من عدم مخالطتك لابناء السوء وان [illegible]
تخرج اباك مهما بلغت والا تتصرف فيما لك الا باذنه ولا تاخذ منه
الا على قدر الضرورة وما بقى تحفظه فيه فانه ادرى بمصالحك
لانه يعلم يقينا ان لم يكن لك ما يكفيك ستكون عالة عليه
وامامك زوجة ومنزل ونفقة وولد بحسب ما سبق
اذ لا هذه وصيتي لك فاحفظها تحفظا وتجد [illegible]
ان شاء الله تعالى ما وعدت ولا اعلى ما ارضى ولا
بأس ان تتصدق في اول مال يدخل عليك على
جدتيك عائشة وفاطمة بما تيسر فان ذلك سبب
للمزيد زادك الله والسلام

الصورة لأول رسالة خطية تسلمتها من مولاي الشيخ قريب الله عند توظيفي بالسكة حديد (1933)

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

سيدنا محمد

وبعد فالى الشاب الاديب والابن المبارك من في مودته لا يشارك

خليفه افندي عباس حفظه الله وتولاه اليه من ازكى التحيات

وزائد الاشواق هذا وارجو ان يجدك كتابي كما اوده لك وزياده وقد وصلت

الجماعه بخير ووجدت الاهل كذلك لا سيما بنت الباشا فانها صحتها في تقدم

ان شاء الله واني لشاكركم داعيا الله ان يحفظكم من شر من انتم معهم

وقد كنت لا اجهلك يا بني المودة ولكن تلك الايام زادتني فيك معرفة والسفرت

... جدكم وتحققته عيانا [illegible]

اما الخليفة ذو علم ومعرفة انعم بذلك واكرم خلقه الحسنا

زاده الله معرفة ورفعة ولا زلت اكرر وصيتي لك في ان تترك البرنيطه

لتكون مع هولاء القوم بظاهرك فان من اخلص لله تولاه ومنعه

من تصرف المخلوقين ومتى ما العبد قدس اوامر ربه اجله وجعله في عيون

الخلق مهيبا او تقدوره اذكر الله في الرخا يذكرك في الشده واني لا اتمنى من الله

ان اراك على مركز سامي بلغ مزيد سلامي للشيخ ابو زيد وكافة اخواننا

الفقرا وابلغهم عن جزيل تشكراتي وتقديري لعكف عنايتهم بنا [illegible]

آخر سلامي للاخ الفاضل زين العابدين واخبره باني لا انسى وصيته فانه

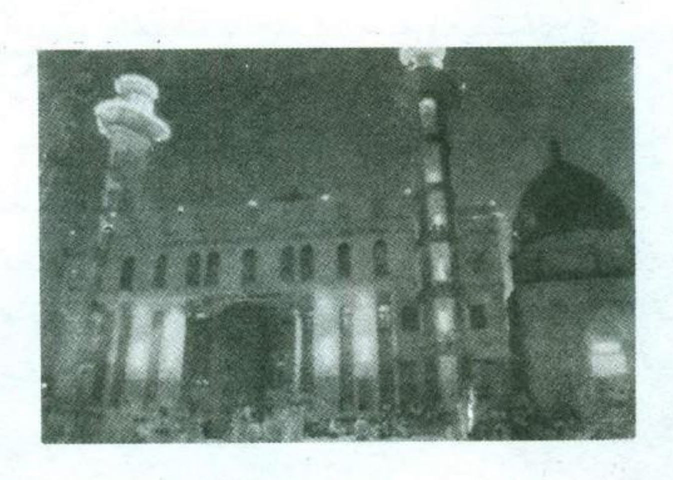
الاخ الفاضل ودمتم للمخلص

المخلص

الشيخ قريب الله

واحدة من الرسائل التي كانت تردني تباعا من مولانا الشيخ محمد الفاتح الشيخ قريب الله منذ الثلاثينيات وحتى الثمانينيات

4- القصيدة التي ألقيتها أحدى أمسيات الاحتفال بافتتاح المسجد النموذجي الجديد (مسجد الشيخ قريب الله بود نوباوي) بطوابقه الخمس وعمارة الضيافة التي شيدها الشيخ الخبير جزاه الله خيراً داخل سور المسجد .



تحـــــية

من (السفير) الفقير الشيخ خليفة عباس العبيد (باجيلي)

منال من أهوى جعلت فداك ... متى تصرمي عني حبال جفاك

عشقتك طفلاً وأستبد و لم يزل ... يبرح بي بعد المشيب هواك

أحاطك رب العرش بالطهر والتقى ... ومن فيض أنوار الجلال كساك

وحفت بك الأملاك في عرصاتها ... تعانق للذكار حول فناك

وألبسك المولى وقاراً وهيبة ... وبالمسجد المعمور زان بهاك

مآذنه تعلو القباب تزينها ... وقبة شيخي حلية لحلاك

منار هدى أحيا الإله مزارها ... وأعلى لما فوق السماك ذراك

ويكفيك من إمداد شيخي أنه ... بكاسات خمر الخندريس سقاك

وأهدت لك الأوراد أقباس جذوة ... أضاءت بنور الذاكرين دجاك

وأحيا لك الشيخ القريب ونجله ... ورد لك الشيخ الحفيد صباك

***

ولما أراد الله أن تتزيني ... أعاد لنا الشيخ الخبير بناك
فأهدى لنا من رائع الفن تحفه ... ملكت بها ما لم يحزه سواك
وميزت بالخمس الطباق مراقيا ... وسردابك المخفي تحت ثراك
وشيد صرحاً للضيافة باذخاً ... سيأتيه من فضل الإله قراك
بنى السور لوحات صقال تماسكت ... كأن لم تكن قد صممت لفكاك
إذا أوصدت لم يستبين أحد بها ... مواضع يفضي سمكها لحباك
لتفتر عن أقواس نصر تفتحت ... لمن جاء يسعى عبرها ليراك
وزينها بالنيرات تخالها ... عناقيد در علقت بسماك

***

وفي ليلة الذكرى لتجديد عهدها ... وتمجيد من للعالمين براك
دعا الحسن الشيخ المجدد قومه ... يرون بها ما قدمته يداك
فلبى رجال الدين والعلم والحجى ... ورددت الآفاق رجع صداك
ولو أذنت مصر لحقق شيخها ... بتشريفه للإفتتاح مناك
ولكن رب البيت آثر أهله ... بأن لا يؤم الناس غير فتاك
ومشيخة الصوفية إقتاد وفدها ... يوشج بالقربى وثيق عراك
ومن عالم الإسلام أمتلك صفوة ... حداها لتدعيم الصلات نداك
سعى وزراء الوقف طرأ وأكبروا ... لما أنعم المولى به وحباك
وإقبال أرباب الطرائق كلهم ... دليل على التأييد من رصفاك
فصرت لإتباع الطريق مثابة ... وأمناً ومشكاة تشع ضياك
ومصدر إشعاع لدنيا تطورت ... بتطبيقها ما إستحدثته رؤاك
وأمنت للطلاب مأوى ومطعماً ... ودارت لإكرام الضيوف رحاك
وفجرت درس العلم والدين منهلاً ... تغوص به للواردين دلالك
وألقت قيادات الطريق قيادها لتقفو ... على درب الطريق خطاك
وقادت لركب السالكين طريقنا ... على منهج السمان نار هواك
فبورك من سواك آية عصره ... وكالجوهر الفرد النفيس جلاك

ستخفق أعلام الوفاق وتلتقي   وتحتشد الرايات تحت لواك

***

فيا أهل ودي أن تكونوا نسيتمو   أنا الموجع الشاكي أنا الثاكل الباكي

ويا دار أهلي أن شدوا فيك منشد   يؤرقني شوقاً حننت لمغناك

وأن حيعل الداعي تمنيت أنني   ألبي - من الجيلي البعيد - نداك

صلي حبل ودي دار جدي بوصل من   لتجديده عهد الوصال أتاك

أتى لائذاً مستشفعاً ومؤملاً   لتغمره أمواه فيض نداك

فيسلك درب القوم لله مخبتا   يجوز رضى المولى به ورضاك

***

وصلى إله العرش عدّ كماله   وبارك بالتسليم للمجتبى الزاكي

شفيع الورى خير الأنام محمد   وآل وأصحاب ورسل وأملاك

جزى الله من أحيا لذكراك نفحة   ينال بها حسن الختام فتاك

وحمداً وشكراً للذي عم فضله   لكل مريد يهتدي بهداك

***

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الأمين

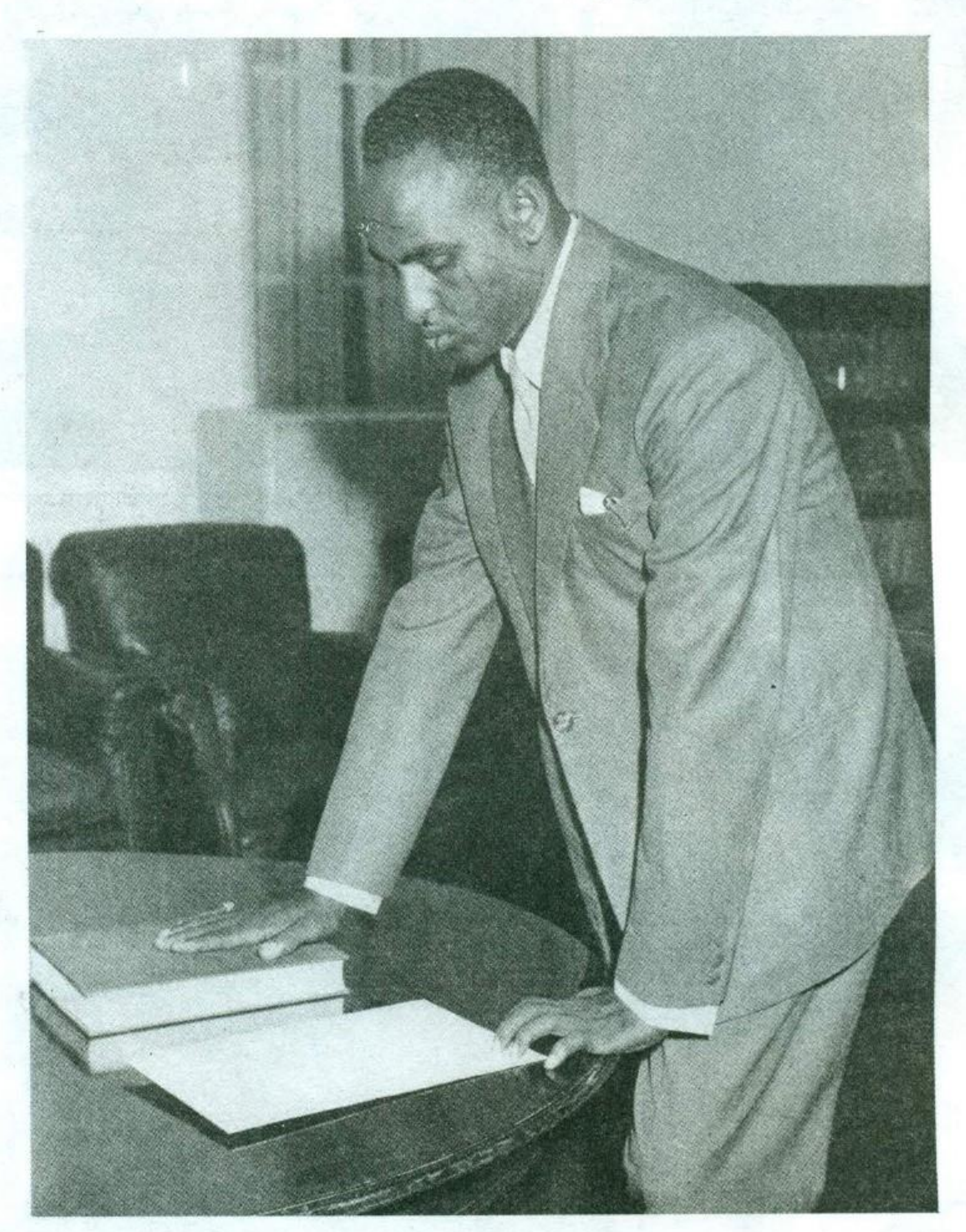
وكل ذكرى وأنتم بخير

شعبان 1417

ديسمبر1996

5- مجموعة صور في مناسبات مختلفة:-

هذا قسم وإن تم تم في مناسبة رسمية خاصة إلا أنني قد أضمرت وآليت وأنا اؤديه أمام الله أن أجعله عهدا وميثاقا دائما أحرص على أن أبره وأرعاه سائلا الله سبحانه أن يعينني لاؤديه ولألتزم به ما استطعت في كل عمل اقوم به أو يوكل إلي ... وبه التوفيق .



ما لي سوى الله في الدارين من سبب   إلا الشهادة أبديها وأعليها

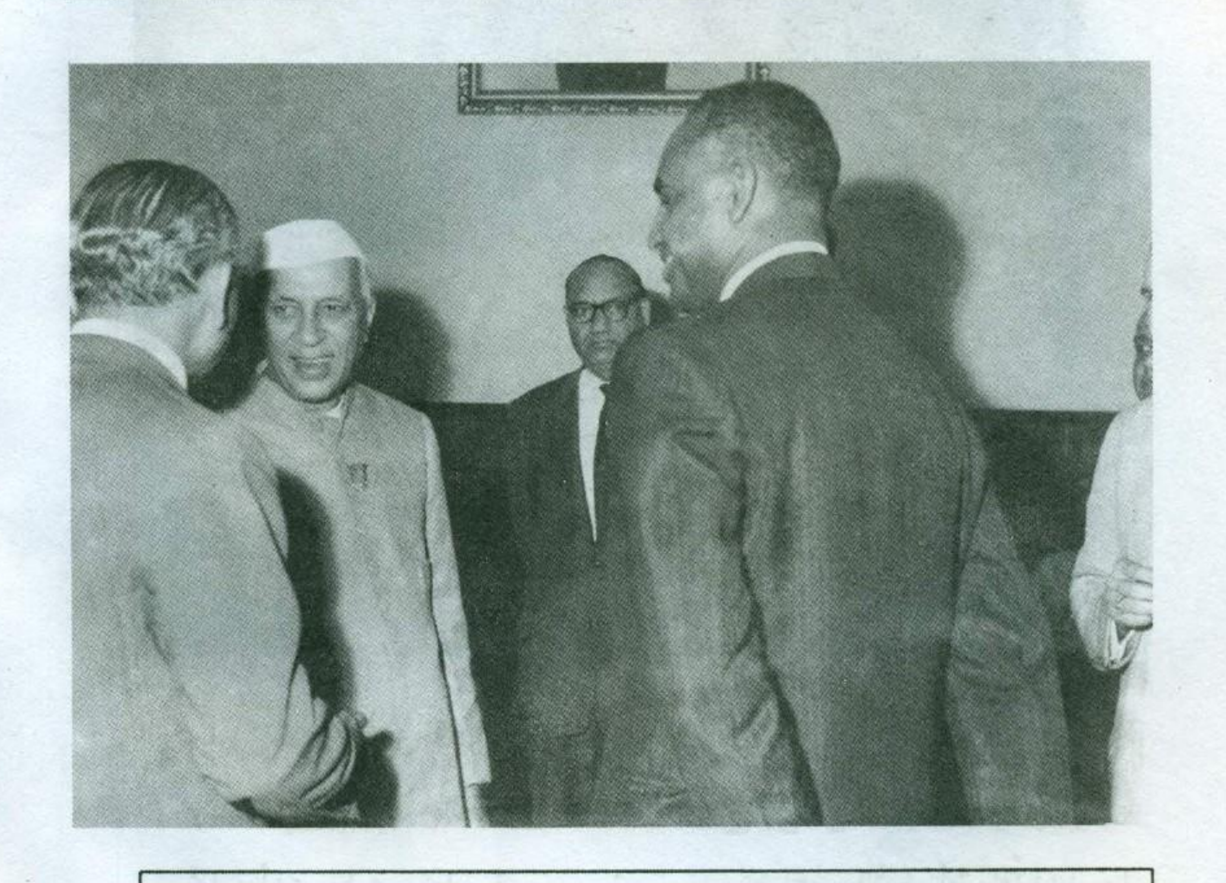
وديعة لي عند الله خالصة   عن كل من لا يؤديها أؤديها

تجارة أشتريها غير خاسرة   تضاعف الأجر أضعافاً لشاريها

دلالها المصطفى والله بائعها   لمن يشاء وجبريل مناديها



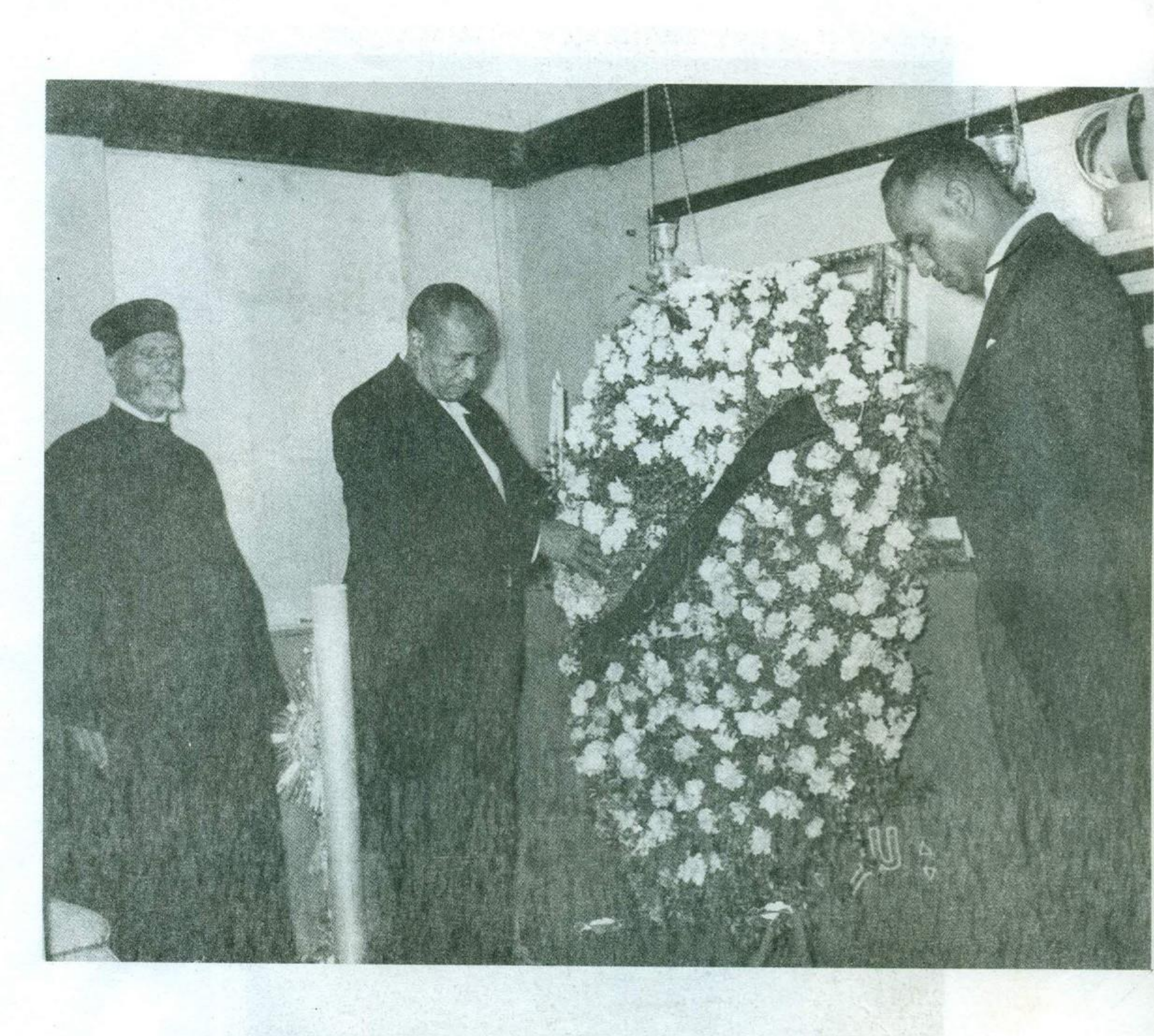
مع السيد عبد الحكيم عامر نائب رئيس جمهورية مصر العربية



مع جواهر لال نهرو



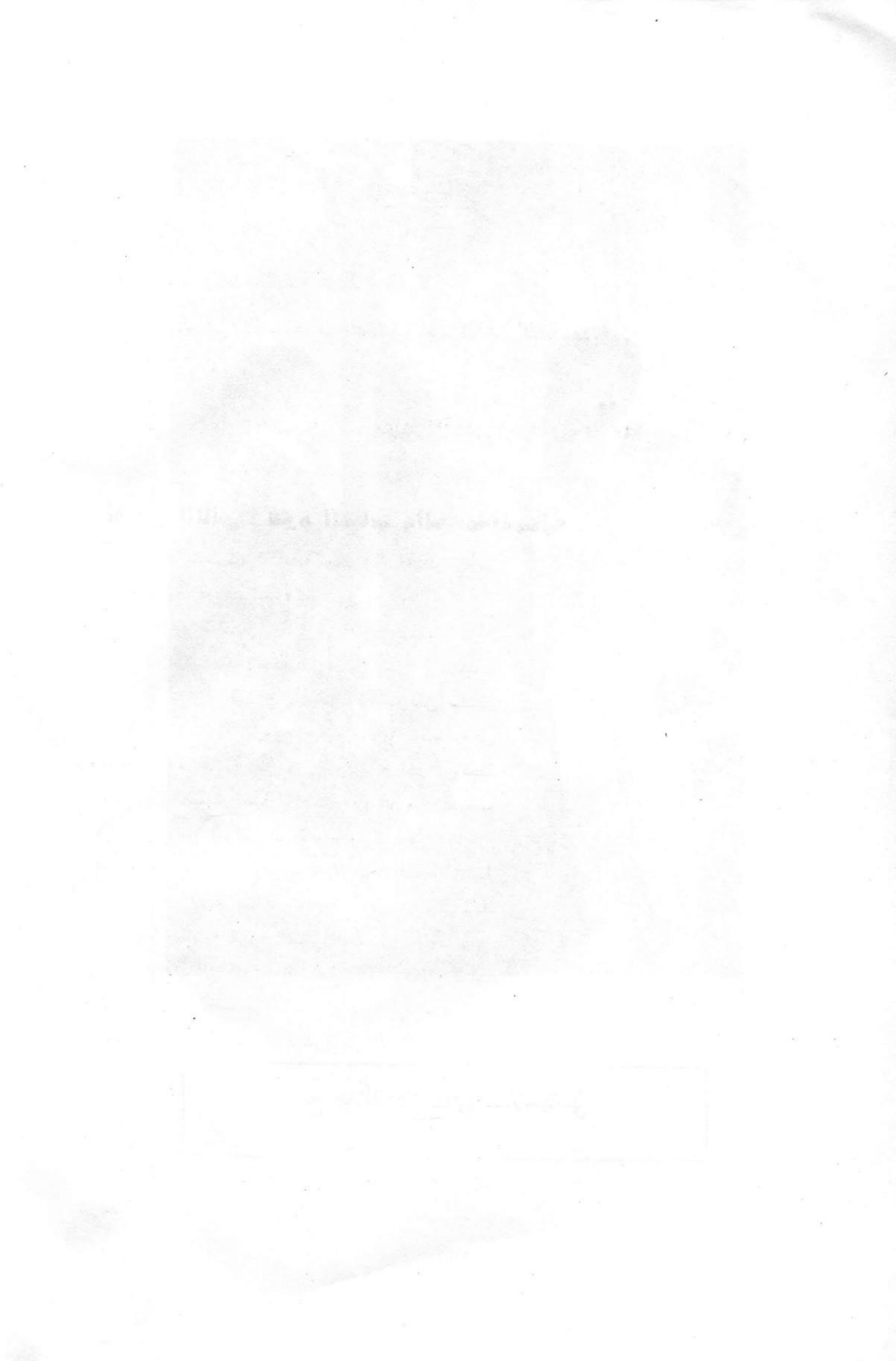
بعد منحي وشاح نجمة أثيوبيا العظيم 1967



مع عبد الله خليل عند وضع أكليل من الزهور على قبر الأمير دوق هرر الذي أبنته بمرثية شعرية نشرت أصلها وترجمتها إلى العربية والأمهرية والتقريتية بأديس أبابا وأسمرا



مع جلالة الامبراطور هيلاسلاسي



بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

مركز محمد عمر بشير
للدراسات السودانية

ت : ٥٦٦١٦٢   + ٢٤٩ - ١٥ - ٥٧٠٣٥٢

السفير خليفة عباس العبيد

أشتات الذكريات

لفترة جاوزت الثمانين عاما عبر دروب الحياة

مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية

2004

- ولد بالجيلى عام ١٩١٥م والتحق بالمدارس العليا - كلية غردون وحصل على دبلوم كلية الآداب ، أسهم فى النشاطات الإجتماعية والوطنية والثقافية ، ترأس عدداً من اللجان الفرعية لمؤتمر أندية الخريجين.
- عمل بالسكة الحديد وسودن وظائفها العليا ، أختير لوكالة الشؤون الخاصة (العلاقات الخارجية) خلال فترة الحكم الذاتى، كان عضواً وسكرتيراً لوفد السودان إلى مؤتمر باندونق ، مهد لإنشاء وزارة الخارجية.
- عين ضمن أول خمسة سفراء سودانيين عند الإستقلال ، عمل نائبا للوكيل الدائم ، عمل سفيراً للسودان فى أثيوبيا والعراق والأردن ولبنان وتركيا والولايات المتحدة الأمريكية ، عمل خبيراً دبلوماسيا لدولة قطر فى سفارتيها فى لندن وباريس.
- عمل رئيسا لمجلس إدارة بنك أم درمان (العثمانى-الأثيوبى) عند تأميمه (عام ١٩٧٠م) .
- أجيز شيخاً فى الطريقة السمانية.
- يقضى فترة تقاعده بالمعاش بين عشيرته ومزرعته فى قريته بالجيلي حيث والى إسهاماته المحلية متفرغاً للقراءة والكتابة والبحث.

مركز محمد عمر بشير
للدراسات السودانية
جامعة أم درمان الأهلية
ص . ب : ١٣٦٣
أم درمان - السودان
فاكس : ٥٧٠٧٥٢ - ١٥ - ٠٠٢٤٩